بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله، والشُّكر له علىٰ توفيقه العام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلىٰ الله وسَلَّم عليه وعلىٰ آله وصحبه هداة الأنام ومصابيح الظلام.

أما بعد:

فإنَّ اهتمامَ المرء بالأدب واتصافَه به مما يتميَّز به عن أقرانه؛ نظرًا لما يَحويه بين جنبيه من نوادر المعلومات، وجميل الألفاظ والعبَارات، فيكون له من نفسِه مُؤنسٌ، كما يستأنس به الآخرون ويستلذون بجميل حديثه ونَدِيِّ مجلسه، فلا تعتريه وحشة، ولا تُداهمه وحدة.

بل إنه في الوقت الذي ينزوي فيه أُناسٌ -قد كَبِرَت أعمارُهُم- إلىٰ زاوية من زوايا النسيان، تجد أنَّ صاحبَ الأدب المتزوِّدَ منه في قمةِ عطائه، مستأنسًا بمن يلتف حوله من الناس علىٰ اختلاف أعمارهم ومآربهم، فهذا يسأل عن حادثة، وذاك ينشد فائدة، وآخر يستفيد منه في معرفة طريقته ليعمل نحو عمله.

وهذا الكتابُ محاولة لإبرازِ عملٍ ينضَمُّ إلىٰ قافلة الكتب الأدبية، لا يدَّعي كاتبُه أنه جاء بجديد؛ لأنَّ الكتب الأدبية التي تهتم بأخبار العرب وذكرِ أيامهم وما حدث في تاريخ حياتهم من الوقائع والأحداث، كثيرًا ما تكون عملًا مستفادًا مما سبقه، وصورةً مكررة لما تقدَّمها، وقد تختلف عن غيرها من ناحية طُول الكتاب وقِصَره، وطريقة ترتيبه، واختلاف تبويبه، وإضافة بعض الوقائع حسب ما يقتضيه تبويب الكتاب.

وبابُ الأدب الموروث عن تاريخ العرب علىٰ مرِّ الليالي والأيام قبل أن تدخل العادات الدخيلة علىٰ المجتمع مما لا بُدَّ أن يُهتم به، فإنَّ الاهتمام به ودوامَ مطالعته

مما يُعين المرءَ علىٰ اكتساب الأخلاق والآداب، واتساعِ المَدارك، واستقامةِ السلوك، وتقويمِ اللسان العربي كتابةً ولفظًا، وهذه الأمور من الفوائد التي تستحق أن يجتهد المرءُ في تحصيلها حتىٰ لو كان ذلك علىٰ حساب راحته؛ لأنه إن حصَّلها فإنه حينذاك سيستلذُّ طعمَ الرَّاحة.

علىٰ أنه -ومن الجَدير بالذِّكر- أنَّ الكتبَ الأدبيَّةَ علىٰ الرغم مما تُضفِيه علىٰ قارئها من الأنس والبهجة، إلا أنه يَعتَريها بعضُ المُلاحظات المهمة التي لا بدَّ من التَّنَبُّه لها والتنبيه عليها:

أولًا: أنه علىٰ الرغم من كثرة ما تُورده كتب الأدب من الأحاديث النبوية، إلا أنها في الغالب لا تهتم بصحة ما تذكره من الأحاديث المنسوبة للنبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتذكر كلَّ ما اشتهر بين الناس من الأحاديث دون التمييز إن كان الحديث صحيحًا أو ضعيفًا أو باطلًا.

وهذا من الأخطاء العظيمة والأخطار الجسيمة، حيث يُنسَب إلىٰ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما لم يثبت عنه، ونسبة الحديث للنبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نسبة إلىٰ الشرع، لأن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبلِّغٌ عن ربه عَزَّ وَجَلَّ، وقد قال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ كذِبًا عليَّ ليس ككذبٍ علىٰ أحَد، فمَن كذَب عليَّ متعمِّدًا فليَتَبَوَّأ مقعده من النار**»[1]، ومن هنا تتضح لنا خطورة هذا العَمَل.

وكُتُب الأدب مملوءة بالأحاديث الضعيفة والموضوعة والمكذوبة علىٰ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولعل من أبرز أسباب ذلك أنها كتب لا تهتم بصحة الإسناد؛ بل تكتفي باشتهار الحديث بين الناس، أو لأنَّها تعتمد علىٰ ما سبقها من المؤلفات فتنقل ما فيها من الأخبار ظنًّا منها أنها صحيحة.

ثانيًا: يكثر في كتب الأدب نسبة بعض الوقائع إلىٰ بعض الأخيار والأفاضل،

---

(١) رواه البخاري (١٢٠٩)، ومسلم (٥).

وبعضُ هذه القصص ونسبتُها إليهم مما لا يليق بمنزلتهم السنية، وعدالتِهم التي ثَبَتَت لهم واشتهروا بها بين الناس، كأن يُنسَب إلىٰ بعض الصحابة أو التابعين أنه كان يستمع الغناء ويطرب له، ونحو ذلك مما لا يليق ولا يُستَحسَن ويأنف منه أصحاب المروءات، وهي قصص خالية عن السَّند الصحيح.

ولعل ما دفع بعض الأدباء لإيراد أمثال هذه القصص، ما أشرت إليه آنفًا من نقل المتأخر عن المتقدم دون النظر إلىٰ صحة ما أورده في كتابه، ولذلك تكررت هذه الأخطاء.

وهذا الكتابُ محاولةٌ متواضعة لتقديم عملٍ أدبيٍّ قد استفاد من جميل ما ذكَرَتْهُ كتبُ الأدب التي سبقت، لكن شريطةَ ألَّا يُذكَر فيه من الأحاديث إلا ما صحت نسبته إلىٰ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، حتىٰ لا ينسب إليه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ما لم يَثبُت عنه.

كما أنني تحرَّيت عند إيراد القصص المذكورة في هذا الكتاب -عمَّن سبقنا من القرون والأمم- أن تكون مَقبُولةً عند المُتَلقي فَهمًا وإدراكًا واعتدالًا؛ لأنه ومما لا يخفىٰ أنَّ كثيرًا من القصص التي تذكرها الكتب الأدبية قد يعتريها الشطط في الألفاظ أو السياق، فاجتهدت حسب المستطاع أَلَّا أسُوقَ في هذا الكتاب إلا ما يستفيد منه قارئُه، من أجل ألا يخرج الكتاب عن الهدف الذي وضع من أجله.

وحسبي أن يكون هذا الكتاب مما يُعِين علىٰ تصحيحِ السلوك، وتقويمِ اللِّسان العربي، وتنمية المعلومات، ويكون كتابًا أدبيًّا يقدمه المرءُ هديةً لأهلِ بيتِه وأحبابه ويضعه بين أيديهم دون تحَرُّج، وأن يُحيل عليه المرءُ دون الخوف من أن يكونَ فيه حديثٌ مكذوب أو ضعيف، أو قصةٌ تخرج عن الآداب الإسلامية، أو السلوكيات التي يتفق عليها العقلاء.

ولا يفوتني وأنا أقدم هذا الكتاب بين يديك -أخي وأختي- أن أوصيك بوصية غالية أشار إليها من سبَقَنا من أهل الفضل، وهو أنك إذا أردت الاستفادة مما حواه

هذا الكتاب من قصصٍ وتجارب وعِبَر، فعليك بتأمُّلِ ما فيه حالَ فراغِك وبَحثِك عن أنيس لمجلسك، وأن تتحرىٰ حين النظر فيه راحةَ فكرِك، وتخلصَك مما يشوش عليك ذهنَك، فإنَّ ذلك مما يُعِينُك علىٰ الفَهم والإدراك.

قال مُنذِر بن الجارود لابنٍ له يوصيه: «أعمِل النظر في الأدب ليلًا؛ فإنَّ القلب بالنهار طائر، وهو بالليل ساكن، فكلما أوعَيتَ فيه شيئًا عقله»(١).

وعليك بفَهم ما تقرؤه حتىٰ تتحقق لك الفائدةُ التي تطمح إلىٰ الوصول إليها من خلال قراءتك، **فقد قال أهلُ الأدب**: «الفَهم خزانة العقل، ونور يُبصر به ما أمامه، وإنما نكص علىٰ عقبيه مَن خانه فهمه، وخذله عقله، وضيَّع ما استودعته الأيام، فكأنه ابن يومه، أو نتيج ساعته، وحسبك مؤدبًا لخصالك، ومثقفًا لعقلك، ما رأيته من غيرك من حَسَنٍ تُغبَط به، أو قبيحٍ تُذَمُّ عليه»(٢).

هذا وأسألُ اللهَ تعالىٰ أن ينفعَ بهذا العمل مَن وقف عليه، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

كتبه
الدكتور سالم العجمي
عضو هيئة التدريس بكلية الشريعة
جامعة الكويت

---

(١) «لباب الآداب» لابن منقذ (ص٢٢٩).

(٢) «لباب الآداب» لابن منقذ (ص٣٢٦).

فضل الأدب

إن من تمام مِنَّةِ الله علىٰ أمة الإسلام: أن وفَّقها لأهدىٰ طريق وأقوم سبيل، وجعل لذلك الطريق علامات تهدي إليه وتدل عليه، من تمسَّكَ بها ظَفِر وفَاز، وتميَّز علىٰ أقرانه غاية الامتياز، ومن ضَلَّ عنها فاته خير كثير، وتردىٰ في ظلمات الجهل والتقصير.

ومن تلك العلامات الهادية إلىٰ ذلك الهدف المراد: التمسك بالآداب الشرعية، التي دلت عليها نصوص الشريعة، واتصف بها العقلاء في كل زمن، من جملة الآداب التي بلغت بهم ذُرَا المجد ودرجات السؤدد.

فتعلم الآداب من الأمور المطلوبة شرعًا وعُرفًا، والأدب يكون باستعمال ما يحمد قولًا وفعلًا، والأخذ بمكارم الأخلاق، والوقوف عند كل وصف مُستَحسن، وكلما عظم أدب المرء زاد قدرُه، وعلا شأنُه، وعلىٰ قدر اكتسابه من الآداب، علىٰ قدر ما يكون له من عُلو المَنزِلة.

ومن أجل ذلك فقد تتابَعَت النصوص عن سلف الأمة الكرام تحُثُّ علىٰ اكتساب الآداب والاتصاف بها، لِمَا يؤدِّي إليه ذلك من فتح أبواب الخيرات، وكونه سبيلًا لوقاية الدين من الآفات.

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تأدبوا ثم تعلَّموا».

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «اطلب الأدب؛ فإنه زيادة في العقل، ودليل علىٰ المروءة، مؤنس في الوحدة، وصاحب في الغربة، ومال عند القِلَّة».

وقال النخعي: «كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلىٰ سمته وصلاته وإلىٰ حاله، ثم يأخذون عنه».

وقال الإمام عبدُ الله بن المبارك: «لا ينبل الرجل بنوع من العلم ما لم يزين علمه بالأدب».

ويروىٰ عنه أيضًا أنه قال: «طلبت العلم فأصبت منه شيئًا، وطلبتُ الأدب فإذا أهله قد بادوا».

وقال أيضًا: «إذا وصِفَ لي رجل له علم الأولين والآخرين لا أتأسف علىٰ فوت لقائه، وإذا سمعت رجلًا له أدب النفس أتمنىٰ لقاءه وأتأسف علىٰ فوته».

وكان يُقَال: «العونُ لمن لا عون له: الأدبُ».

فينبغي لكل مؤمن أن يعمل بالآداب المحمودة في كل أحواله، وأن يجعل الأدب لباسًا يلتحف به، فإنه ما ستر العيوب مثل جميل الأدب وحسن الخلُق.

وعلىٰ المرء أن يغرس الآدابَ في نفوس أبنائه ومن كانوا تحت يده من أول نشأتهم، فإنه مما لا يخفىٰ علىٰ أحد أنه كلما كان التأديب علىٰ صغر السِّن كان أحرىٰ بأن يؤتي ثماره ولو بعد أمَد، وإنما هو بذل لأسباب النجاة والأخذ بمكارم الصفات والأخلاق، ومَرَدُّ الأمر إلىٰ الله سبحانه، وقد كان يقال: الأدب من الآباء، والصلاح من الله.

وقد جاء عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال في قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم:٦]، قال: «أدِّبوهم وعَلِّموهم».

وقال محمد بن سيرين: «كانوا يقولون: أكرِم ولدَك وأحسِن أدَبَه».

فمن أدَّب ابنه صغيرًا قَرَّت به عينُهُ كبيرًا، ومَن أدَّب ابنه أرغم أنف عدوه، وما ورَّثت الآباءُ الأبناءَ شيئًا أفضل من الأدب، فإنها إذا ورَّثَتها الآداب كسبت بالآداب الأموال والجاه والإخوان والدِّين والدُّنيا والآخرة، وإذا ورَّثَتها الأموال تلفت الأموال وقَعَدت عُدمًا من الأموال والآداب.

قال الحَسَن: «التعلم في الصغر كالنقش في الحجر».

وهو ما أشار إليه القائل بقوله:

حرِّض بَنِيك علىٰ الآداب في الصِّغَرِ كـيما تَقَـر بهـم عيـناكَ فـي الكبَـرِ
وإنمَــا مــثل الآداب نجمَعُهــا في عُنفوان الصبا كالنَّقش في الحجَرِ

وقال غيرُه:

قـد يـنفع الأدبُ الأحـداثَ فـي مهـلٍ ولــيس يــنفع بعــد الكِبــرَة الأدبُ
إن الغــصونَ إذا قوَّمــتَها اعــتدلت ولا تلــين إذا قومــتَها الخــشُبُ

ولما تولَّىٰ الحجاج شئون العراق، أمر العسس أن يطوفوا بالليل، فمن وجدوه ضربوا عنقه، فطاف العسس ذات ليلة فوجد ثلاثة صبيان، فقبض عليهم وسألهم: من أنتم حتىٰ خالفتم أمر الأمير؟ **فقال الأول:**

أنــا ابــن مــن تخـضع الـرقابُ لـه مــا بــين مخــزومِها وهاشــمِها
تأتــيه بالــذل وهــي صــاغرةٌ يأخــذ مــن مالِهــا ومــن دمِهــا

فأمسك عن قتله، وقال: لعله من أقارب الأمير.

وقال الثاني:

أنـا ابـن الـذي لا ينـزل الدهـرَ قِدرُه وإن نــزلت يــومًا فــسوف تعــودُ
تـرىٰ الـناسَ أفـواجًا إلـىٰ ضـوء نـارِه فمــنهم قــيامٌ حــولها وقعــودُ

فتأخر عن قتله، وقال: لعله من أشراف العرب.

وقال الثالث:

أنـا ابـن الـذي خاض الصفوف بعزمه وقــوَّمَها بالــسيف حتــىٰ اســتقامتِ
ركابــاه لا تــنفك رجــلاه عــنهما إذا الخــيل فــي يــوم الكـريهة ولَّــتِ

فترك قتله، وقال: لعله من شجعان العرب.

فلما أصبح رفع أمرهم إلىٰ الحجاج، فأحضرهم وكشف عن حالهم، فإذا بالأول ابنُ حجام، والثاني ابنُ فوال، والثالث ابنُ حائك.

فتعجب الحجاج من فصاحتهم وقال لجلسائه: علموا أولادكم الأدب، فلولا فصاحتُهم لضُربت أعناقهم، ثم أمر بإطلاقهم.

وذُكِرَ أن عبد الملك بن مروان استأذن علىٰ أمير المؤمنين معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الدخول، فأذن له، ثم سلم عليه وجلس، فلما فرغ من حديثه قام وانصرف، فقال معاوية: ما أكملَ أدب هذا الفتىٰ!، فقال بعض الحاضرين: نعم يا أمير المؤمنين، لقد أخذ بأخلاقٍ أربعة، وترك أربعة: أخذ بأحسن البشر إذا لقي، وبأحسن الحديث إذا حَدَّث، وبأحسن الاستماع إذا حُدِّث، وبأحسن الوفاء إذا وعد. وترَكَ مَزحَ من لا يثق بعقله، ومجالسةَ من لا يرجع إلىٰ الحَق، ومخالطةَ من لا أدب عنده، وترك من القول والعمل كل ما يُعتَذَرُ منه.

وحُكِي أن البادية قحطت في أيام هشام بن عبد الملك، فقدمت عليه العرب وهابوا أن يكلموه، فلما جلس إليهم دخلوا عليه وكان فيهم فتىٰ يبلغ سنه أربع عشرة سنة، فنظر إليه هشامٌ والتفت إلىٰ حاجبه وقال: ما شاء امرؤ أن يدخل عليَّ حتىٰ الصبيان، فوثب الفتىٰ بين يديه وقال: يا أمير المؤمنين، إن دخولي عليك لم يحط بقدرك ولكنه شرفني، وإن هؤلاء الوفود ائتمنوني وأْتمُّوا بي، وقدموا في أمرٍ فهابوك دونه، وإن للكلام نشرًا وطيًّا، وإنه لا يُعرَف ما في طيه إلا بنشره، فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرتُه.

فأعجبه كلامه وقال له: انشُره لله دَرُّك!، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه أصابتنا سنون ثلاث، سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها علىٰ عباده، وإن كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم، وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، فقال هشام: ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذرًا، فأمر للبوادي بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف

درهم، ثم قال له: ألك حاجة؟ قال: ما لي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين، فخرج من عنده وهو من أجلِّ القوم.

كما أن الأدب يصقل العقول ويُهَذبها، فالعقل يحتاج إلىٰ مادة من الأدب، كما تحتاج الأبدان إلىٰ قُوتِها من الطعام، ولذا فقد قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الأدب كنز عند الحاجة، عون علىٰ المروءة، صاحب في المجلس، أنيس في الوحدة، تُعمَر به القلوب الضعيفة، وتحيا به الألباب الميتة، وينال به الطالبون ما حاولوا».

وقيل لعبد الله بن المبارك: «ما خير ما أعطِيَ الرجل؟ قال: غريزة عقل. قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدب حسن. قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخ صالح يستشيره. قيل: فإن لم يكن؟ قال: صَمتٌ طويل. قيل: فإن لم يكن؟ قال: مَوتٌ عَاجِل».

ومن فضائل الأدب: أنه يرفع قدر صاحبه، فإن من كَثُر أدبُه كثر شرفه وإن كان وضيعًا، وبَعُد صيته وإن كان خاملًا، وساد وإن كان غريبًا، وكَثُرَت حوائجُ الناسِ إليه وإن كان فقيرًا، والأدب يُحرز الحظ، ويُؤنس الوَحشَة، وينفي الفاقة، ويعرِّف النكرة، ويُثمِّر المكسبة، ويكمد العدو، ويُكسِب الصديق، ويكفي من شرف الأدب أن أهله متبوعون والناس تحت راياتهم، فيعطِّفُ ربك تعالىٰ عليهم قلوبًا لا تعطِّفُها الأرحام، وتجتمع بهم كلمة لا تأتلف بالغلبة، وتُبذل دونهم مُهَج النفوس.

ومن فضل الأدب: أن يتشعب منه الشرفُ وإن كان صاحبه دنيًّا، والعزُّ وإن كان صاحبُه مهينًا، والقربُ وإن كان صاحبه قصيًّا، والغنىٰ وإن كان صاحبه فقيرًا، والنبلُ وإن كان صاحبه حقيرًا، والمهابةُ وإن كان وضيعًا، والسلامةُ وإن كان سفيهًا، وسمع بعض الحكماء رجلًا يقول: أنا غريب، فقال: الغريب من لا أدب له.

لكل شيءٍ زينةٌ في الورىٰ ... وزينةُ المرءِ تمامُ الأدبْ
قد يشرفُ المرءُ بآدابِه ... فينا وإن كان وضيعَ النسبْ

وقيل: الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والحسب، ومن تأدب من غير أهل الحسب ألحقه الأدب بهم.

وقد دخل أبو العالية علىٰ ابن عباس فأقعده معه علىٰ السرير، وأقعد رجالًا من قريش تحته، فرأىٰ سوء نظرهم إليه وحموضةَ وجوههم فقال: ما لكم تنظرون إليَّ نظر الشحيح إلىٰ الغريم المفلس، هكذا الأدب يشرِّفُ الصغيرَ علىٰ الكبير، ويرفعُ المملوكَ علىٰ المولىٰ، ويقعدُ العبيدَ علىٰ الأسرَّة.

وقال الحجاج لخالد بن صفوان: «من سيدُ أهل البصرة؟ قال: الحسن البصري، قال: وكيف ذاك وهو مولىٰ؟! قال: احتاج الناس إليه في دينهم، واستغنىٰ عنهم في دنياهم، وما رأيت أحدًا من أشراف أهل البصرة إلا وهو يطلب الوصول في حلقته إليه، ليستمع قوله ويكتب علمه، قال الحجاج: هذا والله السؤدد».

وكم نحن بحاجة في هذه الأزمان التي ضعف بها التمسك بالآداب كثيرًا، لأناس يتصفون بتلك الأخلاق التي تَقُودُهم لكل خير، حتىٰ يُصبحُوا قدوة لغيرهم، ومنارات هدىٰ لمن يتأثر بهم، فإن المتصف بذلك لا يقتصر أثره علىٰ نفسه، بل إنه يتعدىٰ إلىٰ المجتمع الذي هو أحوج ما يكون إلىٰ إحياء تلك المبادئ والقيم فيه حتىٰ لا تندثر.

فإن وافق ذلك عند المسلم نية صالحة وقصدًا حسنًا، فقد وُفق لكل خير، وفاز بأجر من تابعه علىٰ ذلك، ومن هنا نعلم فضل الدعوة إلىٰ التَمَسُّك بالآداب والحث عليها.

وقد عظُمَت الوصية بالأدب ومدح أهله والحث عليه، **قال المَدائني**: «قال عبد الملك لمؤدب أولاده: علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السفلة، فإنهم أسوأ الناس خُلُقًا وأقلهم أدبًا، وجنبهم الخدم، فإنهم لهم مفسدة، وأحفَّ شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقووا، وعلمهم الشعر يمجدوا ويكون لهم رأي، ومُرهم أن يستاكوا عرضًا، وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في سرٍّ لا يعلم بهم أحد من الحاشية فيهونوا عليهم».

حسن الخُلق

إنَّ حسن الخلق جامعٌ لأبواب الخَير، ومفتاح لسبل البرِّ، من وفَّقه الله إليه فقد حاز فضلًا عظيمًا، وسبق سبقًا كبيرًا، وقد أعظم الله عَزَّوَجَلَّ منزلته، حتىٰ قال بعض السلف: «لكل شيء أساس، وأساس الإسلام: الخلق الحسن».

ومن أجل ذلك فقد أثنىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علىٰ خير خلقه محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بما فضَّله به من حُسن الخُلق؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

فما بالُك بأمرٍ عظمه الله عَزَّوَجَلَّ؟

ولما سُئِلَت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا عن خلقِ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قالت: «كان خُلُقه القرآن»[1]؛ أي: كان متمسكًا بآدابه وأوامره ونواهيه، وما يشتمل عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الأمور صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وحقيقة حُسن الخلق: بذل المعروف، وكف الأذىٰ، وطلاقة الوجه، وأن يحتمل ما يكون من الناس، وأن يأخُذَ النَّفس نحو الأحمد من الأفعال بين الناس، ويكون سمحًا بحقوقه، لا يطالب غيره بها، ويوفي ما يجب لغيره عليه منها.

فمن أراد الله به خيرًا وفَّقه لمحاسن الأخلاق، فإن ذلك هو الفضل العظيم؛ ولذلك قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**البِر حُسن الخُلق**»[2]، والبر هو الخير الكثير.

ومن رأىٰ عظيم مَنزِلة حسن الخلق في الشريعة، سعىٰ سعيًا حثيثًا ليكون له النصيب الأعظم من ذلك.

---

(١) رواه مسلم (١٢٣٣).

(٢) رواه مسلم (٤٦٢٣).

فإن حسن الخلق مُثَقِّل لميزان العبد يوم القيامة، فقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلق حسَن**»(١).

كما أنه أكثر ما يَدخُل به الناس الجنة؛ فقد سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: «**تقوىٰ الله وحُسن الخُلق**»(٢).

وهو دليل علىٰ كمال إيمان العبد، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن من أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**»(٣).

وكفىٰ به قَدرًا أنه وسيلة إلىٰ محبة الله للعبد، وأن صاحبه قريب المنزلة يوم القيامة من خير الورىٰ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة، سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من أَحَب عِبَاد الله إلىٰ الله؟ قال: «**أحسَنُهم خلقًا**»(٤).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحسنكم أخلاقًا**»(٥).

فهذه الأحاديث النبوية الكريمة مما يَشحَذُ الهِمَم لبلوغ تلك المنازل بالعمل الدءوب علىٰ تحصيلها، علىٰ أن همم الناس تختلف في هذا المضمار، والله هو الهادي إلىٰ أقوم سبيل.

ومما يَدُل علىٰ عظيم منزلة الأخلاق: ملازمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدعاء بأن يحسن الله خلقه، وهذا تشريع لأمته لتحذوَ حذوه، فكان يقول في دعائه: «**اللهم كما**

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٧٦).

(٢) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٧٢٣).

(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨٤).

(٤) رواه الطبراني، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٣٢).

(٥) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٤٩).

حسنت خَلقي فحسن خُلُقي»(١).

وكان من دعائه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم اهدِني لأحسَن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرِف عنِّي سيِّئها لا يَصرِف عني سيئها إلا أنت**»(٢).

كما أن حُسن الخُلُق عونٌ علىٰ الدِّين والاستقَامَة.

قال الإمام محمد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانوا يَرَونَ حُسن الخلق عونًا علىٰ الدين».

وقال عبد الرحمن بن مهدي: «ليتق الرجل دنَاءة الأخلاق كما يتَّقي الحرام».

وحسن الخلق من شيم أهل المروءات، **قال الشَّافعي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «للمروءة أركان أربَعَة: حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والنسك».

وقال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أكرم الحَسَب حسن الخلق».

هذا وإن من أوسع الأبواب إلىٰ مَحَاسن الأخلاق: طلاقة الوجه والبشر عند اللقاء؛ فإن الابتسامة دليل علىٰ حُسن الخلق، وتُوَطِّنُ النفس علىٰ الأخذ بمحاسن الأخلاق، كيف لا، والنبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**تبسُّمُك في وجه أخيك صَدَقة**»(٣).

وقال جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ما حجبني رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذ أسلمتُ، ولا رآني إلا تبسَّم في وجهي»(٤).

فكم هو جميل أن نجعل الابتسامة عنوانًا لنا حين مخاطبة الناس ومحادثتهم، وما ذلك إلا لأن الابتسامة مِفتَاحٌ للقلوب، وسبيلٌ إلىٰ التآلُف والتَّوَاصُل.

ومِن الخَطأ الفاحِش عند بعض الناس: ظنه بأن التبسُّم في وجوه الناس يجرئهم

---

(١) رواه البيهقي، وصححه الألباني في «الإرواء» (٧٤).

(٢) رواه مسلم (١٢٠٩).

(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٦٨٥).

(٤) رواه البخاري (٢٨٠٩)، ومسلم (٤٥٢٣).

عليه، أو أنه لا يليق بالسَّمت والرَّزَانة، فتجد أحدَهم إذا سلَّم علىٰ الناس أو خاطبهم أقبل عليهم بوجه عَبُوس وكأنه مغضبٌ من أمر ما، وهذا خطأ بالغ جَسِيم، وهو من تلبيس الشيطان، فالسَّمت وقوة الشخصية ليست بترك التبسُّم ومَحَاسن الأخلاق، بل إن التعامُلَ بهذا المنطق دليل الجَفَاء والغِلظَة.

قال الحارثُ بن جَزْء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «يعجبني من القُرَّاء كل طَلِيق مِضحَاك، فأما الذي تلقاه ببِشْر، ويلقاك بوجه عبوس كأنه يَمُن عليك، فلا كثَّر الله في المسلمين مثله».

والهيبة لا يُنقصها حسن الخُلق في التعامل مع الناس، والتبسم في وجوه الخلق، فقد كان سلف الأمة أحسن الناس أخلاقًا، وأعظمهم هيبة في قلوب الناس.

قال ضِرار بن حَمزةَ يَصِف عليَّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «كان واللهِ يُجيبنا إذا سألناه، ويأتينا إذا دَعَوناه، ونحن والله مع تقرِيبِهِ لنا وقُربِه منَّا، لا نكلمه هيبةً له، يعظِّمُ أهل الدِّين، ويُحب المسَاكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضَّعيفُ من عَدله».

ومن مَحَاسن الأخلاق: أن يكون المرء هينًا لينًا مع الناس، متواضعًا لهم، قريبًا منهم، يُصغي إلىٰ حاجاتهم، فإن بعض الناس تكون له الحاجة عندك فلا يستطيع أن يفصح بها إليك بسبب خجله، فإن لم تجعل له بابًا علىٰ نفسك بأن تُجرِّئه علىٰ نفسك بعض الجرأة، كأن تخلو به وتسأله عن حاجته، فلن يبلغ إليك بحاجته.

وقد بين لنا ذلك مُعَلمُ الناس الخير صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أتَمَّ بيان، بقوله وفعله، فقد قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: إن أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ استأذن علىٰ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو مُضطجع علىٰ فراشه، فأذِنَ له وهو كذلك، فقضىٰ إليه حاجته ثم انصرف، ثم استأذن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فأذن له وهو علىٰ تلك الحال، فقضىٰ إليه حاجته ثم انصَرَف، ثم استأذن عليه عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فجلس صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وقال لعائشة: «**اجمَعِي عليك**

ثيابك، فقضىٰ إليه حاجته ثم انصرف، فقالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: يا رسول الله، ما لي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا كما فزعت لعثمان؟ فقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **إن عثمان رجلٌ حييٌّ، وإني خشيت إن أذنت له علىٰ تلك الحال ألا يبلغ إليَّ في حاجته»**[(١)].

فصلىٰ الله وسلم وبارك وأنعم علىٰ مُعَلِّم الناس الخير، الذي أتمَّ الله به الدِّين، وهَدَاه إلىٰ أحسن الأخلاق وأعظمها.

فمن الخطأ الذي يصنَعُه البعض: أنه قد يدخل عليه بعض الناس في حاجة لا يريد أن يطلع عليها أحد، وهو قد جلس في جماعة من الناس، فيسأل هذا الداخل عن حاجته، فإذا قال له: إن حاجتي خاصَّة أريدها بيني وبينك، قال: لا، فالأمر عادي، وليس عندي إلا فلانٌ وفلانٌ -أصحابي-، فيعود المرء منه دون إبلاغه حاجتَه، وهذا من سُوء التصرف، فإنَّ طباعَ الناس تختلف، وقد يكون هذا المرء حييًّا، أو لا يُريد أن يُظهر حاجته أمام الناس لأنها تتعلق بأمر خاص، أو حفاظًا علىٰ كرامته، أو خوفًا من ردِّ حاجته، فإذا بهذا يُحرجُه ويَجرَحه في آنٍ واحد.

وكأن مَن يفعل هذا الفعل لا يريد بتصرفه ذلك إلا إيجاد العُذر لنَفسه لردِّ حاجة مَن جاءه، فيعتذر بعد ذلك بأنه سأله في محضر الناس، فلا هو بالذي أمضىٰ حاجته وأعانه علىٰ إتمامها، ولا بالذي جعل لنفسه عُذرًا مقبولًا عند العقلاء.

فملاحظة حاجات الناس ومعرفة سُبل التعامل معها، من أعظم الدلائل علىٰ حُسن أخلاق صاحبِهَا.

هذا، وإن أَوْلىٰ الناس بالمُعامَلة الحَسَنة وحسن الخلق: هم أهل البيت، الزوجة والأبناء، فالعجب أن بعض الناس يقصر ابتسامته وتخلقَه بالأخلاق الحسنة المصطنعة علىٰ الناس، فإذا عاد إلىٰ بيته صار وكأنه وحش كاسِر، لا يبتسم ولا يُهَذِّب ألفاظه، بل

(١) رواه مسلم (٤٤١٥).

يعود فظًّا غليظًا، كأنه يمتَنُّ علىٰ أهل بيته بما ينفقه عليهم، ويُهيِّئُهُ لهم من سبل المعيشة، ونسي أن أَوْلىٰ الناس بكل حُسنىٰ هم أهل البيت، وأنهم مُقَدَّمون علىٰ كل أحد.

إن الخلق الحسن قد يكون غريزة في المرء، وقد يكون مكتسبًا يكتسبه المرء من خلال البحث عنه في مظانِّه، ومن المعلوم أن الحكيم يزداد بمجالسته أولي الأحلام والنهىٰ رأيًا، والعالِمَ بمخالطة العلماء علمًا، فلا يُنكَر أن يكون ذو الخلق الجميل يزداد حسنَ خلق بمجالسة أولي الأخلاق الحسنة، **قال الأشعث بن قيس يومًا لقومه:** «إنما أنا رجل منكم، ليس بي فضل عليكم، ولكني أبسُط لكم وجهي، وأبذل لكم مالي، وأقضي حقوقكم، وأحوط حريمكم، فمن فعل مثل فعلي فهو مثلي، ومن زاد علي فهو خير مني، ومن زدت عليه فأنا خير منه.

قيل له: يا أبا محمد، ما يدعوك إلىٰ هذا الكلام؟ قال: أحضُّهم علىٰ مكارم الأخلاق».

ومما لا بُدَّ أن يعلمه المسلم: أنه مأمور بتحسين خلقه، وإن غلبته نفسه علىٰ بعض الطباع الدنيئة فلا يستسلم ويقول: هذه سجيتي ولا أستطيع تغيير طبعي، فإن سوء الخلق أمرٌ مذموم، يجب علىٰ المسلم أن يتجنبه، وقد جاء من الأخبار والآثار ما يدل علىٰ أن العبد يمكنه تحسين خلقه، وأعظم ما يدل علىٰ ذلك أمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به كما في قوله: «**وخَالِق الناسَ بخُلُق حَسَن**»(1).

فهذا بيان علىٰ أن تحسين الخلق من تمام الدين، وأنه لا تتم التقوىٰ إلا به، وإنما أفرده النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالذكر للحاجة إلىٰ بيانه، فإن كثيرًا من الناس يظن أن التقوىٰ هي القيام بحق الله دون حقوق عباده، فنص صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ الأمر بإحسان العشرة للناس، فإنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قد بعث معاذًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي وصاه بهذه

---

(١) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٥٠٨٣).

الوصية إلىٰ اليمن معلمًا لهم، ومفقهًا وقاضيًا، ومَن كان كذلك فإنه يحتاج إلىٰ مُخَالَقة الناس بخُلُق حَسَن ما لا يحتاج إليه غيره ممن لا حاجة للناس به ولا يخالطهم، وكثيرًا ما يغلب علىٰ من يعتني بالقيام بحقوق الله والاعتكاف علىٰ محبته وخشيته وطاعته، إهمالُ حقوق العباد بالكلية أو التقصير فيها، والجمعُ بين حقوق الله وحقوق عباده عزيز جدًّا لا يقوىٰ عليه إلا الكُمَّل من الأنبياء والصديقين.

فينبغي علىٰ العاقل الحرص علىٰ التزود من الأخلاق، وأن يجني ثمارها اليانعة كلما تيسر له سبيل إلىٰ ذلك، ويجعل الطريق إلىٰ ذلك قيامه بحقوق المسلمين في أن يحب لهم ما يحب لنفسه، وأن يتواضَعَ لهم ولا يفخر عليهم ولا يختال، ولا يتكبر ولا يعجب، وأن يوقر الشيخ الكبير، ويرحم الطفل الصغير، ويعرف لكل ذي حقٍّ حقه، مع طلاقة الوجه وحسن التلقي ودوام البِشر، كما قيل:

ومـا اكتـسَبَ المحامِـدَ طالـبُوها ... بمِــثلِ البِـشرِ والــوَجهِ الطَّلِــيقِ

وعليه بلين الجانب، وحُسن المصاحبة، وسهولة الكلمة، مع إصلاح ذاتِ بين إخوانه، وتفقد أقرانه وأخدانه وجيرانه، وألا يسمع كلامَ الناس بعضهم في بعض، وأن يبذل معروفه لهم لوجه الله، لا لأجل غرض، مع ستر عوراتهم، وإقالة عثراتهم، وإجابة دعواتهم، وألا يقف مواقف التُّهَم، وأن يحلم عمن جهل عليه، ويعفو عمن ظلم.

قال الحسَنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «معالي الأخلاق للمؤمن: قوة في لين، وحزم في دين، وإيمان في يقين، وحرص علىٰ العلم، واقتصاد في النفقة، وبذل في السعة، وقناعة في الفاقة، ورحمة للمجهود، وإعطاء في كرم، وبر في استقامة».

إن التوفيق لاكتساب الأخلاق نعمة من نِعَم الله تعالىٰ يهبها لمن شاء من عباده، ولعظيم منزلة الأخلاق فقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر الناس أخذًا بهذا الفضل العظيم، وقد كانت سيرته أعظم شاهد علىٰ ما حباه الله به من الفضائل، فصدَّق ذلك

بقوله وفعله، فقد كان يرىٰ اللعب المُباح ولا ينكره، وكان يسابق أهله، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كنت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سفر وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبدن، فقال لأصحابه: **تقدَّموا،** فتقدموا، ثم قال: **تعالي أسابقك،** فسابقته فسبقته علىٰ رجلي، فسكت عني حتىٰ إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت، خرجت معه في سفر فقال لأصحابه: **تقدموا،** فتقدموا، ثم قال: **تعالي أسابقك،** ونسيت الذي كان وقد حملت اللحم فقلت: كيف أسابقك يا رسول الله وأنا علىٰ هذا الحال؟ فقال: **لتفعلن،** فسابقته فسبقني، فجعل يضحك، وقال: **هذه بتلك السبقة**»(١).

وكان رحيمًا رفيقًا في تعامله مع الخلق حتىٰ خدمه ومواليه، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خدمت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر سنين، فما قال لشيء فعلته: لِمَ فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: لِمَ لا فعلته؟»(٢).

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متواضعًا غاية التواضع؛ يرقِّع ثوبه ويخصف نعله، ويركب الحمار ويردف خلفه، ويأكل الخشن من الطعام، وما شبع قط من خبز بُرٍّ ثلاثة أيام متوالية حتىٰ لقي الله تعالىٰ، من دعاه لبَّاه، ومن صافحه لم يرفع يده حتىٰ يكون هو الذي يرفعها، يعود المريض ويتبع الجنائز ويجالس الفقراء، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وما كانت تغلق من دونه الأبواب ولا كان دونه حجاب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما ضرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده خادمًا قط ولا امرأة، ولا ضرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده شيئًا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُيِّر بين أمرين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما، حتىٰ يكون إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتىٰ إليه حتىٰ تنتهك حرمات الله عَزَّ وَجَلَّ

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٧٦).

(٢) رواه البخاري (٢٨٠٩)، ومسلم (٤٢٦٩).

فيكون هو ينتقم لله عَزَّوَجَلَّ»[١].

ومن جميل ما ورد من القصص التي تدل علىٰ محاسن الأخلاق مما شنفَ الأسماعَ ذكرُه: ما جاء عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «ورد علينا الوليد بن عتبة بن أبي سفيان واليًا علىٰ المدينة، وكأن وجهه ورقة من ورق المصحف، فوالله ما ترك فينا فقيرًا إلا أغناه، ولا مديونًا إلا أدىٰ عنه دينه، وكان ينظُر إلينا بعين أرق من الماء، ويكلمنا بكلام أحلىٰ من الجَنَىٰ، ولقد شهدت منه مشهدًا يُذكَر، تغدينا يومًا عنده، فأقبل الفراش بصحفة فعثر في وسادة فوقعت الصحفة من يده، فوالله ما ردَّها إلا ذقن الوليد، وانكب جميع ما فيها في حجره، فبقي الغلام متمثلًا واقفًا ما معه من روحه إلا ما يقيم رجليه، فقام الوليد فدخل فغيَّر ثيابه وأقبل علينا تبرق أسارير جبهته، فأقبل علىٰ الفراش وقال: يا بائس، ما أرانا إلا رَوَّعناك، اذهب، فأنت وأولادُك أحرارٌ لوجه الله تعالىٰ».

وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت حسن الخلق؟ فقال: من قيس بن عاصم، بينما هو ذات يوم جالس في داره إذ جاءته خادمة له بسفود عليه شواء حار، فنزعت السفود من اللحم وألقته خلف ظهرها فوقع علىٰ ابنٍ له فقتله لوقته، فدُهشت الجارية، فقال: لا رَوع عليك أنت حُرة لوجه الله تعالىٰ.

وكان ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا إذا رأىٰ أحدًا من عبيده يحسن صلاته يعتقه، فعرفوا ذلك من خلقه، فكانوا يحسِّنون الصلاة مراءاة له، فكان يعتقهم، فقيل له في ذلك، فقال: من خَدَعَنا في الله انخدعنا له.

وكتب الحسن بن علي إلىٰ أخيه الحسين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في إعطائه الشعراء، فكتب إليه الحسين: «أنت أعلم مني بأنَّ خير المال ما وُقِي به العرض»، فانظر إلىٰ شرف أدبه وحسن خلقه، كيف ابتدأ كتابه لأخيه بقوله: أنت أعلم منِّي.

---

(١) رواه مسلم (٤٢٩٦).

وقال عبد الله بن طاهر: كنا عند المأمون يومًا، فنادىٰ بالخادم: يا غلام، فلم يجبه أحد، ثم نادىٰ ثانيًا وصاح: يا غلام، فدخل غلام تركي وهو يقول: ما ينبغي للغلام أن يأكل ولا يشرب، كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام، إلىٰ كم يا غلام؟

فنكَّس المأمون رأسه طويلًا، فما شككت أنه يأمرني بضرب عنقه، ثم نظر إليَّ فقال: يا عبد الله، إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خَدَمه، وإذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه، وإنا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لنحسن أخلاق خدمنا.

ومن محاسن الأخلاق: ما حكي عن القاضي يحيىٰ بن أكثم قال: كنت نائمًا ذات ليلة عند المأمون فعطش، فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه وأنا نائم فينغِّص عليَّ نومي، فرأيته وقد قام يمشي علىٰ أطراف أصابعه حتىٰ أتىٰ موضع الماء وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان نحو من ثلثمائة خطوة، فأخذ منها كوزًا فشرب ثم رجع يمشي علىٰ أطراف أصابعه حتىٰ قَرُب من الفِراش الذي أنا عليه، فخطا خطواتِ خائف لئلَّا ينبهني حتىٰ صار إلىٰ فراشه، ثم رأيته آخر الليل قام يبول، وكان يقوم في أول الليل وآخره، فقعد طويلًا يحاول أن أتحرك فيصيح بالغلام، فلما تحركت وثب قائمًا وصاح: يا غلام، وتأهب للصلاة، ثم جاءني، فقال لي: كيف أصبحت يا أبا محمد، وكيف كان مبيتك؟ قلت: خير مبيت جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين، قال: لقد استيقظت للصلاة، فكرهت أن أصيح بالغلام فأزعجك، فقلت: يا أمير المؤمنين، قد خصك الله تعالىٰ بأخلاق الأنبياء، وأحب لك سيرتهم، فهنأك الله تعالىٰ بهذه النعمة وأتمها عليك، فأمر لي بألف دينار، فأخذتها وانصرفت.

قال: وبتُّ عنده ذات ليلة، فانتبه وقد عرض له السعال، فجعلت أرمقه، وهو يحشو فمه بكم قميصه يدفع به السعال حتىٰ غلبه، فسعل وأكب علىٰ الأرض لئلَّا يعلو صوته فأنتبه.

وكنت معه يومًا في بستان ندور فيه، فجعلنا نمر بالريحان فيأخذ من الطاقة

والطاقتين ويقول لقيِّم البستان: أصلح هذا الحوض، ولا تغرس في هذا الحوض شيئًا من البقول، ومشينا في البستان من أوله إلىٰ آخره، وكنت أنا مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل، فكان يجذبني أن أتحول أنا في الظل، ويكون هو في الشمس، فأمتنع من ذلك حتىٰ بلغنا آخر البستان، فلما رجعنا قال: يا يحيىٰ، والله لتكونن في مكاني ولأكونن في مكانك حتىٰ آخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك، وتأخذ نصيبك من الظل كما أخذت نصيبي، فقلت: والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك من السوء بنفسي لفعلت، فلم يزل بي حتىٰ تحولت إلىٰ الظل وتحوَّل هو إلىٰ الشمس.

وحكي أن ملِكًا من ملوك الفرس خرج يومًا للصيد فانفرد عن أصحابه، فرأىٰ صيدًا، فتبعه طامعًا في لحاقه حتىٰ بعد عن عسكره، فنظر إلىٰ راعٍ تحت شجرة، فنزل عن فرسه ليبول، وقال للراعي: احفظ عليَّ فرسي حتىٰ أبول، فعمد الراعي إلىٰ العنان وكان مُلبَّسًا ذهبًا كثيرًا، فاستغفل الملك وأخرج سكينًا فقطع أطراف اللجام وأخذ الذهب الذي عليه، فرفع الملك نظره إليه فرآه فغضَّ بصره وأطرق برأسه إلىٰ الأرض، وأطال الجلوس حتىٰ أخذ الرجل حاجته، ثم قام الملك فوضع يده علىٰ عينيه، وقال للراعي: قدِّم إليَّ فرسي، فإنه قد دخل في عيني مِما في الريح، فلا أقدر علىٰ فتحهما، فقدمه إليه، فركب وسار إلىٰ أن وصل إلىٰ عسكره، فقال لصاحب مراكبه: إن أطرافَ اللجام قد وهبتها، فلا تتهمن بها أحدًا.

وذُكِر أن ملكًا وضع الموائد للناس في يوم من الأيام وجلس، ودخل وجوه أهل مملكته فأكلوا، فلما فرغوا من الطعام جاءوا بالشراب وأحضرت الفواكه في آنية الذهب والفضة، فلما رُفِعت آنية المجلس أخذ بعضُ من حضر آنية من ذهب وزنها ألفُ مثقال وخبأها تحت ثيابه والملك يراه، فلما فقده الشرابي صاح بصوت عال: لا يخرجنَّ أحدٌ حتىٰ يُفتَّش، فقال الملك: ولِمَ؟ فأخبره بالقضية، فقال: قد أخذه من لا يردُّه، ورآه من

لا يَنِم عليه، فلا تفتش أحدًا، فأخذ الرجل الآنية ومضىٰ فكسرها، وصاغ منها حليةً لسيفه، وجدد له كسوةً جميلة، فلما كان في مثل ذلك اليوم جلس الملك ودخل ذلك الرجل بتلك الحلية، فدعاه الملك وقال له: هذا من ذاك، فقال: نعم، أصلحك الله.

وكما أن تحسين الأخلاق أمر واجب ومحمود، فتجنب أخلاق السوء أمر لازم مؤكد؛ لأن سوء الخلق باب من أبواب الإثم، وينفر الناس ممن اتصف به؛ ولذلك قيل: «من ساء خلقه قلَّ صديقه»، **وقال الحسن** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من ساء خلقه عذَّب نفسه».

وعلىٰ المسلم أن يصاحب من يدله علىٰ محاسن الأخلاق، وينهاه عن مساوئها، فإن الصاحب الناصح من خير ما يستفيده المسلم في حياته.

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا خالطتَ فخالط حَسَن الخلق؛ فإنه لا يدعو إلا إلىٰ خير، وصاحبه منه في راحة، ولا تخالط سيئ الخُلق؛ فإنه لا يدعو إلا إلىٰ شر، وصاحبه منه في عناء، ولأن يصحبَني فاجرٌ حَسَن الخُلُق أحب إليَّ مِن أن يصحَبَني قارئ سَيئ الخلق، إن الفاسق إذا كان حَسن الخلق عاش بعقله وخف علىٰ الناس وأحبوه، وإن العابد إذا كان سيئ الخلق ثقل علىٰ الناس ومَقَتوه».

وينبغي للمرء إن أراد أن تصفو له مشاربه، وألا يكدر عيشه ألَّا يُسِيءَ إلىٰ الآخرين وألَّا تَسُوءَ أخلاقُه معهم، فإن إساءته للآخرين تدعوهم أن يعاملوه بمثل صنيعه، وهذا مما يزيد أحزانه ويُذهب سروره، وينغِّص سعادته.

وقد قيل: سوء الخلق يعدي؛ لأنه يدعو إلىٰ أن يقابل بمثله.

وقالت الحكماء: مَن سَاءت أخلاقه طابَ فِراقه، ومن حَسُنت خصاله طاب وصاله.

فالواجب علىٰ المرء أن يحسِّن أخلاقه ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلًا، وأن يبذل للناس المعروف والإحسان، وأن يلقاهم بالبشر وإظهار المودة، فإن ذلك كفيلٌ بأن

يدفع عن المرء الضغائن والأحقاد، وأن يقرِّب البعيد، ويستجلب الوداد والمحبة، وقد قيل:

وإنِّي لألقَىٰ المرءَ أعلم أنه ... عدوٌّ وفي أحشائه الضغن كامنُ

فأمنحه بشرًا فيرجع قلبه ... سليمًا وقد ماتت لديه الضَّغائنُ

ومن أجمل ما ورد من قصَصِ محَاسن الأخلاق: ما ذُكر عن الخليفة المهدي أنه قدم مرةً البصرة فخرج ليصلي بالناس، فجاء أعرابي فقال: يا أمير المؤمنين، مر هؤلاء فلينتظروني حتىٰ أتوضأ، فأمرهم المهدي بانتظاره، ووقف المهدي في المحراب حتىٰ قيل له: هذا الأعرابي قد جاء، فكبَّر، فتعجب الناس من سماحة أخلاقه.

وقال عبدُ الله بن بُريدة: شتم رجلٌ ابنَ عباس؛ فقال: إنك لتشتمني وفِيَّ ثلاث خصال: إني لآتي علىٰ الآية من كتاب الله فلوددت أنَّ الناس علموا منها مثل الذي أعلم، وإني لأسمع بالحاكم من حُكام المسلمين يقضي بالعدل فأفرح به، ولعلِّي لا أقاضي إليه ولا أحاكم أبدًا، وإني لأسمع بالغيث يصيب الأرض من أرض المسلمين فأفرح به، وما لي بها من سائمة أبدًا.

ومرَّ علىٰ صِلة بنِ أشيم فتىٰ يجر ثوبه، فهمَّ أصحابه أن يأخذوه بألسنتهم، فقال: دعوني أكفكم أمره، ثم دعاه فقال: يا ابن أخي، لي إليك حاجة، قال: وما حاجتك؟ قال: أن ترفع إزارك، قال: نعم، ونعمت عين، فرفع إزاره، فقال صلة: هذا أمثل مما أردتم، لو شتمتموه لشتمكم.

وبينما الرشيد يطوف يومًا بالبيت إذ عرض له رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، إني أريد أن أكلمك بكلام فيه غلظة، فقال: لا، ولا كرامة، قد بعث الله من هو خير منك إلىٰ من هو شرٌّ مني فأمره أن يقول له قولًا لينًا.

* * *

فضل العلم وأدب أهله

إن من توفيق الله تعالىٰ للعَبد: أن يشرحَ صَدرَه لطلب العلم الشرعي وأن يُيَسِّر له أسباب ذلك، فقد قال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»(١).

فالعلم سبب لكل خير، وحائز لكل فضل؛ لأن العلماء سُرُج الأزمنة، كل عالم سراج زمانه يستضيء به أهل عصره، يُوضِّحون للناس ما أشكل، ويهدونهم إلىٰ الصواب، ويردونهم إلىٰ الحق.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَن سَلَك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك اللهُ به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر**»(٢). وذُكر للنبي ﷺ رجلان، أحدهما عابدٌ والآخر عالم، فقال ﷺ: «**فَضل العَالِم علىٰ العَابِد كفَضلي علىٰ أدنَاكُم**»(٣).

إن مثل هذه الأحاديث لتحرك همة المرء لطلب العلم حتىٰ يكون من أهله؛ نظرًا لما يترتب علىٰ طلبه من الفضل العظيم، والرِّفعة في الدارين.

وقد قال عَليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كفىٰ بالعلم شرفًا أن يَدَّعيه من لا يحسنه، ويفرح به إذا

---

(١) رواه البخاري (٦٩)، ومسلم (١٧١٩).

(٢) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٢١٢).

(٣) رواه الترمذي، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٨١).

نسب إليه، وكفىٰ بالجهل ضِعة أن يتبرأ منه مَن هو فيه، ويغضب إذا نسب إليه».

وكان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **إذا رأىٰ طالبي العلم قال:** «مرحبًا بينابيع الحكمة، ومصابيح الظلمة، خلقان الثياب، جلاء القلوب، رياحين كل قبيلة».

ولما قَدِم الحجَّاج علىٰ العراق، دخل عليه أناس فسألهم عن الإمام الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ فأخبروه، ثم قال: كيف علمه بكتاب الله؟ قيل: عنه يؤخذ، قال: كيف علمه بالفرائض؟ قيل: إليه فيها المنتهىٰ، قال: كيف علمه بأنساب الناس؟ قيل: هو الفيصل فيها، قال: كيف علمه بالشعر؟ قيل: هو ديوانه، فقال: لله أبوه!، وفرض له أموالًا، وسوَّده علىٰ قومه.

قال الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ: فدخلت عليه وأنا صعلوك من صعاليك همدان، وخرجت وأنا سيدهم.

فالعلم يُؤدي إلىٰ التصدير، ولذلك فقد قيل: أربعة يُسَوِّدن العبد: العلم، والأدب، والصدق، والأمانة.

وعلىٰ طالب العلم أن يبتغي بطلبه للعلم وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإنَّ النافع من الأعمال ما أريد به وجه الله عَزَّ وَجَلَّ ولو لم تؤت ثماره إلا علىٰ المدىٰ البعيد.

قال يزيد بن ميسرة: «من أراد بعلمه وجه الله تعالىٰ أقبل الله بوجهه ووجوه العباد إليه، ومن أراد بعلمه غير وجه الله صرف الله وجهه ووجوه العباد عنه».

وليحذر المرء أن يكون عمله علىٰ غير علم، فإن العامل بغير علم علىٰ غير هدىٰ، وحَرِيٌّ ألَّا يُوفَّق للصواب.

قال الحَسَن رَحِمَهُ اللَّهُ: «رأيتُ أقوامًا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولون: مَن عمل بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، والعامل بغير علم كالسائر علىٰ غير طريق، فاطلبوا العلم طلبًا لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا يَضُر بالعلم».

ومن أعظم التوفيق: أن يبدأ المرء في طلب العلوم وهو صغير؛ لأن ما يرسخ من العلوم في العقل مع صغر السِّن يثبت فيها، ومن لم يتعلم في صغره لم يتقدم في كبره.

وأفضل سبيل للتزود من العلوم: مجالسة أهل العلم والأخذ عنهم والتزود من علومهم، قال لقمان: جالس العلماء وزَاحِمهم برُكبتَيك؛ فإن الله يُحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بماء السماء.

وعلىٰ المرء أن يحرص أشد الحرص علىٰ الطلب، وذلك ببذل الأسباب التي توصله إلىٰ مطلوبه، فإن لذَّةَ العلم لن تُذاق إلا بكَدٍّ وتعب، فقد قيل: من خدم المَحَابر خدمته المنابر، ومن هذه الأسباب ملازمة أهل العلم وكثرة السؤال، وترك الخجل الذي يمنع صاحبه من التزود والمعرفة، فإن كثيرًا من الأخلاق التي لا تُحمَد في الشخص، بل يُذَم عليها تُحمَد في طلب العلم، كترك الاستحياء، والذل، والتردد إلىٰ أبواب العلماء ونحوها، فقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ذَلَلتُ طالبًا فعززت مطلوبًا، وقال: وجدت عامة علم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند هذا الحي من الأنصار، إن كنت لأقيل عند باب أحدهم، ولو شئت أذن لي ولكن أبتغي بذلك طيب نفسه.

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يرجُونَّ عبدٌ إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحيي مَن لا يعلم أن يتعلم، ولا يستحيي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم».

كما أن العلم لا يناله مُستَحي ولا مستكبر، هذا يمنعه حياؤه من التعلم، وذاك يمنعه كبره، وإنما حمدت هذه الأخلاق في طلب العلم لأنها طريق إلىٰ تحصيله، فكانت من كمال الرجل ومُفضية إلىٰ كماله.

ومن كلام الحَسَن رَحِمَهُ اللَّهُ **قال**: مَن استتر عن طلب العلم بالحياء لبس للجهل سرباله، فاقطعوا سرابيل الحياء، فإنه من رق وجهه رق علمه.

وقال الخليل: منزلة الجهل بين الحياء والأنفة.

ومن كلام علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «قُرنت الهيبة بالخيبة، والحياء بالحرمان».

وقال بعضُ السلف: سَل مَسألة الحَمقىٰ، واحفَظ حفظَ الأكياس.

وكذلك سؤال الناس هو عيب ونقص في الرجل وذِلة تُنافي المروءة إلا في العلم فإنه عين كماله ومروءته وعزِّه، **كما قال بعض أهل العلم**: خير خصال الرجُل السؤال عن العلم.

وعليه أن يتوَاضَع للعلم حتىٰ يكتَسِبه؛ فإن مَن تَواضع للعلم نَاله، ومن لم يتواضَع له لم يَنَله.

وعليه بكتابة العِلم ومُذَاكرته حتىٰ يحفظه، فقد قيل: ليس العلم ما خزنته الدفاتر، وإنما العلم ما خزنته الصدور.

أخـي لـن تَـنال العِلـمَ إلا بـسِتَّة ... سـأُنبيكَ عَـن تفـصِيلِها ببَـيانِ
ذكَـاء وحِـرص واجـتهَاد وبلغَـة ... وصُـحبة أسـتَاذٍ وطُـول زمـانِ

وأنشدَ المدائني لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا حين عَمِي:

إن يأخُـذ اللهُ مـن عينـيَّ نُـورَهُما ... ففـي لـسَاني وسَـمعي مـنهُما نُـورُ
قلبـي ذَكـي وعَقلـي غيرُ ذِي دخَـل ... وفـي فَمـي صـارمٌ كالـسَّيف مأثُـورُ

ولا بُدَّ لطالب العلم من سَمتٍ يتميَّز به بين الناس، وأن يكون عفيفًا عن بذل علمه لينال به طمعًا من متاع الدنيا؛ فإن ذلك مما يُزري بالعلم ويضع قدره عند الناس، وعلىٰ قدر صيانة المرء لعلمه علىٰ قدر ما يكون له من الأثر علىٰ الناس.

قال الفُضَيل بن عِيَاض رَحِمَهُٱللَّهُ: «لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم، وأعزوا هذا العلم وصانوه، وأنزلوه حيث أنزله الله؛ إذن لخضعت لهم رقاب الجبابرة، وانقاد لهم الناس، وكانوا لهم تَبعًا، ولكنهم أذلوا أنفسهم وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا فهانوا وذلوا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فأعظم بها مُصيبة».

وقال عمر بن عبد العزيز: «قد أفلح من عُصم من المراء والغضب والطمع».

وحج الرشيدُ في بعض السنين فاجتاز بالكوفة ومعه القاضي أبو يوسف والأمين والمأمون، فأمر الرشيد بجمع شيوخ الحديث ليُسمِعُوا ولديه، فاجتمعوا إلا عبد الله بن إدريس، وعيسىٰ بن يونس، فركب الأمين والمأمون بعد فراغهما من سماعهما إلىٰ عبد الله بن إدريس فأسمعهما مائة حديث، فقال له المأمون: يا عم، إن أذنت لي أعدتها من حفظي، فأذن له، فأعادها من حفظه كما سمعها، فتعجب لحفظه ابنُ إدريس، ثم أمر له المأمون بمالٍ فلم يقبل منه شيئًا، ثم سارا إلىٰ عيسىٰ بن يونس، فسمعا عليه، ثم أمر له المأمون بعشرة آلاف فلم يقبلها، فظن أنه استقلها فأضعفها، فقال: والله لو ملأت لي المسجد مالًا إلىٰ سقفه ما قبلت منه شيئًا علىٰ حديث رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولما مات الأوزاعي جلس عند قبره بعض الولاة فقال: «رحمك الله، فوالله لقد كنت أخاف منك أكثر مما أخاف من الذي ولاني».

وقال علي بن عبد العزيز الجرجاني:

ولم أقض حقَّ العلم إن كنتُ كُلما ... بدا طمعٌ صَيَّرتُه ليَ سُلَّمَا

أأشقىٰ بِه غرسًا وأجنيه ذِلةً ... إذن فاتِّباع الجَهل قد كان أسلَمَا

ولو أنَّ أهل العلم صانُوه صانهم ... ولو عظَّمُوه في النفوس لعَظَّمَا

ولكن أهانُوه فهَانُوا ودنَّسُوا ... مُحَيَّاه بالأطماع حتَّىٰ تجَهَّمَا

وعلىٰ المرء أن يكون قدوة للناس، وأن يأخذ نفسه بالعمل بعلمه الذي يبثه في الناس، فإنَّ مؤدب نفسه ومعلمَها أحق بالإجلال من مؤدب الناس ومعلمهم.

قال علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «من نصب نفسه للناس إمامًا فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه».

وقال المُهَلَّب بن أبي صُفرة: «يعجبني في الرجل خصلتان: أن أرىٰ عقله زائدًا علىٰ لسانه، ولا أرىٰ لسانه زائدًا علىٰ عقله».

وقيل لإبراهيم بن عيينة: أي الناس أطول ندامة؟ قال: أما في الدنيا فصانع المعروف إلىٰ من لا يَشكُره، وأما في الآخرة فعالِمٌ مُفرِّط.

يا أيها الرجلُ المعلمُ غيرَه ... هلَّا لنفسك كان ذا التَّعليمُ
فابدأ بنفسك فانهها عن غَيِّها ... فإذا انتهت عنه فأنتَ حَكيمُ
لا تنهَ عن خُلقٍ وتأتِيَ مِثلَه ... عارٌ عَليك إذا فَعلتَ عَظيمُ

وليحذر طالب العلم أن يكون فتنَةً للناس في انحِرَاف سلوكه وأخلاقه عن دائرة الحق والصَّواب، **قال سفيان الثوري**: «العالم الفاجر فتنة لكل مفتون».

ويجب علىٰ طالب العلم أن يتجنب التصدر للمسائل، وألا يخوض فيما لا يحسنه من العلوم، وأن يعتاد قول: الله أعلم، فإن مَن تكلم فيما لا يعلم هَلك وأهْلَك، وليس عيبًا في أن يقول المرء لما لا يعلمه: لا أعلم، فقد قال ذلك أفاضل السلف، ولم يُنقِص ذلك من قدرهم، **قال الهيثم بن جميل**: «شهدت مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ سئل عن ثمانٍ وأربعين مسألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري».

وسئل الشعبي عن مسألة فقال: لا علم لي بها، فقيل له: ألا تستحي؟ قال: وَلِمَ أستحي مما لم تستح الملائكة منه حين قالت: لا علم لنا.

وعن ابن عون قال: «كنت عند القاسم بن محمد إذ جاءه رجل فسأله عن شيء؛ فقال القاسم: لا أحسنه، فجعل الرجل يقول: إني رفعت إليك لا أعرف غيرك. فقال القاسم: لا تنظر إلىٰ طول لحيتي وكثرة الناس حولي، واللهِ ما أُحسنه.

فقال شيخ من قريش جالس إلىٰ جنبه: يا ابن أخي، الزمها، فوالله ما رأيتك في مجلس أنبل منك اليوم، فقال القاسم: والله لأن يقطع لساني أحب إليَّ من أن أتكلم بما لا علم لي به».

وقالت الحُكماء: أفضل العلم وقوف العالم عند علمه.

وقال مجاهد: «أتينا عمر بن عبد العزيز لنعلمه، فما برحنا حتىٰ تعلمنا منه».

ولما اجتمع موسىٰ بالخضر عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، قال له الخضر: يا موسىٰ، إني علىٰ علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت علىٰ علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، فلما ركبا في السفينة جاء عصفور فوقع علىٰ حرف السفينة فنقر في البحر نَقرة أو نقرتين، فقال له الخضر: يا موسىٰ، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر.

وعلىٰ طالب العلم أن يجتنب المعاصي؛ فإنها مذهبة للعلم ممحقة لبركته، وقد شكا رجل إلىٰ وكيع بن الجراح سوء الحفظ، فقال له: استعن علىٰ الحفظ بترك المعاصي، ثم أنشأ يقول:

شكوتُ إلىٰ وكيع سُوءَ حِفظي ... فأرشدني إلىٰ تَركِ المَعَاصِي
وذلك أن حِفظَ العِلم فَضلٌ ... وفضلُ الله لا يُؤتَىٰ لعَاصِي

ويجب علىٰ طالب العلم إن أراد أن يدوم نفعه أن يحوط علمه بسياجٍ من الأدب، فقد قال بعض الحُكمَاء: العقل يحتاج إلىٰ مادة من الأدب كما تحتاج الأبدان إلىٰ قُوتِها من الطعام.

وقال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: الأدب كنز عند الحاجة، عون علىٰ المروءة، صاحب في المجلس، أنيس في الوحدة، تُعمر به القلوب الواهية، وتحيا به الألباب الميتة، وينال به الطالبون ما حاولوا، وقد قيل: عقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح.

فالأدب خير ما يتزود به المرء من المحاسن، فإن من كَثُر أدبه كَثُر شرفُه وإن كان وضيعًا، وبَعُد صيته وإن كان خاملًا، وساد الناسَ وإن كان غريبًا، وكثرت حوائج الناس إليه وإن كان فقيرًا.

ولذلك قيل: الفضل بالعقل والأدب، لا بالأصل والحسب، والمرء بفضيلته لا بفصيلته، وبكماله لا بجماله، وبآدابه لا بثيابه، ومن عرف الأدب اكتسب به المال والجاه، ومن أدَّب ولده أرغم أنف عدوِّه.

وقيل لرجل: من أدَّبك، قال: رأيت جهل الجهال قبيحًا، فاجتنبته فتأدبت.

وقال بعض الحُكمَاء: إن ابنَ الوضيع إذا كان أديبًا كان نقص أبيه زائدًا في منزلته، وابنَ الشريف إذا كان غير أديب كان شرف أبيه زائدًا في سقوطه.

وسمع معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ رجلًا يقول: أنا غريب، فقال: كلا؛ الغريب مَن لا أدب له.

في الناس قومٌ أضاعُوا مجدَ أولهم ... ما في المَكارم والتقوىٰ لهم أربُ
سُوء التأدب أرداهم وأرذلهم ... وقد يزين صحيح المنصب الأدبُ

وقال بعض الحكماء: «خمسة لا تتم إلا بخمسة، لا يتم الحسب إلا بالأدب، ولا يتم الجمال إلا بالحلاوة، ولا يتم الغنىٰ إلا بالجود، ولا يتم البطش إلا بالجرأة، ولا يتم الجهاد إلا بالتوفيق».

هذا وإنَّ من أحسَن الأدب: ألا يفخر المرء بأدبه، فإن محامد الناس ما نسبها الناس إليهم، وليس ما ادعوها هم لأنفسهم، **قال عمر بن عبد العزيز لرجُل**: من سيد قومك؟ قال: أنا. قال: لو كنت كذلك لم تقله.

وقال سُفيان بن عيينة: «نظرت في أمر عبد الله بن المبارك وأمر الصحابة، فما رأيتهم يفضلون عليه إلا بصُحبتهم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ».

قال إسماعيل بن عياش: «ما علىٰ وجه الأرض مثله، وما أعلم خصلة من الخير إلا وقد جعلها الله في ابن المبارك، ولقد حدثني أصحابي أنهم صحبوه من مصر إلىٰ مكة، فكان يطعمهم الخبيص وهو الدهر صائم».

وقدم عبد الله بن المبارك مرة إلىٰ الرقة وبها هارون الرشيد، فلما دخلها انجفل الناس يهرعون إلىٰ ابن المبارك، وازدحم الناس حوله، فأشرفت أمُّ ولدٍ للرشيد من قصر هناك فقالت: ما للناس؟

فقيل لها: قدم رجل من علماء خراسان يقال له: عبد الله بن المبارك، فانجفل الناس إليه.

فقالت المرأة: هذا هو المُلك، لا مُلك هارون الرشيد الذي يجمع الناس عليه بالسوط والعصا والرغبة والرهبة.

وقال يونس بن عبيد: «كان الرجل إذا نظر إلىٰ الحَسَن انتفع به، وإن لم يسمع كلامه ولم ير عمله».

وقال مُوَرِّق العجلي: «ما رأيت رجلًا أفقه في ورعه، وأورع في فقهه من محمد ابن سيرين».

وقال ابن عون: «كان محمد بن سيرين أرجىٰ الناس لهذه الأمة، وأشد الناس إزراء علىٰ نفسه».

وقال الليث: «ما رأيت عالمًا قط أجمع من ابن شهاب، ولو سمعتَه يحدث في الترغيب والترهيب، لقلت: ما يحسن غير هذا، وإن حدَّث عن الأنبياء وأهل الكتاب، قلت: لا يحسن إلا هذا، وإن حدَّث عن الأعراب والأنساب، قلت: لا يحسن إلا هذا، وإن حدث عن القرآن والسنة كان حديثه».

وكان علي بن الحسين إذا دخل المسجد تخطىٰ الناس حتىٰ يجلس في حلقة زيد ابن أسلم، فقال له رجل: غفر الله لك، أنت سيد الناس تأتي تخطَّىٰ حتىٰ تجلس مع هذا العبد الأسود؟ فقال له علي بن الحسين: إنما يجلس الرجل حيث ينتفع، وإنَّ العلم يُبتغىٰ ويؤتىٰ، ويُطلب من حيث كان.

وعن أبي الحسين النوري أنه اجتاز بزورق فيه خمر مع ملاح فقال: ما هذه؟ ولمن هذا؟ فقال له: هذه خمر للوالي، فصعد أبو الحسين إليها فجعل يضرب الدنان بعمودٍ في يده حتىٰ كسرها كلها إلا دنًّا واحدًا تركه، واستغاث الملاح فجاءت الشرطة فأخذوا أبا الحسين فأوقفوه بين يدي الوالي، فقال له: من أنت؟ فقال: محتسب، فقال: ومن ولاك الحسبة؟ فقال: الذي وَلَّاك الخلافة يا أمير المؤمنين.

فأطرق رأسه ثم رفعها، فقال: ما الذي حملك علىٰ ما فعلت؟ فقال: شفقة عليك لدفع الضرر عنك.

فأطرق رأسه ثم رفعه، فقال: ولم تركت من الدنان واحدًا؟ فقال: إني أقدمت عليها فكسرتها إجلالًا لعظمة الله تعالىٰ، ولم أبالِ أحدًا من الناس حتىٰ انتهيت إلىٰ هذا الدن فتخوفت علىٰ نفسي كبرًا علىٰ أني قد أقدمت علىٰ مثلك، فتركته.

فقال له الوالي: اذهب فقد أطلقت يدك فغيِّر ما أحببت أن تغيره من المنكر، فقال له النوري: الآن نقص عزمي عن التغيير، فقال: ولِمَ؟ فقال: لأني كنت أغيِّر عن الله، وأنا الآن أغير عن شرطي، فقال: سل حاجتك، فقال: أحبُّ أن تخرجني من بين يديك سالمًا، فأمر به فأخرج فصار إلىٰ البصرة فأقام بها مختفيًا خشية أن يشق عليه أحد في حاجة عند الوالي، فلما توفي الوالي رجع إلىٰ بغداد.

وكان الأوزاعي من أكرم الناس وأسخاهم، وكان له في بيت المال علىٰ الخلفاء إقطاع، فصار إليه من بني أمية وبني العباس نحوٌ من سبعين ألف دينار، فلم يقتن منها شيئًا، ولا ترك يوم مات سوىٰ سبعة دنانير، كان ينفقها في سبيل الله وفي الفقراء.

❊ ❊ ❊

مدح الذكاء وذم الحمق

ما يؤتاه المرء من قوة العقل وعظيم الذكاء إما أن يكون فطريًّا أو يكون مكتسبًا، والعقل المكتسب هو المستفاد من التجارب، وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع والأحداث، وبهذا الاعتبار يقال: إن الشيخ أكمل عقلًا وأتم دراية، وصاحب التجارب أكثر فهمًا وأرجح معرفة، ولهذا قيل: من بيضت الحوادث سواد شعره، وأَبلت التجارب لباس جدته، وأراه الله تعالىٰ لكثرة ممارسته تصاريف أقداره وأقضيته، كان جديرًا برزانة العقل ورجاحة الدراية.

وقد يخص الله تعالىٰ من يشاء من عباده، فيفيض عليه من خزائن جوده رزانةَ عقل وزيادةَ معرفة تُخرِجه عن حد الاكتساب، ويصير بها راجحًا علىٰ ذوي التجارب والألباب، وإن كان حديث السن قليل التجربة، كما نقل في قصة سليمان بن داود عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ وهو صبي، حيث رد حكم أبيه داود عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ في أمر الغنم والحرث، وذلك أن رجلين دخلا علىٰ داود عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، أحدهما صاحب غنم والآخر صاحب حرث، فقال أحدهما: إنَّ هذا دخلت غنمه بالليل إلىٰ حرثي فأهلكته وأكلته، ولم تُبقِ لي فيه شيئًا، فقال داود عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: الغنم لصاحب الحرث عوضًا عن حرثه.

فلما خرجا من عنده مرَّا علىٰ سليمان بن داود عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ، وكان عمره إذ ذاك علىٰ ما نقله أهل التفسير إحدىٰ عشرة سنة، فقال لهما: ما حكم بينكما الملك؟ فذكرا له ذلك، فقال: غير هذا أرفق بالفريقين، فعادا إلىٰ داود عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ وقالا له ما قاله ولده سليمان عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، فدعاه داود عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ وقال له: ما هو الأرفق بالفريقين؟ فقال سليمان: تسلِّم الغنم إلىٰ صاحب الحرث -وكان الحرث عنبًا قد تدلت عناقيده- فيأخذ صاحبُ الكرم الأغنام يأكل لبنها وينتفع بدرِّها ونسلها، ويُسلَّم العنب إلىٰ صاحب الأغنام

ليقوم به، فإذا عاد العنب إلىٰ هيئته وصورته التي كان عليها ليلة دخلت الغنم إليه، سلَّم صاحبُ الكرم الغنمَ إلىٰ صاحبها، وتسلَّمَ عنبه كما كان بعناقيده وصورته، فقال له داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: القضاء كما قلت، وحكم به كما قال سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وفي هذه القصة نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩].

فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة، بل حصلت بعناية ربانية وألطاف إلهية، وإذا قذف الله تعالىٰ شيئًا من النور في قلب من يشاء من خلقه اهتدىٰ إلىٰ مواقع الصواب، ورجح علىٰ ذوي التجارب والاكتساب في كثير من الأسباب.

ويستدل علىٰ حصول كمال العقل في الرجل بما يوجد منه وما يصدر عنه، فإن العقل معنىٰ لا يمكن مشاهدته، ولكن يستدل علىٰ عقل الرجل بأمورٍ متعددة، كَمَيلِه إلىٰ محاسن الأخلاق، وإعراضه عن رذائل الأعمال، ورغبته في إسداء صنائعِ المعروف، وتجنبِه ما يُكسِبُه العار ويُورثُه سوء السمعة.

وقد قيل لبعض الحكماء: بِمَ يُعرَف عقل الرجل؟ فقال: بقلة سقطه في الكلام، وكثرة إصابته فيه، فقيل له: فإن كان غائبًا، فقال: بإحدىٰ ثلاث: إما برسوله أو بكتابه أو بهديته، فإن رسولَه قائم مقام نفسه، وكتابَه يصف نطق لسانه، وهديتَه عنوان همَّتِه، فبقدر ما يكون فيها من نقصٍ يُحكَم به علىٰ صاحبها.

والعاقل مَن أحسن مُداراة الناس وعاملهم بالحسنىٰ، فإنَّ إحسانَ مداراة الناس من أكبر الأشياء شهادة علىٰ عقل الرجل، ويشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالىٰ إياه، وقد قيل: العاقل الذي يحسن المُداراة مع أهل زمانه.

وقيل: ثلاثة هن رأس العقل: مداراة الناس، والاقتصاد في المعيشة، والتحبب إلىٰ الناس.

والعقلُ قائد لصفات الخير، وهو الذي يروِّض الجوارح واللسان علىٰ فعل الجميل واجتناب القبيح، وهو للجوارح كالملك مع الرعية، فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها.

وقد قالت الحكماء: بأيدي العقول تُمسَك أعنةُ النفوس، وكلُّ شيء إذا كَثُر رَخُص، إلا العقل فإنه كلما كَثُر غلا، ولكل شيءٍ غايةٌ وحدٌّ، والعقل لا غاية له ولا حد، ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار في المروج.

وقال القاسم بن محمد: «من لم يكن عقلُه أغلبَ الخصال عليه، كان حتفه من أغلب الخصال عليه».

هذا وإن التجربة مرآة العقل، ولذلك فقد حُمِدَت آراء المشايخ، ولم يستغن الناسُ عن آرائهم، وذلك لأن الشيخ الكبير وإن عُدِم ذكاء الطبع فقد أفادته الأيام حيلة وتجربة، ولذا قيل: المشايخ أشجار الوقار، لا يطيش لهم سهم، ولا يسقط لهم فَهمٌ، قال الشاعر:

إذا طال عمرُ المرءِ في غير آفةٍ ... أفادت له الأيامُ في كَرِّها عَقلَا

وقال آخر:

ألم ترَ أنَّ العقلَ زينٌ لأهله ... ولكنْ تمامُ العقل طولُ التجَاربِ

وقال بعض الحكماء: «أربعة تحتاج إلىٰ أربعة: الحسب إلىٰ الأدب، والسرور إلىٰ الأمن، والقرابة إلىٰ المودة، والعقل إلىٰ التجربة».

ومن فضل العقل: أن صاحبه يعيش به حيث كان كما يعيش الأسد بقوته حيث كان، فلا شرف يوازي شرف العقل، ولا غنىٰ يوازي غنىٰ النفس، كما قيل:

إذا لم يكن للمرء عقلٌ فإنه ... وإن كان ذا بيتٍ علىٰ الناس هيِّنُ

ومن كان ذا عقلٍ أُجِل لعقله ... وأفضل عقلٍ عقلُ مَن يتدينُ

ومن صفات العاقل: اشتغاله بشئونه وتجنبه ما لا يعنيه، وتفكره فيما تئول إليه

الأمور، **قال عامر بن عبد قيس:** إذا عقَّلَك عقلُك عما لا يعنيك فأنت عاقل.

وقيل لعلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: صف لنا العاقل؟ قال: هو الذي يضع الشيء مواضعه. قيل: فصف لنا الجاهل؟ قال: قد فعلت. يعني: الذي لا يضع الشيء مواضعه.

وقال المنصور لولده: خذ عني اثنتين: لا تقل من غير تفكير، ولا تعمل بغير تدبير.

والعاقل واثق بنفسه بعد الله عَزَّوَجَلَّ، لا تبطره المنزلة السنية العالية، كالجبل لا يزعزع وإن اشتدت عليه الريح، بخلاف الجاهل الذي تبطره أدنىٰ منزلة، مَثَلُه في ذلك مثل الحشيش الذي تحركه أدنىٰ ريح.

ومن قصص العقلاء الذين تميزوا بالذكاء والفطنة: ما جاء عن إياس بن معاوية القاضي، وقد كان من أكابر العقلاء، وكان عقله يهديه إلىٰ سلوك طرق لا يكاد يسلكها من لم يهتد إليها، فكان من جملة الوقائع التي صدرت منه وشهدت له بالعقل الراجح والفكر القادح، أنه كان في زمانه رجل مشهور بين الناس بالأمانة، فاتفق أن رجلًا أراد أن يحج، فأودع عند ذلك الرجل الأمين كيسًا فيه جملة من الذهب، ثم حج.

فلما عاد من حجه جاء إلىٰ ذلك الرجل وطلب كيسَه منه فأنكره وجحده، فجاء إلىٰ القاضي إياس بن معاوية وقص عليه القصة، فقال له إياس: هل أخبرت بذلك أحدًا غيري؟ قال: لا. قال: فهل علم الرجلُ أنك أتيت إلي؟ قال: لا، قال: انصرف واكتم أمرك، ثم عُد إليَّ بعدَ غدٍ، فانصرف الرجل.

ثم إن إياسًا القاضي دعا ذلك الرجل المستودَعَ عنده المال، فقال: قد حصل عندي أموالٌ كثيرةٌ، ورأيت أن أُودِعَها عندك، فاذهب وهيئ لها موضعًا حصينًا.

فمضىٰ ذلك الرجل، وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل، فقال له القاضي إياس: امض إلىٰ خصمك واطلب منه وديعتك، فإن جَحَدَك فقل له: امضِ معي إلىٰ القاضي إياس نتحاكم عنده، فلما جاء إليه دفع إليه وديعته، فجاء الرجل إلىٰ القاضي إياس وأعلمه بذلك.

ثم إن ذلك الرجل المستودع جاء إلىٰ القاضي طامعًا في تسليم المال، فسَبَّه القاضي وطرده، وكانت هذه الواقعة مما يدل علىٰ عقله وصحة فكره.

ولما مات بعض الخلفاء اختلفت الروم واجتمعت ملوكها، فقالوا: الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض، فتمكننا الغرة منهم والوثبة عليهم، وعقدوا لذلك المشورات، وتراجعوا فيه بالمناظرات، وأجمعوا علىٰ أنها فرصة الدهر، وكان رجل منهم من ذوي العقل والمعرفة والرأي غائبًا عنهم، فقالوا: مِن الحزم عرض الرأي عليه، فلما أخبروه بما أجمعوا عليه، قال: لا أرىٰ ذلك صوابًا، فسألوه عن علة ذلك، فقال: في غدٍ أخبركم إن شاء الله تعالىٰ.

فلما أصبحوا أَتوا إليه، وقالوا: قد وعدتنا أن تخبرنا في هذا اليوم بما عوَّلنا عليه، فقال: سمعًا وطاعة، وأمر بإحضار كلبين عظيمين كان قد أعدهما، ثم حرَّض كلَّ واحد منهما علىٰ الآخر، فتواثبا وتهارشا حتىٰ سالت دماؤهما، فلما بلغا الغاية، فتح باب بيتٍ عنده وأرسل علىٰ الكلبين ذئبًا كان قد أعده لذلك، فلما أبصراه تركا ما كانا عليه وتألفت قلوبهما ووثبا جميعًا علىٰ الذئب فقتلاه، فأقبل الرجل علىٰ أهل الجمع فقال: مَثَلكم مع المسلمين مَثَل هذا الذئب مع الكلاب، لا يزال الهرج بين المسلمين ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم، فإذا ظهر تركوا العداوة بينهم وتألَّفوا علىٰ العدو، فاستحسَنوا قوله واستصوبوا رأيه.

وأما الحُمق؛ فخلق مذموم، وهو غريزة لا تنفع فيها الحيلة، وداء دواؤه الموت، وأبرز الصفات التي تدل علىٰ حمق المرء: ترك النظر في عواقب الأمور وما تئول إليه، وثقته بمن لا يعرفه، والعُجب، وكثرة الكلام، وسرعة الجواب، وكثرة الالتفات، والخلو من العلم، والعجلة، والخفة، والسَّفه، والظلم، والغفلة، والسهو، والخيلاء.

والأحمق إن استغنىٰ بطر، وإن افتقر قنط، وإن قال أفحش، وإن سئل بخل، وإن سأل ألح، وإن قال لم يحسن، وإن قيل له لم يفقه، وأعجب العجب أن تختلط الأمور حتىٰ لا يُميز بين العاقل والأحمق لوجود كثير من هذه الأوصاف بينهما، فلا يكاد

يعرف العاقل من الأحمق.

وجاء عن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: عالجت الأبرص والأكمه فأبرأتهما، وعالجت الأحمق فأعياني.

ونظر بعض الحكماء إلىٰ أحمق علىٰ حجر، فقال: حجر علىٰ حجر، وقد قيل:

لكل داءٍ دواءٌ يستطب به ... إلا الحماقة أعيت من يُداويهَا

وحُكِي أن أحمقين اصطحبا في طريق، فقال أحدهما للآخر: تعال نتمنَّ علىٰ الله فإن الطريق يُقطَع بالحديث، فقال أحدهما: أنا أتمنىٰ قطائعَ غنمٍ أنتفع بلبَنِها ولحمها وصوفها، وقال الآخر: أنا أتمنىٰ قطائعَ ذئابٍ أرسلها علىٰ غنمك حتىٰ لا تترك منها شيئًا.

قال: وَيحَك أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة؟!

فتصايحا وتخاصما واشتدت الخصومة بينهما حتىٰ تماسكا بالأطواق، ثم تراضيا أن يحكِّما بينهما أول مَن يطلُع عليهما، فطلع عليهما شيخٌ بحمارٍ عليه آنيتان من عسل، فحدثاه بحديثهما، فنزل بالآنيتين وفتحهما حتىٰ سال العسل علىٰ التراب، وقال: صب اللهُ دمي مثلَ هذا العسل إن لم تكونا أحمقين.

ومن ابتلي بأحدٍ من الحمقىٰ فأكثر عليه، فليلزم الصمت عنده، فإنه أنجح علاج لدائه، وخير جواب لسؤاله.

فإذا كان المرء قد أنعم الله عليه بالعقل وعافاه من الحماقة، فليحمد الله علىٰ نَعمائه، فإنَّ العاقل وإن كان محرومًا، خيرٌ من الأحمق وإن كثر خيره.

وعلىٰ المرء أن ينمي عقله بما يعرض عليه من النظر في العلوم والتجارب ومجالسة ذوي العقول، فإن مَن ترك الاستماع لذوي العقول مات عقله، وليحذر من مجالسة الحمقىٰ فإن مجالستهم تضعف العقول وتذهب الهيبة والوقار.

قال شعبة بن الحجاج: «عقولنا قليلة، فإذا جلسنا مع من هو أقل عقلًا منا ذهب

ذلك القليل، وإني لأرىٰ الرجل يجلس مع من هو أقل عقلًا منه فأمقتُه».

وقال إياس: «إني لأكلم الناس بنصف عقلي، فإذا اختصم إلي اثنان جمعت عقلي كله».

وقال رجلٌ لإياس: إنَّ فيك خصالًا لا تُعجبني، فقال: ما هي؟ فقال: تحكُمُ قبل أن تفهم، وتجالس كلَّ أحد، وتلبس الثياب الغليظة.

فقال له: أيها أكثر، الثلاثة أو الاثنان؟ قال: الثلاثة، فقال: ما أسرع ما فهمت وأجبت، فقال: أو يجهل هذا أحد؟ فقال: وكذلك ما أحكم أنا به.

وأما مُجَالستي لكل أحد فلأن أجلس مع من يعرف لي قدري أحب إلي من أن أجلس مع من لا يعرف لي قدري، وأما الثياب فإنما ألبس منها ما يقيني لا ما أقيه أنا.

وقال إياس: كل رجل لا يعرف عيب نفسه فهو أحمق. فقيل له: فما عيبك؟ قال: كثرة الكلام.

❊ ❊ ❊

التوكل على الله تعالى

إن من سَعَادة العبد: أن يرزقه الله تعالىٰ حُسن التوكُّل عليه في أموره كلها، وإن بلوغ هذه المنزلة لهو من أعظم الامتنان والتفضل علىٰ العبد، فمن توكل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ حق التوكل سكن قلبه، واطمأنت نفسه، ولذ عيشه، ذلك أن حقيقة التوكل هي صدق اعتماد القلب علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ في استجلاب المصالح، ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة، وتفويض الأمور كلها إلىٰ الله سبحانه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه، وهذه منزلة لا يبلغها إلا الصِّدِّيقون.

قال سعيدُ بن جُبَير: «التوكل جماع الإيمان».

فالتوكل عبادة قلبية مَحضَة، ليست قولًا باللسان، ولا عملًا بالجوارح، ولذلك قال الإمام أحمد: «التوكل عمَلُ القَلب».

فلا بُدَّ للقلب أن يكون متعلقًا بالله حق التعلق، وأن يُوقِنَ العبد بأن مردَّ الأمور إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

ولعِظَم مَنزِلة التوكُّل فقد جاءت الأدلة الكثيرة تحُثُّ عليه وتُبَين منزلته ليأخذ به المسلم، لما فيه من حلاوة العيش وحسن العاقبة، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]؛ أي: كافيه، وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣].

وجاء عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**لو أنكم تتوكلون علىٰ الله حقَّ توكُّله لرزقَكُم كما يرزُقُ الطير، تغدُو خِمَاصًا وتَرُوحُ بِطانًا**»[1].

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣١٠).

ففي هذا الحديث ضرب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَثَل بالطير علىٰ ضعفه، وأن الله عَزَّوَجَلَّ قد تكفل له بالرزق وهداه لأسبابه، وهذا مما يورث اليقين عند العبد بأن عَيشَه مكفول، فإذا علم ذلك أورثه ذلك حسن ظنٍّ بربه سبحانه؛ لأن المتوكل حقيقةً من يعلم أن الله قد ضمن لعبده رزقه وكفايته، فيصدِّق الله فيما ضمنه، ويثق بذلك حقَّ الثقة، ويحقق الاعتماد عليه فيما ضمنه من الرزق، وأن الرزق مقسوم لكل أحدٍ من برٍّ وفاجر، ومؤمن وكافر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦].

هذا مع ضعف كثير من الدَّوابِّ وعَجزِها عن السَّعي في طلب الرزق، فما دام العبد حيًّا، فرِزقُه علىٰ الله، وقد يُيَسِّره الله بكسب أو بغير كسب، وإن كان بذلُ الأسباب مطلوبًا.

والتوكل دليل علىٰ حسن ظن العبد بربه، **قال محمدٌ الذُّهلي**: سألت الخريبي عن التوكل فقال: «أرىٰ التوكل حسن الظن بالله».

فعلىٰ قدر حسن ظن العبد بربه ورجائه له يكون توكله عليه، فحسن الظن بالله يدعو العبد إلىٰ التوكل عليه، إذ لا يتصور التوكل علىٰ من ساء ظنه به، ولا التوكل علىٰ مَن لا يرجوه، وهذا ما فعله أولياء الله عَزَّوَجَلَّ في أحلك الظروف وأصعب المواقف، حيث فوضوا أمورهم إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ لحسن ظنهم بكفايته لهم.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «حسبُنا الله ونِعم الوكيل، قالها إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين أُلقي في النار، وقالها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»(١).

فهذا بيانٌ لحال الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وكيف بلغ بهم التوكل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وحُسن ظنهم به علىٰ الرغم مما هم فيه من الخوف والضنك الشديد،

(١) رواه البخاري (٤١٩٧).

فكان قولُهُم: حسبنا الله ونعم الوكيل؛ أي: أنه كافينا في مهماتنا وملماتنا، وهو نعم الكافي ومن نُفَوِّضُ له الأمر.

فإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما دعا قومه إلىٰ التوحيد وكسر أصنامهم، أوقدوا له نارًا عظيمة ثم رموه فيها، فلما رموه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل. فكانت النتيجة أن أنجاه الله من النار، قال تعالىٰ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، فنجاه الله عَزَّوَجَلَّ لحُسْن ظنِّه به وصِدقِ توكله عليه.

و لما رجع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من غزوة أُحد، وقد هُزِم المسلمون فيها وأصابهم غمٌّ شديد وضنك عظيم، وقُتِل منهم خلق كثير، جاء من أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّ المشركين عزموا علىٰ العودة إلىٰ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصحابته ليستأصلوا بقيتهم، وقد جمعوا لذلك الجموع، فما كان من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصحابته إلا أن فوضوا أمرهم إلىٰ الله، وأحسنوا الظن به سبحانه، وزادهم ذلك الأمر علىٰ شدته إيمانًا، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

فماذا كانت النتيجَة؟

قال تعالىٰ: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٧٤].

وفي ذلك أعظم دليل علىٰ أن الإنسان مهما مَسَّه من الضنك والشدائد، إن لجأ إلىٰ الله سبحانه في أموره أعانه وتولاه ونصره، لكنَّ البلاء العظيم أن بعض الناس إذا مسه الكرب لجأ إلىٰ الأمور المادية يبحث من خلالها عن الفرج، ولو تعلق قلبه بخالقه لكفاه ما أهَمَّه.

ثمَّ إن اعتماد القلب علىٰ الله تعالىٰ، واستناده وسكونه إليه، يُذهِبُ عنه ما يكون في القلوب من التشويش، والخوف من فوات الأسباب، لعلمه أن هذه الأسباب بيد مسببها سبحانه، ولذلك لا يُبَالي بإقبالها وإدبارها، ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها، وإقبال ما يكره؛ لأن اعتماده علىٰ الله وسكونه إليه واستناده إليه،

قد حصنه من خوفها ورجائها، فحاله في ذلك حال من خرج عليه عدوٌّ عظيم لا طاقة له به، فرأىٰ حصنًا مفتوحًا فأدخله صاحبه إليه وأغلق عليه باب الحصن، فهو يشاهد عدوه خارج الحصن، فاضطرابُ قلبهِ وخوفُه من عدوه في هذه الحال لا معنىٰ له.

ومَثَلُه في ذلك مَثَل الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدي أمه لا يعرف غيره، وليس في قلبه التفات إلىٰ غيره؛ **ولذلك قال بعضُ العُلَمَاء**: المتوكِّل كالطفل لا يعرف شيئًا يأوي إليه إلا ثدي أمِّه، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلىٰ ربه سبحانه.

وروح التوكل ولبُّه وحقيقتُه في تفويض الأمور إلىٰ الله، وأن يلقي المرء أموره كلَّها لله سبحانه، وإنزالها به طلبًا واختيارًا، لا كرهًا واضطرارًا، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب علىٰ أمره أمورَه إلىٰ أبيه العالِم بشفقته عليه ورحمته وتمام كفايته وحسن ولايته له، فهو يرىٰ أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه، وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها، فلا يجد له أصلَح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلىٰ أبيه، وراحتِه من ثقل حملها، مع عجزه عنها وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال من فوَّض إليه وقدرتهِ وشفقته.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ فيما حكاه عن مؤمن آل فرعون حيث قال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر:٤٤]، والمُفَوِّض لا يفوِّض أمره إلىٰ الله إلا لإرادته أن يقضي له ما هو خير له في مَعَاشه ومَعَاده، وإن كان المقضي له خلاف ما يظنه خيرًا فهو راضٍ به؛ لأنه يعلم أنه خير له وإن خفيت عليه جهة المصلحة فيه، وهكذا حال المتوكل سواءً، بل هو أرفع من المفوض، لأن مقام التوكل اعتماد القلب كله علىٰ طاعة الله بعد تفويضه.

ومِن أجلِّ ثمرات التوكل علىٰ الله: الرضا بما يقدره الله سبحانه، وهذا من أعظم درجات العبودية.

قال بِشرٌ الحَافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول أحدهم: توكلت علىٰ الله، يكذب علىٰ الله، لو توكل علىٰ الله لرضي بما يفعله الله به».

فمن وكَّل الله سبحانه في أمره، فمن تمام عبوديته أن يرضىٰ بما كتب الله له وقدَّره عليه فيما وكَّل الله فيه من الأمور.

ومن تأمل الجزاء الذي جعله الله تعالىٰ للمتوكِّل عليه، وأنه لم يجعله لغيره علم أن التوكل أحبُّ السبل الموصلة إليه سبحانه؛ فقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

هذا وإن من تمام التوكُّل: الأخذ بالأسباب، ولا يعني التوكل ألَّا يأخذ العبد بالأسباب؛ لأن ترك الأسباب جملةً ممتنعٌ عقلًا وحسًّا، وما أخل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بشيء من الأسباب، فقد لبس درعين يوم أحد، واستأجر دليلًا مشركًا يدله علىٰ طريق الهجرة، وكان إذا سافر في حج أو جهاد حمل الزاد والمزاد، وهكذا فعل أصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ وهم أولو التوكل حقًّا.

ومع كون الأخذ بالأسباب من تمام التوكل؛ فإن الواجب علىٰ المسلم ألا يلتفت قلبه إلىٰ الأسباب بل إلىٰ مسببها سبحانه، فقد يجمع المرء جميع الوسائل المادية ولا يتم له ما عزم عليه، فإن الأمور بيد الله.

ولما كان الأمر كله لله عَزَّوَجَلَّ، وليس للعبد فيه شيء ألبتة، كان توكلُه علىٰ الله تسليمَ الأمر لمَن هُوَ لَه، وعزلَ نفسِه عن منازعة مالكه، واعتمادَه عليه فيه، وخروجَه عن تصرفه بنفسه وحولِهِ وقوته إلىٰ تصرفِّه بربه، وكونِه به سبحانه دون نفسه، وهذا مقصود التوكل.

فإذا عزل العبد نفسه عن مقام التوكل عزلها عن حقيقة العبودية، وقد خاطب الله سبحانه في كتابه بالتوكل خواصَّ خلقه وأقربهم إليه وأكرمهم عليه، وشَرَط في إيمانهم أن يكونوا متوكلين، وهذا يدل علىٰ انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل، فمن لا توكل له لا إيمان له، قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]،

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢]، وهذا يدل علىٰ انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة.

وأخبر تعالىٰ عن رسله بأن التوكل ملجؤهم ومعاذُهم؛ فقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس:٨٤-٨٥].

وقال رسل الله وأنبياؤه: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم:١٢].

فالعبد آفته إما من عدم الهداية، وإما من عدم التوكل، فإذا جمع التوكلَ إلىٰ الهداية فقد جمع الإيمان كله.

وقد كان في دعاء النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما يدل علىٰ توكله الدائمِ علىٰ خالقه سبحانه، فكان من دعائه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قولُه: «**اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنَبْت، وبك خاصَمْت**»(١).

فإذا كان هذا حال الأنبياء -صلوات ربي وسلامه عليهم- فينبغي علىٰ المسلم أن يقتدي بهم، وأن يستشعر حقيقة التوكل في قلبه، والتي ينتج عنها ترجمة هذه العقيدة القلبية علىٰ لسانه وجوارحه، ويوقن أشد اليقين بأن العبد إذا توكل علىٰ الله تعالىٰ أورثه ذلك علمًا أكيدًا بأنه لا يملك لنفسه ولا لغيره حولًا ولا قوة، وأن استطاعته بيد الله لا بيده، فهو مالِكُها دونه، وأنه إن لم يعطه الاستطاعة فهو عاجز، وأنه لا يتحرك إلا بالله لا بنفسه؛ ولذا كان من دعائه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يا حَي يا قَيُّوم، برَحمَتِك استغيثُ، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (١٠٥٣)، ومسلم (٤٨٩٤).

(٢) رواه النَّسائي، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٦٦١).

وكان من دعاء علي بن الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اللهم لا تكلني إلىٰ نفسي فأعجز عنها، ولا تكلني إلىٰ المخلوقين فيضيعوني».

فالواجب علىٰ المسلم: أن يلزم التوكُّل؛ لأنه مَحضُ العبودية وخالص التوحيد إذا قام به صاحبه حقيقة، ومن تَرسَّخت في قلبه هذه العقيدة فهو الموفق حقًّا.

❊ ❊ ❊

فضل القناعة والرضا بما قسم الله تعالى

إن من ثمرات توكُّل العبد علىٰ الله: أن يرزقه القناعة وترك الطمع، فإذا أراد الله سبحانه بعبده خيرًا رزقه القناعة فيما قسم له، والرضا فيما أعطاه، والاستغناء عما في أيدي الناس.

قال سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا بني، إذا طلبت الغنىٰ فاطلبه في القناعة؛ فإنها مال لا ينفد، وإياك والطمع فإنه فقرٌ حاضر، وعليك باليأس، فإنك لم تيأس من شيء إلا أغناك الله عنه».

وقالت الحُكماء: إذا أراد الله بعبد خيرًا ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وفقهه في الدِّين، وعَضده باليقين، فاكتفىٰ بالكَفَاف، واكتسىٰ بالعفاف.

وإذا أراد به شرًّا حبَّب إليه المال، وبسط له الآمال، وشغله بدنياه، ووكله إلىٰ هواه، فركب الفساد وظلم العباد.

ولا يكمل للإنسان دِينُه حتىٰ يكون فيه أربع خصال: يقطع رجاءه عما في أيدي الناس، ويسمع شتم نفسه ويصبر، ويحب للناس ما يحب لنفسه، ويثق بمواعيد الله.

وقيل: إن الله تعالىٰ قد أوحىٰ إلىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أتدري لم رزقتُ الأحمق؟ قال: لا يا رب، قال: ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال.

وقيل لأعرابية: من أين معاشكم؟ قالت: لو لم نعش إلا من حيث نعلم لم نَعِش.

ولهذا فإن من تمام عقل المرء أن يكون في دُنياه كالمدعو إلىٰ الوليمة، إن أتته آنية طعام تناولها، وإن لم تأته لم يرصدها ولم يطلبها.

هي القناعة فالزمها تعش ملكًا لو لم يكن منك إلا راحة البدنِ
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفنِ

ومن عرف أنَّ مدة عمره قليلة، وصحة نفسه مستحيلة، لم يغتر بصحة نفسٍ ولا سلامة أمس، وأورثه ذلك الرضا بما ناله، وقطع الطمع عما فاته، فإنَّ أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع.

عن أبي الزناد قال: اجتمع في الحجر مصعب، وعروة، وعبد الله، بنو الزبير، وعبدُ الله بن عمر، فقالوا: تمنَّوا، فقال عبد الله بن الزبير: أما أنا فأتمنىٰ الخلافة، وقال عروة: أما أنا فأتمنىٰ أن يؤخذ عني العلم، وقال مصعب: أما أنا فأتمنىٰ إمرة العراق والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين، وقال عبد الله بن عمر: أما أنا فأتمنىٰ المغفرة.

قال: فنالوا كلهم ما تمنوا، ولعل ابن عمر قد غفر الله له.

ولما استخلف عليٌّ، أتاه ابن عمر، فقال له علي: إنك محبوب إلىٰ الناس، فسر إلىٰ الشام فقد وليتكها، فقال: أذكرك الله وقرابتي وصحبتي لرسول الله والرحم إلا ما وليت غيري وأعفيتني، فأبىٰ عليه، فاستعان بحفصة أخته فكلمته، ثم سار من ليلته إلىٰ مكة هاربًا منه.

وقيل: إن مروان قال لابن عمر: ألا تخرج إلىٰ الشام فيبايعوك؟ قال: فكيف أصنع بأهل العراق؟ قال: تقاتلهم بأهل الشام، فقال: والله ما يَسُرني أنَّ لي ملك الأرض، وأن الناس كلهم بايعوني، وقد قُتل منهم رجل واحد، وما أحب أنها أتتني ورجُلٌ يقول: لا، وآخر يقول: نعم.

* * *

الاستشارة

كم هو جميل بالمرء أن يستشير أصحابه وذوي الرأي والعقل؛ فإن الاستشارة تثري العقل وتزيد في سعة الفكر، ولذلك فقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ نبيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يستشير أصحابه فقال تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وما أمره بمشاورتهم إلا من أجل أن يحثهم علىٰ الاقتداء به في ذلك.

والمُستشير يتبين له بفضل مشاورته ما قد يخفىٰ عليه لو أنه عمل برأيه مجردًا؛ **ولذلك قال الحسن** رَحِمَهُٱللَّهُ: «الناس ثلاثة: فرجلٌ رجل، ورجلٌ نصفُ رجل، ورجلٌ لا رجل، فأما الرجلُ الرجلُ: فذو الرأي والمشورة، وأما الرجلُ الذي هو نصف رجل: فالذي له رأيٌ ولا يشاور، وأما الرجلُ الذي ليس برجل: فالذي ليس له رأي ولا يشاور».

وقال بعض الأعراب: لا مال أوفر من العقل، ولا فقر أعظم من الجهل، ولا ظهر أقوىٰ من المشورة.

وكان يقال: من أُعطي أربعًا لم يُمنع أربعًا؛ من أعطي الشكر لم يمنع المزيد، ومن أعطي التوبة لم يمنع القبول، ومن أعطي الاستخارة لم يمنع الخيرة، ومن أعطي المشورة لم يمنع الصواب.

وعلىٰ العاقل ألَّا يَحتقِرَ مشورة أحد وإن كان دنيَّ القدر، فقد يفتح الله سبحانه علىٰ أناس دون المنزلة، والعاقل لا يستحقر الرأيَ الجزيل من الرجل الحقير، لعلمه أنَّ الدرة لا يستهان بها لهوان غائصها، **قال الفضل بن يحيىٰ**: «المشورة فيها بركة، وإني لأستشير حتىٰ هذه الحبشية الأعجمية -يعني: جارية له-».

ولما أراد نوح بن مريم قاضي مرو أن يزوج ابنته استشار جارًا له مجوسيًّا، فقال:

سبحان الله! الناس يستفتونك وأنت تستفتيني، قال: لا بُد أن تُشير عليَّ.

قال: إن رئيس الفرس كسرىٰ كان يختار المال، ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال، ورئيس العرب كان يختار الحسب، ورئيسكم محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يختار الدين، فانظر لنَفسِك بمن تقتدي.

فإذا استخار المرءُ ربَّه ومولاه في أمره، ثم استشار أصحابه وذوي الرأي من خاصته، فحقيقٌ ألا يخيب رأيه.

وعلىٰ المرء إن أدلىٰ بمشورته لأحد أن يكون ناصحًا له بمشورته، باذلًا له عصارة أفكاره؛ لأنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**المُستشَار مؤتمن**»(١).

والواجب علىٰ المشير أن ينصح في مشورته لجميع من استشاره حتىٰ وإن كان طالب المشورة عدوًّا؛ لأنَّ العدو باستشارته لشخصٍ ما قد خرج عن عَدَاوته إلىٰ مُوَالاته.

فمن استشير فليشر بالنصيحة، وليجتهد بالرأي، وليلزم الحق، وقصد السبيل، وليجعل المستشير كنفسه بترك الخيانة، وبذل النصيحة له.

فمـن الـرجالِ إذا زَكَـت أحلامُهُـم ... مَـن يستـشارُ إذا استـشير فيُطـرِقُ

حتـىٰ يجـولَ بكـلِّ وادٍ قلـبُه ... فيـرىٰ ويعـرفُ مـا يقـول ويـنطِقُ

إن الحلـيمَ إذا تفكَّـر لـم يَكَـد ... يخفـىٰ علـيه مـن الأمـورِ الأوفـقُ

وعليه أن يكون مترويًا في طرح مشورته؛ نظرًا لما يتعلق فيها من مصير غيره، وأن يكون نبيهًا في معرفة مَن يدلي له بمشورته ومن يُحجم عن بذل المشورة له، **فقد قال جعفر بن محمد**: «لا تكونن أول مشير، وإياك والرأي الخطير، وتجنب ارتجال الكلام، ولا تشيرن علىٰ مُستبدٍّ برأيه، ولا علىٰ متلون، ولا علىٰ لحوح».

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٤١).

ومما ذكر في شأن الأمم: أن اليونان والفرس كانوا لا يجمعون وزراءهم علىٰ أمرٍ يستشيرونهم فيه، وإنما يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به، لئلَّا يقع بين المستشارين منافسة، فتذهب إصابة الرأي، لأن من طباع المشتركين في الأمر التنافس والطعن من بعضهم في بعض، وربما سبق أحدهم بالرأي الصواب فحسموه وعارضوه؛ ولأنَّ في اجتماعهم للمشورة تعريضَ السر للإذاعة، فإذا كان كذلك وأذيع السر لم يقدر الملك علىٰ معرفة من أذاعه، فإن عاقب الكلَّ عاقبهم بذنبٍ واحد، وإن عفا عنهم ألحق الجاني بمن لا ذنب له.

كما أن الواجب علىٰ العاقل إذا استُشِير قوم هو فيهم أن يكون آخر من يشير؛ لأنه أمكن من الفكر وأبعد من الزَّلَل، وأقرب من الحزم، وأسلم من السقط.

فلا تسبقنَّ الناس بالرأي واتَّئِد فإنك إن تعجَل إلىٰ القول تَزلِلِ
ولكن تصفَّح رأيَ من كان حاضرًا وقل بعدهم رُسلًا وبالحق فاعمَلِ

ولا ينبغي لمن طلب المشورة من أحد، ثم لم يُوفَّق للصواب أن يجعل ذلك مثلبًا عليه، فإنَّ المشير يجتهد فيما بان له، فلا يحمَّل أثر النتائج إذا لم تثمر، **فقد قال أهل الرأي والحكمة:** إذا أشار عليك صاحبك برأي ولم تُحمَد عاقبته، فلا تجعلن ذلك عليه لومًا وعتابًا بأن تقول: أنت فعلت، وأنت أمرتني، ولولا أنت، فهذا كله ضجر ولوم وخفة، فالمستشار مؤتمن وليس بضامن، والمستشير متحصِّن من السقط متخيِّر للرأي، والمستشير باستشارته قد طلب راحة نفسه بإلقائه ثقل حمله علىٰ غيره، قال ابن المعتز: المشورة راحة لك، وتعب علىٰ غيرك.

وينبغي لمن شاور أن يشاور أهل الرأي والحكمة، وأن يتحرىٰ الوقت المناسب وخلو ذهن المشير من المشوشات، حتىٰ تؤتي المشورة ثمارها، **فعن الأحنف بن قيس قال:** «لا تشاور الجائع حتىٰ يشبع، ولا العطشان حتىٰ يروىٰ، ولا الأسير حتىٰ يطلق، ولا المقل حتىٰ يجد».

وقالت الحكماء: لا تشاور معلمًا، ولا راعي غنم، ولا كثير القعود مع النساء، ولا صاحب حاجة يريد قضاءها، ولا خائفًا، ولا حاقنًا.

وقيل: سبعة لا ينبغي لصاحب أن يشاورهم: جاهلٌ، وعدوٌّ، وحسودٌ، ومراءٍ، وجبانٌ، وبخيلٌ، وذو هوىٰ، فإن الجاهل يُضِل، والعدو يريد الهلاك، والحسود يتمنىٰ زوال النعمة، والمرائي واقف مع رضا الناس، والجبان من رأيه الهرب، والبخيل حريص علىٰ جمع المال فلا رأي له في غيره، وذو الهوىٰ أسير هواه فلا يقدر علىٰ مخالفته.

وحُكي أن رجلًا من أهل المدينة يُعرف بالأسلمي قال: ركبني دين أثقل كاهلي وطالبني به مستحقوه، واشتدت حاجتي إلىٰ ما لا بُدَّ منه، وضاقت عليَّ الأرض، ولم أهتد إلىٰ ما أصنع، فشاورت من أثق به من ذوي المودة والرأي، فأشار علي بقصد المهلب بن أبي صفرة بالعراق، فقلت له: تمنعني المشقة وبُعد الشُّقة وتيه المهلب، ثم إني عدلت عن ذلك المشير إلىٰ استشارة غيره، فلا والله ما زادني علىٰ ما ذكره الصديق الأول، فرأيت أن قبول المشورة خير من مخالفتها، فركبت ناقتي وصحبتُ رفقة في الطريق، وقصدت العراق، فلما وصلت دخلت علىٰ المهلب فسلمت عليه وقلت له: أصلح الله الأمير، إني قطعت إليك الدهناء، وضربت أكباد الإبل من المدينة، فإنه أشار عليَّ بعض ذوي الحجىٰ والرأي بقصدك لقضاء حاجتي.

فقال: هل أتيتنا بوسيلة أو بقرابة وعشيرة، فقلت: لا، ولكني رأيتك أهلًا لقضاء حاجتي، فإن قمت بها فأهل لذلك أنت، وإن يَحُل دونها حائل لم أذم يومك، فقال المهلب لحاجبه: اذهب به وادفع إليه ما في خزانة مالنا الساعة، فأخذني معه، فوجدت في خزانته ثمانين ألف درهم، فدفعها إليَّ، فلما رأيت ذلك لم أملك نفسي فرحًا وسرورًا، ثم عاد الحاجب بي إليه مسرعًا، فقال: هل ما وصلك يقوم بقضاء حاجتك؟ فقلت: نعم أيها الأمير وزيادة، فقال: الحمد لله علىٰ نجاح سعيك،

واجتنائك جنىٰ مشورتك، وتحققِ ظنِّ من أشار عليك بقصدنا، ثم عدت إلىٰ المدينة فقضيتُ ديني، ووسعتُ علىٰ أهلي، وجازيتُ المشيرين، وعاهدتُ الله تعالىٰ ألا أترك الاستشارة في جميع أموري ما عشت.

وجاء عن الخليفة المنصور أنه كان صدَرَ من عمِّه عبدِ الله بن عليٍّ بن عبد الله بن العباس أمورٌ مؤلمة، لا تحتملها حراسةُ الخلافة، ولا تتجاوز عنها سياسةُ الملك، فحبسه عنده، ثم بلَغَه عن ابنِ عمه عيسىٰ بن موسىٰ بن علي، وكان واليًا علىٰ الكوفة ما أفسد عقيدته فيه، وأوحشه منه، وصرف وجه ميله إليه عنه، فتألم المنصور من ذلك وساء ظنُّه، وتأرق جفنُه، وقلَّ أمنُه، وتزايد خوفُه وحزنُه، فأدَّته فكرته إلىٰ أمرٍ دبَّره وكتمه عن جميعِ حاشيته وسَتَره، واستحضر ابنَ عمِّه عيسىٰ بن موسىٰ وأجراه علىٰ عادة إكرامه، ثم أخرج من كان بحضرته وأقبل علىٰ عيسىٰ وقال له: يا ابن العم، إني مُطلعُك علىٰ أمرٍ لا أجد غيرك من أهله، ولا أرىٰ سواك مساعدًا لي علىٰ حمل ثقله، فهل أنت في موضع ظني بك، وعامل ما فيه بقاءُ نعمتك التي هي منوطةٌ ببقاء ملكي؟ فقال له عيسىٰ بن موسىٰ: أنا عبدُ أمير المؤمنين، ونفسي طوعُ أمره ونهيه، فقال: إن عمي وعمَّك عبدَ الله قد فسدت بطانته، واعتمد علىٰ ما بعضُه يبيح دمه، وفي قتله صلاحُ ملكِنا، فخذه إليك واقتله سرًّا، ثم سَلَّمه إليه، وعزم المنصور علىٰ الحج مضمرًا أن ابنَ عمِّه عيسىٰ إذا قتل عمَّه عبدَ الله ألزمه القصاص، وسلمه إلىٰ أعمامه إخوةُ عبدِ الله ليقتلوه به قصاصًا، فيكون قد استراح من الاثنين عبدِ الله وعيسىٰ.

قال عيسىٰ: فلما أخذت عمي وفكرتُ في قتله، رأيت من الرأي أن أشاور في قضيته مَن له رأيٌ، عسىٰ أن أصيب الصواب في ذلك، فأحضرت يونس بن قرة الكاتب، وكان لي حسنُ ظنٍّ في رأيه، وعقيدةٌ صالحة في معرفته، فقلت له: إن أمير المؤمنين دفع إلي عمَّه عبدَ الله، وأمرني بقتله وإخفاء أمره، فما رأيك في ذلك وما تشير به؟، فقال لي يونس: أيها الأمير، احفظ نفسَك بحفظ عمِّك وعمِّ أمير المؤمنين،

فإني أرىٰ لك أن تدخله في مكان داخل دارك، وتكتم أمره عن كل أحد ممن عندك، وتتولىٰ بنفسك حمل طعامه وشرابه إليه، وتجعل دونه مغالق وأبوابًا، وأَظهِر لأمير المؤمنين أنك قتلته وأنفذتَ أمره فيه، وانتهيت إلىٰ العمل بطاعته، فكأني به إذا تحقق منك أنك فعلت ما أمرك به وقتلت عمَّه أمرك بإحضاره علىٰ رؤوس الأشهاد، فإن اعترفت أنك قتلتَه بأمره أنكر أمرَه لك وآخذَك بقتله وقَتَلَك.

قال عيسىٰ بن موسىٰ: فقبلت مشورة يونس وعملت بها، وأظهرتُ لأمير المؤمنين أني أنفذت أمره، ثم حج المنصور، فلما قدم من حجه وقد استقر في نفسه أنني قد قتلت عمَّه عبدَ الله دسَّ إلي عمومته إخوةِ عبد الله، وحثَّهم علىٰ أن يسألوه في أخيهم ويستوهبوه منه، فجاءوا إليه وقد جلس والناس بين يديه علىٰ مراتبهم، فسألوه في عبد الله، فقال: نعم إن حقوقكم تقتضي إسعافَكم بحاجتكم، كيف وفيها صلة رحم وإحسانٌ إلىٰ مَن هو في مقام الوالد، ثم أمر بإحضار عيسىٰ بن موسىٰ، فأُحضر لوقته، فقال: يا عيسىٰ، كنت دفعت إليك قبل خروجي إلىٰ الحج عمي عبدِ الله ليكون عندك في منزلك إلىٰ حين رجوعي، فقال عيسىٰ: قد فعلتُ يا أمير المؤمنين، فقال المنصور: وقد سألني فيه عمومتُك، وقد رأيتُ الصفحَ عنه وقضاءَ حاجتهم وصلةَ الرحم بإجابة سؤالهم فيه، فَأْتِنا به الساعة.

قال عيسىٰ: فقلت: يا أمير المؤمنين، ألم تأمرني بقتله والمبادرة إلىٰ ذلك؟ قال: كذبتَ، لم آمرك بذلك، ولو أردت قتله لأسلمته إلىٰ مَن هو بصدد ذلك، ثم أظهر الغيظ، وقال لعمومته: قد أقرَّ بقتل أخيكم مدعيًا أنني أمرته بقتله، وقد كذب عليَّ.

قالوا: يا أمير المؤمنين، فادفعه إلينا لنقتله به ونقتص منه، فقال: شأنكم به، قال عيسىٰ: فأخذوني إليهم، واجتمع الناسُ عليَّ، فقام واحدٌ من عمومتي إليَّ وسل سيفه ليضربني به، فقلت له: يا عم، أفاعل أنت؟ قال: إي والله، كيف لا أقتلك وقد قتلت أخي؟، فقال لهم: لا تعجلوا وردوني إلىٰ أمير المؤمنين، فرَدُّوني إليه، فقلت: يا أمير

المؤمنين، إنما أردتَ قتلي بقتله، والذي دبرته عليَّ عصمني الله تعالىٰ من فعله، وهذا عمُّك باقٍ حيٌّ سويٌّ، فإن أمرتني بدفعه إليهم دفعته الساعة، فأطرق المنصور، وعلم أن ريح فكره صادفت إعصارًا، وأن انفراده بتدبيره قارف خسارًا، ثم رفع رأسه وقال: ائتنا به، فمضىٰ عيسىٰ وأحضر عبدَ الله، فلما رآه المنصور قال لعمومته: اتركوه عندي وانصرفوا حتىٰ أرىٰ فيه رأيًا.

قال عيسىٰ: فتركته وانصرفت وانصرف إخوته، فسَلمت روحي، وزالت كربتي، وكان ذلك ببركة الاستشارة بيونس وقبول مشورته والعمل بها.

وكان عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس في زمن يزيد بن عبد الملك أميرًا علىٰ الحرمين، وقد أشار عليه الإمام الزهري برأي سديد، وهو أن يسأل العلماء إذا أشكل عليه أمر، فلم يقبل ولم يفعل، فأبغضه الناس، وذمه الشعراء، ثم كان آخر أمره أن عزلَه يزيد، وكان سببه أنه خطب فاطمة بنت الحسين، فامتنعت من قبول ذلك، فألحَّ عليها وتوعدها، فأرسلت إلىٰ يزيد تشكوه إليه، فبعث إلىٰ عبد الواحد بن عبد الله النضري نائب الطائف فولَّاه المدينة، وأمره أن يضرب عبد الرحمن بن الضحاك حتىٰ يسمع صوته أميرُ المؤمنين وهو متكئ علىٰ فراشه بدمشق، وأن يأخذ منه أربعين ألف دينار.

فلما بلغ ذلك عبد الرحمن بن الضحاك ركب إلىٰ دمشق فاستجار بمسلمة بن عبد الملك، فدخل مَسلمة علىٰ أخيه فقال: إنَّ لي إليك حاجة، فقال: كلُّ حاجة تقولها فهي لك إلا أن تكون ابن الضحاك، فقال: هو والله حاجتي، فقال: واللهِ لا أقبلها ولا أعفو عنه، فردَّه إلىٰ المدينة، فتسلمه عبد الواحد فضربه وأخذ ماله حتىٰ تركه في جبةِ صوف، فسأل الناسَ بالمدينة، وكان هذا آخرَ أمره.

❊ ❊ ❊

النصيحة

الواجب علىٰ العاقل أن يبذل نصحه للمسلمين كافَّة، مع ترك الخيانة لهم إضمارًا وقولًا وفعلًا؛ فبذل النصيحة للمسلمين والخلائقِ أجمعين من سنن المرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قال الله تعالىٰ إخبارًا عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود:٣٤]، وقال صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٩].

وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشترط علىٰ من بايعه من أصحابه النصح لكل مسلم، وجاء عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة**. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: **لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، ولعامتهم**»[1].

فالنصيحة لله: بالإخلاص له تعالىٰ، والتعبد له محبة وتعظيمًا، ووصفه بما هو أهله، وتنزيهه عما ليس له بأهل، والقيام بتعظيمه والخضوع له ظاهرًا وباطنًا، والرغبة في محابِّه والبعد عن مساخطه، وموالاة من أطاعه، ومعاداة من عصاه، وأن يكون المرء ذاكرًا له علىٰ الدوام بقلبه ولسانه وجوارحه، وأن يغار إذا انتهكت محارمه، وأن يجتهد في بثِّ دينه، ويجاهد في رد الناس إلىٰ طاعته قولًا وفعلًا.

والنصيحة لكتابه: تكون بالإيمان بأنه كلام الله المنزَّل من عند الله سبحانه، وتصديق أخباره، وإقامة تلاوته، وتحسين قراءته، وتفهم ما فيه، والذب عنه من تأويل المحدثين وطعن الطاعنين، وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين، كما يجب عليه احترامه

(١) رواه مسلم (٨٢).

وتوقيره فلا يضعه في موضع يمتهن فيه، قال الله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وأما النصيحة لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فتكون بالإيمان التام برسالته، وأنه مرسل إلىٰ الخلق أجمعين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ:٢٨]، وأنه خاتم المرسلين.

ومن النصيحة له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما نهىٰ عنه وزجر، مع صدق الاتباع له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يعبَد الله سبحانه إلا بما شرعه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه هو إمام الأمة ومتبوعها، فلا يحل لأحد أن يتبع سواه، فإن العبد مأمور بإفراد الله تعالىٰ بالعبادة، وإفراد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمتابعة.

كما أنَّ من النصح له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن يذب المسلم عن شريعته ويقوم علىٰ حمايتها، فلا ينتقصها أحد ولا يزيد فيها أحدٌ ما ليس منها.

وأما أئمة المسلمين: فهم الحكام، وتكون النصيحة لهم بمعاونتهم علىٰ ما كُلِّفوا به مِن المسئوليات، وتنبيههم عند الغفلة، وإرشادهم عند الهفوة، وتعليمهم ما خفي عليهم، وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء، وإعلامهم بأخلاق عُمالهم ووزرائهم وسيرتهم في الرعية، وسدِّ خلتهم عند الحاجة، وردِّ القلوب النافرة إليهم.

كما يجب الكفُّ عن ذكر مساوئهم؛ لأنَّ نشرها يؤدي إلىٰ زوال الأمن وحلول الفوضىٰ؛ فإنَّ الناس إذا امتلأت صدورهم بالحقد علىٰ الحكام، أدىٰ ذلك إلىٰ نقص هيبتهم، وتجرؤ الناس عليهم، فنابذوهم العداء، وحينئذٍ تحصل الفوضىٰ ويزول الأمن ويسود الخوف، أما إذا بقيت هيبتهم في الصدور، دام الأمن والرخاء، ومن هنا يُعلم أنَّ الكفَّ عن مساوئ الحكام وذكر محاسنهم مع النصح لهم فيه مصلحة عظيمة ترجع علىٰ الأمة جميعًا.

وأما النصيحة لعامةِ للمسلمين: ففي الشفقة عليهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويرشدهم إلىٰ الخير، ويهديهم إلىٰ الحق، يوقر كبيرهم، ويرحم صغيرهم، ويسعىٰ بتفريج كربهم، ويجانب ما يُشغل خواطرهم، ويفتح باب الوسواس عليهم.

وقد قدَّم النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أئمة المسلمين علىٰ عامتهم؛ لأنَّ الأئمة إذا صلحوا صلحت العامة، واستقامت شئون الرعية، فإنَّ الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

من أجل ذلك كان الواجب علىٰ العاقل أن يبذل نصحه لإخوانه المسلمين، وألا يكتم عنهم ما يراه خيرًا لهم وتستقيم حياتهم به.

قال علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «لا تعمل بالخديعة فإنها خُلُق اللئام، وامحَض أخاك النصيحة، حسنةً كانت أو قبيحة».

وقال الحسن البصري رَحِمَهُٱللَّهُ: «المؤمن شُعبةٌ من المؤمن، وهو مرآةُ أخيه، إن رأىٰ منه ما لا يعجبه سدَّده وقوَّمه ونصحه في السر والعلانية».

والنصيحة الصادقة علامة علىٰ الوفاء ونبل الأخلاق، وسبيل إلىٰ محبة باذلها.

قال بعضُ الخُلفاء لجرير بن يزيد: إني قد أعدَدتُك لأمر، قال: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالىٰ قد أعد لك مني قلبًا معقودًا بنصيحتك، ويدًا مبسوطة لطاعتك، وسيفًا مُجَردًا علىٰ عدوك.

قُل للنصيح الذي أهدىٰ نصيحته ... سِرًّا إلينا، وسامته التكاليفُ
النصحُ ليس له حدٌّ فتعرفه ... والنصح مستوحَشٌ منه ومألوفُ
لو كان للنصح حدٌّ يُستبان به ... ما نالنا حَسرَة منه وتلهيفُ
لكن له سُبلٌ شَتَّىٰ مخالفةٌ ... بعضٌ لبعضٍ فمجهول ومعروفُ

وخير الإخوان أشدهم مُبالغة في النصيحة، كما أنَّ خير الأعمال أحمدُها عاقبة وأحسنها إخلاصًا، وضَرب الناصح خيرٌ من تحية الشانئ.

هذا ومما لا بُد أن يُعرَف: أن النصيحة مُرَّة، لا يقبلها إلا أولو العزم والقوة.

قال ميمون بن مهران: «قال لي عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قل لي في وجهي ما أكره، فإنَّ الرجل لا ينصح أخاه حتىٰ يقول له في وجهه ما يكره».

ولا يعني ذلك أن يُغلظ المرء لأخيه بالنصيحة ولكن المقصود ألا يكتمه شيئًا، وإن كان يكرهه، **وقد جاء في الحِكَم**: وَدَّك مَن نصحك، وجَفَاك من مشىٰ في هواك.

وعلىٰ المرء إن قدمت له النصيحة أن يقبلها، فإنه في الغالب لا ينصح الناسَ إلا من أراد لهم الخير، والمنصوح مستفيد علىٰ كلِّ حال، فإن كان الناصحُ مُحبًّا له، فهو حريص علىٰ أن يعلو ويرتفع بنصيحته، وإن كان الناصح حاسدًا فلعله أن ينبهه علىٰ خير لم يكن يخطر له، كما قيل:

وإذا أراد اللَّــــه نَــــشر فَــــضيلة ... طُــوِيت، أتــاح لهــا لــسانَ حــسُودِ

ومن ردَّ نصيحة ناصحٍ أراد له الخير فإنه لم يُوفق للصواب، وقد قيل: اثنان ظالمان: رجل أهديت له النصيحة فاتخذها ذنبًا، ورجل وُسِّع له في مكان ضيق فجلس مُتَربعًا.

النـصح أرخـص مـا بـاع الـرجال فـلا ... تــردد علــىٰ ناصــح نــصحًا ولا تَلُــمِ

إن النـــصائح لا تخفـــىٰ مـــناهلها ... علــىٰ الــرجال ذوي الألــباب والفهــمِ

فلا ينبغي للمرء أن يتكبر عن قبول النصح، ويدفعه العُجب إلىٰ ردِّ ما بذله له الناصحون، فقد قيل: مَن اصفرَّ وجهه من النصيحة، اسودَّ لونه من الفضيحة.

وقال القائلُ:

إذا نــصحت لــذي عُجــبٍ لترشــده ... فلــم يُطعــك فــلا تنــصح لــه أبــدَا

فــإن ذا العجــب لا يعطــيك طاعــته ... ولا يجــيب إلــىٰ إرشــادِه أحــدَا

ومــا علــيك وإن غــاوٍ غَــوىٰ حِقَــبًا ... إن لــم يَكُــن لــك قُربــىٰ أو يَكُــن ولــدَا

هذا وإنَّ من أعظم آداب النصيحة: أن يبذلها الناصحُ لأخيه سرًّا، فهو يريد نصيحته لا فضيحته، ومَن وعظ أخاه علانية فقد شانه، ومن وعظه سرًّا فقد زانه، فبذل المسلم جهده فيما يزين أخاه، أولىٰ من سلوك ما يشينه.

قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان الرجل إذا رأىٰ من أخيه ما يكره، أمره في سِتر، ونهاه في ستر، فيؤجر في ستره ويؤجر في نهيه، فأما اليوم فإذا رأىٰ أحدٌ من أحدٍ ما يكره استغضب أخاه، وهتك ستره».

وقيل لأحد السلف: تحب أن يخبرك رجل بعيوبك؟ قال: أما أن يجيءَ إنسانٌ فيوبِّخني بها فلا، وأما أن يجيء ناصح فنعم.

وجاء رجلٌ إلىٰ عبد الجبار بن وائل -وعنده قوم- فسارَّه بشيءٍ ثم انصرف، فقال: أتدرون ما قال لي؟ قال: رأيتك التفتَّ أمس وأنت تصلي.

فإذا كانت النصيحة بالسر، فإنها تقيم الألفة، وتؤدي حقَّ الأخوة، فعلامةُ الناصحِ إذا أراد زينةَ المنصوح أن ينصحه سرًّا، وعلامةُ من أراد شَينَه أن ينصحه عَلانية.

هذا وليحذر العاقل الفطن نصيحة الأعداء في السر والعلانية، ويدعو الله أن يبصره بهم، فكم من شخصٍ يأتي بلسان الناصح، وهو سيئ النية رديء الطوية، فكم دخل هذا وأمثاله بين الإخوة المتآلفين، والأحبة المتعارفين، فلا زال يأتيهم بلسان الناصح الأمين وهو شيطان رجيم، فلا زال بهم حتىٰ فرَّق جمعهم، وشتت شملهم، وأفسد ذات بينهم، ولذا قيل:

وصاحبٌ غيرُ مأمون غوائلهُ ... يبدي ليَ النصحَ منه وهو مشتملُ
علىٰ خلاف الذي يُبدِي ويظهره ... وقد أحطتُ بعلمي أنه دَغِلُ
عفوت عنه انتظارًا أن يثوبَ له ... عقلٌ إليه من الزلات ينتقلُ
دهرًا فلما بدا لي أنَّ شيمتَه ... غشٌّ وليس له عن ذاك مُنتَقَلُ
تركتُه ترك قالٍ لا رجوع له ... إلىٰ مودته ما حَنَّت الإبلُ

كما يجبُ علىٰ من استنصحه امرؤٌ في أمرٍ ما أن يكون محلًّا للثقة، فإنه ما جاءه مَن يطلب نصحه ومشورته إلا لثقته به، فكان لا بُدَّ أن يكون علىٰ مستوىٰ الثقة، وأن يكتم سرَّ طالب النصح فلا يعلنه لأيِّ أحدٍ كان، فإنَّ إظهار بعض الأسرار يترتب عليه دمار أسر، وتقطع أواصر، فالوفي الصادق هو الذي يبذل نصحه للآخرين، ثم يتعامل مع ما سمعه وكأنه لم يسمعه، ولا يرويه للناس بحجة الاعتبار والعظة، فيقول جاءني شخص ما، أو حدثني أحد الناس بكذا، وحتىٰ لو لم يسمِّ أحدًا؛ لأنَّ بعض الحوادث قد يُعرَف صاحبها لتفرد الواقعة وقلة مشابهتها لغيرها، فيكون بفعله ذلك قد ألحق بمن طلب نصحه المَشقَّة والحرج وكشف ستره بين الناس.

وقد قيل:

أَمِنتُ علىٰ السر امرأ غير حازم ... ولكنه في النصح غيرُ مريبِ
فأفشاه بين الناس، حتىٰ كأنما ... بعلياء نار أوقدت بثَقُوبِ
فما كلُّ ذي لبٍّ بمؤتيك نُصحه ... وما كلُّ مُؤتٍ نصحه بلبيبِ
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد ... فحُقَّ له من طاعة بنصيبِ

❊ ❊ ❊

البيان والفصاحة

البيان ترجمان القلوب، ومُظهر العقول، وكاشف المعاني، وبه يتميز المرء عن أقرانه ونظرائه، وهو منة من الله عَزَّوَجَلَّ ومحض امتنان منه، فما اختار البليغ أن يكون بليغًا وما أحبَّ العيي أن يكون عييًّا، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يتفضل بذلك علىٰ من شاء من عباده، والسعيد من وفقه الله تعالىٰ إلىٰ أن يجعل ما أوتيه من البيان والبلاغة في مرضاة الله سبحانه، وسببًا ينال من خلاله محبة الله والقرب منه.

ولو لم يكن البيان من المفاخر لما خُص به سيد الخلق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: «**نُصرتُ بالرعب علىٰ العدوِّ، وأوتيت جوامع الكلم**»[1]، وذلك أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتلفظ باللفظ اليسير الدال علىٰ المعاني الكثيرة.

والفَصَاحة: خلوص الكلام من التعقيد، وتعبير الرجل عما في قلبه بأجمل عبارة وألطف إشارة، مع احترازه عن الإيجاز المُخِل والتطويل المُمِل.

وعلىٰ هذا فيجب للفصيح البليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعاني، فهذا دليل علىٰ ما تميز به من البيان، فقد سأل معاويةُ عمرَو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: من أبلغُ الناس؟ فقال: أقلهم لفظًا، وأسهلهم معنىٰ، وأحسنهم بديهة.

وقيل: ثلاثة تدل علىٰ عقول أصحابها: الرسول علىٰ عقل المُرسِل، والهدية علىٰ عقل المُهدِي، والكتاب علىٰ عقل الكاتب.

ومن جميل ما ذكر من فصاحة العرب: أن ليلىٰ الأخيلية مدحت الحجاج فقال: يا غلام، اذهب إلىٰ فلان فقل له يقطع لسانها، فذهب فطلب لها حجَّامًا، فقالت:

---

(١) رواه مسلم (٨١٤).

ثكلتك أمك، إنما أمرك أن تقطع لساني بالعطية.

وفصاحة الرجل وبلاغته مما تستدعي له الهيبة في القلوب، والإجلال في العيون، قال يحيىٰ بن خالد: ما رأيت رجلًا قط إلا هبتُه حتىٰ يتكلم، فإن كان فصيحًا عظم في صدري، وإن قَصُر سقط من عيني.

وعرضت علىٰ المتوكل جارية شاعرة، فقال أبو العيناء يستجيزها: أحمدُ الله كثيرًا، فقالت: حيث أنشاك ضريرًا، فقال: يا أمير المؤمنين، قد أحسنت في إساءتها فاشترها.

وقال عبد الملك لرجل: حدثني، فقال: يا أمير المؤمنين، افتتح، فإن الحديث يفتح بعضه بعضًا.

ونصح الهيثم بن صالح ابنه، فقال: يا بُنَيَّ، إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب، قال: يا أبت، فإن أنا أكثرتُ وأكثرتُ، يعني: كلامًا وصوابًا، قال: يا بني، ما رأيت موعوظًا أحقَّ بأن يكون واعظًا منك.

وجاء عن الإمام الشعبي أنه قال: كنتُ أحدِّثُ عبدَ الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة، فأقول: أَجِزها أصلحك الله، فإن الحديث من وراء ذلك، فيقول: والله لحديثُك أحبُّ إليَّ منها.

فهذا اللسان بَريدُ الفؤاد يدُل الرجَالَ علىٰ عَقْلِهِ

وحُكي أنَّ المأمونَ سأل يَحيىٰ بنَ أكثم عن شيء، فقال: لا، وأيد الله أمير المؤمنين، فقال المأمون: ما أظرفَ هذه الواو وأحسن موقعها!

وليس من البلاغة والبيان والفصاحة أن يبحث المرء عن الغريب من الكلمات، والصعب من العبارات، فيحشو بها كلامه ظنًّا منه أنَّ هذا من الفصاحة؛ لأن المقصود أن يفهم الناس عن المتكلم ما أراد بلوغه بأوجز العبارات، لا أن يمدحوه بقوة اللفظ مع عدم انتفاعهم به، كتب إبراهيم بن المهدي: إياك والتتبع لوحشي الكلام، طمعًا

في نيل البلاغة، فإن ذلك العناء الأكبر، وعليك بما سهل مع تجنبك الألفاظ السفل.

وقد قيل: القول علىٰ حسب همة القائل يقع، والسيف بقدر عضد الضارب يقطع.

وقال الأحنف: سمعت كلامَ أبي بكر حتىٰ مضىٰ، وكلامَ عمرَ حتىٰ مضىٰ، وكلام عثمان حتىٰ مضىٰ، وكلام عليٍّ حتىٰ مضىٰ، ولا واللهِ ما رأيت فيهم أبلغَ من عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما رأيت أبلغَ من عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ما أغلقَت بابًا فأرادت فتحه إلا فَتَحَته، ولا فَتَحَت بابًا فأرادت إغلاقه إلا أغلقته.

ومن غريب الحكايات الواردة علىٰ سبيل الذكاء والفصاحة: ما حُكِي عن رجلٍ من العرب أنه كان أسيرًا في بني بكر بن وائل، فعزموا علىٰ غزو قومه، فسألهم في رسولٍ يرسله إلىٰ قومه، فقالوا: لا ترسله إلا بحضرتنا لئلَّا تنذرهم وتحذرهم، فجاءوا بعبدٍ أسود، فقال له: أتعقل ما أقوله لك؟، قال: نعم إني لعاقل، فأشار بيده إلىٰ الليل، فقال: ما هذا؟ قال: الليل، قال: ما أراك إلا عاقلًا، ثم ملأ كفيه من الرمل وقال: كم هذا؟، قال: لا أدري وإنه لكثير، فقال: أيما أكثر النجوم أم النيران؟ قال: كلٌّ كثير، فقال: أبلغ قومي التحية، وقل لهم يكرموا فلانًا -يعني: أسيرًا كان في أيديهم من بكر بن وائل-، فإن قومَه لي مُكرِمون، وقل لهم: إنَّ العرفجَ قد دنا، وشكت النساء، وأمرهم أن يُخلوا ناقتي الحمراء فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملي الأصهب، بأمارة ما أكلت معكم حيسًا، واسألوا عن خبري أخي الحارث.

فلما أدىٰ العبدُ الرسالةَ إليهم، قالوا: لقد جُنَّ الأعور، واللهِ ما نعرف له ناقةً حمراءَ ولا جملًا أصهب، ثم دَعَوا بأخيه الحارث فقصوا عليه القصة، فقال: قد أنذركم، أما قوله: قد دنا العرفج، يريد أن الرجال قد استلأموا ولبسوا السلاح، وأما قوله: شَكَت النساء، أي أخذت الشكاء للسفر، وأما قوله: أخلوا ناقتي الحمراء؛ أي: ارتحلوا عن الدهناء، واركبوا الجمل الأصهب؛ أي: الجبل، وأما قوله: أكلت معكم

حيسًا؛ أي: أن أخلاطًا من الناس قد عزموا علىٰ غزوكم؛ لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقط، فامتثَلوا أمرَه وعرفوا لحن الكلام وعملوا به، فنجوا.

وأسرت طيئٌ غلامًا من العرب، فقدم أبوه ليفديه، فاشترطوا عليه، فقال أبوه: والذي جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان علىٰ جبل طَيِئٍ ما عندي غير ما بذلته، ثم انصرف وقال: لقد أعطيته كلامًا إن كان فيه خير فهمه، فكأنه قال له: الزم الفرقدين يعني في هروبك علىٰ جبل طَيِئٍ، ففهم الابن ما أراده أبوه وفعل ذلك فنجَا.

ودخلت امرأة علىٰ هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين، أقر الله عينك، وفرحك بما آتاك، وأتم سعدك، لقد حكمت فقسطت، فقال لها: ممن تكونين أيتها المرأة؟ فقالت: من آل برمك، ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم، فقال: أما الرجال فقد مضىٰ فيهم أمر الله، ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك، ثم التفت إلىٰ الحاضرين من أصحابه، فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة؟ فقالوا: ما نراها قالت إلا خيرًا، قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها: أقرَّ اللهُ عينَك؛ أي: أسكنها عن الحركة، وإذا سَكَنت العينُ عن الحركة عَمِيَت، وأما قولها: وفرحك بما آتاك، فأَخذته من قول الله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾ [الأنعام:٤٤]، وأما قولها: وأتم الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

إذا تـــمَّ أمـــرٌ بـــدا نقـــصُه تـــرقب زوالًا إذا قـــيلَ تَـــمّ

وأما قولها: لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن:١٥]، فتعجبوا من ذلك.

وحُكِي أن بعضهم دخل علىٰ عدوِّه من النصارىٰ، فقال له: أطال الله بقاءك، وأقرَّ عينك، وجعل يومي قبل يومك، والله إنه ليسرني ما يسرك، فأحسن إليه وأجازه علىٰ دعائه وأمر له بعطية، وكان ذلك دعاءً عليه؛ لأن معنىٰ قولِه: أطال الله بقاءك، حصول

منفعةٍ المسلمين به في أداء الجزية، وأما قوله: وأقرَّ عينك، فمعناه: سكَّن الله حركتها، أي: أعماها، وأما قوله: وجعل يومي قبل يومك؛ أي: جعل الله يومي الذي أدخل فيه الجنة قبل يومك الذي تدخل فيه النار، وأما قوله: إنه ليسرني ما يسرُّك، فإن العافية تسرُّه كما تسر الآخر.

وجاء عن المأمون أنه وَلَّىٰ عاملًا علىٰ بلاد، وكان يُعرَف منه الجور في حكمه، فأرسل إليه رجلًا من أرباب دولته ليمتحنه، فلما قدم عليه، أظهر له أنه قدم في تجارة لنفسه، ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علمٌ منه، فأكرم نُزُلَه، وأحسن إليه، وسأله أن يكتب كتابًا إلىٰ أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده، ليزداد فيه أميرُ المؤمنين رغبة.

فكتب كتابًا فيه بعد الثناء علىٰ أمير المؤمنين: أما بعد، فقد قدمنا علىٰ فلان، فوجدناه آخذًا بالعزم، عاملًا بالحزم، قد عدل بين رعيته، وساوىٰ في أقضيته، أغنىٰ القاصد، وأرضىٰ الوارد، وأنزلهم منه منازل الأولاد، وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد، وعمَّر منهم المساجد الداثرة، وأفرغهم من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخرة، وهم مع ذلك داعون لأمير المؤمنين يريدون النظر إلىٰ وجهه، والسلام.

فكان معنىٰ قوله: آخذًا بالعزم؛ أي: إذا عزم علىٰ ظلم أو جور فَعَلَه في الحال، وقوله: قد عدل بين رعيته وساوىٰ في أقضيته؛ أي: أخذ كلَّ ما معهم، حتىٰ ساوىٰ بين الغني والفقير، وقوله: عمَّر منهم المساجد الداثرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة، يعني: أن الكلَّ صاروا فقراء لا يملكون شيئًا من الدنيا، ومعنىٰ قولِه: يريدون النظر إلىٰ وجه أمير المؤمنين؛ أي: ليشكوا حالهم وما نزل بهم، فلما جاء الكتاب إلىٰ المأمون عزله عنهم لوقته، وولىٰ عليهم غيره.

ودخل الحسن بن الفضل علىٰ بعض الخلفاء وعنده كثيرٌ من أهل العلم، فأحب الحسن أن يتكلم، فزجره وقال: يا صبي، تتكلم في هذا المقام؟ فقال: يا أمير

المؤمنين، إن كنت صبيًّا فلست بأصغر من هدهد سليمان، ولا أنت بأكبَرَ من سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ [النمل:٢٢]، ثم قال: ألم تر أن الله فهم الحكم سليمان، ولو كان الأمر بالكِبَر لكان داود أولىٰ.

ولما أفضت الخلافة إلىٰ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أتته الوفود، فإذا فيهم وفد الحجاز، فنظر إلىٰ صبي صغير السن وقد أراد أن يتكلم، فقال: ليتكلم من هو أسن منك فإنه أحق بالكلام منك، فقال الصبي: يا أمير المؤمنين، لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق به منك، قال: صدقت، فتكلم، فقال: يا أمير المؤمنين، إنا قدمنا عليك من بلدٍ تحمدُ اللهَ الذي منَّ علينا بك، ما قدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة منك، أما عدم الرغبة، فقد أَمنَّا بك في منازلنا، وأما عدم الرهبة، فقد أَمِنَّا جورَك بعَدْلِك، فنحن وفد الشكر، والسلام. فقال له عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عظني يا غلام، فقال: يا أمير المؤمنين، إن أناسًا غرَّهم حلمُ الله وثناءُ الناس عليهم، فلا تكن ممن يغرُّه حلمُ الله وثناءُ الناس عليه، فتزلَّ قدمُك وتكونَ من الذين قال الله فيهم: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١]، فنظر عمر في سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة.

وذُكِر أن البادية قحطت في أيام هشام، فقدمت عليه العرب فهابوا أن يكلِّموه، وكان فيهم دواس بن حبيب وهو ابنُ ستَّ عشرةَ سنةً، فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: ما شاء أحدٌ أن يدخل عليَّ إلا دخل حتىٰ الصبيان، فوثب دواس حتىٰ وقف بين يديه مُطرقًا، فقال: يا أمير المؤمنين، إن للكلام نشرًا وطيًّا، وإنه لا يُعرَف ما في طيه إلا بنشره، فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته.

فأعجبه كلامه وقال له: انشره لله درُّك!، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه أصابتنا سنونٌ ثلاث، سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها علىٰ عباده، وإن كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم،

وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم فإن الله يجزي المتصدقين، فقال هشام: ما ترك الغلامُ لنا في واحدةٍ من الثلاث عذرًا، فأمر للبوادي بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال له: ألك حاجة؟ قال: ما لي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين، فخرج من عنده وهو مِن أجلِّ القوم.

وقيل: إن سعد بن ضمرة الأسدي لم يزل يغير علىٰ النعمان بن المنذر يستلب أمواله حتىٰ عيل صبره، فبعث إليه يقول: إنَّ لك عندي ألفَ ناقةٍ علىٰ أنك تدخل في طاعتي، فوفد عليه وكان صغيرَ الجثة، فلما اقتحمته عينه تنقصه، فقال: مهلًا أيها الملك، إن الرجالَ ليسوا بعظم أجسامهم، وإنما المرء بأصغريه قلبِهِ ولسانِهِ، إن نطقَ نطق ببيان.

فقال: صَدَقت، فهل لك علم بالأمور، قال: إني لأنقض منها المفتول، وأبرم منها المحلول، وأجيلها حتىٰ تجول، ثم أنظر فيها إلىٰ ما تئول، وليس الدهر بصاحب من لا ينظر في العواقب، فتعجب النعمان من فصاحته وعقله، ثم أمر له بألفِ ناقةٍ وقال له: يا سعد، إن أَقَمت واسيناك، وإن رحلتَ وصلناك، فقال: قُرب الملك أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها، فأنعم عليه وأدناه، وجعله من أخص ندمائه.

وحكي أن الحجاج سأل يومًا الغضبان بن القبعثري عن مسائل يمتحنه فيها، فقال له: من أكرمُ الناس؟ قال: أفقَهَهم في الدِّين وأصدَقَهم لليَمين، وأبذَلَهم للمسلمين، وأكرَمَهم للمُهَانين، وأطعَمَهم للمَسَاكين.

قال: فمن ألأم الناس؟ قال: المُعطي علىٰ الهوان، المقتِّر علىٰ الإخوان، الكثيرُ الألوان.

قال: فمن شر الناس؟ قال: أطولهم جفوة، وأدومهم صبوة، وأكثرهم خلوة، وأشدهم قسوة.

قال: فمن أشجع الناس؟ قال: أضربهم بالسيف، وأقراهم للضيف، وأتركهم للحيف.

قال: فمن أجبَنُ الناس؟ قال: المتأخر عن الصفوف، المُنقبض عن الزحوف، المرتعش عند الوقوف، المحبُّ ظلالَ السقوف، الكاره لضرب السيوف.

قال: فمن أثقل الناس؟ قال: المُتفَنن في الملام، البخيل بالسلام، المهذار في الكلام، المقبقب علىٰ الطعام.

قال: فمن خير الناس؟ قال: أكثرهم إحسانًا، وأقومهم ميزانًا، وأدومهم غفرانًا، وأوسعهم ميدانًا.

قال: للَّهِ أبوك!، فكيف يُعرَف الرجل الغريب، أحسيبٌ هو أم غير حسيب؟ قال: أصلح الله الأمير، إن الرجل الحسيب يدلك أدبُه وعقلُه وشمائلُه وعزةُ نفسِه، وكثرةُ احتماله، وبشاشتُه، وحسنُ مداورته علىٰ أصله، فالعاقل البصير بالأحساب يعرف شمائلَه، والنذل الجاهل يجهلَه، فمثله كمثل الدرة إذا وقعت عند من لا يعرفها ازدراها، وإذا نظر إليها العقلاء عرفوها وأكرموها، فهي عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة.

فقال الحجاج: لله أبوك!، فما العاقل والجاهل؟ قال: أصلح الله الأمير، العاقلُ الذي لا يتكلم هذرًا، ولا ينظر شزرًا، ولا يضمر غدرًا، ولا يطلب عذرًا، والجاهل هو المهذار في كلامه، المنان بطعامه، البخيل بسلامه، المتطاول علىٰ إمامه، الفاحش علىٰ غلامه.

قال: لله أبوك!، فما الحازم والعاجز؟ قال: الحازم: المقبل علىٰ شأنه، التارك لما لا يعنيه، والعاجز: المعجب بآرائه، الملتفت إلىٰ ورائه.

قال: هل عندك من النساء خبر؟ قال: أصلح الله الأمير إني بشأنهن خبير إن شاء الله تعالىٰ، إن النساء من أمهات الأولاد بمنزلة الأضلاع إن عدلتها انكسرت، ولهن جوهر لا يصلح إلا علىٰ المداراة، فمن داراهن انتفع بهن وقرت عينه، ومن شاورهن كَدَّرن عيشه وتكدرت عليه حياته، وتنغصت لذاته، فأكرمهُنَّ أعفهن، وأفخر أحسابهن العفة، فإذا زلن عنها فهن أنتن من الجيفة.

وجاء عن عبد الملك بن عمير أنه قال: لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق، جمع أهل بيته وأولي النجدة من جنده، وقال: أيها الناس، إن العراق كدر ماؤها، وكثر غوغاؤها، واملولح عذبها، وعظم خطبها، وظهر ضرامها، وعسر إخماد نيرانها، فهل من مُمَهد لهم بسيف قاطع، وذهن جامع، وقلب ذكي، وأنف حمي، فيخمد نيرانَها، ويردع غيلانَها، وينصف مظلومها، ويداوي الجرح حتىٰ يندَمِل، فتصفو البلاد، وتأمن العباد، فسكت القوم، ولم يتكلم أحد.

فقام الحجَّاج وقال: يا أمير المؤمنين، أنا للعراق، فبينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة إذا أتانا آتٍ فقال: هذا الحجاج قدم أميرًا علىٰ العراق، فتطاولت الأعناقُ نحوه، وأفرجوا له عن صحن المسجد، فإذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء متلثمًا بها.

ثم صعد المنبر، فلم يتكلم كلمةً واحدة، ولا نطق بحرفٍ حتىٰ غص المسجد بأهله، وأهل الكوفة يومئذٍ ذوو حالة حسنة وهيئة جميلة، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه، عليهم الخز والديباج.

قال: وكان في المسجد يومئذٍ عمير بن صابئ التميمي، فلما رأىٰ الحجاج علىٰ المنبر قال لصاحبٍ له: أسبه لكم؟ قال: اكفف حتىٰ نسمع ما يقول، فأبىٰ ابنُ صابئ وقال: لعن الله بني أمية حيث يولُّون ويستعملون مثل هذا علىٰ العراق، وضيَّع اللهُ العراق حيث يكون هذا أميرها، فوالله لو دام هذا أميرًا كما هو، ما كان بشيءٍ، والحجاج ساكت ينظر يمينًا وشمالًا.

فلما رأىٰ المسجد قد غصَّ بأهله قال: هل اجتمعتم؟ فلم يرد عليه أحدٌ شيئًا، فقال: إني لا أعرف قدر اجتماعكم، فهل اجتمعتم؟ فقال رجل من القوم: قد اجتمعنا أصلح الله الأمير، فكشف عن لثامه ونهض قائمًا، فكان أوَّل شيءٍ نطق به أن قال: واللهِ إني لأرىٰ رؤوسًا أينعت وقد حان قطافها وإني لصاحبها، وإني لأرىٰ الدماءَ ترقرق بين العمائم واللِّحىٰ، والله يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نثر كنانة بين يديه فعجم عيدانها، فوجدني أمرَّها عُودًا، وأصلبَها كسرًا، فرماكم بي؛ لأنكم طالما أثرتم

الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال، والله لأنكلنَّ بكم في البلاد، ولأجعلنكم مثلًا في كل واد، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، وإني يا أهل العراق لا أَعِدُ إلا وفيت، ولا أعزم إلا أمضيت، فإياي وهذه الزرافات والجماعات، وقيل وقال، وكان ويكون.

يا أهل العراق، إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله فأتاها وعيد القرىٰ من ربِّها، فاستوثِقوا واستقيموا، واعملوا ولا تميلوا، وتابعوا، وبايعوا، واجتمعوا، واستمعوا، فليس مني الإهدار والإكثار، إنما هو هذا السيف، ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتىٰ يذِلَّ اللهُ لأمير المؤمنين صعبَكم، ويقيمَ له أوْدَكم، ثم إني وجدت الصدق مع البِر، ووجدت البِرَّ في الجنة، ووجدت الكذب مع الفجور، ووجدت الفجور في النار، وقد وجهني أميرُ المؤمنين إليكم، وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوِّكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني أقسم بالله لا أجدُ رجلًا يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه.

يا غلام، اقرأ كتاب أمير المؤمنين، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الملك بن مروان إلىٰ مَن بالكوفة من المسلمين، سلامٌ عليكم، فلم يَرُدَّ أحدٌ شيئًا، فقال الحجاج: اكفف يا غلام، ثم أقبل علىٰ الناس فقال: أيسلم عليكم أميرُ المؤمنين فلا تردون شيئًا عليه؟ هذا أدبكم الذي تأدبتم به، أما والله لأؤدبنكم أدبًا غيرَ هذا الأدب، اقرأ يا غلام، فقرأ حتىٰ بلغ قوله: سلام عليكم، فلم يبق أحد إلا قال: وعلىٰ أميرِ المؤمنين السلام.

ثم نزل بعدما فرَغ من خطبته وقراءته، ووضع للناس عطاياهم، فجعلوا يأخذونها حتىٰ أتاه شيخ يرعش، فقال: أيها الأمير، إني علىٰ الضعف كما ترىٰ، ولي ابنٌ هو أقوىٰ مني علىٰ الأسفار، أفتقبله بديلًا مني؟ فقال: نقبله أيها الشيخ، فلما ولَّىٰ قال له قائل: أتدري من هذا أيها الأمير؟ قال: لا. قال: هذا ابن صابئ الذي يقول:

همَمتُ ولم أفعل وكدتُ وليتَني ... تركتُ علىٰ عثمانَ تبكي حلائلُه

ولقد دخل هذا الشيخ علىٰ عثمان رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ وهو مقتول، فوطئ في بطنه، فكسر ضلعين من أضلاعه، فقال الحجاج: رُدوه، فلما رَدُّوه، قال له الحجاج: أنت الفاعل بأمير المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار؟ إنَّ في قتلك أيها الشيخُ إصلاحًا للمسلمين، يا سياف اضرب عنقَه، فضرب عنقه، وكان من أمره بعدَ ذلك ما عرف وسُطِّر.

وقال أبو عبد الله النميري: كنت يومًا مع المأمون وكان بالكوفة، فركب للصيد ومعه سرية من العسكر، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة، فأطلق عِنانَ جواده وكان علىٰ سابقٍ من الخيل، فأشرف علىٰ نهرِ ماء من الفرات، فإذا هو بجاريةٍ عربية، كأنها القمر ليلة تمامه، وبيدها قربةٌ قد ملأتها وحملتها علىٰ كتفها، وصعدت من حافة النهر، فانحل وكاؤها فصاحت برفيع صوتها: يا أبت، أدرك فاها، قد غلبني فوها، لا طاقة لي بفيها.

قال: فعجب المأمون من فصاحتها، ورمت الجارية القربة من يدها، فقال لها المأمون: يا جارية، من أيِّ العرب أنت؟ قالت: أنا من بني كلاب، قال: وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب؟ فقالت: والله لست من الكلاب، وإنما أنا من قوم كرام غير لئام، يُقرون الضيف، ويضربون بالسيف.

ثم قالت: يا فتىٰ، من أي الناس أنت؟ فقال: أوعندك علمٌ بالأنساب؟ قالت: نعم، قال لها: أنا من مضر الحمراء، قالت: من أي مضر؟ قال: من أكرمها نسبًا، وأعظمها حسبًا، وخيرها أمًّا وأبًا، وممن تهابه مضرُ كلُّها، قالت: أظنك من كنانة، قال: أنا من كنانة، قالت: فمن أي كنانة؟ قال: من أكرمها مولدًا، وأشرفها محتدًا، وأطولها في المكرمات يدًا، ممن تهابه كنانة وتخافه.

فقالت: إذن أنت من قريش، قال: أنا من قريش، قالت: من أي قريش؟ قال: من أجملها ذكرًا، وأعظمها فخرًا، ممن تهابه قريش كلها وتخشاه، قالت: أنت واللهِ من بني هاشم، قال: أنا من بني هاشم، قالت: من أي هاشم؟ قال: من أعلاها منزلة، وأشرفها قبيلة، ممن تهابه هاشم وتخافه.

فلما قال ذلك أقبلت الفتاة عليه وقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فعجب المأمون عند ذلك عجبًا عظيمًا، وقال: والله لأتزوجن بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم، ووقف حتىٰ تلاحقته العساكر، فنزل هناك، وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه، فزوَّجه بها، وأخذها وعاد مسرورًا، وهي والدة ولده العباس.

وحُكي أن شاعرًا كان له عدوٌّ، فبينما هو سائر ذات يوم في بعض الطرق، إذ هو بعدوه، فعلم الشاعرُ أنَّ عدوَّه قاتله لا محالة، فقال له: يا هذا، أنا أعلم أن المنية قد حضرت، ولكن سألتك بالله إذا أنت قتلتني فامضِ إلىٰ داري، وقِف بالباب وقل: ألا أيها البنتان إن أباكما، فقال: سمعًا وطاعة، ثم إنه قتله، فلمَّا فرغ من قتله أتىٰ إلىٰ داره، ووقف بالباب وقال: ألا أيها البنتان إن أباكما، وكان للشاعر ابنتان، فلما سمعتا قولَ الرجل: ألا أيها البنتان إن أباكما، أجابتا بفمٍ واحدٍ: قتيلٌ خذا بالثأر ممن أتاكما، ثم تعلقتا بالرجل ورفعتاه إلىٰ الحاكم فاستنطقه، فأقر بقتله، فقتله.

ولما خرج تميم السدوسي علىٰ المعتصم، ظفر به وأحضر له السيف والنطع، وكان تميمٌ وسيمًا جميلًا، فأحبَّ المعتصم أن يعرف أين لسانه من منظره؟ فقال له: تكلم.

فقال: أما إذا أذنت يا أمير المؤمنين، فأنا أقول: الحمد لله الذي أحسن كلَّ شيءٍ خلَقَه وبدأ خلقَ الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، جبر الله بك صدع الدِّين، ولَمَّ بك شعث المسلمين، وأوضح بك سبل الحق، وأخمد بك شهاب الباطل.

إنَّ الذنوب تُخرِس الألسن الفصيحة، وتعيي الأفئدة الصحيحة، ولقد عظمت الجريرة، وانقطعت الحجة، وساء الظن، ولَم يبق إلا عفوك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربهما وأسرعهما إليَّ أسبقهما بك وأولاهما بكرمك، ثمَّ قال:

أرىٰ الموت بين السيف والنطع كامنًا ... يلاحظني من حيث ما أتلفَّتُ

وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ مما قضىٰ الله يفلتُ
وأيُّ امرئٍ يأتي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلتُ
وما جزعي أني أموت وإنني ... لأعلم أنَّ الموت شيء موقتُ
ولكنَّ خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتتُ
فإن عشت عاشوا سالمين بغبطة ... أذود الرَّدىٰ عنهم وإن متُّ موَّتوا
وكم قائل لا يبعد الله داره ... وآخر جذلان يُسَرُّ ويشمَتُ

فتبسم المعتصم وعفا عنه.

هذا وإنَّ أكبر معينٍ للمرء علىٰ نوال البيان والفصاحة: أن يرزقه الله بديهة سريعة، يجيب بفضلِها علىٰ مَن سأله، ويردُّ علىٰ من بدأه، ويتخلص بواسطتها من مواقع الزلل، وينجو من مواضع الخلل، ويخرج بعذر مقبول دون أن يحرج أحدًا أو تحل الوحشة والأحقاد بينه وبين أحد من الناس كائنًا مَن كان، وهذا دليلٌ علىٰ تمام عقل المرء وتهذيب التجارب له.

وقد قال ملك لوزيره: ما خير ما يرزقه العبد؟ قال: عقلٌ يعيش به، قال: فإن عدمه، قال: أدب يتحلىٰ به، قال: فإن عدمه؟ قال: مال يستره، قال: فإن عدمه؟ قال: فصاعقة تحرقه وتريح العباد والبلاد منه.

يقال: إنَّ أحد الملوك مرَّ بغلامٍ يسوق حيوانًا بعنف وشدة، والحيوانُ بطيءٌ الحركة قليل الهمة، فقال الملك: يا غلام، ارفق بهذا الحيوان، فقال الغلام: يا أيها الملك، في الرفق به مضرة له، قال الملك: وكيف ذلك، وإني لا أرىٰ مضرة غير الذي هو فيه الآن؟

قال الغلام: ذلك أنه إذا أبطأ يطول طريقه، ويشتد جوعه، ففي العُنف به إحسان إليه، فقال الملك: وما الإحسان إليه؟ قال الغلام: يخف حمله، ويطول أكله.

فأعجب الملك بجوابه وكافأه، فقال: هو مصدرُ رزق مقدور، وواهب مأجور.

قال الملك: لقد أمرت بإثبات اسمك في بطانتي، قال الغلام: كفيت مؤونة، ورزقت بها معونة.

قال الملك: ولولا حداثة سنك لاستَوزَرتُك، قال الغلام: لن يعدم الفضل من رُزِق العقل.

قال له الملك: وهل تصلح لذلك يا غلام؟ قال الغلام: إنما يكون المدحُ والذمُّ بعد التجربة، ولا يعرف الإنسان نفسه حتىٰ يبلوها.

وذُكِر عن الحجاج أنه خرج يومًا متنزهًا، فلما فرغ من نزهته صَرف عنه أصحابه وانفرد بنفسه، فإذا هو بشيخ من بني عِجل، فقال له: من أين أيها الشيخ؟ قال: من هذه القرية، قال: كيف ترون عمالكم؟ قال: شر عمال، يظلمون الناس، ويستحلون أموالهم، قال: فكيف قولك في الحجاج؟ قال: ذاك ما ولي العراق شرٌّ منه، قبحه اللهُ وقبَّح من استعمله، قال: أتعرف من أنا؟ قال: لا، قال: أنا الحجاج، قال: جُعِلتُ فداك، أوَتعرفُ من أنا؟ قال: لا، قال: فلان بن فلان، مجنون من بني عجل، أصرع في كل يومٍ مرتين، فضحك الحجاج منه وأمر له بِصِلَة.

وقال المعتصم للفتح بن خاقان وهو صبي صغير: أرأيت يا فتح أحسن من هذا الفص -لفص كان في يده-؟، قال: نعم يا أمير المؤمنين، اليد التي هو فيها أحسن منه، فأعجبه جوابه وأمر له بِصِلَة وكسوة.

وقيل: إن جارية عُرِضت علىٰ الرشيد ليشتريها، فتأمَّلَها وقال لمولاها: خذ جاريتك، فلولا كلفٌ بوجهها، وخنسٌ بأنفها لاشتريتها، فلما سمعت الجارية مقالة أمير المؤمنين قالت مبادرة:

ما سلم الظبي علىٰ حسنه — كلا ولا البدر الذي يوصفُ
الظبي فيه خنس بينٌ — والبدرُ فيه كلفٌ يعرفُ

فعجب من فصاحتها وأمر بشرائها.

وعرضت علىٰ المأمون جارية بارعة الجمال، فائقة في الكمال، غير أنها كانت تعرج برجلها، فقال لمولاها: خذ بيدها وارجع، فلولا عرجٌ بها لاشتريتها، فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين، إنه في وقتِ حاجتك لا يكون بحيث تراه، فأعجبه سرعة جوابها وأمر بشرائها.

وقال محمد الكلبي: دخل رجل من بني عذرة علىٰ عبد الملك بن مروان يمتدحه بقصيدة، وعنده الشعراء الثلاثة: جرير، والفرزدق، والأخطل، فلم يعرفهم الأعرابي، فقال عبد الملك للأعرابي: هل تعرف أهجىٰ بيت في الإسلام؟

قال: نعم، قول جرير:

فغض الطرف إنك من نُمَير ... فلا كعبًا بلغت ولا كلابَا

فقال: أحسنت.

فهل تعرف أمدح بيت قيل في الإسلام؟

قال: نعم، قول جرير:

ألستم خير من ركب المَطايا ... وأندىٰ العالمين بطونَ راحِ

فقال: أصبت وأحسنت.

فهل تعرف أرقَّ بيت قيل في الإسلام؟

قال: نعم، قول جرير:

إن العيون التي في طرفها حورٌ ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانَا

يصرَعنَ ذا اللب حتىٰ لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله أركانَا

فقال: أحسنت، فهل تعرف جريرًا؟

قال: لا والله، وإني إلىٰ رؤيته لمشتاق، قال: فهذا جرير، وهذا الأخطل، وهذا الفرزدق.

فأنشأ الأعرابي يقول:

فحـيا الإلــه أبــا حــرزة ... وأرغـم أنفـك يـا أخطـلُ
وجـدُّ الفـرزدق أتعـس بـه ... ودق خياشـيمَه الجـندلُ

فأنشأ الفرزدق يقول:

يـا أرغـم اللَّـه أنفًـا أنـت حاملـه ... يـا ذا الخـنا ومقـال الـزور والخطـلِ
مـا أنـت بـالحكم الترضىٰ حكومـته ... ولا الأصـيلِ ولا ذي الـرأي والجَـدلِ

ثم أنشأ الأخطل يقول:

يـا شرُّ مـن حملـت ساقٌ علىٰ قـدم ... مـا مـثل قـولك فـي الأقـوام يحـتملُ
إنَّ الحكـومة ليـست فـي أبـيك ولا ... فـي معـشر أنـت مـنهم إنهـم سـفلُ

فقام جرير مغضبًا وهو يقول:

شـتمتُمَا قـائلًا بالحـق مهـتديًا ... عـند الخلـيفة والأقـوالُ تنتـضلُ
أتـشتمان سـفاهًا خيـركم حـسبًا ... ففـيكما وإلهـي الـزورُ والخطـلُ
شـتمتماه علىٰ رفعـي ووضـعكما ... لا زلـتما فـي سـفال أيهـا الـسفلُ

ثم وثب جرير فقبَّل رأس الأعرابي، وقال: يا أمير المؤمنين، جائزتي له -وكانت خمسةَ عشر ألفًا- فقال عبد الملك: وله مثلها من مالي.

فقبض الأعرابي ذلك كله، وخرج.

وخطب أمير المؤمنين يزيد بن الوليد الناس بدمشق، فحمد الله وأثنىٰ عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فأنا والله ما خرجت أشرًا ولا بَطرًا، ولا حرصًا علىٰ الدنيا، ولا رغبة في الملك، وما بي إطراء نفسي، إني لظلوم لنفسي إن لم يرحمني ربي، ولكني خرجت غضبًا لله ولرسوله ولدينه، وداعيًا إلىٰ الله وكتابه وسنة نبيه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لمَّا هُدمت معالم الدين، وأُطفئ نور أهل التقوىٰ، وظهر الجبار العنيد، المستحل

لكل حرمة، والراكب كل بدعة، مع أنه والله ما كان يصدِّق بالكتاب، ولا يؤمن بيوم الحساب، وإنه لابنُ عمي في النسب، وكفئي في الحسب، فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره، وسألته ألا يكلني إلىٰ نفسي، ودعوت إلىٰ ذلك من أجابني من أهل ولايتي، وسعيت فيه حتىٰ أراح الله منه العباد والبلاد، بحول الله وقوته لا بحولي وقوتي.

أيها الناس، إنَّ لكم علي ألا أضع حجرًا علىٰ حجر، ولا لبنةً علىٰ لبنة، ولا أكري نهرًا، ولا أُكثِر مالًا، ولا أعطيه زوجة ولا ولدًا، ولا أنقل مالًا من بلد إلىٰ بلد حتىٰ أسد ثغر ذلك البلد، فإن فضُل فضل نقلته إلىٰ البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه، ولا أحبسكم في ثغوركم فأفتنكم وأفتن أهليكم، ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم، ولا أحمل علىٰ أهل جزيتكم ما يجليهم عن بلادهم ويقطع نسلهم، وإنَّ لكم عندي أعطياتكم في كل سنة، وأرزاقكم في كل شهر، حتىٰ تستدر المعيشة بين المسلمين، فيكون أقصاهم كأدناهم، فإن أنا وفيت لكم بما قلت، فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة، وإن أنا لم أفِ لكم، فلكم أن تخلعوني إلا أن تستتيبوني، فإن تبت قبلتم مني.

أيها الناس، إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إنما الطاعة طاعة الله، فمن أطاع الله فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع، وإن عصىٰ ودعا إلىٰ معصيته فهو أهل أن يُعصىٰ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

وكتب المنصور إلىٰ أبي مسلم الخُراساني: أما بعد، فإنه يرين علىٰ القلوب، وتطبع عليها المعاصي، فقع أيها الطائر، وأفق أيها السكران، وانتبه أيها الحالم، فإنك مغرور بأضغاث أحلام كاذبة، وفي برزخ دنيا قد غرت من قبلك، وسُمَّ بها سوالف القرون، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨]، وإن الله لا يعجزه من هرب، ولا يفوته من طلب، ولا تغتر بمن معك من شيعتي وأهل دعوتي، فكأنهم قد صاولوك، إن أنت خلعت الطاعة، وفارقت الجماعة، بدا لك من الله ما لم تكن تَحتَسب، مهلًا مهلًا.

احذر البَغي أبا مُسلم، فإنه من بغىٰ واعتدىٰ تخلىٰ الله عنه، ونصر عليه من يصرعه لليدين والفم، واحذر أن تكون سنةً في الذين قد خلوا من قبل، فقد قامت

الحجة، وأعذرت إليك وإلىٰ أهل طاعتي فيك، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٥].

فأجابه أبو مسلم: أما بعد، فقد قرأت كتابك، فرأيتك فيه للصواب مُجَانبًا، وعن الحق حائدًا، إذ تضرب فيه الأمثال علىٰ غير أشكالها، وتضرب فيه آيات منزلة من الله للكافرين، وما يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وإنني والله ما انسلخت من آيات الله، ولكنني يا عبد الله بن محمد كنتُ رجلًا متأولًا فيكم من القرآن آيات أوجبت لكم بها الولاية والطاعة، فَأْتَمَمْتُ بأخوين لك من قبلك، ثم بك من بعدهما، فكنتُ لهما شيعة متدينًا، أحسبني هاديًا، وأخطأت في التأويل، وقديمًا أخطأ المتأولون، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام:٥٤].

وإنَّ أخاك السفاح ظهر في صورة مهدي، وكان ضالًّا، أمرني أن أجرد السيف، وأقتل بالظِّنة، وأقدم بالشبهة، وأرفع الرحمةَ ولا أقيل العثرة، فوترت أهلَ الدنيا في طاعتكم، وتوطئةِ سلطانكم، حتىٰ عرفكم من كان جهلكم، ثم إنَّ الله سبحانه تداركني منه بالندم، واستنقذني بالتوبة، فإن يعف عني ويصفح فإنه كان للأوابين غفورًا، وإن يعاقبني فبذنوبي، وما ربك بظلام للعبيد.

فكتب إليه أبو جعفر: أما بعد، أيها المجرم العاصي، فإن أخي كان إمام هدىً، يدعو إلىٰ الله علىٰ بينة من الله، فأوضح لك السبيل، وحملك علىٰ المنهج، فلو بأخي اقتديت ما كنتَ عن الحق حائدًا، وعن الشيطان وأمره صادرًا، ولكنه لم يسنح لك أمران إلا كنتَ لأرشدهما تاركًا، ولأغواهما موافقًا، تقتل قتلَ الفراعنة، وتبطش بطش الجبابرة، وتحكم بالجور حكم المفسدين، ثم من خبري أيها الفاسق أني قد وليت موسىٰ بن كعب خراسان، وأمرته بالمقام بنيسابور، فإن أردت خراسان لقيك بمن معه من قوادي وشيعتي، وأنا موجهٌ للقائك أقرانَك، فاجمع كيدك وأمرك غير

مسدد ولا موفق، وحسبُ أمير المؤمنين اللهَ ونعم الوكيل.

وكان قطري بن الفجاءة الخارجي -مع شجاعته المفرطة- من خُطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة، وجودة الكلام، والشعر الحسن، فمن مستجاد شعره قوله يشجع نفسه وغيره، ومن سمعها انتفع بها:

أقول لها وقد طَارت شَعاعًا ... من الأبطال ويحك لن تُراعي

فإنك لو سألتِ بقَاء يوم ... علىٰ الأجَل الذي لك لم تُطَاعي

فصبرًا في مجال الموت صَبرًا ... فما نيلُ الخلود بمُستَطاعِ

ولا ثوب الحيَاة بثوب عِز ... فيطوىٰ عن أخي الخنع اليَراعِ

سبيل الموت غايةُ كل حي ... وداعيه لأهل الأرض دَاعي

ومن لا يغتبِط يسأم ويَهرم ... وتُسلمه المَنون إلىٰ انقطاعِ

وما للمرءِ خير في حيَاة ... إذا ما عُدَّ من سَقط المَتاعِ

لما تغيرت لغة الناس ودخل اللحن في كلام بعضهم أيام ولاية زياد علىٰ العراق، أمر زيادٌ مؤدِّبَ بنيه أبا الأسود الدؤلي أن يضع للناس شيئًا يهتدون به إلىٰ معرفة كلام العرب، وكان الباعث علىٰ ذلك أنه جاء رجلٌ يومًا إلىٰ زياد فقال: توفي أبانا وترك بنون.

ويقال: إنَّ أول ما وضع منه باب التعجب، من أجل أنَّ ابنته قالت له ليلة: يا أبه، ما أحسنُ السماءِ! فقال: نجومها، فقالت: إني لم أسأل عن أحسنها، إنما تعجبت من حسنها، فقال: قولي: ما أحسنَ السماءَ!

وكان عبد العزيز بن مروان قليل الحديث، وكان من أفصح الناس، وكان يجزل عطاء من يعرب كلامه، وينقص عطاء من يلحن فيه، فتسارع الناس في زمانه إلىٰ تعلم العربية، قال يومًا لرجل: ممن أنت؟ قال من بنو عبد الدار، فقال: تجدها في

جائزتك، فنقصه مائة دينار.

قال الأصمعي: قيل لعبد الملك: أسرع إليك الشيب، فقال: وكيف لا، وأنا أعرض عقلي علىٰ الناس في كل جمعة مرة أو مرتين.

وقال أبو بكر الصنوبري في ابن له فُطم، فجعل يبكي علىٰ ثديه:

منعوه أحب شيء إليه ... من جميع الورىٰ ومن والديه

منعوه غذاءه ولقد كا ... ن مباحًا له وبين يديه

عجبًا منه ذا علىٰ صغر السـ ... ـنِّ هوىٰ فاهتدىٰ الفراق إليه

وكان الأوزاعي لا يلحن في كلامه، وكانت كتبه ترد علىٰ المنصور، فينظر فيها ويتأملها ويتعجب من فصاحتها وحلاوتها، فقال يومًا لأحظىٰ كُتَّابه عنده وهو سليمان ابن مُجَالد: ينبغي أن تجيب الأوزاعي عن كتبه، فقال: واللهِ يا أمير المؤمنين، لا يقدر أحدٌ من أهل الأرض علىٰ ذلك، وإنا لنستعين بكلامه فيما نكاتب به أهل الآفاق ممن لا يعرف كلام الأوزاعي.

❊ ❊ ❊

في الصمت وصون اللسان

إنَّ من سَعادة المَرء: أن يُحَبِّب الله له كثرة الصَّمت، ويُبَغِّض له كثرة الكلام؛ لأنَّ الصمت يستر العيوب، ويسلم صاحبه من مقارفة الذنوب، ولذا كان من الواجب علىٰ العاقل أن يبذل مجهوده في حفظ لسانه حتىٰ يستقيم له؛ إذ اللسان هو المُورِدُ للمرءِ موارد الهلاك والعَطب، كما ينبغي له أن يُكثر من لزوم الصمت حتىٰ يكون غالب أحواله، ولا يتكلَّم إلا إذا لزمه ذلك وظهرت له مصلحة بينة راجحة، فما أكثر من ندم إذا نطق، وأقل من يندم إذا سكت، وأطول الناس شقاء وأعظمهم بلاء من ابتلي بلسان مطلق، وفؤاد مطبق، وفي الصمت يسلم المرء من الآفات، ومتىٰ تبين للمرء أن السلامة في لزوم الصمت، أوجب عليه ذلك أن يسعىٰ للتشبث به حتىٰ ينجو؛ إذ السلامة لا يعدلها شيء.

من أجل ذلك فقد أوصىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصَّمت عما ليس فيه نفعٌ للمسلم؛ لأنَّ في لزوم الصمت عما لا ينفع النجاة والسلامة، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كان يُؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت**»(١).

ولذا فدليل عقل المرء أنه إذا أراد الكلام فكر في كلامه، فإن ظهرت المصلحة تكلم، وإن شك لم يتكلم حتىٰ يظهر له وجه المصلحة.

ولو لم يكن في الصمت إلا مدح العقلاء لمن اتصف به لكان كافيًا، كيف وقد حوىٰ من المحاسن والمدائح ما يدفع بالمرء أن يعتاده ويتزر به.

فالصمت يُغطي القبائح ويُكسِب المحبةَ والوَقار، ومن حفظ لسانه أراح نفسه، لأنَّ الرجوُع من الصمت أحسنُ من الرجوع عن الكلام.

---

(١) رواه البخاري (٥٥٥٩)، ومسلم (٦٧).

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بكثرة الصمت تكون الهيبة».

وقيل لرجل: بِمَ سادكم الأحنف، فوالله ما كان بأكبركم سنًّا، ولا بأكثركم مالًا؟ فقال: بقوة سلطانه علىٰ لسانه.

قال الأحنف بن قيس: «الصمت أمان من تحريف اللفظ، وعصمة من زيغ المنطق، وسلامة من فضول القول، وهيبة لصاحبه».

واجتمع قس بن ساعدة، وأكثم بن صيفي، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدتَ في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تحصر، وقد وجدت خصلة إن استعملها الإنسان سترت العيوب كلها. قال: وما هي؟ قال: حفظ اللسان.

قال وُهَيبُ بن الورد: بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت، والعاشر في عزلة الناس.

وقد كان العقلاء وأهل الحكمة يعدون لزوم الصمت من المفاخر، ولعلَّ ذلك كان لأن في الصمت قطعًا لفضول الكلام الذي لا يجتنبه إلا موفَّق، ولا يستطيعه إلا قوي الشكيمة الذي يتعب في ترويض نفسه عليه حتىٰ يألفه، جاء عن الرجل الصالح لقمان أنه قال لولده: يا بُنَيَّ، إذا افتخر الناس بحسن كلامهم، فافتخر أنت بحسن صمتك.

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا خير في الحياة إلا لأحد رجلين، مُنصِت واعٍ، أو متكلم عالم».

وفي الصمت يَكُفُّ المرء أذاه عن الناس، وقد سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أي المسلمين أفضل؟ فقال: «**مَن سلم الناسُ من لسَانه ويده**»(١).

وفي لزوم الصمت وقلة الكلام ينشغل المرء عن مطالعة عيوب الناس، ويشتغل بمطالعة عيوب نفسه فيحدث لها إصلاحًا، ويتفقد أمراض قلبه فيلتمس لها علاجًا،

---

(١) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٥٧).

وبيان ذلك في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابكِ علىٰ خطيئتك**»(١).

ومَن سَكت عن عيوب الناس فلن يعدم السلامة، وقد قال بعض السلف: أدركنا قومًا لم تكن لهم عيوب، فذكروا عيوب الناس فذكر الناس لهم عيوبًا، وأدركنا أقوامًا كانت لهم عيوب فكفوا عن عيوب الناس فنُسِيَت عيوبهم، وقد قيل:

من يحمد الناس يحمدوه والناس من عابهم يُعَابُ

والواجب علىٰ العاقل ترك فضول الكلام وإن كان مباحًا؛ لأنَّ الكلام المباح قد يَجُر إلىٰ حرام أو مكروه، فهذا يحدث كثيرًا بل وقد يكون غالبًا، وقد نبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ ذلك، حيث قال: «**مِن حُسن إسلام المَرء تركه ما لا يعنيه**»(٢).

فالكلام كالدواء؛ إن أقلَلتَ منه نفع، وإن أكثرتَ منه قتل، والكلمة أسيرة في وثاق الرجل، فإذا تكلم بها صار في وثاقها، وقد كان السلف ينهون عن فضول الكلام لما فيه من ضياع الجهد فيما لا نفع فيه.

قال الإمام مالك: «كل شيء ينتفع بفضله إلا الكلامَ فإن فَضله يَضُرُّ».

وقال الشافعي: «يا ربيع، لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها».

وذُكر أنه اجتمع أربعة ملوك، فتكلموا، فقال ملك الفرس: ما ندمت علىٰ ما لم أقل مرة وندمت علىٰ ما قلت مرارًا، وقال قيصر: أنا علىٰ ردِّ ما لم أقل أقدرُ مني علىٰ رد ما قلت، وقال ملك الصين: ما لم أتكلم بكلمة ملكتها فإذا تكلمتُ بها ملكتني، وقال ملك الهند: العجيب ممن يتكلم بكلمة إن رفعت ضرت وإن لم تُرفع لم تنفع، وقد قيل:

قد أرىٰ كثرة الكلام قبيحًا كلُّ قول يشينه الإكثارُ

---

(١) رواه أحمد، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٩٠).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٢٨١).

قال وهيب بن الورد: «إن شابًّا كان يحضر مجلس عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويحسن الاستماع، ثم ينصرف من قبل أن يتكلَّم، ففطِنَ له عمر، فقال له: إنك تحضُر مجلسنا، وتحسن الاستماع، ثم تنصرف من قبل أن تتكلم، فقال الشاب: إني أحضر فأتوقىٰ وأتنقىٰ، وأصمت فأسلم».

وفضول الكلام يجلب العداوة، ويُظهر العيوب، ولذا قالت الحكماء: إياك وفضول الكلام، فإنه يظهر من عيوبك ما بطن، ويحرك من عدوك ما سكن.

كما يجب علىٰ العاقل ألا يغالب الناس علىٰ كلامهم، ولا يعترضَ عليهم فيه، فكما أنَّ للكلام في وقته منزلة جليلة، فإن للصمت في وقته مرتبةً عالية، وقد قيل:

لئن كان يجني اللومَ ما أنت قائل ... ولم يك منه النفع فالصمت أيسرُ

فكلام المرء بيان فضله وترجمان عقله، فلا بُد له لينال السؤدد أن يقصره علىٰ الجميل، ويقتصر منه علىٰ القليل، فإنَّ من كثر مقالُه سُئِم، وكل امرئ يُعرف بقوله، ويوصف بفعله، فلا بُدَّ أن يكون قوله سديدًا وفعله حميدًا.

كما يجب علىٰ العاقل أن يحذر أشد الحذر من هفوات اللسان والخوض فيما لا يعني، فإنَّ اللسان مثل السبع، إن لم توثقه عدا عليك ولحقك شره.

وقد جاء في الحديث قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تُكَفِّر اللسان فتقول: اتق الله فينا؛ فإنما نحن بك؛ فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**»(١).

وقد يقود الكلامُ صاحِبَه إلىٰ ما لا تُحمَدُ عُقباه، فيكسب له الضغائن والأحقاد، أو ربما تخرج منه كلمة لا يستطيع ردها تؤدي إلىٰ وقوع المصائب المهلكة، فاللسان سيف قاطع لا يؤمن حَدُّه، والكلام سهم نافذ لا يمكن رده، بل ولعله تخرج من المرء كلمة يكون فيها هلاكه، فإنَّ مقتل الرجل بين فَكَّيه.

---

(١) رواه الترمذي، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٧١).

قال الإمام عبد الله بن المبارك:

تعاهد لسانك إن اللسان سريع إلىٰ المرء في قَتلِهِ
وهذا اللسان بَريدُ الفؤاد يدلُّ الرجال علىٰ عَقلِهِ

وقال غيره:

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك إنه ثعبانُ
كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعانُ

والعاقل يحفظ أحواله من ورود الخلل عليها، وإن من أعظم الخلل المفسد لصحة السرائر والمُذهب لصلاح الضمائر الإكثار من الكلام، ولذلك كان السلف أكثر ما يكونون تفقدًا لكلامهم، فيلزمون الصمت ويقلون الكلام، ويرون في الصمت أعظمَ قائدٍ وأصدقَ دليل علىٰ أبواب البر.

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَن كَثُر كلامه كثر سَقَطه، ومن كثر سقطه قَلَّ حياؤه، ومن قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه».

قال الأوزاعي: «ما بُلي أحد في دينه ببلاء أضر عليه من طَلاقة لسانه».

وجاء عن إبراهيم التيمي أنه قال: أخبرني من صحب الربيع بن خُثَيْم عشرين عامًا فلم يسمع منه كلمةً تُعاب، فلما قُتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قيل: اليوم يتكلم مقالة، فتأوَّه ومَدَّ بها صوته، ثم قال: اللهم فاطرَ السموات والأرض عالمَ الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون.

قال مُورِّق العِجْلي: «أمرٌ أنا في طلبه منذ عشر سنين ولست بتارك طلبه؛ قال: وما هو يا أبا المعتمر؟ قال: الصمت عما لا يعنيني».

وعن يحيىٰ بن أبي كثير أنه قال: «ما صلح منطق رجل إلا عُرف ذلك في سائر عمله».

وبالصمت يتميز العاقل من الأحمق، فلسان العاقل يكون وراء قلبه، فإذا أراد

القول رجع إلىٰ القلب، فإن كان له قال وإلا فلا، والجاهل قلبه في طرف لسانه، ما أتىٰ علىٰ لسانه تكلم به، وما عَقَلَ دينه من لم يحفظ لسانه.

ولقد أحسن مَن قال:

إن كان يعجبك السكوتُ فإنه ... قد كان يعجب قبلك الأخيارَا

ولئن ندمتُ علىٰ سكوتٍ مرة ... فلقد ندمتُ علىٰ الكلام مرارَا

إن السكوت سلامة ولربما ... زرع الكلامُ عداوة وضِرارَا

قال الحسن البصري: «لأن يكون في فعال الرجل فضل عن قوله، خير من أن يكون في قوله فضل عن فعاله».

وكان عليُّ بن الحسين يقول: لا يقول رجل في رجل من الخير ما لا يعلم إلا أوشك أن يقول فيه من الشر ما لا يعلم، وما اصطحب اثنان علىٰ معصية إلا أوشك أن يفترقا علىٰ غير طاعة الله.

وقال عمر بن عبد العزيز: «من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه، ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه».

وقال الأوزاعي: «إذا أراد الله بقوم شرًّا فتح عليهم باب الجدل، وسدَّ عنهم باب العمل».

وقال إبراهيم بن أدهم: «كنا إذا رأينا الشاب يتكلم في المجلس أيسنا من خيره».

وقال ابن عباس: «يا لسان، قل خيرًا تغنم، واسكت عن شر تسلم، فإنك إلا تفعل تندم».

هذا وبالرغم من مدح الصمت، وذم الإكثار من الكلام، فلا يعني ذلك أن يسكت المسلم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنَّ هذا موضع لا يحسن السكوت فيه؛ لأنَّ الصمت في هذا المقام مما يُؤذن بانتشار المنكرات وتفشيها، وقد قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع**

فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[(١)].

قال أبو الدرداء: «كفىٰ بك كاذبًا ألا تزال محدثًا، إلا حديثًا في ذات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ».

وقيل لإياس بن معاوية: ليس فيك عيب سوىٰ كثرة كلامك. فقال: بحق أتكلم أم بباطل؟ فقيل: بل بحق. فقال: كلما كثر الحق فهو خير.

❊ ❊ ❊

(١) رواه مسلم (٧٠).

في تحريم الغيبة

الغيبة من أقبح القبائح وأكثرها انتشارًا في الناس، حتىٰ لا يسلم منها إلا القليل من الناس، وهي ذِكرُك الإنسان بما يكره ولو كان فيه ما تقول، سواء كان في دينه أو بدنه أو نفسه أو خُلُقه أو خَلْقه وغير ذلك مما يتعلق به.

قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أتدرون ما الغيبة؟** قالوا: اللهُ ورسوله أعلم، قال: **ذِكرُك أخاك بما يكره**، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: **إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهَتَّه**»(١).

فالغيبة: أن يُذكر الغائب بما يكرهُه، ويستوي في ذلك أن يذكره باللفظ أو الكتابة أو أن يرمز إليه بعينه أو يده أو رأسه ونحو ذلك، كأن يُطعن في دينه بأن يقال: سارق، خائن، ظالم، مُتهَاون بالصلاة، ليس بارًّا بوالديه، ونحو ذلك، وإما أن يُطعن في أمور دنياه فيُقال: أعمىٰ أو أعرج أو أعمش أو قصير أو طويل أو أسود، أو كقولهم: فلانٌ قليلُ الأدب، لا يَرىٰ لأحدٍ عليه حقًّا، كثير النوم كثير الأكل، وما أشبه ذلك، أو أن يُطعن في نسبه، وهكذا.

ولذلك فقد عظم التحذير من الغيبة لعظم خطرها وكبير إثمها، قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لمَّا عُرج بي إلىٰ السماء مَررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقُلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم**»(٢).

---

(١) رواه مسلم (٤٦٩٠).

(٢) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٣٣).

كما زجر عنها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زجرًا شديدًا، فعن عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قلت للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حسبُك من صفية كذا وكذا -قال بعضُ الرواة: تعني قصيرة-؛ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لقد قلت كلمة لو مُزِجت بماء البحر لمزَجَته**»(١)؛ أي: خالطته مخالطةً يتغير بها طعمُه وريحُه لكثرة نتنها.

واغتياب الناس مما يشين المرء ولا يزينه، ودليلُ حسدِ الناس علىٰ ما آتاهم الله من فضله، ولذلك عَدَّ بعض السلف ترك الغيبة من المفاخر.

قال الأحنف: «فِيَّ خصلتان: لا أغتاب جليسي إذا غاب عني، ولا أدخل في أمر قوم لا يدخلونني فيه».

وقيل للربيع بن خُثَيم: ما نراك تعيب أحدًا، فقال: لست عن نفسي راضيًا فأتفرغ لذم الناس، ثمَّ قال:

لنفسيَ أبكي لست أبكي لغيرها ... لنفسي مِن نفسي عن الناس شاغلُ

ويُقال: لا تأمن مَن كَذَب لك أن يكذب عليك، ومن اغتاب عندك غيرك أن يغتابك عند غيرك.

والمغتاب يهدي حسناته لمن اغتابه كما أشار إلىٰ ذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**أتدرون من المفلس؟** قالوا: المُفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: **إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطَىٰ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَت حسناتُه قبل أن يُقضىٰ ما عليه، أُخِذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار**»(٢).

ومن أجل ذلك فقد عمد بعض السلف إلىٰ تأديب مَن وقع فيهم زجرًا له لئلَّا

---

(١) رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٣٤).

(٢) رواه مسلم (٤٦٧٨).

يعود لمثلها، فقد قيل للحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن فلانًا اغتابك، فأهدىٰ إليه طبقًا من رُطب، فأتاه الرجل وقال له: اغتبتك فأهديت إليَّ، فقال الحسن: أهديتَ إليَّ حسناتك فأَرَدتُ أن أكافئك.

هذا ويدخلُ في الغِيبة المحرمة: أن يتشبه المرءُ بغيره، كأن يمشي متعارجًا أو متطأطئًا أو غير ذلك من الهيئات، وهو يريد بذلك تنقصه.

وبعض الناس يعرضون بالغيبة تعريضًا تفهم به كما تفهم بالتصريح، فيقال لأحدهم: كيف حال فلان؟ فيقول: الله يصلحنا، رحم الله حالنا، الله يصلحه، نسأل الله العافية، نحمد الله الذي لم يبتَلِنَا بالدخول علىٰ الظَّلمة، نعوذ بالله من الكبر، الله يعافينا من قلة الحياء، الله يتوب علينا، وما أشبه ذلك مما يفهم منه تنقيصه، فكل ذلك غيبة محرمة.

هذا ومما لا بُدَّ أن يُعلم: أنه كما يحرُم علىٰ المغتاب ذكرُ الغيبة، كذلك يحرم علىٰ السامع استماعها، فيجب علىٰ من سمع إنسانًا يغتاب أحدًا أن ينهاه، إن لم يكن مفسدةً، فإن خاف المفسدة وجب عليه الإنكار بقلبه ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقته، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام:٦٨].

ومما قيل في هذا المعنىٰ:

وسمعك صُن عن سماعِ القبيحِ كصونِ اللسان عنِ النطق بِهْ
فإنك عند سماع القبيحِ شريكٌ لقائله فانتبِهْ
وكم أزعج الحرصُ من طالبٍ فوافىٰ المنية في مطلَبِهْ

❊ ❊ ❊

تحريم السعي بالنميمة

النميمة من أعظم آفات اللسان، وهي نقل الكلام بين الناس علىٰ جهة الإفساد، وقد نهىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن قبول النميمة والسعاية فيها؛ لأنَّ النميمة كبيرة الخطر، عظيمة الشرر، وتفعل نظير ما يعمله السِّحر، كما جاء في قوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أتدرون ما العَضْه؟** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **نقل الحديث من بعض الناس إلىٰ بعض، ليفسدوا بينهم**»(١)، والعَضْه: هو السِّحر.

وفي هذا يقول يحيىٰ بن كثير: يُفسِد النمامُ في ساعة ما لا يفسد الساحر في شهر.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١٠-١١]، قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو الذي يغمز بأخيه في المجلس، وهو الهُمَزة اللُّمَزة.

وقد عظم الوعيد للنمام بالعذاب الشديد؛ نظرًا لما يفسد بين الأحبة ويقطع من الصِّلات؛ فقد جاء عن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه مرَّ بقَبرَين، فقال: «**إنهما ليُعذَّبان، وما يُعَذبان في كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله**»(٢)، وقال صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يدخل الجنَّة نَمَّام**»(٣).

فالواجب علىٰ العاقل مجانبة الأسباب التي تؤدي إلىٰ البغضاء والمشاحنة بين الناس، والسعي فيما يفرق جمعهم ويُشَتت شملهم، وينبغي للإنسان أن يسكت عن كل ما رآه من أحوال الناس، إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع معصية.

كما يجب علىٰ العاقل ألا يقبل سعاية الواشي بحيلة من الحيل، لعلمه بما

---

(١) رواه مسلم (٤٧١٨).

(٢) رواه البخاري (٢٠٩)، ومسلم (٤٣٩).

(٣) رواه البخاري (٥٥٩٦)، ومسلم (١٥١).

يرتكب الواشي من الإثم بفعله ذلك، فإن حُمِلت إليه النميمة وقيل له: قال فيك فلان كذا، ألا يصدق مَن نمَّ إليه؛ لأنَّ النمام فاسق مردود الخبر، وأن ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبح فعله، وألا يظن بالمنقول عنه السوء؛ لقول الله تعالىٰ: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

والنميمة هي المهلكة التي تجمع الخصال الذميمة، فتغرر بالنفوس والأموال، وتسلب العزيزَ عزَّه، وتحطُّ الرفيع عن مكانته والسيد عن مرتبته، وكم دمٍ أراقه سعيُ ساع، وكم حريمٍ استبيح بنميمةِ نمام، وكم من صَفِيَّين تبَاعَدا، وكم من متواصِلَين تقاطَعَا، وكم من مُحِبَّينِ افترقا، وكم من إِلفَين تهاجَرَا، وكم من زوجين تطَلَّقَا!

وقد أوصىٰ رجلٌ ابنه فقال: يا بني، إياك والنميمة، فإنها أَحَدُّ من السيف.

وقال العتبي: سمعت أعرابية توصي ابنًا لها، فقالت: عليك بحفظ السرِّ، وإياك والنميمة، فإنها لا تترك مودةً إلا أفسدتها، ولا ضغينة إلا أوقدتها.

فليتق اللهَ رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ رجلٌ أن ينمَّ بين الناس أو أن يُصغي لساعٍ أو يستمع لنمام، كما يجب الحذر من الساعين في النميمة، وأن يُحترس ممن عُرِف بها ونُسب إليها، وألا يُوثَق بمودته، ويزهد في مواصلته ومعاشرته.

قال بعض الحكماء: احذروا أعداءَ العقول ولصوصَ المَوَدَّات، وهم السعاة والنمامون، إذا سرق اللصوصُ المتاعَ سرقوا هم المودات.

هذا وإنَّ من أطاع الواشي فقد ضيع الصديق، فقد تُقطع الشجرة فتنبت، ويُقطع اللحم بالسيف فيندمل، واللسان لا يندمل جرحُه.

والعاقل دائم اليقظة والتبصر فيمن سعىٰ بالنميمة فيحذره ويمقته؛ لأنه يُعين علىٰ الشر ويحسِّنه ويحض عليه، ومنتهىٰ فرحه أن يرىٰ نتيجة عمله وقد وقعت حيث يريد.

دفع إنسانٌ رقعةً إلىٰ الصاحب بن عباد يحثه فيها علىٰ أخذِ مالِ يتيمٍ، وكان مالًا كثيرًا، فكتب إليه علىٰ ظهرها: النميمة قبيحة وإن كانت صحيحة، والميت رحمه الله،

واليتيم جبره الله، والساعي لعنه الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد قيل:

قـل للـذي لـست أدري مِـن تلـونه أناصـحٌ أم علـىٰ غـشٍّ يناجيني
تغتابنـي عـند أقـوام وتمدحنـي فـي آخـرين وكـل عـنك يأتيني
هـذان شـيئان قـد نافـيت بيـنهما فاكفـف لـسانك عـن شتمي وتزييني

وكلم معاويةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الأحنفَ في شيءٍ بلغه عنه، فأنكره الأحنف، فقال له معاوية: بلَّغني عنك الثقة، فقال له الأحنف: إن الثقة لا يبلغ مكروهًا.

وكان الفضل بن سهل يبغض السعاية، وإذا أتاه ساعٍ يقول له: إن صدَقتنا أبغضناك، وإن كذبتنا عاقبناك، وإن استقلتنا أقلناك.

وكتب أحدهم جوابًا علىٰ ساعٍ: نحن نرىٰ أن قبولَ السعاية شر من السعاية؛ لأن السعايةَ دلالة والقبولَ إجازة، وليس من دلَّ علىٰ شيءٍ وأخبر به إلا كمن قبله وأجازه، فاتقوا الساعي فإنه لو كان في سعايته صادقًا لكان في صدقه لئيمًا؛ إذ لم يحفظ الحُرمة ولم يستر العَورَة.

قال المأمون: النميمة لا تَقرَب مودةً إلا أفسدَتهَا، ولا عداوةً إلا جددتها، ولا جماعةً إلا بددتها.

ثم لا بُدَّ لمن عُرِف بها ونُسِب إليها، أن يُجتَنَب ويُخاف من معرفته، ولا يوثق بمكانه، وفي ذلك قيل:

مـن نـمَّ فـي الـناس لـم تُـؤمَن عقاربـه علـىٰ الـصَّديق ولـم تُـؤمن أفاعـيهِ
كالـسيل باللـيل لا يـدري بـه أحـد مـن أيـن جـاء ولا مـن أيـن يأتـيهِ

ويجب علىٰ العاقل أن يعلم أنَّ من بلَّغه السب من إنسان، فهو شاتم له علىٰ الحقيقة، كما قيل: سبَّك من بلَّغك السب، وهو محقِّر لمن نُقل إليه الكلام، وقد شافهه بالشتم والتنقُّص الذي لم يواجهه فيه الآخر، كما قيل:

مـــن يُخَبِّـــرْك بـــشتمٍ عـــن أخ　　　فهـــو الـــشاتمُ لا مَـــن شَـــتَمكْ

ذاك شـــيءٌ لـــم يـــشافهك بـــه　　　إنمـــا اللـــومُ علـــىٰ مـــن أعلمـــكْ

وليثق العاقل الفطن أن مَن نقل له الكلام عن غيره، فهو ينقل عنه كلامًا لغيره، والأحمق هو الذي يظن للحظةٍ أن الذي ينم علىٰ الناس عنده، سيرعىٰ له حرمة عندهم؛ لأنَّ النمامَ يَدُور في فلك الخيانة والكذب والغدر.

يُـــريك البـــشاشة عـــند اللِّقـــا　　　ويبـــريك فـــي الـــسرِّ بَـــري القَلَـــمْ

وقد سعىٰ رجلٌ بالليثِ بن سعدٍ إلىٰ والي مصر، فبعث إليه فدعاه، فلما دخل عليه، قال له: يا أبا الحارث، إنَّ هذا أبلغني عنك كذا وكذا، فقال له الليث: سله - أصلح الله الأمير!- عما أبلغك: أهو شيءٌ ائتمناه عليه فخاننا فيه، فما ينبغي لك أن تقبل من خائن، أو شيءٌ كذب علينا فيه، فما ينبغي لك أن تقبل من كاذب؟ فقال الوالي: صدقت يا أبا الحارث.

هذا وإنَّ مما ينبغي علىٰ مَن بلغه عن أخيه وشاية أن يعاتبه علىٰ الهفوة إن كانت، ويقبل عذره إذا اعتذر، ويترك الإكثار من العتب.

قال إياس بن معاوية: «إن أشرف خصال الرجل صدق اللسان، ومن عدم فضيلة الصدق فقد فَجِع بأكرم أخلاقه».

❊ ❊ ❊

لزوم الصدق ومجانبة الكذب

إن من سعادة المَرء: اشتغاله بصلاح حاله وتصحيح سلوكه، ومن أعظم ما يُعين علىٰ ذلك أن يتعاهد لسانه بما يصلحه، فقد قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**طُوبىٰ لمن ملك لسانه، ووسعه بيته، وبكىٰ علىٰ خطيئته**»(١).

ومن أهم ما يجب علىٰ العاقل فعله: أن يداوم علىٰ رعاية لسانه بلزوم الصدق وما يعود عليه نفعه في الدارين؛ لأن اللسان يقتضي ما عوِّد، إن صدقًا فصدق، وإن كان غير ذلك فهو علىٰ حسب ما عوده عليه.

واللسان بوابةٌ يلج من خلالها المَرء في تعامُله مع الآخرين، فمن الناس من يُكرَم للسانه، ومنهم مَن يُهَان بسببه، ولذا فالواجب علىٰ العاقل أن يتعاهد لسانه، ولا يكون ممن يشقىٰ به.

وخير ما يحمل المرء لسانه عليه: أن يعوِّده الصدق ومُجَانبة الكذب في الأقوال والأفعال، فإنَّ كل شيء يستعار ليُتَجمَّلَ به إلا اللسان فإنه ينضح بما اعتاده؛ لأنَّ الألسنة مَغَاريف القلوب، والصدق ينجي صاحبه، والكذب يُردِيه.

وقد قيل:

عَوِّد لسانك قول الخَير تَحظَ به ... إن اللسان لما عَوَّدتَ مُعتادُ

موكلٌ بتقاضي ما سننتَ له ... فاختر لنفسِك وانظر كيف ترتَادُ

والصدق من أعظم أبواب الخير التي تقودُ صاحبها إلىٰ جنَّات الخلد، كما في قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلىٰ البِر، وإن البِرَّ يهدي إلىٰ الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرىٰ الصدق حتىٰ يُكتب عند الله صديقًا،**

(١) رواه الطبراني، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٧٤٠).

وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلىٰ الفُجور، وإن الفجور يهدي إلىٰ النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرىٰ الكذب حتىٰ يُكتَب عند الله كذابًا»(١).

قال الفُضَيل بن عياض: «ما من مُضغة أحبُّ إلىٰ الله من لسان صَدُوق، وما من مُضغَة أبغض إلىٰ الله من لسان كذوب».

ولما تميَّز به الصدق من الفضل وعلو المنزلة فقد أوصىٰ به العقلاء، وحَثُّوا عليه، ومدحوا صاحبه، وما ذاك إلا لأنَّ الصدق عمود الدين، وركن الأدب، وأصل المروءة ولا تتم هذه الثلاثة إلا به.

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إن أبا بكر قام فينا عام أول فقال: إنه لم يقسم بين الناس شيء أفضل من المعافاة بعد اليقين، ألا إن الصدق والبرَّ في الجنة، ألا وإن الكذب والفجور في النار».

قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «عليك بالصدق وإن قتلك».

وقال المهلب بن أبي صفرة: «ما السيف الصارم في يدِ الشجاعِ بأعزَّ له من الصدق».

وقال إسماعيل بن عبيد الله: «لما حضرت أبي الوفاة جمع بنيه فقال لهم: يا بَنيَّ، عليكم بتقوىٰ الله، وعليكم بالقرآن فتعاهدوه، وعليكم بالصدق حتىٰ لو قَتَل أحدكم قتيلًا ثم سئل عنه أقرَّ به، واللهِ ما كذبتُ كذبة قط مُذ قرأت القرآن».

ولما خرج الشعبي مع ابن الأشعث علىٰ الحجاج، فانتصر الحجاج علىٰ ابن الأشعث، استشار الشعبيُّ أصحابَه فأشاروا عليه بالاعتذار، قال الشعبي: فلما دخلتُ خالفت مشورَتَهم، ورأيتُ واللهِ غير الذي قالوا، فسلَّمتُ عليه بالإمرة، ثم قلت: أيَّد الله الأمير، إنَّ الناس قد أمَرُوني أن أعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق، ولك اللهُ ألا أقول في مقامي هذا إلا الحق: قد جهدنا وحَرَصنا، فما كنا بالأقوياء الفجرة، ولا الأتقياء

(١) رواه البخاري (٥٦٢٩)، ومسلم (٤٧١٩).

البررة، ولقد نصرك اللهُ علينا، وأظفرك بنا، فإن سطوت علينا فبذنوبنا، وإن عفوت فبحِلْمِك والحجةُ لك علينا.

فقال الحجاج: أنت واللهِ أحبُّ إلينا قولًا ممن يدخل علينا وسيفُه يقطر من دمائنا ويقول: واللهِ ما فعلت ولا شَهِدت، أنت آمنٌ يا شعبي.

فقلتُ: أيها الأمير، اكتحلْتُ واللهِ بعدَك السَّهر، واستحلستُ الخوف، وقطعتُ صالحَ الإخوان، ولم أجد أحدًا من الأمير خلفًا.

قال: صَدَقت، وانصرفت.

ومن لزم الصدق وعوَّد لسانه عليه وُفِّق، فلا يكاد ينطق بشيءٍ يظنه إلا جاء علىٰ ظنه، وأحسن الكلام ما صدق فيه قائله وانتفع به سامعه، كما أن الله تعالىٰ يرزق صاحبه من الصفات ما يتميز به بين الناس مَن عرف منهم ومَن لم يعرف.

قال يوسف بن إسباط: «للصادق ثلاث خصال: الحلاوة، والملاحة، والمهابة؛ فالصادق يرزقه الله مهابة وجلالة؛ فمن رآه هابه وأحبه، والكاذب يرزقه إهانة ومقتًا؛ فمن رآه مَقَته واحتَقَره».

والصدق يرفع المرء في الدارين، ولو لم يكن في الصدق خصلة تحمد إلا أنَّ المرء إذا عُرِف به قُبِل كذبه، وصار صدقًا عند من يسمعه، لكان الواجب علىٰ العاقل أن يبلغ مجهوده في تدريب لسانه حتىٰ يستقيم له علىٰ الصدق ومجانبة الكذب.

قيل لسيار: تروي عن مثل خالد القسري؟ فقال: إنه أشرف من أن يكذب.

وينبغي علىٰ الوالد أن يربي ولده علىٰ الصدق من حين الصغر، فإنهم إذا نشئوا علىٰ ذلك صار لهم عادة ملازمة، وصفة دائمة، وقد كان عبد الملك بن مروان يقول لمؤدب ولده: عَلِّم بَنِيَّ الصدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم الكذب، وإن كان فيه كذا وكذا، يعني القتل.

وقد كانت العرب تفخر بالصدق ومجانبة الكذب حتىٰ في أيام جاهليتهم

وشركهم، حتىٰ قال أبو سفيان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -وقد كان مُشرِكًا-: كنت امرأً سيدًا أترفع عن الكذب. فلما جاء الإسلام ازدادوا به تمسكًا وفخرًا.

وجاء عن بلال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه خطب لأخيه امرأة قرشية، فقال لأهلها: نحن مَن قد عرفتم كُنَّا عبدَين فأعتقنا الله تعالىٰ، وكنا ضالَّين فهدانا الله تعالىٰ، وكنا فقيرَين فأغنانا الله تعالىٰ، وأنا أخطب منكم فلانةً لأخي، فإن تزوجوه فالحمد لله، وإن تردونا فالله أكبر.

فأقبل بعضهم علىٰ بعض، فقالوا: بلال ممن عرفتم سابقته ومشاهِدَه ومكانه من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فزوِّجوا أخاه، فزوَّجوه، فلما انصرفوا قال له أخوه: يغفر الله لك، أما كنت تذكر سوابقنا ومشاهِدَنا مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما عدا ذلك، فقال: مه يا أخي! صدقتَ فزوَّجك الصدق.

وامتدح ابنُ ميادة جعفرَ بنَ سليمان، فأمر له بمائةِ ناقة، فقبَّل يده وقال: والله ما قبَّلتُ يدَ قُرشيٍّ غيرك إلا واحدًا، فقال: أهو المنصور؟ قال: لا والله، قال: فمن هو؟ قال: الوليد بن يزيد.

فغضب وقال: واللهِ ما قبلتَها لله تعالىٰ، فقال: واللهِ ولا يدُك، ما قبلتُها للهِ تعالىٰ، ولكن قبلتُها لنفسي، فقال: واللهِ لا ضرَّك الصدقُ عندي، أعطوه مائة أخرىٰ.

وقد تورَّع السلف رَحِمَهُمُٱللَّهُ عن الكذب حتىٰ فيما تهاون الناس فيه بدعوىٰ مسايرة الآخرين.

قال المنصور لهشام بن عروة: يا أبا المنذر، تذكرُ يوم دخلت عليك أنا وإخوتي مع أبي، وأنت تشرب سويقًا بقصبةِ يراع؟ فلما خرجنا، قال أبونا: اعرفوا لهذا الشيخ حقه، فإنه لا يزال في قومكم بقيةٌ ما بقي.

قال: لا أذكر ذلك يا أمير المؤمنين، فلما ذهب المنصور لاموا هشامًا رَحِمَهُٱللَّهُ؛ لأنه لم يسايره في حديثه، فقال: لم يُعوِّدني الله في الصدق إلا خيرًا.

وكما يجب علىٰ المسلم لزوم الصدق فيجب عليه كذلك مجانبة الكذب، عامدًا

كان أو مازحًا، فالكلام أكثر من أن يكذب فيه عاقل، ومن أكثر الكذب لم يترك لنفسه شيئًا يُصَدَّق به، وإنما يكذب الكاذب من مهانة نفسه، ولو لم يكن للكذب من الذم إلا إنزاله صاحبه بحيث إنه إن صَدَق لم يُصدَّق، لكان الواجب علىٰ العاقل أن يتجنبه ويلزم التثبت بالصدق الدائم.

كذبتَ ومن يكذب فإنَّ جزاءه ... إذا ما أتىٰ بالصدقِ ألا يُصَدَّقَا

إذا عُرِف الكذابُ بالكِذبِ لم يزل ... لدىٰ الناس كذابًا وإن كان صادقًا

ومن آفةِ الكذاب نسيانُ كذبِه ... وتَلقاهُ ذا فَقهٍ إذا كان حاذِقَا

والكذب يَهوِي بصاحبه في الدنيا والآخرة، فلا يترك له قيمةً ولا أثرًا، ومن أجل ذلك قالت الحكماء: الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب، فلا شيءَ أشَد وأشنَع من الكذب، حيث يضع صاحبه ويحقِّره بحيث لا يرتفع بعد ذلك، كما قيل:

كم من حسيبٍ كريمٍ كان ذا شرف ... قد شانه الكِذبُ وسط الحي إن عمدَا

وآخرٍ كان صُعلوكًا فشَرفه ... صدقُ الحديث وقولٌ جانب الفَنَدَا

فصار هذا شريفًا فوق صاحبه ... وصار هذا وضيعًا تحته أبدَا

والكذب له تأثير عظيم في سواد الوجه، ويكسوه برقعًا من المقت يراه كل صادق، فتظهر سيما الكاذب في وجهه بينة يراها من له عينان، فالواجب علىٰ العاقل أن يتنزه عنه حفاظًا علىٰ دينه أن يُجرح، وعلىٰ مروءته أن تُقدح.

ومن تمام عقل المرء: تجنبه الخوض فيما لا يَعلم، حتىٰ لا يُتَّهم فيما يعلم، ولا يجب علىٰ المرء إذا سمع شيئًا يعيبه أن يحدِّث به؛ لأن من حَدَّث عن كلِّ شيءٍ أزرَىٰ برأيه وأفسَد صِدقَه، قال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**كفىٰ بالمرء كذبًا أن يُحَدِّث بكل ما سَمِع**»[١].

---

(١) رواه مسلم (٦).

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَسبُ المؤمن من الكذب أن يحدث بكل ما سمع».

فالواجب علىٰ المسلم: أن يحتاط لدينه، وأن يبتعد عما من شأنه أن يُزري بدينه ويحط من قدره، ولا شيء يبلغ به هذا المبلغ من نسبته إلىٰ الكذب؛ لأن الكذبَ رأسُ الذنوب، وهو يُبدي الفضائح ويكتم المَحَاسن.

هذا وإنَّ من أنواع الكذبِ: تعمدُ الكذبِ بدعوىٰ المزاح، وقد حذَّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك أشد تحذير؛ فقال: «**ويل للذي يحدث بالحديث ليُضحك به القوم فيكذب، وَيلٌ له، وَيلٌ له**»(١).

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يجد عبدٌ حقيقة الإيمان حتىٰ يَدعَ المراء وهو مُحِقٌّ، ويدع الكذب في المزاح وهو يرىٰ أنه لو شاء لغَلَب».

فالواجب علىٰ المسلم: أن يلزم الصدق في أقواله وأعماله، وأن يجتنب الكذب في جميع أحواله، ويحفظ لسانه عن جميع ما يُضعف دينه، فإنَّ في ذلك النجاة.

قال عبد الله بن عَمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لا تنطق فيما لا يعنيك، واخزُن لسانك كما تخزن دراهمك».

❊ ❊ ❊

(١) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٩٤٤).

أدب الأخوَّة والمجالسة والمؤانسة

مما لا شك فيه أنَّ الله سبحانه إذا أراد بقوم خيرًا جمع قلوبهم علىٰ الهدىٰ، وألَّف بينهم علىٰ الحقِّ، وقد مَنَّ الله تعالىٰ علىٰ قومٍ وذكَّرهم نعمته عليهم بأن جمع قلوبهم علىٰ الصفاء، وردَّها بعد الفرقة إلىٰ الألفة والإخاء؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران:١٠٣].

ولمَّا وصف نعيم الجنة وما أعد فيها لأوليائه ذكر من جملة ذلك ما امتن به عليهم أن جَعَلهم إخوانًا علىٰ سرر متقابلين، وما ذكر الله تعالىٰ ذلك في مقام الامتنان إلا لعظيم قدره وعلوِّ منزلته.

ومما يَدُل علىٰ فضل التآلف والأخوة: أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أول ما قدم المدينة- سنَّ الإخاء وندب إليه وآخىٰ بين الصحابة صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كما أن هذا الأمر صار مقررًا عند السلف الأخيار، لعلمهم أن التآخي مما يستعين به المرء في شئون دينه ودنياه، حتىٰ قال علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين.

فالإخوان خير ما اكتسب المرء في دنياه، فإنهم معونة علىٰ حوادث الزمان، ونوائب الحدثان، وعونٌ في السراء والضراء، **قال عبد الله بن طاهر**: «المال غادٍ ورائح، والسلطان ظل زائل، والإخوان كنوز وافرة».

وقال سليمان بن عبد الملك: «أكلتُ الطيِّبَ، ولبستُ اللَّيِّنَ، وركبتُ الفارِهَ، فلم يبقَ من لذاتي إلا صديقٌ أطرح معه مؤنة التحفُّظ».

ومن كلام علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

عليكَ بإخوان الصَّفاء فإنهم ... عمَادٌ إذا استنجدتهم وظهورُ

وإن قليلًا ألفُ خلٍّ وصاحبٍ وإنَّ عَدُوًّا واحدًا لكَثيرُ

وإذا كان لا بُدَّ للمرء من أخٍ، فيجب على العاقل أن يصاحبَ من يزينُه ولا يشينُه، فإنَّ الصاحبَ للصاحبِ كالرقعة في الثوب إن لم تكن مثله شانته، وليس العجب من جاهل يصحب جاهلًا، ولكن العجب من عاقل يصحبه، لأن كل شيء يفرمن ضده، ويميل إلىٰ جنسه، وقد قيل:

وما بَقِيَت من اللذَّات إلا محادثة الرجال ذوي العقولِ

وقد كنا نعدهمُ قليلًا فقد صاروا أقل من القليلِ

وقيل لابن السمَّاك: أيُّ الإخوان أحق ببقاء المَودَّة؟ قال: الوافرُ دينُه، الوافي عقلُه، الذي لا يملُّك علىٰ القرب، ولا ينساك علىٰ البُعد، إن دنَوتَ منه داناك، وإن بَعُدت عنه راعاك، وإن استعنت به عضدك، وإن احتجت إليه رفدك، وتكون مودةُ فعلِه أكثر من مودة قوله.

إن أخَا الهيجاءِ مَن يسعىٰ معَكْ ومَن يضُرُّ نفسَه ليَنفَعَكْ

ومن إذا ريبُ الزمان صَدَعَكْ شَتَّتَ فيك شملَهُ ليَجمَعكْ

قيل لخالد بن صفوان: أي إخوانك أحب إليك؟ قال: الذي يسُد خَلَّتي، ويغفرُ زلَّتي، ويُقيلُ عَثرَتي.

والواجبُ علىٰ العاقل: أن يتسع صدره لإخوانه، وألَّا يحرِصَ علىٰ استيفاءِ حقِّه كاملًا، فَمَن لا يؤاخي إلا مَن لا عَيب فيه قلَّ صديقُه، ومَن لَم يرضَ مِن صديقه إلا بإيثاره علىٰ نفسه دام سخطُه، ومَن عاتب علىٰ كلِّ ذنبٍ ضاع عتبُه وكثر تعبُه، وقد قيل:

إذا كنتَ في كلِّ الأمورِ معاتبًا صديقَك لَم تَلقَ الذي لا تعاتِبُهْ

وإن أنتَ لم تَشرَب مرارًا علىٰ القَذَىٰ ظمئت وأي الناس تصفو مشَاربُهْ

وقيل: إذا رأيتَ من أخيك أمرًا تكرهه أو خلة لا تحبها، فلا تقطع حبله، ولا تصرم

وده، ولكن داوِ كَلْمتَه، واستُر عورَتَه، وأبقه، وابرأ من عمله، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء:٢١٦]، فلم يأمره بقطعهم، وإنما أمره بالبراءة من عملهم السيئ.

وينبغي للمرء أن يصل إخوانه ولا يقطعهم، فليس سرور يعدل لقاء الإخوان، ولا غم يعدل فراقهم، ومن أعظم حقوقهم أن يكون متصلًا بهم، يتجنب الجفوة ولا يطيل الفجوة، ولا يجعل وصله لهم مقترنًا بإقبال الزمان عليهم وإدباره عنهم، فإنَّ شرَّ الإخوان الواصل في الرخاء الخاذل عند الشدة، وقد لا يعرفُ المَرء جميل صفات إخوانه حتىٰ يُبتلىٰ بغيرهم، كما قيل:

ستذكرني إذا جَربتَ غيري وتعلم أنني نِعمَ الصَّدِيقُ

وعلىٰ المرء أن يكتسب من الإخوان مَن تميز بالفضل، واتصف بمكارم الأخلاق، فإن ذا الشرف لا يصاحب إلا مَن كان مثله، قال ﷺ: «**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تنَاكَر منها اختلَف**»(١).

وعلىٰ العاقل أن يكون وفيًّا مع إخوانه، ويصاحب من كان هذا وصفه، فقد قيل: اصحب مِن الإخوان من أولاك جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة فنسي جمائله وبقي شاكرًا ناشرًا ذاكرًا لجميلتك، يُولِيك عليها الإحسان الكثير الجزيل، ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل.

وقال الأوزاعي: «مَن بادأك بالود فقد استرقَّك بالشُّكر».

وقيل: إنَّ الوزير المهلبي سافر قبل أن يتولىٰ الوزارة، فلحقه في سفره عبءٌ شديدٌ بسبب فقره وضيق حاله، وقد صحبه امرؤ عاقل يقال له: عبد الله، كان أخا صدقٍ له، حافظًا لعهده، ذاكرًا لوُدِّه، معينًا له علىٰ حاجته، مساعدًا له علىٰ شدته،

---

(١) رواه مسلم (٤٧٧٤).

قائمًا بكل ما يحتاجه.

ثم إنهم تفرقوا وتقلبت بهم الأيام، حتىٰ وصل المهلبي إلىٰ منصب الوزارة، فصفا عيشه، وحسنت هيئته، ووصل رفيقه إلىٰ هيئةٍ سيئة يرثي لها العدو اللئيم والصديق الحميم، فبلغه وزارة المهلبي فقصده وكتب إليه يذكِّره بعهده، فقرَّبه من مجلسه ووصَلَه بصلاتِ الملوك والأمراء، وقلَّده ولايةً من الولايات، حفظًا لإخائه وإبقاءً علىٰ مروءته.

قال مطرف بن عبد الله لصاحبٍ له: «إذا كانت لك إليَّ حاجة، فلا تكلمني فيها، فإني أكره أن أرىٰ ذل السؤال في وجهك، ولكن اكتبها في رقعة وارفعها».

كما ينبغي علىٰ الأخ أن يعتاد حُسن المُعَاشرة لإخوانه، فيتعامل معهم بالبشاشة والبشر وحسن الخلق والأدب، كان القعقاع بن شور الهذلي إذا جالسه رجل يجعل له نصيبًا من ماله ويعينه علىٰ حوائجه، ودخل يومًا علىٰ معاوية، فأمر له بألف دينار، وكان هناك رجل قد فسح له في المجلس، فدفعها للذي فسح له، فقال الرجل:

وكنتُ جليس قعقاعِ بنِ ثورٍ ... وما يشقىٰ بقَعقاعٍ جليسُ
ضحُوك السنِّ إن نطَقُوا بخير ... وعند الشر مِطْرَاقٌ عَبُوسُ

كما ينبغي للمرء أن يتأدَّب بآداب المجالسة، حتىٰ يتميز بجميل مجلسه بين الأقران، فيرغب الناس في مجالسته، ويأنسوا بملاقاته، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لِجَليسي عليَّ ثلاثٌ: أن أرمقه بطرفي إذا أقبل، وأوسع له إذا جلس، وأُصغي له إذا حدَّث، ومثل الجليس الحسن كالعطار إن لم يصبك من عطره أصابك من رائحته، ومثل الجليس السوء مثل الكبريت إن لم يحرق ثوبك بناره آذاك بدُخَانه.

ومما ينبغي للعاقل أن يتصف به من آداب المجلس: ألا يُقبلَ بحديثه علىٰ مَن لا يُقبِل عليه، فإنَّ نشاط المتكلم بقدر إقبال السامع، كما يتعين عليه أن يحدِّث المستمع علىٰ قدر عقله ولا يبتدع كلامًا لا يليق بالمجلس، فإنَّ لكل مقام مقالًا، وخير

القول ما وافق الحال، وقد قيل: ثمانية إن أهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم، الجالسُ في مجلس ليس له بأهل، والمقبلُ بحديثه علىٰ من لا يسمعه، والداخل بين اثنين في حديثهما ولم يُدخلاه فيه، والمتعرض لما لا يعنيه، والمتآمر علىٰ رب البيت في بيته، والآتي إلىٰ مائدة بلا دعوة، وطالب الخير من أعدائه، والمستخف بقدر السلطان.

ومن أدب الاستماع: أنه إذا ورد عليه من المتكلم ما كان قد مرَّ بسمعه، ألا يقطع عليه ما يقوله، بل يسكت إلىٰ أن يستوعب منه القول، وهذا من أعظم الأدب ولعله إذا صبر وسكت استفاد من ذلك زيادة فائدة لم تكن في حفظه.

قال عطاءُ بن أبي رَبَاح: «إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأني لم أسمعه قط، وقد سمعت به من قبل أن يولد».

وكان ابنُ خارجة يقول: «ما غلبني أحدٌ قط غلبةَ رجلٍ يُصغي إلىٰ حديثي».

وقال أبو العباس السفاح: ما رأيت أغزر من فكر أبي بكر الهذلي، لم يُعِد عليَّ حديثًا قط، وذُكر أنَّ أبا العباس كان يحدثه يومًا إذ عصفت الريح فأَرمَت طَستًا من سطحٍ إلىٰ المجلس، فارتاع من حضر ولم يتحرك الهذلي ولم تزل عينُه مطابقةً لعين السفاح، فقال: ما أعجب شأنك يا هذلي، فقال: إن الله يقول: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب:٤]، وإنما لي قلب واحد، فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادثٍ مجال، فلو انقلبت الخضراءُ علىٰ الغبراءِ ما أحسَستُ بها ولا وَجَمتُ لها، فقال السفاح: لئن بقيتُ لك لأرفعنَّ مكانك، ثم أمر له بمالٍ جزيل وصلةٍ كبيرة.

ويتعين علىٰ الجليس أن يراعي ألفاظه ويكون علىٰ حذر أن يعثر لسانه، خصوصًا إذا كان جليسه ذا هيبة، فقد قيل: رب كلمة سلبت نعمة، كما ينبغي لمن جالس الناس أن يتجنب الصفات التي تنفرهم منه، فقد قالت الحكماء: إذا أردت حُسنَ المُعَاشرة فالقَ عدوَّك وصديقك بالطلاقة ووجه الرضا والبشاشة، ولا تنظر في عطفيك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف علىٰ الجماعات، وإذا جلَستَ فلا تتكبر علىٰ أحد، وتحفَّظ من

تشبيكِ أصابعك، والتثاؤبِ في وجوه الناس، وليكن مجلسك هادئًا، وحديثك منظومًا مرتبًا، ولا تُلحَّ في الحاجات، ولا تشجع أحدًا علىٰ الظلم.

ولا تهازل خادمك فيسقط وقارك عنده، وإذا خاصَمتَ فأنصف، وتحفَّظ من جهلك، وتجنب عجلتك، وتفكر في حجتك، ولا تكثر الإشارة بيدك، ولا الالتفات إلىٰ من وراءك، وهدئ غضبك وتكلم، وإذا قرَّبك سلطان فكن منه علىٰ حذر، واحذر انقلابه عليك، ولا يحملنَّك لطفُه بك علىٰ أن تدخل بينه وبين أهله وحشمه.

وإياك وصديق العافية فإنه أعدىٰ الأعداء، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك، ولا تجالس الملوك، فإن فعلت فالتزم تركَ الغيبة ومجانبةَ الكذب وصيانةَ السر وقلةَ الحوائج، وتهذيبَ الألفاظ والمذاكرةَ بأخلاق الملوك، مع الحذر منهم وإن ظهرت المودة، ولا تتجشأ بحضرتهم ولا تخلل أسنانك بعد الأكل عندهم، ولا تجالس العامة فإن فعلت فآداب ذلك ترك الخوض في حديثهم، وقلة الإصغاء إلىٰ أراجيفهم، والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم، وإياك أن تمازح لبيبًا أو سفيهًا، فإن اللبيب يحقد عليك، والسفيه يتجرأ عليك، كما أنَّ المزاحَ يخرقُ الهيبة، ويَذهبُ بماء الوجه، ويعقب الحقد، ويذهَب بحلاوة الإيمان والود، ويشينُ فقه الفقيه، ويجرئُ السفيه، ويُميت القلب، ويُباعد عن الرب تعالىٰ، ويُكسِب الغفلة والذلة.

ومَن بُلي في مجلس بمِزَاح أو لَغَط، فليذكر الله عند قيامه، فقد جاء عن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**مَن جلس في مَجلس فكثر فيه لغَطُه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحَمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك؛ غُفِر له ما كان في مجلسه ذلك**»(١).

قال الزهري: «إذا طال المجلس كان للشيطان فيه نصيب».

وعلىٰ العاقل أن يجتنب مؤاخاةَ قليلِ الوفاء عديم المكافأة، الذي ليس له

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٥١٦).

صديق، ولا يحبُّ إلا نفسه، ولا ينظر إلا إلىٰ مصلحته، فإنَّ ذلك مما يعظم به البلاء ويزداد، وما أكثرَ مَن هذا وصفُه، قال وهب بن منبه: صحبتُ الناس خمسين سنة، فما وجدتُ رجلًا غفر لي زلة ولا أقالني عثرة ولا ستر لي عورة.

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يكون الصديق صديقًا حتىٰ يحفظ أخاه في ثلاث: في نكبته وغيبته ووفاته، وإذا كان الغدرُ طبعًا، فالثقة بكل أحد عجز».

وقيل لبعضهم: ما الصديق؟ قال: اسم وضع علىٰ غير مسمىٰ، وقد قيل:

سمعنا بالصديق ولا نراه ... علىٰ التحقيق يوجد في الأنامِ

قال علي بن الحسين لابنه: يا بني، لا تصحب فاسقًا، فإنه يبيعك بأكلة وأقل منها، يطمع فيها ثم لا ينالها، ولا بخيلًا، فإنه يخذلك في ماله أحوج ما تكون إليه، ولا كذابًا، فإنه كالسراب يقرب منك البعيد ويباعد عنك القريب، ولا أحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، ولا قاطع رحم، فإنه ملعون في كتاب الله.

في سنة سبع وثمانين ولَّىٰ الوليد بن عبد الملك علىٰ المدينة عمرَ بن عبد العزيز، فدخلها في ثلاثين بعيرًا، فنزل دار مروان، وجاء الناس للسلام عليه، وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة، فلما صلىٰ الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة، فدخلوا عليه فجلسوا، فحمد الله، وأثنىٰ عليه بما هو أهله، ثم قال: إني إنما دعوتكم لأمرٍ تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعوانًا علىٰ الحق، إني لا أريد أن أقطع أمرًا إلا برأيكم، أو برأيِ من حضر منكم، فإن رأيتم أحدًا يتعدىٰ، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة، فأحرِّج علىٰ من بلغه ذلك إلا أبلغني، فخرجوا من عنده يُجزُّونه خيرًا، وافترقوا علىٰ ذلك.

ومَن رأىٰ تغير أحوال الناس، علم أن منتهىٰ عقل المرء تقليله من المعارف، فقد كان الناس ورقًا لا شوك فيه، فصاروا شوكًا لا ورق فيه، قال جعفر الصادق: إن كان لك مائةُ صديق فاطرح تسعة وتسعين وكن من الواحد علىٰ حذر.

وقال ابن الرومي:

عـدوك مـن صـديقك مـستفادٌ ... فـلا تـستكثرن مـن الـصحابِ
فـإن الـداء أكثـر مـا تـراه ... يكـون مـن الطعـام أو الـشرابِ
إذا انقلـب الـصديق غَـدَا عـدُوًّا ... مبيـنًا والأمـور إلـىٰ انقـلابِ
ولـو كـان الكثيـر يطـيب كانـت ... مُـصاحبة الكثيـر مـن الـصوابِ
ولكـن قَـلَّ مـا اسـتكثرت إلا ... وقَعـت علـىٰ ذئَـاب فـي ثِـيابِ
فـدَع عـنك الكثيـرَ فكَـم كثيـرٍ ... يعَـاف وكـم قلـيل مُـستطابِ
ومـا اللجَـج المـلاح بمُـروِياتٍ ... ويكفـي الـري فـي الـنطف العـذابِ

ولما كانت عادة كثير من البشر إقبالهم علىٰ من تزينت له الدنيا، وإدبارهم عَمَّن فرطت مِن يديه، كان الواجب علىٰ العاقل ألا يحزن علىٰ فقد من صاحبه لما في يديه من الدنيا، وقد قيل لبعض الولاة: كم لك مِن صديق؟ فقال: أما في حال الولاية فكثير، ثم أنشد:

الـناس إخـوان مَـن دامـت لـه نِعَـمُ ... والـويل للمـرءِ إن زَلَّـت بـه القَـدَمُ

ولما نُكب عليُّ بن عيسىٰ الوزير نظر ببابه فلم يرَ أحدًا من أصحابه الذين كانوا يألفُونَه في ولايته، فلما رُدَّت إليه الوزارة وقف أصحابُه ببابه ثانيًا، فقال:

مـا الـناسُ إلا مـع الدنـيَا وصـاحبِها ... فكلمـا انقلَـبَت يـومًا بـه انقلَـبُوا
يعظِّمـون أخَـا الدنـيا فَـإن وَثَـبَت ... يـومًا علـيه بمـا لا يـشتهي وثَـبُوا

❊ ❊ ❊

في صنائع المعروف

إنَّ من سعَادة المسلم: أن يُوفِّقَه اللهُ لاصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وقضاء حوائج المسلمين، وإدخال السرور عليهم، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]، وحثَّ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ اصطناع المعروف والمسارعة إليه؛ فقد جاء عنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**خير الناس أنفعهم للناس**»(١).

كما أن صنائع المعروف يدفع الله بها عن المرء المصائب المهلكة ومصارع السوء المردية؛ فقد قال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صنائع المعروف تقي مصارع السوء**»(٢).

ومما يتمم فعل المعروف ويجمله: ألا يرىٰ صاحب المعروف لنفسه فضلًا علىٰ من تفضل عليه، ويجعل فعله أفضل من قوله.

قال عبد الله بن الحسن بن الحسين: «أتيت عمر بن عبد العزيز في حاجة، فقال: إذا كانت لك حاجة عندي، فأرسل إليَّ رسولًا أو اكتب لي كتابًا، فإني لأستحي من الله أن يراك ببابي».

وقال مسلمةُ لنصيبٍ: سلني، فقال: كفك بالعطية أبسط من لساني بالمسألة، فأمر له بألف دينار.

ودخلت أعرابية علىٰ عبد الله بن أبي بكرة بالبصرة، فقالت: أصلح الله الأمير وأمتع به، ألجأتنا إليك سنة اشتد بلاؤها، وانكشف غطاؤها، أقود صبيةً صغارًا وآخرين كبارًا، في بلدة شاسعة، تخفضنا خافضة، وترفعنا رافعة، ملماتٌ من الدهر بَرَين عظمي، وأذهَبن لحمي، وتركنني حائرة، أدور بالحضيض وقد ضاق بي البلد العريض،

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٢٦).

(٢) رواه الطبراني، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٨٨٩).

فسألتُ في أحياء العرب: مَن الكاملة فضائله، المعطي سائله، فدُللت عليك أصلحك الله، وأنا امرأة من هوازن، قد مات الوالد، وغاب الرافد، وأنت بعد الله غياثي ومنتهىٰ أملي، فافعل بي إحدىٰ ثلاث خصال: إما أن تردني إلىٰ بلدي، أو تحسن صفدي، أو تقيم أودي.

فقال: بل أجمعهن لك، فلم يزل يُجري عليها كما يجري علىٰ عياله حتىٰ ماتت.

ومن تمام المروءة: أن ينسىٰ المرءُ الحقَّ الذي له، ويذكر الحق الذي عليه، ويستكبر الإساءة منه، ويستصغرها من غيره، وقد قيل: إذا اصطنعت المعروف فاستره، وإذا اصطُنِع إليك فانشره، وقد قيل:

وَلَم أَرَ كالمعروف أمَّا مذاقُه فحلوٌ وأما وجهُه فجَميلُ

ومن صَنائع المعروف: الشفاعة، وهي التوسط لدىٰ الغير لجلب نفعٍ أو دفع ضرٍّ، وقد رغَّب اللهُ سبحانه بالشفاعة التي ينتفع بها المشفوعُ له بحصول مبتغاه، والشافعُ بحصول الأجر له؛ فقال الله تعالىٰ: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ [النساء:٨٥].

وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم أصحابه الشفاعة للغير ويحثهم عليها، حتىٰ يغرس فيهم هذا الخلق الجميل الذي ينمُّ عن كرم أخلاق من اتصف به؛ لما يقترن به من الرحمة والشفقة ومحبة الخير للناس، فكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**اشفَعُوا تُؤجروا؛ فإني لأريد الأمر فأؤخره كيما تشفعوا فتُؤجروا**»(١).

وقال رجلٌ لبعض الولاة: إن الناس يتوسلون إليك بغيرك، فينالون معروفك ويشكرون غيرك، وأنا أتوسل إليك بك ليكون شكري لك لا لغيرك.

وقيل: كان المنصور معجبًا بمحادثة محمد بن جعفر بن عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ،

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٤٦٤).

وكان الناس لعظم قدره يفزعون إليه في الشفاعات، فثقل ذلك علىٰ المنصور، فحجبه مدة، ثم لم يصبر عنه، فأمر الربيع أن يكلمه في ذلك، فكلَّمه، وقال: اعف أميرَ المؤمنين، لا تثقل عليه في الشفاعات، فقبل ذلك منه، فلما توجه إلىٰ الباب اعترضه قوم من قريش معهم رقاع، فسألوه إيصالها إلىٰ المنصور، فقص عليهم القصة، فأَبَوا إلا أن يأخذها، فقال: اقذفوها في كمي، ثم دخل عليه وهو في الخضراء مشرف علىٰ مدينة السلام وما حولها من البساتين، فقال له: أما ترىٰ إلىٰ حسنها يا أبا عبد الله؟

فقال له: يا أمير المؤمنين، بارك الله لك فيما آتاك، وهنأك بإتمام نعمته عليك فيما أعطاك، فما بَنَت العربُ في دولة الإسلام، ولا العجم في سالف الأيام، أحصن ولا أحسن من مدينتك، ولكن سمَّجتها في عيني خصلة، قال وما هي؟ قال: ليس لي فيها ضيعة، فتبسم، وقال: قد حسنتها في عينك بثلاث ضياع قد أعطيتكها، فقال: أنت واللهِ يا أمير المؤمنين شريفُ الموارد كريمُ المصادر، فجعل اللهُ تعالىٰ باقي عمرِك أكثر من ماضيه، ثم أقام معه يومه ذلك، فلما نهض ليقومَ بدت الرقاعُ من كُمِّه، فجعل يردُّهن ويقول: ارجعن خائبات خاسرات.

فضحك المنصور وقال: أقسم عليك إلا أخبرتني وأعلمتني بخبر هذه الرقاع، فأعلمه، وقال: ما أتيتُ يا ابنَ معلمِ الناسِ الخيرَ إلا كريمًا.

علىٰ أنه مما لا بُدَّ أن يُعلَم: أن الشفاعة إذا ترتب عليها أَخذ حقٍّ من مستحقه أو تقديم المشفوع له علىٰ من هو أجدر منه بالحصول علىٰ شيء ما، فإنها في هذه الحال لا تجوز، فالشفاعة المحمودة هي التي لا يترتب عليها سلب حقوق الآخرين أو ضياعها.

قال المبرد: أُتي خالدٌ بشاب قد وُجِد في دار قوم، وادُّعِي عليه السرقة، فسأله فاعترف، فأمر بقطع يده، فتقدمت فتاةٌ حسناء، فقالت:

أخالـد قـد أوطـأت واللَّـه عـشوة ... ومـا العاشـق المـسكين فيـنا بـسارقِ

أَقَـرَّ بمَـا لـم يَجـنِه غيـر أنـه رأىٰ القطعَ أولىٰ من فضيحة عاشقِ

فأمر خالد بإحضار أبيها، فزوَّجها من ذلك الفتىٰ، وأمهرها عنه عشرة آلاف درهم.

وأهدر المَهدي دمَ رجل من أهل الكوفة، وجعل لمن جاء به مائة ألف، فدخل الرجل بغداد متنكرًا، فبينما هو يومًا في بعض أزقة بغداد إذ لقيه رجل، فأخذ بمجامع ثوبه ونادىٰ: هذا طلبة أمير المؤمنين، وجعل الرجل يريد أن ينفلت منه فلا يقدر، فبينا هما كذلك إذ أمير في موكبه قد أقبل وإذا هو معن بن زائدة، فقال الرجل: يا أبا الوليد، خائف مستجير.

فقال: ويحك! ما لك وله؟ فقال: هذا طلبة أمير المؤمنين، جعل لمن جاء به مائة ألف.

قال معن: ويحك! أوَمَا علمت أني قد أجرته؟ أرسله من يدك، ثم أمر بعض غلمانه فترجل وأركبه، وذهب به إلىٰ منزله، وانطلق ذلك الرجل إلىٰ باب الخليفة فأنهىٰ إليه الخبر، فبلغ المهدي، فأرسل إلىٰ معن بن زائدة، فدخل عليه، فسلم فلم يرد المهدي وقال: يا معن، أَبَلَغ من أمرك أن تجير علي؟ قال: نعم، قال: ونعم أيضًا؟ قال: نعم، قد قتلت في دولتكم أربعة آلافِ مصلٍّ، أفلا يجار لي رجل واحد؟!

فأطرق المهدي، ثم رفع رأسه إليه، وقال: قد أجرنا من أجرتَ يا معن.

فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ الرجل ضعيف، فأمر له المهدي بثلاثين ألفًا.

فقال: إن جريمته عظيمة، وإنَّ جوائز الخلفاء علىٰ قدر ذنوب الرعية، فأمر له بمائة ألف، فحملت بين يدي معنٍ إلىٰ الرجل، فقال له معن: ادع للخليفة، وأصلح نيتك في المستقبل.

وكان يحيىٰ بن خالد يُجري علىٰ سفيان بن عيينة كلَّ شهر ألف درهم، وكان سفيان يدعو له في سجوده، ويقول: اللهم إنه قد كفاني أمرَ دنياي فاكفه أمر آخرته،

فلما مات يحيىٰ رآه بعض أصحابه في المنام فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بدعاء سفيان.

وقال مسلم بن إبراهيم: «ما دخلت علىٰ شعبة في وقت صلاة إلا ورأيته يصلي، وكان أبا الفقراء وأمهم».

وقال النضر بن شميل: «ما رأيت أرحم بمسكين منه، كان إذا رأىٰ مسكينًا لا يزال ينظر إليه حتىٰ يغيب عنه».

وقال يحيىٰ القطان: «ما رأيت أرق للمسكين منه، كان يدخل المسكين منزله فيعطيه ما أمكنه».

وقال ابن عباس: «تمام المعروف تعجيله وتصغيره وستره»، يعني: أن تُعجَّل العطية للمُعطَىٰ، وأن تَصغُر في عين المعطي، وأن تُستَر عن الناس فلا تُظهَر، فإن في إظهارها فتح باب الرياء وكسر قلب المعطَىٰ، واستحياءه من الناس.

وقال ابن عباس: «لا يكافئ من أتاني يطلب حاجة فرآني لها موضعًا إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وكذا رجل بدأني بالسلام، أو أوسع لي في مجلس، أو قام لي عن المجلس، أو رجل سقاني شربة ماء علىٰ ظمأ، أو رجل حفظني بظهر الغيب».

ودخل عبيد الله بن أبي بكرة علىٰ الحجاج مرة، وفي يده خاتم، فقال له الحجاج: كم ختمت بخاتمك هذا؟ قال: علىٰ أربعين ألف ألف دينار، قال: ففيم أنفقتها؟ قال: في اصطناع المعروف، ورد الملهوف، والمكافأة بالصنائع، وتزويج العقائل.

❊ ❊ ❊

الجود والسخاء والكرم والإيثار

الجُود: بذل المال، وأنفعه ما صرف في وجه استحقاقه، وقد ندب الله تعالىٰ إليه في قوله تعالىٰ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢].

قيل: إن الجود والسخاء والإيثار بمعنىٰ واحد، وقيل: من أعطىٰ البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود، ومن آثر غيره بالحاضر وبقي هو في مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار.

وأصل السَّخَاء هو السَّماحة، وقد يكون المُعطي بخيلًا إذا صعب عليه البذل، والمُمسِك سخيًّا إذا كان لا يستصعب العطاء.

فمن الإيثار ما حكي عن حذيفة العدوي أنه قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي في القتلىٰ -ومعي شيء من الماء- وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به بين القتلىٰ، فقلت له: أسقيك، فأشار إليَّ أن نعم، فإذا برجل يقول: آه، فأشار إليَّ ابنُ عمي أن انطلق إليه واسقه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك، فأشار إليَّ أن نعم، فسمع آخرَ يقول: آه، فأشار إليَّ أن انطلق إليه، فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلىٰ هشام فإذا هو قد مات، فرجعتُ إلىٰ ابن عمي فإذا هو قد مات.

ومن عجائب ما ذكر في الإيثار: ما حكاه أبو محمد الأزدي قال: لما احترق المسجد بمرو، ظن المسلمون أن النصارىٰ أحرقوه، فأحرقوا خاناتهم، فقبض السلطان علىٰ جماعة من الذين أحرقوا الخانات، وكتب رقاعًا فيها القطع والجلد والقتل ونثرها عليهم، فمن وقع عليه رقعة فُعِل به ما فيها، فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل، فقال: والله ما كنت أبالي لولا أمٌّ لي، وكان بجنبه بعض الفتيان، فقال له: في

رقعتي الجلد وليس لي أم، فخذ أنت رقعتي وأعطني رقعتك، ففعل، فقُتِل ذلك الفتىٰ وتخلص هذا الرجل.

وينبغي للمرء أن يحمل نفسه علىٰ الجود والسخاء، فقد قيل: انتهز الفرص عند إمكانها، ولا تحمل نفسك هم ما لم يأتك، واعلم أن تقتيرك علىٰ نفسك توفير لخزانة غيرك، فكم من جامعٍ لزوجِ حليلته، وفي ذلك يقول عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ما جمعتَ من المال فوق قُوتِك؛ فإنما أنت فيه خازِنٌ لغيرك.

وقالت الحكماء: أصل المحاسن كلها الكرم، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام، وسخاؤها بما تملك علىٰ الخاص والعام، ولأجل ذلك فقد بلغ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذروة الكرم.

قال جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: ما سئل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ شيئًا قط، فقال: لا [(١)].

وقيل للحسن بن سهل: لا خير في السَّرَف، فقال: لا سرف في الخير.

وقال عبد العزيز بن مروان رَحِمَهُٱللَّهُ: «عجبًا لمؤمن يؤمن ويوقن أن الله يرزقه ويُخلِف عليه، كيف يحبس مالًا عن عظيمِ أجرٍ وحُسن سماع».

قال علي بن الحسين: «إني لأستحي من الله عَزَّوَجَلَّ أن أرىٰ الأخ من إخواني، فأسأل الله له الجنة، وأبخل عليه بالدنيا، فإذا كان يوم القيامة قيل لي: لو كانت الجنة بيدك لكنت بها أبخل وأبخل وأبخل».

قال علي بن الحسين: «سادة الناس في الدنيا الأسخياء الأتقياء، وفي الآخرة أهل الدين وأهل الفضل والعلم؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء».

وقال المهلب بن أبي صفرة: «نعم الخصلة السخاء، تستر عورة الشريف، وتحبب المزهود فيه».

---

(١) رواه البخاري (٥٥٧٤)، ومسلم (٤٢٧٤).

وقال علي بن عبد الله بن عباس: «سادة الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء».

وصاحب المعروف يقيه الله مصارع السوء، قال أكثم بن صيفي: صاحب المعروف لا يقع، وإن وقع وجد له متكأ.

وقد كان العقلاء يتنافسون في أوجه البر ويسارعون إلىٰ أبواب الجود، حتىٰ رفع الله شأنهم، وأعلىٰ ذكرهم.

قيل لقيس بن سعد: هل رأيت قط أسخىٰ منك؟ قال: نعم، نزلنا بالبادية علىٰ امرأة، فجاء زوجها، فقالت له: إنه نزل بنا ضيفان، فجاءنا بناقة فنحرها، وقال: شأنكم، فلما كان من الغد جاء بأخرىٰ فنحرها، وقال: شأنكم، فقلنا: ما أكلنا من التي نُحِرت البارحة إلا القليل، فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت، فبقينا عنده أيامًا والسماء تمطر، وهو يفعل كذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته، وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه، ومضينا، فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا: قفوا أيها الركب اللئام، أعطيتمونا ثمن ضيافتنا، ثم إنه لحقَنا، وقال: خذوها وإلا طعنتكم برمحي هذا، فأخذناها وانصرفنا.

وقال النعمان بن المنذر يومًا لجلسائه: «من أفضل الناس عيشًا وأنعمهم بالًا وأكرمهم طباعًا، وأجلهم في النفوس قدرًا؟ فسكت القوم، فقام فتىٰ فقال: أبيت اللعن، أفضل الناس من عاش الناس في فضله، فقال: صدقت».

وكان أسماء بن خارجة يقول: «ما أحب أن أرد أحدًا عن حاجة؛ لأنه إن كان كريمًا أصون عرضه، أو لئيمًا أصون عنه عرضي».

وكان مُورِّق العجلي يتلطف في إدخال السرور والرفق علىٰ إخوانه، فيضع عند أحدهم الإناء ويقول له: أمسكه حتىٰ أعود إليك، ثم يرسل يقول له: أنت منه في حلٍّ.

وباع طلحة بن عثمان أرضًا بسبعمائة ألف درهم، فلما جاء المال قال: إنَّ رجلًا يبيت هذا عنده لا يدري ما يطرقه لغرير بالله تعالىٰ، ثم قسمه في المسلمين.

ودخل المنكدر علىٰ عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا فقال لها: يا أم المؤمنين، أصابتني فاقة، فقالت: ما عندي شيء، ولو كان عندي عشرة آلاف درهم لبعثت بها إليك، فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أسيد، فأرسلت بها إليه، فأخذها ودخل بها السوق، فاشترىٰ جارية بألف درهم، فولدت له ثلاثة أولاد، فكانوا عبَّاد المدينة، وهم: محمد وأبو بكر وعمر، بنو المنكدر.

ومن أكرم العرب في الإسلام طلحة بن عبيد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقد جاء إليه رجل، فسأله برحم بينه وبينه، فقال: هذا بستاني بمكان كذا وكذا، وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم، يُراح إليَّ المال بالعشية، فإن شئت فالمال، وإن شئت فالبستان.

وقال زياد بن جرير: «رأيت طلحة بن عبيد الله فرَّق مائة ألف في مجلس، وإنه ليخيط إزاره بيده».

وجاء رجل إلىٰ معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال له: سألتك بالرحم التي بيني وبينك إلا قضيت حاجتي، فقال له معاوية: أمن قريش أنت؟ قال: لا، قال: فأيُّ رحم بيني وبينك؟ قال: رحم آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال: رحِمٌ مجفوَّة، واللهِ لأكوننَّ أول من وصلها، ثم قضىٰ حاجته.

وجاء عن الأشعث بن قيس أنه أرسل إلىٰ عدي بن حاتم يستعير منه قدورًا كانت لأبيه حاتم، فملأها مالًا وبعث بها إليه، وقال: إنا لا نعيرها فارغة.

وسأل معاوية الحسن بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن الكرم، فقال: هو التبرع بالمعروف قبل السؤال، والرأفة بالسائل مع البذل.

وقدم رجل من قريش من سفر، فمر علىٰ رجل من الأعراب علىٰ قارعة الطريق قد أقعده الأمر، وأضرَّ به المرض، فقال له: يا هذا أعنا علىٰ الدهر، فقال لغلامه: ما بقي معك من النفقة فادفعه إليه، فصب في حِجره أربعة آلاف درهم فهمَّ ليقوم، فلم يقدر من الضعف فبكىٰ، فقال له الرجل: ما يبكيك لعلك استقللت ما دفعناه إليك؟ فقال: لا والله، ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني ذلك.

وقال بعضهم: قصد رجل إلىٰ صديق له فدَقَّ عليه الباب، فخرج إليه وسأله عن حاجته، فقال: عليَّ دين كذا وكذا، فدخل الدار وأخرج إليه ما كان عليه، ثم دخل الدار باكيًا، فقالت له زوجته: هلا تعللت حيث شقَّت عليك الإجابة، فقال: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتىٰ احتاج إلىٰ أن سألني.

وذكر عن عبد الله بن أبي بكر -وكان من أجواد العرب- أنه عطش يومًا في طريقه، فاستسقىٰ من منزل امرأة، فأخرجت له كوبًا، وقامت خلف الباب وقالت: تنحوا عن الباب، وليأخذه بعض غلمانكم، فإنني امرأة عزب مات زوجي منذ أيام، فشرب عبد الله الماء، وقال: يا غلام، احمل إليها عشرة آلاف درهم، فقالت: سبحان الله! أتسخر بي؟ فقال: يا غلام، احمل إليها عشرين ألفًا، فقالت: أسأل الله العافية، فقال: يا غلام، احمل إليها ثلاثين، فما أمسَت حتىٰ كَثُر خُطَّابها.

وكان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ينفق علىٰ أربعين دارًا من جيرانه عن يمينه، وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه، وأربعين خلفه، ويبعث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد، ويعتق في كل عيد مائة مملوك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم، فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدَّيْن، فقال: أخزىٰ الله مالًا يمنع عني الإخوان من الزيارة، ثم أمر مُنَاديًا ينادي: من كان لقيس عنده مال، فهو منه في حلٍّ، فكُسرت عتبة بابه بالعَشي لكثرة العُوَّاد.

وكان عبد الله بن جعفر من الجود بالمكان المشهود، وله فيه أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود، وكان معاوية يعطيه ألف ألف درهم في كل سنة، فيفرقها في الناس ولا يُرىٰ إلا وعليه دَين.

وسمَّن رجل بهيمة ثم خرج بها ليبيعها، فمر بعبد الله بن جعفر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فقال: يا صاحب البهيمة، أتبيعها؟ قال: لا، ولكنها هي لك هبة، ثم تركها له، وانصرف إلىٰ بيته، فلم يلبث إلا يسيرًا، وإذا عشرين نفرًا من الحمالين علىٰ بابه، عشرة منهم

يحملون حنطة، وخمسة لحمًا وكسوة، وأربعة يحملون فاكهة، وواحد يحمل مالًا، فأعطاه جميع ذلك، واعتذر إليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولما مات معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفد عبد الله بن جعفر علىٰ يزيد ابنه، فقال: كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك؟ فقال: كان رَحِمَهُ اللَّهُ يُعطيني ألف ألف، فقال يزيد: قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف، فقال: بأبي وأمي أنت، فقال: ولهذه ألف ألف، فقال: أما إني لا أقولها لأحد بعدك، فقيل ليزيد: أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد، فقال: والله ما أعطيته إلا لجميع أهل المدينة، ثم وكَّل به يزيد من صحبه وهو لا يعلم لينظر ما يفعل، فلما وصل المدينة فرّق جميع المال حتىٰ احتاج بعد شهر إلىٰ الدَّين.

وخرج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو والحسن والحسين وأبو دحية الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من مكة إلىٰ المدينة، فأصابتهم السماء بمطر، فلجأوا إلىٰ خباء أعرابي، فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتىٰ سكنت السماء، فذبح لهم الأعرابي شاة، فلما ارتحلوا قال عبد الله للأعرابي: إن قدمت المدينة فَسَل عنا، فاحتاج الأعرابي بعد سنين، فقالت له امرأته: لو أتيت المدينة فلقيت أولئك الفتيان، فقال: قد نسيت أسماءهم، فقالت: سل عن ابن الطيار، فأتىٰ المدينة، فلقي الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأمر له بمائة ناقة بفحولها ورعاتها، ثم أتىٰ الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: كفانا أبو محمد مؤنة الإبل، فأمر له بألف شاة، ثم أتىٰ عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: كفاني إخواني الإبل والشياه، فأمر له بمائة ألف درهم، ثم أتىٰ أبا دحية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: والله ما عندي مثل ما أعطوك، ولكن ائتني بإبلك، فأوقرها لك تمرًا، فلم يزل اليَسَار في عقب الأعرابي منذ ذلك اليوم.

وقال الحَسَن والحُسَين يومًا لعبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنك قد أسرفتَ في بذل المال، فقال: بأبي أنتما، إن الله عَزَّوَجَلَّ عوَّدني أن يتفضل عليَّ، وعودته أن أتفضَّل علىٰ عباده، فأخاف أن أقطع العادة، فيقطع عني المادة.

وامتدحه نصيب، فأمر له بخيل، وأثاث، ودنانير ودراهم، فقال له رجل: مثل هذا الأسود تعطي هذا المال؟ فقال: إن كان أسود فإن ثناءه أبيض، ولقد استحق بما قال أكثر مما نال، وهل أعطيناه إلا ثيابًا تبلىٰ ومالًا يفنىٰ، وأعطانا مدحًا يُروَىٰ وثناء يبقىٰ.

وخرج عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يومًا إلىٰ ضيعة له، فنزل علىٰ بستان به نخيل لقوم، وفيه غلام أسود يقوم عليه، فأتىٰ بقوته ثلاثة أقراص، فدخل كلب، فدنا من الغلام، فرمىٰ إليه بقرص، فأكله، ثم رمىٰ إليه بالثاني والثالث، فأكلهما، وعبد الله ينظر إليه، فقال: يا غلام، كم قوتُك كل يوم؟ قال: ما رأيت؟ قال: فلم آثرت هذا الكلب؟ قال: أرضنا ما هي بأرض كلاب، وإنه جاء من مسافة بعيدة جائعًا، فكرهت أن أردَّه، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا.

فقال عبد الله بن جعفر: أُلامُ علىٰ السخاء، وإنَّ هذا لأسخىٰ مني، فاشترىٰ البستان، وما فيه من النخيل والآلات واشترىٰ الغلام، ثم أعتقه، ووهبه البستان بما فيه من النخيل والآلات، فقال الغلام: إن كان ذلك لي فهو في سبيل الله تعالىٰ، فاستعظم عبد الله ذلك منه، فقال: يجود هذا وأبخل أنا؟ لا كان ذلك أبدًا.

وكان عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا من الأجواد، أتاه رجل وهو بفناء داره، فقام بين يديه، قال: يا ابن عباس، إن لي عندك يدًا وقد احتجت إليها، فصعَّد فيه بصره، فلم يعرفه، فقال: ما يدُك؟ قال: رأيتك واقفًا بفناء زمزم وغلامك يمتح لك من مائها، والشمس قد صهرتك، فظللتك بفضل كسائي حتىٰ شربت، فقال: أجل إني لأذكر ذلك، ثم قال لغلامه: ما عندك؟ قال: مائتا دينار، وعشرة آلاف درهم، فقال: ادفعها إليه، وما أراها تفي بحقِّ يده.

وقدم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ علىٰ معاوية مرة، فأهدىٰ إليه حُللًا كثيرة ومسكًا، وآنية من ذهب وفضة، ووجهها إليه مع حاجبه، فلما وضعها بين يديه نظر إلىٰ الحاجب وهو ينظر إليها، فقال له: هل في نفسك منها شيء؟ قال: نعم، والله إن في نفسي منها ما كان في

نفس يعقوب من يوسف -عليهما الصلاة والسلام-، فضحك عبد الله، وقال: خذها، فهي لك، قال: جعلت فداءك أخاف أن يبلغ ذلك معاوية، فيحقد علي، قال: فاختمها بخاتمك، وسلمها إلىٰ الخازن، فإذا كان وقت خروجنا حملناها إليك ليلًا، فقال الحاجب: والله لهذه الحيلة في الكرم أكثر من الكرم.

وتأخر معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إرسال صِلات عن الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقيل: لو وجهت إلىٰ ابن عمك عبد الله بن عباس، فإنه قدم بنحو ألف ألف، فقال الحسين: وأنىٰ تقع ألف ألف من عبد الله، فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت، وأسخىٰ من البحر إذا زخر، ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه تأخرَ صِلات معاوية عنه، وضيقَ حاله، وأنه يحتاج إلىٰ مائة ألف درهم، فلما قرأ عبدُ الله كتابه انهملت عيناه، وقال: أصبح الحسين يشكو ضيق الحال، وكثرة العيال؟ ثم قال لوكيله: احمل إلىٰ الحسين نصف ما أملكه من ذهب وفضة ودواب، وأخبِرْه أني شاطرتُه، فإنْ كفاه وإلا فاحمل إليه النصف الثاني، فلما أتاه الرسول قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثقَّلتُ واللهِ علىٰ ابن عمي، وما حسبت أنه يسمح لنا بهذا كله.

وجاء رجل من الأنصار إلىٰ عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال له: يا ابن عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنه ولد لي في هذه الليلة مولود، وإني سميته باسمك، وإن أمه ماتت، فقال له: بارك الله لك في الهبة، وآجرك علىٰ المصيبة، ثم دعا بوكيله وقال له: انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع لأبيه مائتي دينار لينفقها علىٰ تربيته، ثم قال للأنصاري: عد إلينا بعد أيام، فإنك جئتنا، وفي العيش يبس، وفي المال قلة، فقال الأنصاري: جعلت فداءك لو سبقت حاتمًا بيوم ما ذكرَتْهُ العربُ.

وقال أبو جهم بن حذيفة يومًا لمعاوية: أنت عندنا يا أمير المؤمنين كما قال ابن عبد كلال:

يقينًا ما نخاف وإن ظننا ... به خير أراناه يقينا

نميل على جوانبه كأنا ... إذا ملنا نميل على أبينا
نقلبه لنخبر حالتيه ... فنخبر منهما كرمًا ولينًا

وكان معن بن زائدة من الأجواد، وكان عاملًا على العراق بالبصرة، قيل: إنه أتى إليه أحد الشعراء، فأقام ببابه مدة يريد الدخول عليه، فلم يتهيأ له ذلك، فقال يومًا لبعض الخدم: إذا دخل الأمير البستان فعرفني، فلما دخل أعلمه بذلك، فكتب الشاعر بيتًا ونقشه على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، وكان معن جالسًا على القناة، فلما رأى الخشبة أخذها، وقرأها فإذا فيها بيت مفرد:

أيا جود معن ناج معنًا بحاجتي ... فليس إلى معنٍ سواك شفيعُ

فقال: من الرجل صاحب هذه؟ فأتي به إليه، فقال: كيف قلتَ؟ فأنشده البيت، فأمر له بمال كثير، فأخذها وانصرف، ووضع معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط ونظر فيها، وقال: عليَّ بالرجل صاحب هذه، فأُتي به، فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بمال كثير، فأخذها وانصرف، ووضع معنٌ الخشبة تحت بساطه.

فلما كان في اليوم الثالث أخرجها، ونظر فيها، وقال: عليَّ بالرجل صاحب هذه، فأتي به إليه، فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بمال كثير، فأخذها وتفكر في نفسه وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه، فخرج من البلد بما معه، فلما كان في اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده، فقال معن: لقد ساء واللهِ ظنه، ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار.

ومعن هو الذي يقول فيه القائل:

يقولون معنٌ لا زكاة لماله ... وكيف يزكي المال من هو باذلُه
إذا حال حولٌ لم تجد في دياره ... من المال إلا ذكره وجمائلُه

تــــراه إذا مــــا جئـــته مـــتهللًا كأنــك تعطــيه الــذي أنــت نائلُــه
تعــوَّد بــسط الكــف حتــىٰ لَــوَ انَّــهُ أراد انقباضًــا لــم تُطِعــه أنَامِلُــه
فلــو لــم يَكُــن فــي كفِّــه غيــر نَفــسِه لجـــاد بهـــا فليـــتَّقِ اللهَ ســـائلُه

ومن قول معن:

دَعينـــي أُذهـــبُ الأمـــوالَ حتـــىٰ أعـــف الأكـــرمِينَ عـــن اللـــئامِ

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء، وله أخبار في الجُود عجيبة، من ذلك ما حكاه عقيل بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلىٰ واسط أتيته، فقلت: أيها الأمير، إن رأيت أن تأذن لي، فأصحبك، قال: إذا قدمت واسط، فَأْتِنا إن شاء الله تعالىٰ، فسافرَ، وأقمتُ، فقال لي بعضُ إخواني: اذهب إليه، فقلت: كان جوابه فيه ضعف، قالوا: أتريد من يزيد جوابًا أكثر مما قال؟ قال: فسرتُ حتىٰ قدمتُ عليه، فلما كان في الليل دُعيت إلىٰ السَّمر، فتحدث القوم حتىٰ ذكروا الجواري، فالتفت إليَّ يزيد، وقال: إيهٍ يا عقيل، فقلت:

أفــاض القــومُ فــي ذِكــر الجَــواري فأمـــا الأعـــزَبُون فلـــن يَقُولـــوا

قال: إنك لم تبق عزبًا، فلما رجعت إلىٰ منزلي إذا أنا بخادم قد أتاني، ومعه جارية وفرشُ بيتٍ وعشرة آلاف درهم، وفي الليلة الثانية كذلك، فمكثت عشر ليالٍ، وأنا علىٰ هذه الحالة، فلما رأيتُ ذلك دخلت عليه في اليوم العاشر، فقلت أيها الأمير: قد والله أغنيت وأقنيت، فإن رأيتَ أن تأذن لي في الرجوع، فأكبت عدوي وأسُرُّ صديقي، فقال: إنما أخيرك بين خلتين، إما أن تقيم فنوليك، أو ترحل فنغنيك، فقلت: أقيم أيها الأمير، فنالني من فضله ما لا أقدر علىٰ وصفه.

وحج يزيد بن المهلب فطلب حلاقًا يحلق رأسه، فجاءوه بحلاق، فحلق رأسه، فأمر له بخمسة آلاف درهم، فتحيَّر الحلاق ودهش، وقال: آخذ هذه الخمسة الآلاف

وأمضي إلىٰ أم فلان أخبرها أني قد استغنيت، فقال: أعطوه خمسة آلاف أخرىٰ، فقال: امرأتي طالق إن حلقت رأس أحدٍ بَعدَك.

وحبس الحجاجُ يزيدَ بن المهلب علىٰ خَرَاج وجب عليه، مقداره مائة ألف درهم، فجمعت له، وهو في السجن، فجاءه الفرزدق يزوره، فقال للحاجب: استأذن لي عليه، فقال: إنه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه، فقال الفرزدق: إنما أتيت متوجعًا لما فيه، ولم آت ممتدحًا، فأذن له، فلما أبصره قال:

أبا خالد ضاقت خُراسَان بعدكم ... وقال ذوو الحاجات: أين يزيدُ؟!

فما قطرت بالشرق بعدك قطرةٌ ... ولا اخضَرَّ بالمروين بعدَك عودُ

وما لسرور بعد عزك بهجَة ... وما لجواد بعد جُودك جُودُ

فقال يزيد للحاجب: ادفع إليه المائة ألف درهم التي جمعت لنا، ودع الحجاج ولحمي يفعل فيه ما يشاء، فقال الحاجب للفرزدق: هذا الذي خفت منه لمَّا منعتك من دخولك عليه، ثم دفعها إليه، فأخذها وانصرف.

ومر يزيد بن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعجوز أعرابية، فذبحت له عنزًا، فقال لابنه: ما معك من النفقة؟ قال: مائة دينار، قال: ادفعها إليها، فقال: هذه يرضيها اليسير وهي لا تعرفك، قال: إن كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضىٰ إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي.

وقال مروان بن أبي الحبوب الشاعر: أمر لي المتوكل بمائة وعشرين ألفًا وخمسين ثوبًا، ورواحل كثيرة، فقلت أبياتًا في شكره، فلما بلغت قولي:

فأمسِك ندىٰ كفَّيك عني ولا تَزد ... فقد خِفتُ أن أطغىٰ وأن أتجَبَّرَا

فقال: والله لا أمسِكُ حتىٰ أغرقك بجودي، وأمر له بضياع تقوم بألف ألف.

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «مَن كانت له حاجة فليرفعها إليَّ في كتاب لأصون وجهه عن المَسألَة».

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يقول**: «لا تستح من عطاء القليل، فالحرمان أقل منه».

وجاءه أعرابي، فقال: يا أمير المؤمنين، إن لي إليك حاجة، الحياء يمنعني أن أذكرها، فقال: خطها في الأرض، فكتب: إني فقير، فقال: يا قَنْبَر، اكسه حلتي، فقال الأعرابي:

كسوتني حُلة تبلىٰ محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حُلَلَا

إن نلت حسن الثنا قد نلت مكرمة وليس تبغي بما قدمته بَدَلَا

إن الثناء ليُحيي ذِكرَ صَاحبِه كالغيثِ يُحيي نداه السهلَ والجَبَلَا

لا تزهد الدَّهر في عرف بدأتَ به كل امرئ سوف يُجزَىٰ بالذي فَعَلَا

وقال بعضُ العرب لولده: يا بني، لا تزهدن في معروف فإن الدهر ذو صروف، فكم راغب كان مرغوبًا إليه، وطالب كان مطلوبًا ما لديه، وكن كما قال القائل:

وعد من الرحمن فضلًا ونعمة عليك إذا ما جاء للخير طالبُ

ولا تمنَعَنْ ذا حاجَةٍ جاءَ راغِبًا فإنك لا تَدرِي متىٰ أنتَ راغبُ

وقال يحيىٰ البَرمكي: أعطِ من الدنيا وهي مقبلة، فإن ذلك لا ينقصك منها شيئًا، وأعط منها وهي مدبرة فإنَّ مَنْعَك لا يُبقي عليك منها شيئًا، فكان الحسَنُ بن سهل يتعجب من ذلك، ويقول: لله درُّه ما أطبعه علىٰ الكرم، وأعلمه بالدنيا، وقد أمر يحيىٰ من نظمه فقال:

لا تَبخَلنَّ بدُنيا وهي مُقبِلة فليس يُنقصها التبذيرُ والسَّرفُ

فإن تولَّت فأحرىٰ أن تجود بها فليس تبقىٰ ولكن شكرها خلفُ

وقال يحيىٰ لولده جعفر: «يا بُني، ما دام قلمك يرعد فأمطره معروفًا».

وقال بعضهم:

لا تكثري في الجود لائمتي وإذا بخلت فأكثري لومي

كفـــي فلـــست بحامـــل أبـــدًا ... مـا عـــشت هـــمَّ غـــدٍ إلـــىٰ يومـــي

وباع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضًا بثمانين ألفًا، فقيل له: لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخرًا؟ فقال: بل أجعلُه ذخرًا لي، وأجعل الله ذخرًا لولدي، وقسمه بين ذوي الحاجات.

وقال المُهَلب: عجبتُ لمن يشتري المماليك بماله كيف لا يشتري الأحرار بفعاله.

ونزل وهبُ بن وهب القرشي ضيفًا علىٰ أبي البحتري، فسارع عبيدُه إلىٰ إنزاله وخدموه أحسن خدمة، وفعلوا به كل جميل، فلما همَّ بالرحيل لم يقْرَبْه أحد منهم وتجنبوه، فأنكر ذلك عليهم، فقالوا: نحن إنما نعين النازل علىٰ الإقامة ولا نعينه علىٰ الرحيل.

ودخل طلحة بن عبد الله بن عوف السوق يومًا، فوافق فيه الفرزدق، فقال: يا أبا فراس، اختر عشرًا من الإبل، ففعل، فقال: ضم إليها مثلها، فلم يزل يقول مثل ذلك حتىٰ بلغت مائة، فقال: هي لك، فقال:

يـا طلـحُ أنـت أخـو الـندىٰ وعقـيده ... إن الـــندىٰ مــا مــات طلحـــة مَاتَـــا

إن الـــندىٰ ألقـــىٰ إلـــيك رحالـــه ... فبحـــيثُ بِـــتَّ مـــن المَـــنَازل باتَـــا

ووفد أبو عطاء السلمي علىٰ نصر بن سيَّار بخُرَاسان مع رفيقين له، فأنزله وأحسن إليه، وقال: ما عندك يا أبا عطاء؟ فقال: وما عسىٰ أن أقول، وأنت أشعر العرب غير أني قلت بيتين، قال: هات ما قلت؛ فقال:

يـا طالـب الجـود إمـا كـنت تطلـبه ... فاطلُـب علـىٰ بابـه نـصر بـن سـيارِ

الـواهب الخـيل تغـدو فـي أعِنَّـتها ... مـــع القـــيان وفـــيها ألـــف ديـــنارِ

فأعطاه ألف دينار، ووصائف، وكساه كسوة جميلة، فقسم ذلك بين رفيقيه، ولم

يأخذ منه شيئًا، فبلغ ذلك نصرًا، فقال: يا له قاتله الله من سيد، ما أضخم قدره!، ثم أمر له بمثله.

وقال العتبي: أشرف عمر بن هبيرة يومًا من قصره، فإذا هو بأعرابي، فقال عمر لحاجبه: إن أرادني هذا الأعرابي فأوصله إلي، فلما وصل الأعرابي سأله الحاجب، فقال: أردت الأمير، فدخل به إليه، فلما مَثُل بين يديه قال له: ما حاجتك؟ فأنشد الأعرابي يقول:

أصلحك الله قل ما بيدي ... ولا أطيق العيال إذ كثُرُوا

أناخ دهري عليَّ كلْكَلَه ... فأرسلوني إليك وانتظَرُوا

فأخذت عمر الأريحية، فجعل يهتز في مجلسه ثم قال: أرسلوك إليَّ وانتظروا، إذن والله لا تجلس حتىٰ ترجع إليهم، ثم أمر له بألف دينار.

وقيل: أراد ابن عامر أن يكتب لرجل بخمسين ألف درهم، فجرىٰ القلم بخمسمائة ألف، فراجعه الخازن في ذلك، فقال: أنفذه، فما بقي إلا إنفاذه، وإنَّ خروج المال أحب إلي من الاعتذار، فاستشرفه الخازن فقال: إذا أراد الله بعبد خيرًا صرف القلم عن مجرىٰ إرادة كاتبه إلىٰ إرادته، وأنا أردت شيئًا وأراد الجواد الكريم أن يعطي عبده عشرة أضعافه، فكانت إرادةُ الله الغالبة وأمرُه النافذ.

ووقف أعرابي علىٰ ابن عامر، فقال: يا قمر البصرة، وشمس الحجاز، ويا ابن ذروة العرب، وابن بطحاء مكة، برَّحت بي الحاجة وأكدَّت بي الآمال إلا بفنائك، فامنحني بقدر الطاقة لا بقدر المجد والشَّرف والهمة، فأمر له بمائتي ألف درهم.

وسمع المأمون قول عمارة بن عقيل:

أأترُك إن قلَّت دراهِمُ خالد ... زيارَتَه إني إذَن للَئِيمُ

فقال: أوَقَلَّت دراهم خالد: احملوا إليه مائة ألف درهم، فبعثها خالد بن يحيىٰ إلىٰ عمارة بن عقيل، وقال: هذه قطرة من سحابك.

ولما عُزل عبد الرحمن بن الضحاك عن المدينة بكىٰ، ثم قال: والله ما بكائي جزعًا من العزل، ولا أسفًا علىٰ الولاية، ولكن أخاف علىٰ هذه الوجوه أن يلي أمرها من لا يعرف لها حقًّا.

وعن الأخفش الصغير قال: كان أسيد بن عنقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه قدرًا، وأكثرهم أدبًا، وأفصحهم لسانًا، وأثبتهم جنانًا، فطال عمره ونُكِب، فخرج عشية يتنفل لأهله، فمر به عميلة الفزاري فسلم عليه، وقال: ما أصارك يا عم إلىٰ ما أرىٰ؟ فقال: بخلُ مثلك بماله، وصونُ وجهي عن مسألة الناس، فقال: والله لئن بقيتُ إلىٰ غدٍ لأغيرنَّ ما أرىٰ من حالك، فرجع ابن عنقاء إلىٰ أهله، فأخبرها بما قال له عميلة، فقالت له: لقد غرك كلام غلامٍ في جنح الليل، قال: فكأنما ألقمت فاه حجرًا، وبات متململًا بين رجاءٍ ويأس، فلما كان وقت السحر سمع رغاءَ الإبل وصهيلَ الخيل تحت الأموال، فقال: ما هذا؟ قالوا: عميلةُ قد قسم ماله شطرين، وبعث إليك بشطره، فأنشأ يقول:

رآني علىٰ ما بي عميلة فاشتكىٰ ... إلىٰ ماله حالي فواسىٰ وما هَجَرْ
ولما رأىٰ المجد استعيرت ثيابُه ... تردىٰ رداءً سابغ الذيل واتَّزَرْ
غلامٌ حباه الله بالحسن يافعًا ... له سيمياء لا تشق علىٰ البَصَرْ
كأن الثريا عُلِّقَت في جبينه ... وفي أنفه الشِّعرىٰ وفي جيده القَمَرْ

وكان أحمد بن طولون كثير الصدقة، سوىٰ ما يطرأ عليه من نذر أو صلة، وسوىٰ ما يطبخ في دار الصدقة، وكان الموكل بصدقته سليم الخادم، فقال له سليم يومًا: أيها الأمير، إني أطوف القبائل، وأدق الأبواب لصدقاتك، وإنَّ اليد تُمَدُّ إليَّ وفيها الحناء، وربما كان فيها الخاتم الذهب، والسوار الذهب، أفأعطي أم أرد؟

فأطرق طويلًا، ثم قال: كلُّ يدٍ امتدت إليك فلا تَرُدَّها.

وقال سلمة بن عياش في جعفر بن سليمان:

وما شَمَّ أنفي ريحَ كفٍّ شمَمتُها ... من الناس إلا ريحُ كفِّك أطيَبُ

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ومائة مثقال عنبر.

وكان عبد العزيز بن عبد الله جوادًا مضيافًا، فتغدىٰ عنده أعرابي يومًا، فلما كان من الغد مرَّ علىٰ بابه، فرأىٰ الناس في الدخول علىٰ هيئتهم الأمس، فقال: أَوَكُل يوم يطعم الأميرُ الناس؟ قالوا: نعم، فأنشأ يقول:

كل يومٍ كأنه عيد أضحىٰ ... عند عبد العزيز أو عيد فطرِ

وله ألفُ جفنةٍ مترعات ... كلُّ قدرٍ يمدُّها ألف قدرِ

وتعشىٰ الناس ليلة عند سعيد بن العاص، فلما خرجوا بقي فتىٰ من الشام قاعدًا، فقال له سعيد: ألك حاجة؟ وأطفأ الشمعة كراهة أن يخجل الفتىٰ، فذكر أن أباه مات، وخلف دينًا وعيالًا، وسأله أن يكتب له كتابًا إلىٰ أهل دمشق ليقوموا بإصلاح حاله، فدفع له عشرة آلاف دينار وقال له: لا أدعك تقاسي الذل علىٰ أبوابهم.

ودخل رجلٌ علىٰ علي بن سليمان الوزير، فقال له: سألتك بالله العظيم إلا ما أجرتني من خصمي، فقال: ومن خصمك حتىٰ أجيرك منه، فقال: الفقر، فأطرق الوزير ساعة، وقال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم، فأخذها وانصرف، فبينما هو في الطريق إذ أمر الوزير برده إليه، فلما رجع قال له: سألتك بالله العظيم متىٰ أتاك خصمك معنِّفًا، فارجع إلينا متظلمًا.

وقال الأعمش: كانت عندي شاة فمرضت، وفقد الصبيان لبنها، فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشي ويسألني: هل أكلت علفَها؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها؟ وكان تحتي لِبدٌ أجلس عليه، فكان إذا خرج يقول: خذ ما تحت اللبد، حتىٰ وصل من علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتىٰ تمنيت أن الشاة لم تبرأ.

وقال أبو قدامة القشيري: كنا مع يزيد بن مزيد يومًا، فسمع صائحًا يقول: يا يزيد ابن مزيد، فطلبه فأتي به إليه، فقال: ما حملك علىٰ هذا الصياح؟ قال: فُقِدَت دابتي ونَفِدَت نفقتي، وسمعت قول الشاعر:

إذا قيل من للجود والمجد والندىٰ ... فنادي بصوت يا يزيدُ بنُ مزيدِ

فأمر له بفرس أبلق كان معجبًا به، وبمائة دينار، وحلية سنية فأخذها وانصرف.

وروي عن الهيثم بن عدي أنه قال: تمارىٰ ثلاثة نفر في الأجواد، فقال رجل: أسخىٰ الناس في عصرنا هذا عبد الله بن جعفر، فقال الآخر: أسخىٰ الناس قيس بن سعد بن عبادة، فقال الآخر: بل أسخىٰ الناس اليوم عرابة الأوسي، فتنازعوا بفناء الكعبة، فقال لهم رجل: لقد أفرطتم في الكلام، فليمض كل واحد منكم إلىٰ صاحبه يسأله حتىٰ ننظر بما يعود، فنحكم علىٰ العيان.

فقام صاحب ابن جعفر فوافاه، وقد وضع رجله في ركاب راحلته يريد ضيعة له، فقال الرجل: يا ابن عم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ابن سبيل ومنقطع به، قال: فأخرج رجله، وقال: ضع رجلك واستو علىٰ الناقة، وخذ ما في الحقيبة، وكان فيها مطارف خز وأربعة آلاف دينار.

ومضىٰ صاحبُ قيس، فوجده نائمًا، فقالت له جارية قيس: ما حاجتك؟فقال: ابن سبيل ومنقطع به، فقالت له الجارية: حاجتك أهون من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما في دار قيس اليوم غيرها، وامض إلىٰ معاطن الإبل، فخذ راحلة من رواحله وما يصلحها، وعبدًا، وامض لشأنك، وقيل: إن قيسًا لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت، فأعتقها، ولو لم تعلم أن ذلك يرضيه ما جسرت أن تفعله، فخلق خدم الرجل مقتبس من خلقه.

قال بعض الشعراء:

وإذا ما اختبرت ود صديق ... فاختبر وده من الغلمانِ

ومضىٰ صاحب عرابة، فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة، فقال: يا عرابة، ابن سبيل ومنقطع به، وكان معه عبدان، فصفق بيده اليمنىٰ علىٰ اليسرىٰ، وقال: أواه أواه، والله ما أصبح ولا أمسىٰ الليلة عند عرابة شيء، ولا تركت له الحقوق مالًا، ولكن خذ هذين العبدين، فقال الرجل: والله ما كنت بالذي يسلبك عبديك، فقال: إن أخذتهما، وإلا فهما حران لوجه الله تعالىٰ، فإن شئت، فأعتق، فأخذ الرجل العبدين ومضىٰ.

ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد، فحكموا لعرابة؛ لأنه أعطىٰ علىٰ جهد.

وقيل: إن شاعرًا قصد خالد بن يزيد، فأنشده شعرًا يقول فيه:

سألت الندىٰ والجود: حُرَّان أنتما؟ فقالا يقينًا إننا لعبيدُ

فقلت ومن مولاكما فتطاولا إليَّ وقالا: خالد بن يزيدُ

فقال: يا غلام، أعطه مائة ألف درهم وقل له: إن زدتنا زدناك، فأنشد يقول:

كريم كريم الأمهات مهذب تدفق يمناه الندىٰ وشمائلُه

هو البحر من أي الجهات أتيته فلجَّتُه المعروف والجود ساحلُه

جوادٌ بسيطُ الكف حتىٰ لَوَ انَّه دعاها لقبض لم تجبه أناملُه

فقال: يا غلام، أعطه مائة ألف درهم وقل له: إن زدتنا زدناك، فأنشد يقول:

تبرعت لي بالجود حتىٰ نعشتني وأعطيتني حتىٰ حسبتك تلعبُ

وأنبت ريشًا في الجناحين بعدما تساقط مني الريش أو كاد يذهبُ

فأنت الندىٰ وابن الندىٰ وأخو الندىٰ حليف الندىٰ ما للندىٰ عنك مذهبُ

فقال: يا غلام، أعطه مائة ألف درهم وقل له: إن زدتنا زدناك، فقال: حسْبُ الأمير ما سمع، وحَسْبِي ما أخذتُ وانصرف.

وأما الذين انتهىٰ إليهم الجود في الجاهلية؛ فَهُم: حاتم بن عبد الله الطائي، وهرم بن

سنان، وخالد بن عبيد الله، وكعب بن مامة الإيادي.

وضرب المثل بحاتم وكعب، وحاتم أشهرهما، فأما كعب، فجاد بنفسه، وآثر رفيقيه بالماء في المفازة، ومات عطشًا، وليس له خبر مشهور.

وأما خالد بن عبيد الله، فإنه جاء إليه بعض الشعراء ورجله في الركاب يريد الغزو، فقال له: إني قلت فيك بيتين من الشعر، فقال: في مثل هذا الحال؟ قال: نعم، فقال: هاتهما، فأنشده يقول:

يا واحد العرب الذي ... ما في الأنام له نظيرُ

لو كان مثلك آخَرٌ ... ما كان في الدنيا فقيرُ

فقال: يا غلام، أعطه عشرين ألف دينار، فأخذها وانصرف.

وأما حاتم: فأخباره كثيرة، وآثاره في الجود شهيرة، ويكنىٰ أبا سفانة وأبا عدي، فأسلم عدي بن حاتم، وأسلمت أخته سفانة بنت حاتم، وكانت من أجود نساء العرب، وكان أبوها يعطيها الضريبة من إبله فتهبها وتعطيها الناس، فقال لها أبوها: يا بنية، إن الكريمين إذا اجتمعا في المال أتلفاه، فإما أن أُعطي وتمسكي، وإما أن أمسك وتُعطي، فإنه لا يبقىٰ علىٰ هذا شيء، فقالت له: منك تعلمت مكارم الأخلاق.

وكان حاتم الطائي من شعراء الجاهلية، وكان جوادًا يشبه جوده شعره، ويصدِّق قوله فعله، وكان حيثما نزل عُرف منزله، وكان مظفرًا إذا قاتل غلب، وإذا سئل وهب، وإذا سابق سبق، وإذا أسر أطلق، وكان إذا أهل رجب الذي كانت تعظمه مضر في الجاهلية نحر كل يوم عشرًا من الإبل وأطعم الناس، واجتمعوا إليه.

وكان قد تزوج ماوية بنت عفير، وكانت تلومه علىٰ إتلاف المال، فلا يلتفت لقولها، وكان لها ابن عم يقال له مالك، فقال لها يومًا: ما تصنعين بحاتم، فوالله لئن وجد مالًا ليتلفنه، وإن لم يجد ليتكلفن، ولئن مات ليتركن أولادًا عالة علىٰ قومك، فقالت ماوية: صدقت إنه كذلك.

وكانت النساء يطلقن الرجال في الجاهلية وكان طلاقهن أن يكنَّ في بيوت من شعر، فإن كان باب البيت من قبل المشرق حولته إلىٰ المغرب، وإن كان من قبل المغرب حولته إلىٰ المشرق، وإن كان من قبل اليمن حولته الىٰ الشام، وإن كان من قبل الشام حولته إلىٰ اليمن، فإذا رأىٰ الرجل ذلك علم أنها طلقته، فلم يأتها.

ثم قال لها ابن عمها: طلقي حاتمًا وأنا أتزوجك، وأنا خير لك منه، وأكثر مالًا، وأنا أمسك عليك، وعلىٰ ولدك، فلم يزل بها حتىٰ طلقته، فأتاها حاتم وقد حولت باب الخباء، فقال حاتم لولده: يا عدي، ما ترىٰ ما فعلت أمك؟ فقال: قد رأيت ذلك، فأخذ ابنه وهبط بطن وادٍ، فنزل فيه، فجاءه قوم، فنزلوا علىٰ باب الخباء كما كانوا ينزلون، وكان عدتهم خمسين فارسًا، فضاقت بهم ماوية ذرعًا وقالت لجاريتها: اذهبي إلىٰ ابن عمي مالك، وقولي له: إن أضيافًا لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلًا، فأرسل إلينا بشيء نقريهم ولبن نسقيهم، وقالت لها: انظري إلىٰ جبينه وفمه، فإن شافهك بالمعروف فاقبلي منه، وإن ضرب بلحيته علىٰ زوره، ولطم رأسه، فأقبلي ودعيه.

فلما أتته وجدته متوسدًا وطبًا من لَبِن، فأيقظته وأبلغته الرسالة وقالت له: إنما هي الليلة حتىٰ يعلم الناس مكان حاتم، فلطم رأسه بيده وضرب بلحيته، وقال: أقرئيها السلام وقولي لها: هذا الذي أمرتك أن تطلقي حاتمًا لأجله، وما عندي لبن يكفي أضياف حاتم.

فرجعت الجارية، فأخبرتها بما رأت وبما قال لها، فقالت لها: اذهبي إلىٰ حاتم وقولي له: إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة ولم يعلموا مكانك فأرسل إلينا بناقة نقريهم، ولبن نسقيهم، فأتت الجارية حاتمًا، فصاحت به، فقال: لبيك قريبًا دعوت، فأخبرته بما جاءت بسببه، فقال لها: حبًّا وكرامة، ثم قام إلىٰ الإبل، فأطلق اثنتين من عقالهما وصاح بهما حتىٰ أتيا الخباء، ثم نحرهما، فطفقت ماوية تصيح: هذا الذي طلقتك بسببه، نترك أولادنا وليس لهم شيء، فقال لها: ويحك يا ماوية الذي خلقهم وخلق

الخلق متكفل بأرزاقهم.

وكان إذا اشتد البرد وغلب الشتاء أمر غلمانه بنار فيوقدونها في بقاع الأرض لينظر إليها من ضل عن الطريق ليلًا فيقصدها، ولم يكن حاتم يمسك شيئًا ما عدا فرسه وسلاحه، فإنه كان لا يجود بهما، ثم جاد بفرسه في سنة مجدبة.

حُكِي أنَّ ابنَ أخي ماوية قال لها يومًا: يا عمة حدثيني ببعض عجائب حاتم وبعض مكارم أخلاقه، فقالت: يا ابن أخي، أعجب ما رأيت منه أنه قد أصابت الناس سنة أذهبت الخف والظلف، وقد أخذني وإياه الجوع وأسهرَنا، فأخذت سفانة، وأخذ عديًا، وجعلنا نعللهما حتىٰ ناما، فأقبل عليَّ يحدثني ويعللني بالحديث حتىٰ أنام، فرفقت به لما به من الجوع، فأمسكت عن كلامه لينام، فقال لي: أنمت؟ فلم أجبه، فسكت ونظر في فناء الخباء، فإذا شيء قد أقبل، فرفع رأسه، فإذا امرأة فقال: ما هذا؟ فقالت: يا أبا عدي، أتيتك من عند صبية يتعاوون كالذئاب جوعًا، فقال لها: أحضري صبيانك، فوالله لأشبعنهم.

فقامت سريعة لأولادها، فرفعتُ رأسي وقلت له: يا حاتم، بماذا تشبع أطفالها، فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل، فقال: والله لأشبعنَّك وأشبعن صبيانك وصبيانها، فلما جاءت المرأة نهض قائمًا، وأخذ المدية بيده وعمد إلىٰ فرسه، فذبحه، ثم أجج نارًا ودفع إليها شفرة، وقال: قطعي واشوي وكلي وأطعمي صبيانك، فأكلت المرأة وأشبعت صبيانها، فأيقظتُ أولادي وأكلتُ وأطعمتهم.

فقال: والله إن هذا لهو اللؤم، تأكلون وأهل الحي حالهم مثل حالكم، ثم أتىٰ الحي بيتًا بيتًا يقول لهم: انهضوا بالنار، فاجتمعوا حول الفرس، وتقنع حاتم بكسائه وجلس ناحية، فوالله ما أصبحوا وعلىٰ وجه الأرض منها قليل ولا كثير إلا العظم والحافر، ولا والله ما ذاقها حاتم، وإنه لأشدهم جوعًا، فقال:

أماويُّ إن المال غاد ورائحٌ — ويبقىٰ من المال الأحاديث والذكرُ

وقد علم الأقوام لو أن حاتمًا أراد ثراء المال كان له وفرُ

وأغار قوم علىٰ طيئ، فركب حاتم فرسه وأخذ رمحه ونادىٰ في جيشه وأهل عشيرته، ولقي القوم، فهزمهم وتبعهم، فقال له كبيرهم: يا حاتم، هب لي رمحك، فرمىٰ به إليه، فقيل لحاتم: عرضت نفسك للهلاك، ولو عطف عليك لقتلك، فقال: قد علمت ذلك، ولكن ما جواب من يقول: هب لي؟

ولما مات عظم علىٰ طيئ موته، فادعىٰ أخوه أنه يخلفه، فقالت له أمه: هيهات، شتان والله ما بين خلقتيكما، وضعتُه فبقي والله سبعة أيام لا يرضع حتىٰ ألقمت أحد ثديي طفلًا من الجيران، وكنت أنت ترضع ثديًا ويدك علىٰ الآخر، فأنىٰ لك ذلك.

والحكايات في ذِكر الأجواد والكرماء والأسخياء وأهل المعروف وما كانوا عليه من السخاء والكرم أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر، وهذه المناقب فيها عز الدنيا وشرف الآخرة، وحسن الصيت وخلود جميل الذكر، فإنا لم نجد شيئًا يبقىٰ علىٰ ممر الدهر إلا الذِّكر، حسنًا كان أو قبيحًا.

وقد قيل:

ولا شيءٌ يدومُ فكن حديثًا جميلَ الذكر فالدنيا حديثُ

كان عبد العزيز بن مروان من خيار الأمراء، كريمًا جوادًا ممدحًا، وهو والد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، وقد اكتسىٰ عمر أخلاق أبيه، وزاد عليه بأمور كثيرة، فإنه كان من أعطىٰ الناس للجزيل.

وقيل: إن عبيد الله بن أبي بكرة عطش يومًا، فأخرجت له امرأةٌ كوز ماء بارد، فأعطاها ثلاثين ألفًا.

وكان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب من أسخىٰ الناس، يُعطي الجزيل الكثير ويستقله، وقد تصدق مرة بألفي ألف، وأعطىٰ مرة رجلًا ستين ألفًا، ومرة أعطىٰ رجلًا أربعة آلاف دينار.

وقيل: إنَّ رجلًا جلب مرة سكرًا إلىٰ المدينة فكسد عليه، فلم يشتره أحد، فأمر ابن جعفر قيِّمَه أن يشتريه، وأن يهبه للناس.

وقيل: إن معاوية لما حج ونزل المدينة في دار مروان قال يومًا لحاجبه: انظر هل ترىٰ بالباب الحسن أو الحسين أو ابن جعفر أو فلانًا -وعدَّ جماعة- فخرج فلم ير أحدًا، فقيل له: هم مجتمعون عند عبد الله بن جعفر يتغدون، فأتىٰ معاويةَ فأخبره فقال: ما أنا إلا كأحدهم، ثم أخذ عصا فتوكأ عليها، ثم أتىٰ باب ابن جعفر، فاستأذن عليه، ودخل فأجلسه في صدر فراشه، فقال له معاوية: أين غداؤك يا ابن جعفر؟ فقال: وما تشتهي من شيء فادع به، فقال معاوية: أطعمنا مخًّا، فقال: يا غلام، هات مخًّا، فجاء بصحفة فأكل معاوية، ثم قال ابن جعفر لغلامه: هات مخًّا، فجاء بصحفة أخرىٰ ملآنة مخًّا، إلىٰ أن فعل ذلك ثلاث مرات، فتعجب معاوية وقال: يا ابن جعفر، ما يسعك إلا الكثير من العطاء.

فلما خرج معاوية أمر له بخمسين ألف دينار، وكان ابن جعفر صديقًا لمعاوية، وكان يفد عليه كل سنة فيعطيه ألف ألف درهم، ويقضي له مائة حاجة، ولما حضرت معاوية الوفاة أوصىٰ ابنه يزيد به، فلما قدم ابن جعفر علىٰ يزيد قال له: كم كان أمير المؤمنين يعطيك كل سنة؟ قال: ألف ألف، فقال له: قد أضعفناها لك، فكان يعطيه ألفي ألف كل سنة، فقال له عبد الله بن جعفر: بأبي أنت وأمي، ما قلتها لأحد قبلك، ولا أقولها لأحد بعدك، فقال يزيد: ولا أعطاكها أحد قبلي، ولا يعطيكها أحد بعدي.

وحكي أن رجلًا اشترىٰ جارية كانت تحسن القرآن والشعر وغيره، فأحبها حبًّا شديدًا، وأنفق عليها ماله كله حتىٰ أفلس، ولم يبق له شيء سوىٰ هذه الجارية، فقالت له الجارية: قد أرىٰ ما بك من قلة، فلو بعتني وانتفعت بثمني صلح حالك، فباعها لعمر بن عبيد الله -وهو يومئذٍ أمير البصرة- بمائة ألف درهم، فلما قبض المال ندم وندمت الجارية، فأنشأت تخاطب مولاها الذي باعها:

هنيئًا لك المال الذي قد أخذته ... ولم يبق في كفَّيَّ إلا تفكري
أقول لنفسي وهي في كرب غشية ... أقلي فقد بان الخليط أو اكثري
إذا لم يكن في الأمر عندك حيلة ... ولم تجدي بُدًّا من الصبر فاصبري

فأجابها سيدها، قائلًا:

ولولا قعود الدَّهر بي عنك لم يكن ... لفُرقتِنا شيء سوىٰ الموت فاعذري
أءوب بحزنٍ من فراقك موجع ... أناجي به قلبًا طويلَ التذكرِ
عليك سلامٌ لا زيارةَ بيننا ... ولا وصلُ إلا أن يشاء ابن معمرِ

فلما سمعهما ابن معمر قد شببت، قال: واللهِ لا فرقتُ بين مُحبَّيْن أبدًا، ثم أعطاه المال -وهو مائة ألف- والجارية، لما رأىٰ من توجعهما علىٰ فراق كل منهما صاحبه، فأخذ الرجل الجارية وثمنها وانطلق.

وكان أسماء بن خارجة الفزاري جوادًا ممدحًا، حكي عنه أنه رأىٰ يومًا شابًّا علىٰ باب داره جالسًا، فسأله عن قعوده علىٰ بابه، فقال: حاجة لا أستطيع ذكرها، فألحَّ عليه، فقال: جارية رأيتها دخلت هذه الدار لم أرَ أحسن منها، وقد خطفَت قلبي معها، فأخذ بيده، وأدخله داره، وعرض عليه كل جارية عنده، حتىٰ مرت تلك الجارية، فقال: هذه.

فقال له: اخرج فاجلس علىٰ الباب مكانك، فخرج الشاب فجلس مكانه، ثم خرج إليه بعد ساعة والجارية معه، قد ألبسها أنواع الحلي، وقال له: ما منعني أن أدفعها إليك وأنت داخل الدار إلا أن الجارية كانت لأختي، وكانت ضنينة بها، فاشتريتها لك منها بثلاثة آلاف، وألبستها هذا الحلي، فهي لك بما عليها، فأخذها الشاب وانصرف.

وكان بشر بن مروان الأموي سمحًا جوادًا، وكان لا تغلق دونه الأبواب، ويقول:

إنما تحتجب النساء، وكان طليق الوجه، ويجيز علىٰ الشعر بألوف.

وكان الأوزاعي من أكرم الناس وأسخاهم، وكان له في بيت المال علىٰ الخلفاء إقطاع، فصار إليه من بني أمية وبني العباس نحو من سبعين ألف دينار، فلم يقتن منها شيئًا، ولا ترك يوم مات سوىٰ سبعة دنانير، كان ينفقها في سبيل الله وفي الفقراء.

وقدم معاوية بن أبي سفيان حاجًّا فتلقاه الناس، فكان عبد الله بن صفوان في جملة من تلقاه، فجعل يساير معاوية، وجعل أهل الشام يقولون: مَن هذا الذي يساير أمير المؤمنين؟

فلما انتهىٰ إلىٰ مكة إذا الجبلُ أبيض من الغنم، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه غنم أجزرتكها، تقسمها بين الجند، فإذا هي ألفا شاة، فقالوا: ما رأينا أكرم من ابن عم أمير المؤمنين.

وكان مصعب بن الزبير من أجود الناس وأكثرهم عطاء، لا يستكثر ما يعطي ولو كان ما عساه أن يكون، فكانت عطاياه للقوي والضعيف والوضيع والشريف مُتَقَاربة.

وغضب مُصعَبٌ مرةً علىٰ رجل فأمر بضرب عنقه، فقال له الرجل: أعزَّ اللهُ الأمير، ما أقبحَ بمثلي أن يقوم يوم القيامة فيتعلق بأطرافك الحسنة، وبوجهك الذي يستضاء به، فأقول: يا ربِّ، سَلْ مصعبًا فيم قتلني؟ فعفا عنه.

فقال الرجل: أعزَّ اللهُ الأمير، إن رأيتَ أن تجعل ما وهبتَ لي من حياتي في عيشٍ رخي، فأطلق له مائةَ ألف، فقال الرجل: إني أشهدك أنَّ نصفها لابنِ قيس الرقيات حيث يقول فيك:

إن مصعبًا شهابٌ من اللَّـه … تجلت عن وجهه الظلماءُ

ملكُه ملكُ عزةٍ ليس فيه … جبروتٌ منه ولا كبرياءُ

يتقي الله في الأمور وقد أَفْـ … ـلَحَ من كان همه الاتقاءُ

وحجَّ جعفر بن يحيىٰ مرةً، فلما كانوا بالمدينة قال لرجل من أصحابه: انظر

جارية أشتريها تكون فائقة في جمالها وذكائها، ففتش الرجل فوجد جارية علىٰ النعت، فطلب سيدها فيها مالًا كثيرًا علىٰ أن يراها جعفر، فذهب جعفر إلىٰ منزل سيدها، فلما رآها أعجب بها، فساوم صاحبها فيها، وقال: قد أحضرنا مالًا فإن أعجبك وإلا زدناك.

فقال لها سيدها: إني كنت في نعمة، وكنتِ عندي في غاية السرور والسعة، وإنه قد انقبض عليَّ حالي، وقد أحببتُ أن أبيعك لهذا الملك، لتكوني عنده كما كنت عندي.

فقالت: يا سيدي، والله لو ملكتُ منك ما ملكتَ مني لم أبعك بالدنيا وما فيها، وأين ما كنت عاهدتني ألا تبيعني، ولا تأكل ثمني؟!

فقال سيدها لجعفر وأصحابه: أشهدكم أنها حرة لوجه الله تعالىٰ، وأني قد تزوجتها.

فلما قال ذلك نهض جعفر، وقام أصحابه، وأمروا الحمال أن يحمل الدراهم، فقال جعفر: والله لا تتبعني.

وقال للرجل: قد ملكتكها، فأنفقها علىٰ أهلك، وذهب وتركه.

ودخل أعرابي علىٰ خالد القسري فقال: إني قد امتدحتك ببيتين، ولست أنشدهما إلا بعشرة آلاف وخادم، فقال: قل، فأنشأ يقول:

لزمتَ نعم حتىٰ كأنك لم تكن ... سمعتَ من الأشياء شيئًا سوىٰ نَعَمْ

وأنكرت لا حتىٰ كأنك لم تكن ... سمعت بها في سالف الدهر والأُمَمْ

فأمر له بعشرة آلاف درهم وخادم يحملها.

ودخل عليه أعرابي، فقال له: سل حاجتك، فقال له: مائة ألف، فقال: أكثرت، حُطَّ منها، فقال: أضع منها تسعين ألفًا، قال: فتعجب منه خالد، فقال: أيها الأمير، سألتك علىٰ قدرك، ووضعت علىٰ قدري، فقال له: لن تغلبني، وأمر له بمائة ألف.

قال الأصمعي: سأل أعرابي خالدًا القَسري أن يملأ له جرابه دقيقًا، فأمر بملئه له دراهم، فقيل للأعرابي حين خرج من عنده: ما فعل معك؟ فقال: سألته ما أشتهي، فأمر لي بما يشتهي هو.

وبينما خالد القسري يسير في موكبه إذ تلقاه أعرابي، فسأله أن يضرب عنقه، فقال: ويحك! ولِمَ؟ أقطعتَ السبيل؟ أأخرجت يدًا من طاعة؟ فكل ذلك يقول: لا، قال: فلِمَ؟ قال: من الفقر والحاجة.

فقال: سل حاجتك، فقال: ثلاثين ألفًا، فقال خالد: ما ربح أحدٌ مثلما ربحت اليوم، إني وضعت في نفسي أن يسألني مائةَ ألف، فسأل ثلاثين، فربحت سبعين ألفًا، ارجعوا بنا اليوم، وأمر له بثلاثين ألفًا.

وكان خالد إذا جلس توضع الأموال بين يديه، ويقول: إن هذه الأموال ودائع لا بدَّ من تفرقتها.

قال عمر بن الهيثم: إنَّ أعرابيًّا قدم علىٰ خالد القسري فأنشده قصيدة امتدحه بها يقول فيها:

إليك ابن كرز الخير أقبلت راغبًا ... لتجبر مني ما وهىٰ وتبددَا
إلىٰ الماجد البهلول ذي الحلم والندىٰ ... وأكرم خلق الله فرعًا ومحتدَا
إذا ما أناس قصروا بفعالهم ... نهضت فلم تلفىٰ هنالك مقعدَا
فيا لك بحرًا يغمر الناس موجه ... إذا يُسألِ المعروف جاش وأزبدَا
بلوتُ ابنَ عبد الله في كل موطن ... فألفيت خيرَ الناس نفسًا وأمجدَا
فلو كان في الدنيا من الناس خالدٌ ... لجودٍ بمعروف لكنت مخلدَا
فلا تحرمنِّي منك ما قد رجوته ... فيصبح وجهي كالحَ اللون أربدَا

فحفظها خالد، فلما اجتمع الناس عند خالد قام الأعرابي ينشدها، فابتدره إليها خالد فأنشدها قبله وقال: أيها الشيخ، إنَّ هذا شعر قد سبقناك إليه، فنهض الشيخ،

فولَّىٰ ذاهبًا، فأتبعه خالد مَن يسمع ما يقول، فإذا هو ينشد هذه الأبيات:

ألا في سبيل الله ما كنت أرتجي ... لديه وما لاقيت من نكد الجهدِ
دخلت علىٰ بحر يجود بماله ... ويعطي كثيرَ المال في طلب الحمدِ
فخالفني الجدُّ المشوم لشقوتي ... وقاربني نحسي وفارقني سعدي
فلو كان لي رزق لديه لنلته ... ولكنه أمر من الواحد الفردِ

فردَّه إلىٰ خالد وأعلمه بما كان يقول، فأمر له بعشرة آلاف درهم.

ودخل علي بن الحسين علىٰ محمد بن أسامة بن زيد يعوده، فبكىٰ ابن أسامة، فقال له: ما يبكيك؟ قال: عليَّ دين، قال: وكم هو؟ قال: خمسة عشر ألف دينار، فقال: هي علي.

وكان بين قيس بن عاصم وعبدة بن الطبيب خصومة، فهجره قيس بن عاصم، ثم إنَّ عبدة حمل دمًا في قومه، فخرج يسأل فيما تحمله، فجمع إبلًا، ومرَّ به قيس بن عاصم وهو يسأل في تمام الدية فقال: فيم يسأل عبدة؟ فأُخبر، فساق إليه الدية كاملة من ماله وقال: قولوا له: ليستمتع بما صار إليه، وليسق هذه إلىٰ القوم، فقال عبدة: أما واللهِ لولا أن يكون صلحي إياه عقب هذا الفعل عارًا عليَّ لصالحته، ولكني أنصرف إلىٰ قومي ثم أعود فأصالحه، فمضىٰ بالإبل ثم عاد فوجد قيسًا قد مات، فوقف علىٰ قبره وأنشأ يقول:

عليك سلامُ اللَّه قيس بن عاصمٍ ... ورحمتُه ما شاء أن يترَحَّمَا
تحيَّةَ من أوليته منك نعمةً ... إذا زار عن شحط بلادك سَلَّمَا
فما كان قيس هُلكُه هلك واحدٍ ... ولكنَّه بنيان قومٍ تهدَّمَا

وقال محمد بن البعيث:

كم قد قضيت أمورًا كان أهملها ... غيري وقد أخذ الإفلاس بالكظمِ

لا تعذلينيَ فيما ليس ينفعني ... إليك عني جرىٰ المقدار بالقلمِ
سأتلف المال في عسر وفي يسر ... إنَّ الجواد الذي يعطي علىٰ العدمِ

وقال علي بن الجهم عن أبيه: أصبحت يومًا لا أملك شيئًا ولا علف الدابة، فقصدت الفضل بن يحيىٰ فإذا هو قد أقبل من دار الخلافة في موكب من الناس، فلما رآني رحب بي، وقال: هَلُم، فَسِرتُ معه، فلما كان ببعض الطريق سمع غلامًا يدعو جارية من دار، وإذا هي باسم جارية له يحبها، فانزعج لذلك، وشكا إليَّ ما لقي من ذلك، فقلت: أصابك ما أصاب أخا بني عامر حيث يقول:

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من منىٰ ... فهيج أحزان الفؤاد ولا يدري
دعا باسم ليلىٰ غيرها فكأنما ... أطار بليلىٰ طائرًا كان في صدري

فقال: اكتب لي هذين البيتين، فذهبت إلىٰ بقال، فرهنت عنده خاتمي علىٰ ثمن ورقة، وكتبتهما له، فأخذهما وقال: انطلق راشدًا، فرجعت إلىٰ منزلي، فقال لي غلامي: هات خاتمك حتىٰ نرهنه علىٰ طعامٍ لنا وعلفٍ للدابة، فقلت: إني رهنته، فما أمسينا حتىٰ أرسل إليَّ الفضل بثلاثين ألفًا، وأجرىٰ عليَّ عشرة آلاف درهم في كل شهر.

وكان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون ومن يعطيهم، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك، فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم في الليل بما يأتيهم به، ولما مات وجدوا في ظهره وأكتافه أثر حمل الجرب إلىٰ بيوت الأرامل والمساكين في الليل.

قيل: إنه كان يعول مائة أهل بيت بالمدينة، ولا يدرون بذلك حتىٰ مات.

وكان عروة بن الزبير يقرأ كل يوم ربع القرآن، ويقوم به في الليل، وكان أيام الرطب يثلم حائط بستانه، ثم يأذن للناس، فيدخلون فيأكلون ويحملون، فإذا ذهب الرطب أعاده.

وخرج عبد الله بن المبارك مرة إلىٰ الحج، فاجتاز ببعض البلاد، فمات طائر معهم، فأمر بإلقائه علىٰ مزبلة، وسار أصحابه أمامه وتخلف هو وراءهم، فلما مر بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها، فأخذت ذلك الطائر الميت، فكشف عن أمرها وفحص، حتىٰ سألها، فقالت: أنا وأختي هاهنا، ليس لنا شيء إلا هذا الإزار، وقد حلت لنا الميتة، وكان أبونا له مال عظيم، فظلم وأُخذ ماله وقتل.

فأمر ابن المبارك برد الأحمال، وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟ فقال: ألف دينار، فقال: عُدَّ منها عشرين دينارًا تكفينا إلىٰ مرو، وأعطها الباقي، فهذا أفضل من حجنا في هذا العام، ثم رجع.

وكان عبد الله بن المبارك إذا عزم علىٰ الحج يقول لأصحابه: من عزم منكم علىٰ الحج؟

فيأخذ منهم نفقاتهم، ويكتب علىٰ كل صرة اسم صاحبها ويجمعها في صندوق، ثم يخرج بهم في أوسع ما يكون من النفقات والركوب، وحسن الخلق والتيسير عليهم، فإذا قضوا حجتهم يقول لهم: هل أوصاكم أهلوكم بهدية؟ فيشتري لكل واحد منهم ما وصاه أهله من الهدايا المكية واليمنية وغيرها، فإذا جاءوا إلىٰ المدينة اشترىٰ لهم منها الهدايا المدنية، فإذا قفلوا بعث من أثناء الطريق إلىٰ بيوتهم فأُصلحت وبُيِّضت أبوابها ورمم شعثها، فإذا رجعوا إلىٰ أوطانهم عمل وليمة بعد قدومهم ودعاهم فأكلوا وكساهم، ثم دعا بذلك الصندوق ففتحه وأخرج منه تلك الصرر، ثم يقسم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته التي عليها اسمه، فيأخذونها وينصرفون إلىٰ منازلهم وهم شاكرون ناشرون لواء الثناء الجميل.

واشترىٰ جعفر بن يحيىٰ جارية من رجل بأربعين ألف دينار، فالتفتت إلىٰ بائعها وقالت له: اذكر العهد الذي بيني وبينك ألا تأكل من ثمني شيئًا.

فبكىٰ سيدها وقال: اشهدوا أنها حرة، وأني قد تزوجتُها.

فقال جعفر: اشهدوا أنَّ الثمن له أيضًا.

وكان عبد الله بن عمر بن الخطاب إذا أعجبه شيءٌ من ماله تقرب به إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وكان عبيده قد عرفوا ذلك منه، فربما لزم أحدهم المسجد، فإذا رآه ابن عمر علىٰ تلك الحال أعتقه، فيقال له: إنهم يخدعونك، فيقول: من خدعنا بالله انخدعنا له، وكان له جارية يحبها كثيرًا، فأعتقها وزوَّجها لمولاه نافع، وقال: إن الله تعالىٰ يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]. وكان له بعيرٌ نجيب اشتراه بمال كثير، فأعجبه لما ركبه، فقال: يا نافع، أدخله في إبل الصدقة.

وأعطاه ابن جعفر في نافع عشرة آلاف دينار، فقيل له: ما تنتظر ببيعه؟ فقال: ما هو خير من ذلك، هو حرٌّ لوجه الله.

واشترىٰ مرة غلامًا بأربعين ألفًا وأعتقه، فقال الغلام: يا مولاي، قد أعتقتني فهب لي شيئًا أعيش به، فأعطاه أربعين ألفًا.

واشترىٰ مرة خمسة عبيد، فقام يصلي فقاموا خلفه يصلون، فقال: لمن صليتم هذه الصلاة؟ فقالوا: لله! فقال: أنتم أحرار لمن صليتم له، فأعتقهم.

قيل: إنه ما مات حتىٰ أعتق ألف رقبة، وربما تصدق في المجلس الواحد بثلاثين ألفًا، وكانت تمضي عليه الأيام الكثيرة والشهر لا يذوق فيه لحمًا، وما كان يأكل طعامه إلا وعلىٰ مائدته يتيم.

وعتب رجاء بن حيوة علىٰ الزُّهْري في الإسراف، وكان يستدين، فقال له: لا آمن أن يحبس هؤلاء القوم أيديهم عنك فتكون قد حُملت علىٰ أمانتك، فوعده الزهري أن يقصر، فمر به بعد ذلك وقد وضع الطعام ونصب موائد العسل، فوقف به رجاء وقال: يا أبا بكر، ما هذا بالذي فارقتنا عليه، فقال له الزهري: انزل؛ فإن السخي لا تؤدبه التجارب.

قال مضاء بن عيسىٰ: «ما فاق إبراهيم بن أدهم أصحابه بصوم ولا صلاة، ولكن بالصدقة والسخاء».

ودخل ابنُ الخياط علىٰ المهدي، وامتدحه، فأمر له بخمسين ألف درهم، ففرقها ابن الخياط، وأنشأ يقول:

أخـذت بكفـي كفَّـه أبتغـي الغنـىٰ ... ولـم أدر أن الجـود مـن كفـه يُعـدي

فـلا أنـا مـنه مـا أفـاد ذوو الغنـىٰ ... أفـدتُ وأعدانـي فـبددت مـا عـندي

فنمىٰ ذلك إلىٰ المهدي، فأعطاه بدل كل درهم دينارًا.

ودخل أعرابي علىٰ خالد القسري فأنشده:

كتـبت نعـم بـبابك فهـي تدعـو ... إلـيك الـناس مـسفرة الـنقابِ

وقلـت لـلا علـيك بـباب غيـري ... فإنـك لـن تُـرَي أبـدًا ببابـي

فأعطاه علىٰ كل بيتٍ خمسين ألفًا.

وكان مصعبُ بن الزبير مِن أحسن الناس وجهًا، وأشجعهم قلبًا، وأسخاهم كفًّا، حتىٰ قال الشعبي: ما رأيت أميرًا قط علىٰ منبر أحسن منه، وقال الحسن: كان أجمل أهل البصرة.

قال أبو الشبل البرجمي: حضرت مجلس عبيد الله بن يحيىٰ بن خاقان وكان إليَّ محسنًا وعليَّ متفضلًا، فجرىٰ ذكر البرامكة، فوصفهم الناس بالجود، وقالوا في كرمهم وجوائزهم وصلاتهم فأكثروا، فقمت في وسط المجلس فقلت لعُبيد الله: أيها الوزير، إني قد حكمت في هذا الخطب حكمًا نظمته في بيتَي شعر لا يقدر أحد أن يردَّه علي، وإنما جعلته شعرًا ليدور ويبقىٰ، فيأذن الوزير في إنشادهما؟ قال: قُل، فقلت:

رأيـتُ عبـيدَ اللَّـه أفـضل سـؤددًا ... وأكـرمَ مـن فـضلٍ ويحيـىٰ بـن خالـدِ

أولـئك جـادوا والـزَّمانُ مـساعدٌ ... وقـد جـاد ذا والدهـرُ غيـرُ مـساعدِ

فتهلل وجه عبيد الله، وظهر السرور فيه، وقال: أفرطت أبا الشبل ولا كلُّ هذا،

فقلت: والله ما حابيتك أيها الوزير ولا قلت إلا حقًّا، واتَّبعني القوم في وصفه وتقريظه، فما خرجت من مجلسه إلا وعليَّ الهدايا، وتحتي دابة بسرجها ولجامها، وبين يديَّ خمسة آلاف درهم.

* * *

التلطف في السؤال

يجب علىٰ المسلم ألا يسأل الناس شيئًا ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلًا، فإنَّ هذا مما بايع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه أصحابه؛ فعن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كنا عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: **ألا تبايعون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؟ وكنا حديثي عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: **ألا تبايعون**؟ فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: **أن تعبُدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، والصلوات الخمس، وتطيعوا**، وأسر كلمة خفية: **ولا تسألوا الناس شيئًا**، فلقد رأيتُ بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إياه»[(١)].

وسؤال الناس مما يؤدي بالمرء إلىٰ إذلال نفسه وتحقيرها، وهذا مما لا يحسن بالمسلم أن يفعله، فالمسلم عزيزُ نفسٍ، وعزة نفسه ناتجة عن حسن ظنه بربه عَزَّوَجَلَّ، وقد صح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لا تزال المسألة بأحدكم حتىٰ يلقىٰ الله تعالىٰ وليس في وجهه مزعة لحم**»[(٢)]، ومَن يَستعفف يُعفه الله، ومن يَستَغن يُغنِه الله.

قال رجل لابنه: إياك أن تريق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه.

وكان لقمان يقول لولده: يا بني، إياك والسؤال فإنه يذهب ماء الحياء من الوجه، وأعظم من هذا استخفاف الناس بك.

وقيل لأعرابي: ما السقم الذي لا يبرأ والجرح الذي لا يندمل؟ قال: حاجة

---

(١) رواه مسلم (١٧٢٩).

(٢) رواه البخاري (١٣٨١)، ومسلم (١٧٢٤).

الكريم إلىٰ اللئيم.

ويُقال: لا شيء أوجع للأخيار من الوقوف بباب الأشرار.

وقد قيل:

لا تسألنَّ إلىٰ صديق حاجة ... فيحول عنك كما الزمانُ يحولُ

واستغن بالشيءِ القليل فإنه ... ما صان عرضَك لا يُقال قليلُ

من عَفَّ خَفَّ علىٰ الصديق لقاؤه ... وأخو الحوائج وجهه مملولُ

وأخوك من وفرت ما في كفه ... ومتىٰ علقت به فأنت ثقيلُ

وإنما نورد هذه الأخبار لبيان كرم نفوس أصحابها، ومسارعتهم لفعل المعروف، مع سماحة نفوسهم به، وقد جاء عن عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: إن لكل شيء ثمرة، وثمرة المعروف تعجيل السراح.

ويُقال: الكريم إذا سُئل ارتاح، واللئيم إذا سُئل ارتاع.

هذا وإنَّ بعض الناس إذا احتاج إلىٰ السؤال تلطف في سؤاله، وصاغه بعبارة رائقة، حتىٰ ينال مطلبه.

ومن ذلك: ما ذُكر عن المهدي أنه لما وفد من الري إلىٰ العراق امتدحه الشعراء، فقال أبو دلامة:

إني نذرت لئن رأيتك قادمًا ... أرض العراق وأنت ذو وقرِ

لتصلين علىٰ النبي محمد ... ولتملأن دراهمًا حجري

فقال المهدي: صلىٰ الله علىٰ محمد، فقال أبو دلامة: ما أسرعك للأولىٰ وأبطأك عن الثانية، فضحك وأمر بمال كثير، فصُبَّ في حجره.

وقال عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «مَن كَثُرت نِعَمُ الله تعالىٰ عليه، كثرت حوائج الناس إليه، فإذا قام بما يجب لله فيها فقد عرضها للدوام والبقاء، ومن لم يقم بما يجب لله فيها عرض نعمه لزوالها».

ووفد رجل من بني ضبة علىٰ عبد الملك، فأنشده:

والله ما ندري إذا ما فاتنا طلبٌ إليك مَن الذي نتطلبُ
ولقد ضربنا في البلاد فلم نجد أحدًا سواك إلىٰ المكارم يُنسَبُ
فاصبر لعادتك التي عودتنا أَوْ لا فأرشِدنا إلىٰ من نذهبُ

فأمر له بألف دينار، فعاد إليه من قابل، وقال: يا أمير المؤمنين، إن القصيد لينازعني وإن الحياء يمنعني، فأمر له بألف دينار وقال: والله لو قلت حتىٰ تنفد بيوت الأموال لأعطيتك.

وقيل: إن رجلًا عرض للمنصور، فسأله حاجة فلم يقضها، فعرض له بعد ذلك، فقال له المنصور: أليس قد كلمتني مرة قبل هذه، قال: نعم يا أمير المؤمنين، ولكن بعض الأوقات أسعد من بعض وبعض البقاع أعز من بعض، فقال: صدقت، وقضىٰ حاجته وأحسن إليه.

وجاء عن أبي دلامة أنه كان واقفًا بين يدي السفاح في بعض الأيام فقال له: سلني حاجتك، فقال: كلب صيد، فقال: أعطوه إياه، فقال: ودابة أصيد عليها، فقال: أعطوه دابة، فقال: وغلامًا يقود الكلب ويصيد به، قال: أعطوه غلامًا، قال: وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه، قال: أعطوه جارية، فقال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عيال ولا بُد لهم من دار يسكنونها، قال: أعطوه دارًا تجمعهم، قال: فإن لم يكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون؟ قال: قد أقطعتك عشر ضياع عامرة وعشر ضياع غامرة، فقال: ما الغامرة يا أمير المؤمنين؟ قال: ما لا نبات فيها، قال: قد أقطعتك يا أمير المؤمنين مائة ضيعة غامرة من فيافي بني أسد، فضحك وقال: اجعلوها كلها عامرة.

وقيل: إن بعض الحكماء لزم باب كسرىٰ في حاجة عامًا، فلم يصل إليه، فكتب أربعة أسطر في ورقة ودفعها للحاجب، فكان في السطر الأول: العديم لا يكون معه صبر علىٰ المطالبة، وفي السطر الثاني: الضرورة والأمل أقدماني عليك، وفي السطر

الثالث: الانصراف من غير فائدة شماتة الأعداء، وفي السطر الرابع: إمَّا نَعَم فمثمرة، وإمَّا لا فمُريحَة، فلما قرأها كسرىٰ دفع له في كل سطر ألف دينار.

وحكي أن رجلًا كان جارًا لابن عبيد الله، فأصاب الناسَ قَحطٌ بالعراق حتىٰ رحل أكثر الناس عنه، فعزم جار ابن عبيد الله علىٰ الخروج من البلاد في طلب المعيشة، وكانت له زوجة لا تقدر علىٰ السفر، فلما رأت زوجها تهيأ للسفر قالت له: إذا سافرت من الذي ينفق علينا؟ قال: إن لي علىٰ ابن عبيد الله دينارًا ومعي به إشهاد عليه، فخذي الإشهاد وقدميه إليه، فإذا قرأه أنفق عليك مما عنده حتىٰ أحضر، ثم ناولها رقعة كتب فيها هذه الأبيات يقول:

قالت وقد رأت الأحمال محدجة ... والبين قد جمع المشكو والشاكي

من لي إذا غِبتَ في هذا المحل قلت لها ... لا تيأسي وعبيد الله مولاكِ

فمضت إليه المرأة وحكت له ما قال زوجها، وأخبرته بسفره، وناولته الرقعة، فقرأها، وقال: صدق زوجك، وما زال ينفق عليها ويواصلها بالبر والإحسان إلىٰ أن قدم زوجها فشكره علىٰ فضله وإحسانه.

ومدح مطيع بن إياس معنَ بن زائدة بقصيدة حسنة، ثم أنشدها بين يديه، فلما فرغ من إنشاده أراد معن أن يباسطه، فقال: يا مطيع، إن شئت أعطيناك، وإن شئت مدحناك كما مدحتنا، فاستحيا مطيع من اختيار الثواب، وكره اختيار المدح وهو محتاج، فلما خرج من عند معن أرسل إليه بهذين البيتين:

ثناء من أمير خير كسبٍ ... لصاحب نعمة وأخي ثراءِ

ولكن الزمان برىٰ عظامي ... وما لي كالدراهم من دواءِ

فلما قرأها معن ضحك، وقال: ما مثل الدراهم من دواء، وأمر له بصلة جزيلة ومال كثير.

وقال آخر:

مــاذا أقــول إذا رجعــت وقــيل لــي ... مــاذا لقــيت مــن الجــواد الأفــضلِ

إن قلــت أعطانــي كــذبت وإن أقــل ... بخــل الجــواد بمالــه لــم يجمُــلِ

فاختَــر لنَفــسِك مــا أقــول فإننــي ... لا بُــدَّ أخبــرهم وإن لــم أُســأَلِ

ووقفت امرأة للمهدي فقالت: يا عصبة رسول الله، اقض حاجتي، فقال المهدي: ما سمعتها من غيرها، اقضوا حاجتها وأعطوها عشرة آلاف درهم.

❊ ❊ ❊

في ذكر الغنى والافتخار بجمع المال

المال زينة الحياة؛ كما قال الله تعالىٰ عنه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦]، فإذا كان بَذلُه فيما يقرب العبد إلىٰ ربه، ويصون به المرء نفسه عن ذل الحاجة والمسألة، فهذه هي السعادة العظمىٰ.

وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»(١).

فمن الواجب علىٰ المرء أن يكون له من المال ما يغنيه عن الحاجة إلىٰ الناس، فيقوم بحاجة نفسه ومن يعول، مع الاستعفاف بالمال الحلال ومجانبة الحرام؛ لأن بذل الأسباب المحرمة لا تزيد مالًا ولا تنمي ثروة؛ فإن المرء لا يأخذ من هذه الدنيا إلا ما كتب الله له، فبذل الأسباب لا يقدم رزقًا منعه الله، والتواني لا يمنع رزقًا أعطاه الله، ومن استقر في قلبه ذلك اجتنب الحرام والخوض في أسبابه.

كما ينبغي للمرء أن يتخذ له حرفة أو صنعة تعفه عن الناس، وتجانبه الفقر الملجئ إلىٰ البشر، فالفقر رأس كل بلاء، وداعية إلىٰ مَقتِ الناس، وهو مع ذلك مسلبة للمروءة، مذهبة للحياء، فمتىٰ نزل الفقر بالرجل لم يجد بُدًّا من ترك الحياء، ومن فقد حياءه فقد مروءته، ومن فقد مروءته مُقِت، ومَن مُقِت ازدري به، ومن صار كذلك كان كلامه عليه لا له.

قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «الفقر الموت الأكبر، وقد استعاذ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكفر والفقر وعذاب القبر».

---

(١) رواه البخاري (١٢١٣)، ومسلم (٣٠٧٦).

وقد قيل: من حفظ دنياه، حفظ الأكرَمَيْن: دينه وعرضه.

وقال الشاعر:

لا تلمنـــي إذا جنـــيت الأواقـــي ... بِالأواقـــي لمـــاء وجهـــيَ واقـــي

قال لقمان لابنه: يا بني، أكلت الحنظل وذقت الصبر، فلم أر شيئًا أَمَرَّ من الفقر، فإن افتقرت فلا تحدث به الناس كي لا ينتقصوك، ولكن اسأل الله تعالىٰ من فضله.

وكان العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يقول**: الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس، وهو عندهم أعذب من الماء وأرفع من السماء وأحلىٰ من الشهد وأزكىٰ من الورد، خطؤه صواب، وسيئاته حسنات، وقوله مقبول، يُرفع مجلسه، ولا يمل حديثه، والمُفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب، وأثقل من الرصاص، لا يُسلَّم عليه إن قدم، ولا يسأل عنه إن غاب، إن حضر أردوه، وإن غاب شتموه.

وقال بعضهم: طلبت الراحة لنفسي فلم أجد لها أروح من ترك ما لا يعنيها، وتوحشت في البرية، فلم أر وحشة أضرَّ من قرين السوء، وشهدت الزحوف وغالبت الأقران، فلم أر قرينًا أغلب للرجل من المرأة السوء، ونظرت إلىٰ كل ما يذل القوي ويكسره فلم أر شيئًا أذل له ولا أكبر من الفقر.

وكــلُّ مقــلٍّ حــين يغــدو لحاجــة ... إلىٰ كـل مـا يلقـىٰ مـن الـناس مـذنبُ

وكانـت بـنو عمـي يقولـون مـرحبًا ... فلمـا رأونـي معـدمًا مـات مـرحبُ

وقال آخر:

المـــال يـــرفع ســـقفًا لا عمـــاد لـــه ... والفقـر يهـدم بـيت العـز والـشرفِ

وقال آخر:

جـروح الليالـي مـا لهـن طبـيب ... وعـيش الفتـىٰ بالفقـر لـيس يطـيبُ

وحـسبك أن المـرء فـي حـال فقـره ... تحمقـــه الأقـــوام وهـــو لبـــيبُ

ومــن يغتــر ر بالحادثــات وصــرفها   يــبت وهــو مغلــوب الفــؤاد ســليبُ
ومـا ضـرني إن قـال أخطـأتَ جاهـلٌ   إذا قــال كــل الــناس أنــت مــصيبُ

وقال آخر:

الفقــر يــزري بأقــوام ذوي حــسب   وقــد يــسود بغيــر الــسيد المــالُ

وقال آخر:

لعمـرك إن المـال قـد يجعـل الفتـىٰ   سـنيًّا وإن الفقـر بالمـرء قـد يُـزري
ومـا رفـع الـنفس الدنـية كالغنـىٰ   ولا وضـع الـنفس النفيـسة كالفقـرِ

وقال ابن الأحنف:

يمـشي الفقيـر وكـل شـيء ضـده   والــناس تغلــق دونــه أبــوابَهَا
وتـراه مبغوضًــا ولـيس بمــذنب   ويــرىٰ العــداوة لا يــرىٰ أســبابَهَا
حتــىٰ الكــلاب إذا رأت ذا ثــروة   خــضعت لديــه وحــركت أذنابَهَــا
وإذا رأت يــومًا فقيــرًا عابــرًا   نــبحت علــيه وكــشرت أنــيابَهَا

وقال آخر:

إن الــدَّراهم فــي المــواطن كلهــا   تكــسو الــرجال مهابــة وجمــالَا
فهــي اللــسان لمــن أراد فــصاحة   وهــي الــسلاح لمــن أراد قــتالَا

قال الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها أحب إلي من أن أحتاج إلىٰ لئيم».

وأوصىٰ بعض الحكماء ولده فقال له: يا بني، عليك بطلب العلم، وجمع المال، فإن الناس طائفتان: خاصة وعامة، فالخاصة تكرمك للعلم، والعامة تكرمك للمال.

وقال بعض الحكماء: «إذا افتقر الرجل اتهمه من كان به موثقًا، وأساء به الظن

من كان ظنه به حسنًا، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بُدًّا من ترك الحياء، ومن ذهب حياؤه ذهب بهاؤه، وما من خلة هي للغني مدح إلا وهي للفقير عيب، فإن كان شجاعًا سمي أهوج، وإن كان مؤثرًا سمي مفسدًا، وإن كان حليمًا سمي ضعيفًا، وإن كان وقورًا سمي بليدًا، وإن كان لسنًا سمي مهذارًا، وإن كان صَمُوتًا سمىٰ عييًّا».

قال ابنُ كثير:

النـاسُ أتـباع مَـن دامـت لـه نعـمُ ... والـويلُ للمَـرء إن زَلَّـت بـه القَـدَمُ

المـال زيـن وَمَـن قَلَّـت دراهمـه ... حـي كمَـن مـاتَ إلا أنـه صَـنَمُ

لمـا رأيـتُ أخلائـي وخالـصتي ... والكـل مـستتر عنـي ومحتَـشَمُ

أبـدَوْا جفـاءً وإعراضًـا فقلـتُ لهـم: ... أذنـبتُ ذنـبًا؟ فقالـوا: ذنـبك العَـدَمُ

وكان ابن مقلة وزيرًا لبعض الخلفاء، فزوَّر عنه يهودي كتابًا إلىٰ بلاد الكفار وضمنه أمورًا من أسرار الدولة، ثم تحيَّل اليهودي إلىٰ أن وصل الكتاب إلىٰ الخليفة فوقف عليه، وكان عند ابن مقلة حظيَّة هويت هذا اليهودي، فأعطته أنموذجًا بخطه، فلم يزل يجتهد حتىٰ حاكىٰ خطه ذلك الخط، فلما قرأ الخليفة الكتاب أمر بقطع يد ابن مقلة، وكان ذلك يوم عرفة، وقد لبس خلعة العيد ومضىٰ إلىٰ داره وفي موكبه كل من في الدولة، فلما قطعت يده وأصبح يوم العيد لم يأت أحد إليه ولا توجه له، ثم اتضحت القضية في أثناء النهار للخليفة أنها من جهة اليهودي والجارية، فقتلهما أشر قتلة، ثم أرسل إلىٰ ابن مُقلة أموالًا كثيرة وخِلعًا سنية، وندم علىٰ فعله واعتذر إليه، فكتب ابن مقلة علىٰ باب داره يقول:

تحالـف النـاس والـزمان ... فحـيث كـان الـزمان كانـوا

عاداني الدهـر نـصف يـوم ... فانكـشف النـاس لـي وبانـوا

يـا أيهـا المعرضـون عنـي ... عـودوا فقـد عـاد لـي الـزمانُ

ثم أقام بقية عمره يكتب بيده اليسرىٰ.

وقرأ بعض القراء عند المنصور قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ [الحديد:٢٤]، فقال: والله لولا أن المال حصن للسلطان، ودعامة للدين والدنيا وعزهما وزينتهما، ما بتُّ ليلة واحدة وأنا أحرز منه دينارًا ولا درهمًا، لما أجد لبذل المال من اللذاذة، ولما أعلم في إعطائه من جزيل المثوبة.

وقرأ عنده قارئ آخر: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء:٢٩]، فقال: ما أحسن ما أدبنا ربنا عَزَّوَجَلَّ.

❊ ❊ ❊

ذم البخل

لقد ذم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ البخل ونفَّر منه، كما حذَّر منه نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء:٣٧].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إياكم والشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم**»[١].

وكان كرام النفوس ينفرون منه، ويكرهون أن يتَّصفوا به، قالت أم البنين بنت عبد العزيز -أخت عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ-: إن البخل لو كان قميصًا ما لبسته، أو كان طريقًا ما سلكته.

وأنشد بعضهم:

وهبني جمعت المال ثم خزنته ... وحانت وفاتي هل أُزاد به عُمرَا

إذا خزن المالَ البخيلُ فإنه ... سيورثه غمًّا ويُعقِبُه وِزرَا

ومن طرائف العرب في ذلك: أنه قيل لبخيل: مَن أشجع الناس؟ قال: من سمع وقع أضراس الناس علىٰ طعامه ولم تنشق مرارته.

ونزل علىٰ أحد البُخلاء رجل من اليمامة، فأخلىٰ له المنزل ثم هرب مخافة أن يَلزمه قراه في هذه الليلة، فخرج الضيف واشترىٰ ما احتاج إليه، ثم رجع وكتب إليه:

يا أيها الخارج من بيتِهِ ... وهاربًا من شدة الخوفِ

ضيفك قد جاء بزادٍ له ... فارجع وكن ضيفًا علىٰ الضيفِ

واشترىٰ رجل من البُخلاء دارًا وانتقل إليها، فوقف ببابه سائل، فقال له: فتح الله

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٢١٧).

عليك. ثم وقف ثانٍ، فقال له مثل ذلك، ثم وقف ثالث، فقال له مثل ذلك، ثم التفت إلىٰ ابنته فقال لها: ما أكثر السؤَّال في هذا المكان! فقالت: يا أبت، ما دمت مستمسكًا لهم بهذه الكلمة، فما تُبالي كثروا أم قَلُّوا.

وقال بخيل: وددت لو أن عشرةً من الفقهاء، وعشرة من الخطباء، وعشرة من الشعراء، وعشرة من الأدباء، تواطئوا علىٰ ذمي، واستسهلوا شتمي، حتىٰ ينتشر ذلك في الآفاق، فلا يمتد إليَّ أملُ آملٍ، ولا يُبسط نحوي رجاءُ راجٍ.

وقال له أصحابه يومًا: إنا نخشىٰ أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك، فلو جعلت لنا علامة تُعرِّفنا بها وقت استثقالك لمجالستنا، فقال: علامة ذلك أن أقول: يا غلام، هات الغداء.

قال عمر بن ميمون: مررت ببعض طرق الكوفة، فإذا أنا برجل يخاصم جارًا له، فقلت: ما بالكما؟ فقال أحدهما: إن صديقًا لي زارني فاشتهىٰ رأسًا فاشتريته وتغدينا، وأخذت عظامه فوضعتها علىٰ باب داري أتجَمَّل بها، فجاء هذا فأخذها ووضعها علىٰ باب داره يوهم الناس أنه هو الذي اشترىٰ الرأس.

وقال رجل من البخلاء لأولاده: اشتروا لي لحمًا، فاشترَوه، فأمر بطبخه، فلما استوىٰ أكله جميعَه حتىٰ لم يُبقِ في يده إلا عظمة، وعيون أولاده ترمقه، فقال: ما أُعطي أحدًا منكم هذه العظمة حتىٰ يحسن وصف أكلها.

فقال ولده الأكبر: أشمشمها يا أبتِ وأمصها حتىٰ لا أدع للذر فيها مقيلًا، قال: لستَ بصاحبها.

فقال الأوسط: ألوكها يا أبتِ وألحسها حتىٰ لا يدري أحد لعام هي أم لعامين، قال: لست بصاحبها.

فقال الأصغر: يا أبت أمصها ثم أدقها وأسفها سفًا، قال: أنت صاحبها، وهي لك، زادك الله معرفة وحزمًا.

ووقف أعرابيٌّ علىٰ بخيل وهو يتغدىٰ، فسلَّم، فردَّ عليه ثم أقبل علىٰ الأكل ولم يعزم عليه، فقال له الأعرابي: أما إني قد مررت بأهلك، قال: كذلك كان طريقك، قال: وامرأتك حبلىٰ، قال: كذلك كان عهدي بها، قال: قد ولدَت، قال: كان لا بُدَّ لها أن تلد، قال: ولدت غلامين، قال: كذلك كانت أمها، قال: مات أحدهما، قال: ما كانت تقوىٰ علىٰ إرضاع اثنين، قال: ثم مات الآخر، قال: ما كان ليبقىٰ بعد موت أخيه، قال: وماتت الأم، قال: حزَنًا علىٰ ولديها، قال: ما أطيبَ طعامك!، قال: لأجلِ ذلك أكلتُه وحدي، ووالله لا ذقتَه يا أعرابي.

وقال بعضهم: كنت في سفر فضللت عن الطريق، فرأيت بيتًا في الفلاة فأتيته، فإذا به أعرابية، فلما رأتني قالت: من تكون؟ قلت: ضيف. قالت: أهلًا ومرحبًا بالضيف، انزل علىٰ الرَّحبِ والسعة، قال: فنزلتُ فقدَّمَت لي طعامًا فأكلتُ، وماءً فشربتُ، فبينما أنا علىٰ ذلك إذ أقبل صاحب البيت فقال: مَن هذا؟ فقالت: ضيف، فقال: لا أهلًا ولا مرحبًا، ما لنا وللضيف، فلما سمعتُ كلامه ركبت من ساعتي وسرت، فلما كان من الغد رأيت بيتًا في الفلاة فقصدتُه، فإذا فيه أعرابية فلما رأتني قالت: من تكون؟ قلت: ضيف، قالت: لا أهلًا ولا مرحبًا بالضيف، ما لنا وللضيف، فبينما هي تكلمني إذ أقبل صاحبُ البيت، فلما رآني قال: من هذا؟ قالت: ضيف، قال: مرحبًا وأهلًا بالضيف. ثم أتىٰ بطعام حسن فأكلتُ، وماءٍ فشربت، فتذكرتُ ما مرَّ بي بالأمس فتبسمتُ، فقال: ممَّ تبسمُك؟ فقصصتُ عليه ما اتفق لي مع تلك الأعرابية وبعلها، وما سمعت منه ومن زوجته، فقال: لا تعجب إنَّ تلك الأعرابية التي رأيتَها هي أختي، وإن بعلها أخو امرأتي هذه، فغلب علىٰ كلٍّ طبعُ أَهلِهِ.

وقد قيل لبعض البخلاء: ما الفرج بعد الشدة؟ قال: أن يعتذر الضيف بالصوم.

ومن البخلاء من يعجبه طعامه، ويصف أوانيه، ويشتهي أن تبقىٰ علىٰ حالها، ومنهم من يُحضِر طعامه فإذا رآه ضيوفه أمر بأن يرفع منها أطيبها وأشهاها إلىٰ النفوس، ويعتذر أنَّ في أصحابه من يحضر بالغداة عنده.

ومن طريف ما يذكر في ذلك: ما حكي عن بعض البخلاء أنه استأذن عليه ضيفٌ وبين يديه خبز وآنية فيها عسلُ نحلٍ، فرفع الخبز وأراد أن يرفع العسل، فدخل الضيف من قبل أن يرفعه، فظن البخيل أنّ ضيفه لا يأكل العسل بلا خبز، فقال له: ترىٰ أن تأكل عسلًا بلا خبز، قال: نعم، وجعل يلعق العسل لعقة بعد لعقة، فقال له البخيل: مهلًا يا أخي والله إنه يحرق القلب، قال: نعم صدقت، ولكنه قلبك.

وحكي عن بعض البخلاء أنه قال: غلب عليَّ الجوعُ مرة، فقلت: أمضي إلىٰ دار فلان لأتغدَّىٰ عنده، فجئت إلىٰ باب بيته، فوجدت غلامه، فقلت له: أين سيدك؟ فقال: والله لا قلت لك عليه إلا إن أعطيتني كسرة، قال: فرجعت هاربًا.

وحُكي عن بعض البخلاء أنه حلف يومًا علىٰ صديقه، وأحضر له خبزًا وجبنًا وقال له: لا تستقل الجبن، فإن الرطل منه بثلاثة دراهم، فقال له ضيفه: أنا أجعله بدرهم ونصف، قال: وكيف ذلك؟ قال: آكل لقمة بجبن ولقمة بلا جبن.

فأين هؤلاء من الذي يقول:

قالت أما ترحلُ تبغي الغنىٰ ... قلت فمن للطارقِ المعتمِ

قالت فهل عندك شيءٌ له ... قلت نعم جهدُ الفتىٰ المعدمِ

فكم وحقُّ الله من ليلة ... قد أطعم الضيف ولم أَطعمِ

إن الغنىٰ بالنفس يا هذه ... ليس الغنىٰ بالمال والدرهمِ

❊ ❊ ❊

آداب الطعام والضيافة

أوصىٰ رجلٌ ابنه فقال: إذا أكلت فضم شفتيك، ولا تلتفتن يمينًا ولا شمالًا، ولا تلقمن بسكين، ولا تجلس فوق من هو أشرف منك وأرفع منزلة، ولا تبصق في الأماكن النظيفة.

وقال عمر بن هبيرة: عليكم بمباكرة الغداء، فإن مباكرته تطيب النكهة وتعين علىٰ المروءة، قيل: وما إعانته علىٰ المروءة؟ قال: ألا تتوق نفسك إلىٰ طعام غيرك.

وقال رجلٌ لرجل علىٰ مائدته: خذ الشعرة من لقمتك، فقال: وإنك تراعيني مراعاة من يرىٰ الشعرة في لقمتي، لا أكلتُ لك طعامًا أبدًا.

وقالوا: الوحدة خير من الجليس السوء، والجليس السوء خير من الأكيل السوء.

وشكا أبو العيناء إلىٰ صديق له سوء الحال، فقال: اشكر؛ فإن الله قد رزقك الإسلام والعافية، قال: أجل، ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد.

ودعت أبا الحارث حبيبةٌ له، فحادثته ساعة، فجاع، فطلب الأكل فقالت له: أما في وجهي ما يشغلك عن الأكل، قال: جُعلتُ فداءك، لو أن جميلًا وبثينة قعدا ساعة لا يأكلان لبصق كل منهما في وجه صاحبه وافترقا.

ومن الطرائف في هذا الباب: ما جاء عن رجل ظريف يقال له: غندر، أنه اشترىٰ يومًا سمكًا، وقال لأهله: أصلحوه، ونام، فأكل عياله السمك ولطخوا يده، فلما انتبه قال: قدموا إليَّ السمك، قالوا: قد أكلتَ. قال: لا، قالوا: شُمَّ يدَك، ففعل، فقال: صدقتم، ولكن ما شبعت.

وأما ضيافة الضيف وإطعام الطعام فهي من الأخلاق المحمودة، والصفات

الممدوح صاحبها، وكان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ممن تميز بهذا الخلق العالي حتىٰ مدحه الله سبحانه به؛ فقال سبحانه عنه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات:٢٤-٢٧].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كان يؤمن باللّٰه واليوم الآخر فليكرم ضيفه**»[(١)].

قال الحسن: «كنا نسمع أن إحدىٰ مواجب الرحمة إطعام الأخ المسلم الجائع».

وقد كان يقال: المائدة مرزوقة؛ أي: أنَّ مَن كان مِضيَافًا وَسَّعَ الله عليه.

وذُكر عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه أول من وضع موائده علىٰ الطريق، وكان إذا خرج من بيته طعام لا يعود منه شيء، فإن لم يجد من يأكله تركه علىٰ الطريق.

وقيل لبعض الكرماء: كيف اكتسبت مكارم الأخلاق، والتأدب مع الأضياف؟ فقال: كانت الأسفار تحوجني إلىٰ أن أفد علىٰ الناس، فما استحسنته من أخلاقهم اتبعته، وما استقبحته اجتنبته.

ومن آداب المُضَيِّف: أن يخدم أضيافه، ويظهر لهم الغنىٰ وبسط الوجه، فقد قيل: البشاشة في الوجه خير من الضيافة، قالوا: فكيف بمن يأتي بها وهو ضاحك؟

وكان العرب يرون أن من تمام الضيافة الطَّلاقة عند أول وهلة، وإطالة الحديث عند المؤاكلة.

قال الأصمعي: سألت عيينة بن وهب الدارمي عن مكارم الأخلاق فقال: أَوَما سمعت قول عاصم بن وائل:

---

(١) رواه البخاري (٥٥٥٩)، ومسلم (٦٧).

وإنا لنقري الضيفَ قبل نزوله ونشبعه بالبشر من وجهِ ضاحكِ

وقال بعض الكرام:

أضاحك ضيفي قبل إنزالِ رحلهِ ويخصب عندي والمحلُّ جديبُ

وما الخصب للأضياف أن يكثُر القِرَىٰ ولكنما وجهُ الكريم خصيبُ

وقال علي بن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «من تمام المروءة خِدمَة الرجل ضيفَه كما خدمهم أبونا إبراهيم الخليل -صلوات الله وسلامه عليه- بنفسه وأهله، أما سمعت قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ [هود:٧١]».

ومن آداب المُضيِّف: أن يحدِّث أضيافه بما تميل إليه نفوسهم، ولا ينام قبلهم، ولا يشكو الزمان بحضورهم، ويبش عند قدومهم، ويتألم عند وداعهم، وألا يحدث بما يروعُهُم به.

ويجب علىٰ المُضَيِّف أن يراعي خواطر أضيافه كيفما أمكن، ولا يغضب علىٰ أحد بحضورهم، ولا ينغص عيشهم بما يكرهونه، ولا يعبس بوجهه، ولا يظهر نكدًا، ولا ينهر أحدًا ولا يشتمه بحضرتهم، بل يدخل علىٰ قلوبهم السرور بكل ما أمكن.

وقد حُكي عن بعض الكرام أنه دعا جماعة من أصحابه إلىٰ بستانه وعمل لهم سماطًا، وكان له ولد جميل الطلعة، فكان الولد في أول النهار يخدم القوم ويأنسون به، ففي آخر النهار صعد إلىٰ السطح، فسقط فمات لوقته، فحلف أبوه علىٰ أمه بالطلاق الثلاث ألا تصرخ ولا تبكي إلىٰ أن تصبح، فلما كان الليل سأله أضيافه عن ولده، فقال: هو نائم، فلما أصبحوا وأرادوا الخروج قال لهم: إن رأيتم أن نصلي علىٰ ولدي، فإنه بالأمس سقط من علىٰ السطح فمات لساعته، فقالوا له: لمَ لا أخبرتنا حين سألناك؟ فقال: ما ينبغي لعاقل أن ينغص علىٰ أضيافه في التذاذهم، ولا يكدر عليهم في عيشهم، فتعجبوا من صبره وتجلده ومكارم أخلاقه، ثم صلوا علىٰ الغلام وحضروا دفنه وانصرفوا.

وعلىٰ المضيِّف أن يسهر مع أضيافه ويؤانسهم بلذيذ المحادثة وجميل الحكايات، وأن يستميل قلوبهم بالبذل لهم من غرائب الطرف إن كان من أهل ذلك، وأن يري أضيافه مكان الخلاء.

والضيافة خلق معهود، وعادة معروفة، فقد قصد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والشيخان أبو بكرٍ وعمرُ منزلَ أبي الهيثم بن التيِّهان وأبي أيوب الأنصاري، وهكذا كانت عادة السلف.

ولا بأس أن يدخل الرجل بيت صديقه فيأكل وهو غائب، كان الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ يومًا عند بقال، فجعل يأخذ من هذه الجونة تينة ومن هذه فستقة فيأكلها، فقال له هشام: ما بدا لك يا أبا سعيد في الورع؟ فقال له: اتل عليَّ آية الأكل، فتلا: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور:٦١]، فقال: الصديقُ من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب.

وعلىٰ المضيف الكريم ألا يتأخر عن أضيافه، ولا يمنعه عن ذلك قلة ما في يده، بل يحضر إليهم ما وجد، قد جاء عن أنس وغيره من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أنهم كانوا يقدمون الكسرة اليابسة وحشف التمر، ويقولون: ما ندري أيهما أعظم وزرًا الذي يحتقر ما قُدِّم إليه، أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه.

وحُكي عن الشافعي أنه كان نازلًا عند الزعفراني ببغداد، فكان الزعفراني يكتب في كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها إلىٰ الجارية، فأخذها الشافعي منها يومًا وألحق فيها لونًا آخر، فعرف الزعفرانيُّ ذلك، فأعتق الجارية سرورًا بذلك.

وكانت سُنَّة السلف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أن يقدموا جملة الألوان دفعةً ليأكل كلُّ شخص ما يشتهي.

وعلىٰ المضيف إذا قدم الطعام إلىٰ أضيافه ألا ينتظر من يحضر من عشيرته، فقد قيل: ثلاثةٌ تضني، سراجٌ لا يُضيء، ورسول بطيء، ومائدة يُنتظر لها من يجيء.

ومن البلاء أن يعزم علىٰ الضيف، فيعتذر له، فيمسك عنه بمجرد الاعتذار كأنه تخلص من ورطة.

ومن آداب المضيِّف: أن يقوم بخدمة ضيفه؛ فقد نزل الإمام الشافعي بالإمام مالك، فصب بنفسه الماء علىٰ يديه، وقال له: لا يرعك ما رأيتَ مني، فخدمة الضيف علىٰ المضيف فرض.

ومن تمام الأدب: أن يقوم المضيِّفُ مع ضيفِه إذا أراد الانصراف إلىٰ باب الدار.

وأما آداب الضيف: فهو أن يبادر إلىٰ موافقة المضيف في أمور، منها: أكلُ الطعام، ولا يعتذر بشبع بل يأكل كيف أمكن، فقد حُكِيَ أنه ورد علىٰ بعض الأعراب ضيف، فدخل به إلىٰ بيته وقدم له الطعام، فقال الضيف: لست بجائع، وإنما أحتاج إلىٰ مكان أبيت فيه، فقال الأعرابي: إذا كان هذا، فكن ضيف غيري، فإني لا أرىٰ أن تمدحني في البلاد وتهجوني فيما بيني وبينك.

وحكي عن بعض التجار قال: استدعاني محمد بن القاسم الكرخي لأعرض عليه قماشًا من تجارتي، فبينما أنا بين يديه وإذا بأطباق الفاكهة قد حضرت، فقمت من مجلسه فقال: يا فلان، ما هذا الخلق العامي؟ اجلس، فجلست وتحققت كرمه، وجعلت آكل الكمثراة في لقمة والتفاحة في لقمة، ثم قدم الطعام وكنت جائعًا فأكلت جيدًا ثم انصرفت، فلم أستشعر في اليوم الثاني إلا وقد جاءني غلامه ببغلته، فاستدعاني إليه فقال: يا فلان، إني قليل الأكل، بطيء الهضم، ولقد طابت لي مؤاكلتك بالأمس، فأريد ألا تنقطع بعدها عني، قال: فكنت متىٰ انقطعت حضر غلامه في طلبي، فحصل له بقريب منه مالٌ كثير وجاه عريض.

ومن آداب الضيف أيضًا: ألا يسأل صاحب المنزل عن شيء من داره سوىٰ القبلة، وموضع قضاء الحاجة، وألا يتطلع إلىٰ ناحية الحريم، وألا يخالفه إذا أجلسه في مكان وأكرمه به، وألا يمتنع من غسل يديه.

وإذا رأىٰ صاحب المنزل قد تحرك بحركة فلا يمنعه منها، فقد نقل في بعض الكتب أن بعض الكرماء كان شديدًا علىٰ أضيافه، سيئ الخلق بهم، فبلغ ذلك بعض الأذكياء، فقال: الذي يظهر لي من هذا الرجل أنه كريم الأخلاق، وما أظن سوء أخلاقه إلا لسوء أدب الأضياف، ولا بُدَّ أن أتطَفَّل عليه لأرىٰ حقيقة أمره، قال: فقصدته وسلمت عليه، فقال: هل لك أن تكون ضيفي؟ قلت: نعم، فسار بين يديَّ إلىٰ أن جاء إلىٰ باب داره، فأذن لي فدخلت، فأجلسني في صدر مجلسه، فجلست حيث أجلسني، وأعطاني مسندًا، فاستندت إليه، ثم جعل يؤانسني في الحديث.

فلما حضر الطعام جعل يقدم لي ما استطابه وأنا آكل، فلما فرغنا قدم طستًا وإبريقًا وأراد أن يسكب الماء علىٰ يدي، فلم أمنعه من ذلك، وأراد الخروج من بين يدي بعد أن قدم نعلي، فلم أرده عن ذلك، فلما أراد الرجوع، قلت: يا سيدي، أنشدك الله إلا فرجت عني كربة؟ قال: وما هي؟ فأخبرته الخبر، فقال: والله ما يحوجني لذلك إلا سوء أدبهم، يصل الضيف إلىٰ داري، فأجلسه في الصدر، فيأبىٰ ذلك، ثم أقدم إليه الطعام، فلا أدفع له شيئًا طيبًا إلا ردَّه عليَّ، ثم أريد أن أصب الماء علىٰ يديه عند الغسل، فيحلف بالطلاق الثلاث ما تفعل، ثم أريد أن أقوم معه إلىٰ الباب فلا يمكنني من ذلك، فأقول في نفسي: لا يحكم الإنسان علىٰ نفسه حتىٰ في بيته، فعند ذلك أشتمه وألعنه وأضربه، وفي معنىٰ ذلك يقول بعضهم:

لا ينبغي للضيف أن يعترض ... إن كان ذا حزمٍ وطبعٍ لطيفْ

فالأمر للإنسان في بيته ... إن شاء أن ينصفَ أو أن يَحيفْ

وعشَّىٰ أبو الأسود الدؤلي ليلةً مسكينًا، ثم قيَّدَه وبيَّتَه عنده، ومنعه أن يخرج ليلته تلك لئلَّا يؤذي المسلمين بسؤاله، فقال له المسكين: أطلقني، فقال: هيهات، إنما عشيتك لأريح منك المسلمين الليلة، فلما أصبح أطلقه.

في العفو والصفح

لقد ندب الله عَزَّوَجَلَّ نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ الصفح والعفو؛ فقال تعالىٰ: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٥].

وقال سبحانه: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤].

قال الحسن البصري: «إذا كان يوم القيامة نادىٰ منادٍ: من كان له علىٰ الله أجر فليقم، فلا يقوم إلا العافون عن الناس، وتلا قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورىٰ:٤٠]».

وكان المأمون يحب العفو ويؤثره ويقول: لقد حُبِّب إلي العفو حتىٰ إني أخاف ألا أثاب عليه، وكان يقول: لو علم أهل الجرائم لذتي في العفو لارتكبوها، ولو علم الناس حبي للعفو لما تقربوا إلي إلا بالجنايات.

وقال عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أولىٰ الناس بالعفو أقدرهم علىٰ العقوبة، وإذا قدرت علىٰ عدوك، فاجعل العفو عنه شُكرًا للقدرة عليه».

ومن جميل العفو: ألا يتبعه باللوم والمُعَاتَبة علىٰ ما فات، فما عفا عن الذنب من قرَّع به، وقد قال ابن المعتز: لا تشن وجه العفو بالتقريع به.

ومن عادة الكريم إذا قدر غفر، وإذا رأىٰ زلة ستر، وليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام، وقد قيل: من انتقم فقد شفىٰ غيظه، وأخذ حقه، فلم يجب شكره، ولم يُحمَد في العالمين ذِكرُه، وقالت العرب: لا سؤدد مع الانتقام.

والذي يجب علىٰ العاقل إذا أمكنه الله تعالىٰ ألا يجعل العقوبة شيمته، وإن كان ولا بُدَّ من الانتقام، فليرفُق في انتقامه إلا أن يكون حدًّا من حدود الله تعالىٰ.

ومن جميل ما جاء في العفو والصفح: ما حكي عن المنصور أنه قال لرجل جانٍ عجز عن العذر: ما هذا الوجوم وعهدي بك خطيبًا لسنًا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ليس هذا موقف مباهاة، ولكنه موقف توبة، والتوبة بالاستكانة والخضوع، فَرَقَّ له وعفا عنه.

وسُعي إلىٰ المنصور برجل من ولد الأشتر النخعي، ذُكر له عنه أنه يميل إلىٰ بني علي والتعصب لهم، فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه قال: يا أميرالمؤمنين، ذنبي أعظم من نقمتك، وعفوك أعظم من ذنبي، ثم قال:

فهبني مُسيئًا كالذي قلتَ ظالمًا ... فعفوًا جميلًا كي يكون لك الفضلُ

فإن لم أكن للعفو منك لسوء ما ... أتيتُ به أهلًا فأنت له أهلُ

فعفا عنه، وأمر له بِصِلَة.

وأُحضر إلىٰ المأمون رجلٌ قد أذنب ذنبًا، فقال له: أنت الذي فعلت كذا وكذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أنا ذاك الذي أسرف علىٰ نفسه، واتكل علىٰ عفوك، فعفا عنه وخَلَّىٰ سبيله.

وحُكي عن معاوية أنه لما ولي الخلافة، وانتظمت إليه الأمور وامتلأت منه الصدور، وأذعن لأمره الجمهور، استحضر ليلةً خواص أصحابه وذاكرهم وقائعَ أيام صفين، ومن كان يتولىٰ كبر الكريهة من المعروفين، فانهمكوا في القول الصحيح والمريض وآل حديثهم إلىٰ من كان يجتهد في إيقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض، فقالوا: امرأة من أهل الكوفة تسمىٰ الزرقاء بنت علي كانت تتعمد الوقوف بين الصفوف وترفع صوتها صارخة: يا أصحاب علي، تسمعهم كلامًا كالصوارم، مستحثة لهم بقول لو سمعه الجبانُ لقاتل، والمدبرُ لقابل، والمسلمُ لحارب، والفارُّ لكَر، والمتزلزلُ لاستقر.

فقال لهم معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيكم يحفظ كلامها؟ فقالوا: كلنا نحفظه، قال: فما تشيرون عليَّ فيها؟ قالوا: نشير بقتلها، فإنها أهلٌ لذلك. فقال لهم معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بئسما أشرتم، وقبحًا لما قلتم، أيحسن أن يشتهر عني أنني بعدما ظفرت وقدرت قتلتُ امرأة قد وفت لصاحبها، إني إذن للئيم، لا واللهِ لا فعلتُ ذلك أبدًا.

ثم دعا بكاتبه فكتب كتابًا إلىٰ واليه بالكوفة، أن أنفذ إليَّ الزرقاء بنت عليٍّ مع نفر من عشيرتها وفرسان من قومها، ومهِّد لها وطاءً لينًا ومركبًا ذلولًا، فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها وقرأ عليها، فقالت بعد قراءة الكتاب: ما أنا بزائغة عن الطاعة، فحملها في هودج، وجعل غشاءه خزًّا مبطنًا، ثم أحسن صحبتها، فلما قدمت علىٰ معاوية قال لها: مرحبًا وأهلًا خيرَ مقدمٍ قدمَه وافد، كيف حالك يا خالة، وكيف رأيت سيرك؟ قالت: خير مسير، فقال: هل تعلمين لم بعثتُ إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: ألست راكبةَ الجمل الأحمر يوم صفين، وأنت بين الصفوف توقدين نار الحرب، وتُحَرضين علىٰ القتال؟ قالت: نعم، قال: فما حملك علىٰ ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين، إنه قد مات الرأس، وبُتِر الذَّنَب، والدهر ذو غِيَر، ومن تفَكَّر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر. فقال: صدقت، فهل تعرفين كلامك، وتحفظين ما قلت؟ قالت: لا والله، قال: لله أبوك، فلقد سمعتك تقولين: أيها الناس، إن المصباح لا يضيء في الشمس، وإن الكواكب لا تضيء مع القمر، وإن البغل لا يسبق الفرس، ولا يقطع الحديد إلا الحديد، ألا من استرشدنا أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه، أن الحق كان يطلب ضالة فأصابها.

فصبرًا يا معشر المهاجرين والأنصار، فكأنكم وقد التأم شمل الشتات، وظهرت كلمة العدل وغلب الحق باطله، فإنه لا يستوي المحق والمبطل، أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا لا يستوون، فالنزالَ النزال، والصبرَ الصبر، ألا وإن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، والصبر خير الأمور عاقبة، ائتوا الحرب غير ناكصين، فهذا يوم

له ما بعده. يا زرقاء، أليس هذا قولك وتحريضك؟

قالت: لقد كان ذلك، قال: لقد شاركت عليًّا في كل دم سفكه، فقالت: أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين، وأدام سلامتك، مثلك من يبشر بخير ويسرُّ جليسَه، فقال معاوية: أوقَد سرَّك ذلك؟ قالت: نعم، والله لقد سرني قولك، وأنىٰ لي بتصديقه.

فقال لها معاوية: والله لوفاؤكم له بعد موته أعجبُ إليَّ مِن حبِّكم له في حياته، فاذكري حوائجك تُقضَ. فقالت: يا أمير المؤمنين، إني آليت علىٰ نفسي ألا أسأل أحدًا بعد عليٍّ حاجة، فقال: قد أشار عليَّ بعضُ مَن عرفك بقتلك، فقالت: لؤمٌ من المشير، ولو أطعته لشاركتَه، قال: كلا بل نعفو عنك ونحسن إليك ونرعاك، فقالت: يا أمير المؤمنين، كرم منك، ومثلك من قدر فعفا، وتجاوز عمن أساء، وأعطىٰ من غيرمسألة، قال: فأعطاها كسوة ودراهم، وأقطعها ضيعة تَغُل كلَّ سنةٍ عشرةَ آلافِ درهم، وأعادها إلىٰ وطنِها سالمة، وكتب إلىٰ والي الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها.

وعن الربيع مولىٰ الخليفة المنصور، قال: ما رأيت رجلًا أربط جأشًا، وأثبت جنانًا من رجل سُعي به إلىٰ المنصور، أن عنده ودائع وأموالًا لبني أمية، فأمرني بإحضاره، فأحضرته إليه، فقال له المنصور: قد رفع إلينا خبر الودائع والأموال التي عندك لبني أمية، فأخرج لنا منها، وأحضرها، ولا تكتم منها شيئًا، فقال: يا أمير المؤمنين، وأنت وارث بني أمية؟ قال: لا، قال: فوصي لهم في أموالهم ورباعهم؟ قال: لا، قال: فما مسألتك عما في يدي من ذلك؟

فأطرق المنصور، وتفكر ساعة، ثم رفع رأسه وقال: إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها، وأنا وكيل المسلمين في حقوقهم، وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمين فيه، فأجعله في بيت أموالهم.

فقال: يا أمير المؤمنين، فيحتاج إلىٰ إقامة بينة عادلة أن ما في يدي لبني أمية مما خانوه وظلموه، فإن بني أمية قد كانت لهم أموال غير أموال المسلمين.

قال: فأطرق المنصور ساعة، ثم رفع رأسه وقال: يا ربيع، ما أرىٰ الشيخ إلا قد صدق، وما يجب عليه شيء، وما يسعنا إلا أن نعفو عما قيل عنه، ثم قال: هل لك من حاجة؟ قال: نعم يا أميرالمؤمنين أن تجمع بيني وبين من سعىٰ بي إليك، فوالله الذي لا إله إلا هو ما في يدي لبني أمية مال ولا وديعة، ولكنني لما مثلت بين يديك وسألتني عما سألتني عنه قابلت بين هذا القول الذي ذكرته الآن، وبين ذلك القول الذي ذكرته أولًا، فرأيت ذلك أقرب إلىٰ الخلاص والنجاة.

فقال: يا ربيع، اجمع بينه وبين من سعىٰ به، فجمعت بينهما، فلما رآه قال: هذا غلامي اختلس ثلاثة آلاف دينار من مالي وأبق مني وخاف من طلبي له، فسعىٰ بي عند أمير المؤمنين.

قال: فشد المنصور علىٰ الغلام وخوفه، فأقر بأنه غلامه، وأنه أخذ المال الذي ذكره وسعىٰ به كذبًا عليه وخوفًا من أن يقع في يده، فقال له المنصور: سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه، فقال: قد عفوت عنه، وأعتقته ووهبته الثلاثة آلاف التي أخذها وثلاثة آلاف أخرىٰ أدفعها إليه.

فقال له المنصور: ما علىٰ ما فعلت من مزيد؟ قال: بلىٰ يا أمير المؤمنين، إن هذا كله لقليل في مقابلة كلامك لي وعفوك عني، ثم انصرف.

قال الربيع: فكان المنصور يتعجب منه، وكلما ذكره يقول: ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع.

وغضب الرشيد علىٰ حميد الطوسي، فدعا له بالنطع والسيف فبكىٰ، فقال له: ما يبكيك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لأنه لا بُدَّ منه، وإنما بكيت أسفًا علىٰ خروجي من الدنيا، وأمير المؤمنين ساخط علي، فضحك وعفا عنه، وقال: إن الكريم إذا خادعته انخدع.

وأمر زياد بضرب عُنق رجل، فقال: أيها الأمير، إن لي بك حرمة، قال: وما هي؟

قال: إن أبي جارك بالبصرة، قال: ومن أبوك؟ قال: يا مولاي إني نسيت اسم نفسي، فكيف لا أنسىٰ اسم أبي؟ فردَّ زياد كمه علىٰ فمه، وضحك وعفا عنه.

وأمر الحجاج بقتل رجل فقال: أسألك بالذي أنت غدًا بين يديه أذل موقفًا مني بين يديك إلا عفوت عني، فعفا عنه.

ولما ضرب الحجاج رقاب أصحاب ابن الأشعث أتىٰ رجل من بني تميم، فقال: والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب ما أحسنت في العفو، فقال الحجاج: أفٍّ لهذه الجيف! أما كان فيهم من يحسن الكلام مثل هذا؟ فعفا عنه وخلَّىٰ سبيله.

وكان إبراهيم بن المهدي يقول: والله ما عفا عني المأمون تقربًا إلىٰ الله تعالىٰ، ولا صلةً لرحم، ولكن له سُوق في العفو يكره أن تكسد بقتلي.

وقال يزيد بن مزيد: أرسل إليَّ الرشيد ليلًا يدعوني، فأوجست منه خيفة، فقال لي: أنت القائل: أنا ركن الدولة والثائر لها، والضارب أعناق بغاتها؟ لا أم لك، أي ركن، وأي ثائرٍ أنت؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ما قلتُ هذا، إنما قلتُ: أنا عبد الدولة، والثائر لها، فأطرق وجعل ينحل غضبه عن وجهه، ثم ضحك، فقلتُ: أحسن من هذا قولي:

خلافة الله في هارون ثابتة ... وفي بنيه إلىٰ أن ينفخ الصُّورُ

فقال: يا فضل، أعطه مائتي ألف درهم قبل أن يصبح.

وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل، فقال: ما أقبح بي أن أقوم يوم القيامة إلىٰ صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يستضاء به، فأتعلق بأطواقك وأقول: أي ربِّ، سَلْ مصعبًا لِمَ قتلني؟ فقال: أطلقوه، فلما أطلقوه، قال: أيها الأمير، اجعل ما وهبت لي من حياتي في خفض عيش، قال: قد أمرتُ لك بمائة ألف درهم، فقال:

أيا المذنبُ الخطَّاءُ والعفو واسعٌ ... ولو لم يكن ذنبٌ لما عرف العفوُ

وتغيظ عبد الملك بن مروان علىٰ رجل، فقال: والله لئن أمكنَنِي الله منه لأفعلن

به كذا وكذا، فلما صار بين يديه، قال رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين، قد صنع الله ما أحببت، فاصنع ما أحب الله، فعفا عنه وأمر له بصِلَة.

وذُكِر أن المأمون أشرف يومًا من قصره فرأىٰ رجلًا قائمًا وبيده فحمة وهو يكتب بها علىٰ حائط قصره، فقال المأمون لبعض خدمه: اذهب إلىٰ ذلك الرجل، وانظر ما يكتب وَأْتِنِي به.

فذهب الخادم إلىٰ الرجل مسرعًا وقبض عليه وتأمل ما كتبه فإذا هو:

يا قصر جُمِّع فيك الشؤم واللوم ... متىٰ يعشش في أركانك البُومُ

يومًا يعشش فيك البوم من فرحي ... أكون أول من ينعاك مَرغومُ

فقال له: أجب أمير المؤمنين، فقال الرجل: سألتك بالرؤوف الرحمن ألا تذهب بي إليه.

فقال الخادم: لا بُدَّ من توجهك معي، فلما مثل بين يديه قال: يا أمير المؤمنين، إنه لا يخفىٰ عليك ما حواه قصرك من خزائن الأموال، وإني مررت عليه الآن وأنا جائع، ولا فائدة لي فيه، فلو كان خرابًا ومررت به لم أعدم رخامة أو غيرها أبيعها وأتقوت بثمنها، ولا يغيب عن علم أمير المؤمنين -أطال الله بقاءَه- قول القائل:

إذا لم يكن للمَرء في دُولة امرئ ... نصيب ولا حَظٌّ تمنىٰ زوالَهَا

وما ذاك من بُغضٍ له غير أنه ... يرىٰ غيرها خيرًا فيهوىٰ انتقالَهَا

فأمر له المأمون بألف درهم، فانصرف وهو يقول:

وكل امرئ يُولي الجَمِيل محبب ... وكل مكان يُنبِتُ العزَّ طَيبُ

وقال المنصور لابنه المهدي: إن الخليفة لا يُصلِحُه إلا التقوىٰ، والسلطان لا يُصلحه إلا الطاعة، والرَّعية لا يصلحها إلا العدل، وأولىٰ الناس بالعفو أقدرهم علىٰ العقوبة، وأنقص الناس عقلًا من ظلم من هو دُونه.

وقال أيضًا: يا بني، استدم النعمة بالشكر، والقدرة بالعفو، والطاعة بالتأليف، والنصر بالتواضُع والرحمة للناس، ولا تنس نصيبك من الدنيا، ونصيبك من رحمة الله.

وقال الأصمعي: أُتي المنصور برجل ليعاقبه، فقال: يا أمير المؤمنين، الانتقام عدل، والعفو فضل، ونعيذ أمير المؤمنين بالله أن يرضىٰ لنفسه بأوكس النصيبين، دون أن يبلغ أرفع الدرجتين، قال: فعفا عنه.

وقال المنصور لرجُل من أهل الشام: احمَد الله يا أعرابي الذي رفع عنكم الطاعُون بولايتنا، فقال: إن الله لا يجمع علينا حشفًا وسُوءَ كيل، ولايتكم والطاعون.

وأُتي المنصورُ يومًا بخارجيٍّ قد هزم جيوشَه غير مرة، فلما أُوقِف بين يديه، قال له المنصور: ويحك! يا ابن الفاعلة، مثلك يهزم الجيوش؟ فقال الخارجي: ويلك، سوأةً لك، بيني وبينك أمس السيفُ والقتل، واليومَ القذفُ والسب! وما يؤمنك أن أردَّ عليك وقد يئستُ من الحياة، فلا تستقيلُها أبدًا؟! فاستحيا منه المنصور وأطلقه.

وأُمسِك برجل من أصحاب شبيب الخارجي، فحُمل إلىٰ عبد الملك بن مروان، فقال له: ألست القائل:

فإن يكُ منكم كان مروان وابنه ... وعمرو ومنكم هاشم وحبيبُ

فمنا حصينٌ والبطينُ وقعنبٌ ... ومنا أميرُ المؤمنين شبيبُ

فقال: إنما قلت: ومنا أميرَ المؤمنين شبيبُ، فأعجبه اعتذاره وأطلقه.

وكتب عبد الملك إلىٰ الحجاج في أيام ابن الأشعث: إنك أعزُّ ما تكون بالله أحوج ما تكون إليه، وإذا عززت بالله فاعفُ له، فإنك به تُعَز وإليه ترجع.

واختصم عليُّ بن الحسين وحسن بن حسن -وكان بينهما منافسة- فنال منه حسن بن حسن، وهو ساكت، فلما كان الليل ذهب علي بن الحسين إلىٰ منزله، فقال: يا ابن عم، إن كنت صادقًا يغفر الله لي، وإن كنت كاذبًا يغفر الله لك، والسلام عليك، ثم رجع، فلحقه فصَالَحَه.

قال مالك: ما كُل ما يُعلم يُقَال، وليس كل أحد يقدر علىٰ الاعتذار.

وكلَّم رجلٌ عمرَ بن عبد العزيز يومًا حتىٰ أغضبه، فهمَّ به عمر ثم أمسك نفسه، ثم قال للرجل: أردت أن يستفزني الشيطان بعزة السلطان فأنال منك ما تناله مني غدا؟ قُم عافاك الله، لا حاجة لنا في مقاولتك.

قال عمر بن عبد العزيز: «إن أحب الأمور إلىٰ الله: القصد في الجد، والعفو في المقدرة، والرفق في الولاية، وما رفق عبدٌ بعَبد في الدنيا إلا رَفَقَ الله به يوم القيامة».

ولما خرج محمد بن البُعَيث وجماعة من أصحابه علىٰ الخليفة المتوكِّل سنة خمس وثلاثين ومائتين، مكَّن الله منهم المتوكل، وحُمِل ابن البعيث ورؤوسٌ من أصحابه بلغوا نحوًا من مائة وثمانين إنسانًا إلىٰ المتوكل، فأدخلوا علىٰ الجِمال ليراهم الناس، فلما أوقف ابنُ البعيث بين يدي المتوكل أمر بضرب عنقه، فأُحضِر السيف، وجاء السيافون فوقفوا حوله، فقال له المتوكل: ويلك!، ما دعاك إلىٰ ما فعلت؟ فقال: الشقوة يا أمير المؤمنين، وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه، وإنَّ لي فيك لظَنَّيْن، أسبقهما إلىٰ قلبي أولاهما بك، وهو العفو، ثم اندفع يقول بديهة:

أبىٰ الناس إلا أنك اليوم قاتلي ... إمامَ الهدىٰ والصفحُ بالمرء أجمَلُ
وهل أنا إلا جبلة من خطية ... وعفوك من نور النبُوة يجبلُ
فإنك خير السابقين إلىٰ العُلا ... ولا شكَّ أن خير الفعالين تفعلُ

فقال المتوكل: إن معه لأدبًا، ثم عفا عنه.

❊ ❊ ❊

لزوم الحلم وترك الغضب

إنَّ من أعظم النِّعَم التي يُنعِم الله بها علىٰ عبده: أن يرزقه الحِلم، فهو مفتاح لكل خير، وقائد لكل فضيلة، وقد قال ﷺ لأشج عبد القيس: «**إن فيك خصلَتَيْن يُحبهما الله: الحلم والأناة**»[1]، وكان من أمثلة العرب قولهم: احلم تَسُد.

فأفضل رداء ارتداه المرء الحِلم، كما أنَّ له لذة يلحقها حسن العاقبة.

قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن أول عوض الحليم عن حلمه، أنَّ الناس أنصار له علىٰ الجاهل».

وقال محمد بن عجلان: «ما شيء أشد علىٰ الشيطان من عالم معه حلم، إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم، يقول الشيطان: سكوته علي أشد من كلامه».

وكان معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعرف بالحلم، وله فيه أخبار مشهورة وآثار مذكورة، وكان يقول: إني لآنف أن يكون في الأرض جهلٌ لا يسعه حلمي، وذنبٌ لا يسعه عفوي، وحاجةٌ لا يسعها جودي. وهذه مروءة عالية المرتبة.

وكان الأحنف كثير العفو والحلم، وكان مشهورًا بين الناس بالحلم، وبذلك ساد عشيرته، وكان يقول: ما آذاني أحدٌ إلا أخذتُ في أمره بإحدىٰ ثلاث: إن كان فوقي عرفت له فضله، وإن كان مثلي تفضلت عليه، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه، وكان يقول: وجدت الاحتمال أنصر لي من الرجال.

وكان عبد الله بن عون معروفًا بالحلم، فإذا غضب علىٰ إنسان قال له: بارك الله

---

(١) رواه مسلم (٢٤).

فيك، وكانت له ناقة كريمة، فضربها الغلام فأندر عينها. فقالوا: إن غضب ابن عون، فإنه يغضب اليوم، فقال للغلام: غفر الله لك.

فينبغي علىٰ المرء إن أراد أن يكتسب محاسن الأخلاق أن يلزم الحلم، وأن يجتنب ضدَّه وهو الغضب، فمن أطاع الغضب أضاع الأرب.

وجاء عن علي بن الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب».

وفي ذلك يقول الشاعر:

ولـم أرَ فـي الأعـداء حـين اختبـرتهم ... عـدوًّا لعقـل المـرء أعـدىٰ من الغضَبِ

وقد صح عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**ليس الشديد بالصرعة؛ إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[1].

وقال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «كفىٰ بالمرء إثمًا أن يقال له: اتق الله، فيغضب، ويقول: عليك نفسك».

وكتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ **إلىٰ عامل من عماله**: «ألَّا تعاقب عند غضبك، وإذا غضبت علىٰ رجل، فاحبسه، فإذا سكن غضبك، فأخرجه فعاقبه علىٰ قدر ذنبه، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطًا».

وقيل لابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة واحدة، قال: «ترك الغضب».

قال المعتمر بن سليمان: «كان رجل ممن كان قبلكم يغضب ويشتد غضبه، فكتب ثلاث صحائف، فأعطىٰ كل صحيفة رجلًا، وقال للأول: إذا اشتد غضبي فقم إليَّ بهذه الصحيفة وناولنيها، وقال للثاني: إذا سكن بعض غضبي فناولنيها، وقال للثالث: إذا ذهب غضبي فناولنيها، وكان في الأولىٰ: أقصر، فما أنت وهذا الغضب،

---

(١) رواه البخاري (٥٦٤٩)، ومسلم (٤٧٢٣).

إنك لست بإله، إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضًا، وفي الثانية: ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء، وفي الثالثة: احمل عباد الله علىٰ كتاب الله، فإنه لا يصلحهم إلا ذاك».

وكان الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مولعًا بهذا البيت:

ليست الأحلامُ في حال الرِّضا إنما الأحلامُ في حال الغضَبْ

وصح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**من كظم غيظًا وهو قادر علىٰ أن ينفذه، دعاه الله علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة حتىٰ يخيره في أي الحور شاء**»(١).

قال ابن السماك: «أذنب غلام لامرأة من قريش، فأخذت السوط، ومضت خلفه حتىٰ إذا قاربته رمت بالسوط، وقالت: ما تركت التقوىٰ أحدًا يشفي غيظه».

وقال أبو ذر لغلامه: لِمَ أرسلتَ الشاة علىٰ علف الفَرس؟ قال: أردت أن أغيظك، قال: لأجمعن مع الغيظ أجرًا؛ أنت حرٌّ لوجه الله تعالىٰ.

واستأذن رهط من اليهود علىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأذن لهم، فقالوا: السام عليك يا محمد، فقالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: بل السام عليكم واللعنة، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله**، فقالت: ألم تسمع ما قالوا، قال: **قد قلت: وعليكم**»(٢).

وشتم رجل رجلًا فقال له: يا هذا لا تغرق في شتمنا ودع للصلح موضعًا؛ فإني أبيت مشاتمة الرجال صغيرًا، فلن أجيئها كبيرًا، وإني لا أكافئ من عصىٰ الله فِيَّ بأكثر من أن أطيع الله فيه.

وحُكي عن جعفر الصادق أن غلامًا له وقف يصب الماء علىٰ يديه، فوقع الإبريق من يد الغلام في الطست، فطار الرشاش في وجهه، فنظر جعفر إليه نظر مغضب،

---

(١) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٧٥٣).

(٢) رواه البخاري (٥٥٦٥)، ومسلم (٤٠٢٧).

فقال: يا مولاي: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾، قال: قد كظمت غيظي، قال: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾، قال: قد عفوت عنك، قال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤]، قال: اذهب، فأنت حرٌّ لوجه الله تعالىٰ.

ولما قُدِّم نصر بن منيع بين يدي الخليفة -وكان قد أمر بضرب عنقه- قال: يا أمير المؤمنين، اسمع مني كلمات أقولها. قال: قل. فأنشأ يقول:

زعموا بأنَّ الصقرَ صادف مرةً ... عصفورَ بُرٍّ ساقه التقديرُ

فتكَلَّم العصفور تحت جناحه ... والصقر منقض عليه يطيرُ

إني لمثلك لا أتمم لقمة ... ولئن شُويت فإنني لحقيرُ

فتهاون الصقر المدلُّ بصيده ... كرمًا وأفلت ذلك العصفورُ

فعفا عنه وخلىٰ سبيله.

ومما يقود إلىٰ تسكين الغضب والعفو عمن أساء: أن يقرَّ المذنب ويعترف بذنبه بين يدي مَن أساء في حقه، كما قال الشاعر:

أقرر بذنبِك ثم اطلَب تجاوزَهُم ... عنه فإن جحُود الذنب ذنبانِ

وقال آخر:

إذا ذكرت أياديك التي سلفت ... مع قبح فعلي وزلاتي ومجترمي

أكاد أقتل نفسي ثم يدركني ... علمي بأنك مجبول علىٰ الكرمِ

وغضب المنصور علىٰ رجل من الكتاب، فهمَّ بمعاقبته، فأنشأ يقول:

وإنا الكاتبون وإن أسأنا ... فهبنا للكرام الكاتبينا

فعفا عنه وخلىٰ سبيله وأكرمه.

وقال الرشيد لأعرابي: بِمَ بلَغَ فيكم هشام بن عروة هذه المَنزِلة؟ قال: بحلمه عن سفيهنا، وعفوه عن مسيئنا، وحمله عن ضعيفنا، لا منان إذا وهب، ولا حقود إذا غضب،

رحب الجنان، سمح البنان، ماضي اللسان، فأومأ الرشيد إلىٰ كلبِ صيدٍ كان بين يديه، وقال: واللهِ لو كانت هذه في هذا الكلب لاستحق بها السؤدد.

وقيل لمعن بن زائدة: المؤاخذة بالذنب من السؤدد؟ قال: لا، ولكن أحسن ما يكون السؤدد بالصفح عمن عظم جرمه، وقل شفعاؤه، ولم يجد ناصرًا.

وقال الأحنف بن قيس لابنه: «يا بني، إذا أردت أن تؤاخي رجلًا فأغضبه، فإن أنصفك، وإلا فاحذره».

وفي ذلك يقول الشاعر:

إذا كنت مختصًّا لنفسك صاحبًا ... فمن قبل أن تلقاه بالود أغضبهُ

فإن كان في حال القطيعة منصفًا ... وإلا فقد جرَّبتَه فتجنبهُ

وقال آخر:

وجهل رددناه بفَضل حُلُومنا ... ولو أننا شئنا ردَدنَاه بالجهلِ

قال رجلٌ لأبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لأسبنك سبًّا يدخل معك قبرك، فقال: معك واللهِ يدخل لا معي.

وقال الأحنفُ: إياكم ورأي الأوغاد، قالوا: وما رأي الأوغاد؟ قال: الذين يرون الصفح والعفو عارًا.

وقيل: إن الأحنف سبه رجل وهو يماشيه في الطريق، فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال له: يا هذا، إن كان قد بقي معك شيء فهات وقلهُ هاهنا، فإني أخاف أن يسمعك فتيان الحي فيؤذوك، ونحن لا نحب الانتصار لأنفسنا.

وقال لقمان لابنه: «يا بُني، ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه».

ومن أشعر بيت قيل في الحلم قول كعب بن زهير:

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخَنَا ... أصبت حليمًا أو أصابك جاهلُ

وحُكيَ أن ملكًا من الملوك أمر أن يُصنع له طعام، وأحضر قومًا من خاصته فلما مد السماط أقبل الخادم وعلىٰ كفه صحن فيه طعام، فلما قرب من الملك أدركته الهيبة فعثر فوقع من مرق الصحن شيء يسير علىٰ طرف ثوب الملك، فأمر بضرب عنقه، فلما رأىٰ الخادم العزيمة علىٰ ذلك عمد بالصحن فصب جميع ما كان فيه علىٰ رأس الملك، فقال له: ويحك ما هذا؟ فقال: أيها الملك، إنما صنعت هذا شحًّا علىٰ عرضك؛ لئلَّا يقول الناس إذا سمعوا ذنبي الذي به تقتلني: قتله في ذنب خفيف لم يضره، وأخطأ فيه العبد ولم يقصده، فتنسب إلىٰ الظلم والجور، فصنعت هذا الذنب العظيم لتعذر في قتلي وترفع عنك الملامة.

فأطرق الملك مَلِيًّا ثم رفع رأسه إليه وقال: يا قبيح الفعل يا حسَن الاعتذار، قد وهبنا قبيحَ فعلِك وعظيمَ ذنبِك لحُسن اعتذارك، اذهب فأنت حرٌّ لوجه الله تعالىٰ.

ولما تولىٰ معن بن زائدة إمارة العراق، وكان قد اشتهر بالحلم والكرم، أتاه أعرابيٌّ يختبر حِلمَه، فدخل عليه دون أن يؤذن له، فلما مثل بين يديه قال له:

أتذكر إذ لحافك جلد شاة ... وإذ نعلاك من جلد البعيرِ

قال: نعم، أذكر ذلك ولا أنساه.

قال الأعرابي:

فسبحان الذي أعطاك ملكًا ... وعلمك الجلوس علىٰ السريرِ

قال معن: سبحانه علىٰ كل حال.

قال الأعرابي:

فلستُ مسلِّمًا ما عشت دهرًا ... علىٰ مَعنٍ بتسليم الأميرِ

قال معن: إنَّ السلام سُنة يا أخا العرب، تأتي به كيف شئت.

قال الأعرابي:

سأرحل عن بلاد أنت فيها ... ولو جار الزمان علىٰ الفقيرِ

قال معن: إن أقمت فينا فمرحبًا بالإقامة، وإن رحلت عنا فمصحوبٌ بالسلامة.

قال الأعرابي:

فجد لي يا ابن ناقصة بشيء فإني قد عزمت على المسيرِ

قال معن: يا غلام أعطه ألف دينار، فأخذها الأعرابي وقال:

قليل ما أتيت به وإني لأطمع فيك بالمال الكثيرِ

قال معن: يا علام أعطه ألف دينار أخرىٰ.

فأخذها الأعرابي وقال:

سألتُ اللَّه أن يُبقيك ذخرًا فما لك في البرية من نظيرِ

قال معن لغلامه: أعطه ألف دينار أخرىٰ.

فأخذها الأعرابي وقال: أيها الأمير، إنما جئت مختبرًا حلمك لما بلغني عنه، فلقد جمع الله فيك من الحلم ما لو قسم علىٰ أهل الأرض لكفاهم.

قال معن: يا غلام، كم أعطيته علىٰ نظمه؟

قال: ثلاثة آلاف دينار.

قال: أعطه في نثره مثلها، فأخذها الأعرابي شاكرًا له معروفه.

وحُكي عن المأمون وقد كان مَشهُورًا بالعفو والحلم، أنه لما خرج عمُّه إبراهيم المهدي عليه، وبايعه العباسيون بالخلافة ببغداد وخلعوا المأمون، وكان المأمونُ إذ ذاك بخراسان، فلما بلغه الخبر قصد العراق، فلما بلغ بغداد اختفىٰ إبراهيم بن المهدي وعاد العباسيون وغيرهم إلىٰ طاعة المأمون، ولم يزل المأمون متطلبًا لإبراهيم حتىٰ أخذه، فحُبس ثم أُحضر حتىٰ وقف بين يدي المأمون، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال المأمون: لا سلمك الله ولا قرَّب دارك، استغواك الشيطان حتىٰ حدثتك نفسُك بما تنقطع دونه الأوهام.

فقال له إبراهيم: مهلًا يا أميرالمؤمنين، فإنَّ العفو أقربُ للتقوىٰ، ولك من رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ شرف القرابة وعدل السياسة، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب، كما جعل كل ذي ذنب دونك، فإن أخذت فبحقك وإن عفوت فبفضلك، والفضل أولىٰ بك يا أمير المؤمنين، ثم قال:

ذنبـــي إلـــيك عظـــيمٌ   وأنـــت أعظـــم مـــنهُ
فخــــذ بحقِّــــك أو لا   فاصــــفح بعفـــوك عــــنهُ
إن لـــم أكـــن فـــي فعالـــي   مـــن الكـــرام فكـــنهُ

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع في عينيه، وقال: يا إبراهيم، الندم توبة، وعفو الله تعالىٰ أعظم مما تحاول وأكثر مما تأمل، ولقد حُبِّب إليَّ العفو حتىٰ خفتُ ألَّا أُؤجَرَ عليه، لا تثريب عليك اليوم.

ثم أمر بفكِّ قيودِه وإدخاله الحمام وإزالةِ شعثِه، وخَلَع عليه وردَّ أمواله جميعها إليه، فقال فيه مخاطبًا:

رددتَ مالـي ولـم تـبخل علـيَّ بـهِ   وقـبل ردِّك مالـي قـد حقَـنتَ دمـي
فـإن جحـدتك مـا أولـيتَ مـن كـرمٍ   إنــي لـباللؤمِ أولـىٰ مـنك بالكـرمِ

وكتب عبد الملك بن مروان إلىٰ الحجاج يأمره أن يبعث إليه برأس عباد بن أسلم البكري، فقال له عباد: أيها الأمير، أنشدك الله لا تقتلني، فوالله إني لأعول أربعًا وعشرين امرأةً ما لهنَّ كاسبٌ غيري، فرق لهن واستحضرهن وإذا واحدة منهن كالبدر، فقال لها الحجاج: ما أنت منه؟ قالت: أنا بنته، فاسمع يا حجاج مني ما أقول، ثم قالت:

أحجـــاجُ إمـــا أن تمُـــنَّ بتـــركه   علـيـــنا وإمـــا أن تُقَتِّلَـــنا معًـــا
أحجـــاجُ لا تفجـــع بـــه إن قتلـــته   ثمانًـــا وعـــشرًا واثنتـــين وأربعًـــا
أحجـــاجُ لا تتـــرك علـــيه بـــناتُه   وخالاتُـــه يندبـــنه الدهـــرَ أجمعًـــا

فبكىٰ الحجاج ورَقَّ له واستوهبه من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصِلَة.

ولما قدم عيينة بن حصن علىٰ ابن أخيه الحرِّ بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وكان القُرَّاء أصحابَ مجلس عمر ومشاورته -كهولًا كانوا أو شبانًا- فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند أمير المؤمنين، فاستأذن لي عليه، فاستأذن فأذن له عمر، فلما دخل قال: هيه يا ابن الخطاب! فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل، فغضب عمر حتىٰ هم أن يوقع به، ففال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال لنبيه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]. وإنَّ هذا من الجاهلين، فما جاوزها عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حين تلاها عليه، وكان وقَّافًا عند كتاب الله تعالىٰ.

وحُكي أن رجلًا زوَّر ورقة عن خط الفضل بن الربيع، تتضمن أن أطلق له ألف دينار ثم جاء بها إلىٰ وكيل الفضل، فلما وقف الوكيل عليها لم يشك أنها خط الفضل فشرع في أن يزن له الألف دينار، وإذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله في تلك الساعة في أمر مهم، فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل وأوقفه علىٰ الورقة، فنظر الفضل فيها ثم نظر في وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل والخجل.

فأطرق الفضل بوجهه ثم قال للوكيل: أتدري لم أتيتك في هذا الوقت؟ قال: لا، قال: جئتُ لأستنهضك حتىٰ تعجِّل لهذا الرجل إعطاء المبلغ الذي في هذه الورقة، فأسرع عند ذلك الوكيل في وزن المال وناوله الرجل، فقبضه وصار متحيرًا في أمره، فالتفت إليه الفضل وقال له: طِب نفسًا وامض إلىٰ سبيلك آمنًا علىٰ نفسك، فقبَّل الرجل يده وقال له: سترتني سترك الله في الدنيا والآخرة، ثم أخذ المال ومضىٰ.

سُئِل الأحنف بن قيس عن الحلم، فقال: «الذل مع الصبر».

وكان إذا تعجب الناس من حلمه يقول: والله إني لأجد ما تجدون ولكني صبور، وقال: «وجدت الحلمَ أنصر لي من الرجال».

وأغلظ له رجلٌ في الكلام، وقال: والله يا أحنف، لئن قلت لي واحدة لتسمعن بدلها عشرًا، فقال له: إنك إن قلت لي عشرًا لا تسمع مني واحدة.

ونال رجلٌ من علي بن الحسين يومًا، فجعل يتغافل عنه يريه أنه لم يسمعه، فقال له الرجل: إياك أعني، فقال له علي: وعنك أغضي.

وخرج يومًا من المسجد، فسبَّه رجل، فابتدر الناس إليه فقال: دعوه، ثم أقبل عليه، فقال: ما سُتِر عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحيا الرجل، فألقىٰ إليه رداء كان عليه، وأمر له بألف درهم، فكان الرجل بعد ذلك يقول: أشهد أنك من أولاد الأنبياء.

وقال الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب: كنت يومًا عند المعتضد، وخادم واقف علىٰ رأسه يذب بمذبة في يده، إذ حركها فجاءت في قلنسوة الخليفة فسقطت عن رأسه، فأعظمت أنا ذلك جدًّا، وخفت من هول ما وقع، فلم يكترث الخليفة لذلك، بل أخذ قلنسوته فوضعها علىٰ رأسه ثم قال لبعض الخدم: مر هذا البائس فليذهب لراحته فإنه قد نعس، وزيدوا في عدة من يذب بالنوبة، فأخذت في الثناء علىٰ الخليفة والشكر له علىٰ حلمه؛ فقال: إن هذا البائس لم يتعمد ما وقع منه وإنما نعس، وليس العتاب والمعاتبة إلا علىٰ المتعمد، لا علىٰ المخطئ والساهي

❊ ❊ ❊

العتاب

إنَّ مما يقرب بين القلوب ويذهب الأحقاد والضغائن: العتاب بين الأحبة بالحسنىٰ وباللفظ اللطيف، ولذلك فقد مدح قوم العتاب فقالوا: العتاب حدائق المتحابين، ودليل علىٰ بقاء المودة.

وقال بعض الحكماء: العتاب خير من الحقد، ولا يكون العتاب إلا علىٰ زلة.

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «معاتبة الصديق أهون مِن فَقْدِه».

فالذي يحمل في قلبه علىٰ عشرائه إنما يجمع الأحقاد ويكثرها، فإذا عاتب صاحبه تبين له ما كان ملتبسًا بشبهة، واتضح له ما كان يحتمل أكثر من معنىً.

ومن أجل ذلك قال القائل:

وفي العتاب حياةٌ بين أقوام ... وهو المحك لذي لبس وإيهامِ

ويحسن بالمرء إذا أراد أن يعاتب صاحبه، أن يجعل له طريقًا إلىٰ الرجوع والمعاودة، وذلك عن طريق التماس العذر، فلا يغلق عليه الأبواب بعتاب غليظ جافٍ ثم يريده أن يعتذر منه، ألم تر إلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين جاءه المتخلفون عن غزوة تبوك يعتذرون عن تخلُّفِهم أخذ بظواهرهم وقبل اعتذارهم ووَكَلَ سَريرتهم إلىٰ الله تعالىٰ.

ولما جاء الرجل وأقر عنده بالزنا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لعلك غمزت، لعلك قبلت**»(١).

قال أهل العلم: يؤخذ منه تنبيه الحاكمِ الجاني إلىٰ العذر، وهذا إن لم يتعلق

(١) رواه البخاري (٦٣٢٤).

بجرمه حق للآخرين.

فإذا كان ذلك في حكم شرعي وكبيرة من الكبائر فكيف بالأمور المستحبة أو المباحات؟!

وذُكر عن ابن عرادة السعدي أنه كان مع سلم بن زياد بخراسان، وكان له مكرمًا وابنُ عرادة يتجنىٰ عليه، ففارقه وصاحب غيره، ثم ندم ورجع إليه وقال:

عتبتُ علىٰ سلمٍ فلما فقدتُه وصاحبتُ أقوامًا بكيتُ علىٰ سَلْمِ

رجعتُ إليه بعد تجريبِ غيرِه فكان كَبُرءٍ بعد طولٍ من السُّقْمِ

وكتب رجل إلىٰ صديقه كتابًا أرسله إليه وفيه حطٌّ عليه، فرد عليه الصديق ينبهه إلىٰ تأمُّلِ ما كتبه من عتاب غليظ بعد هدوء النفس، حتىٰ يرىٰ قوة عباراته فقال:

اقرأ كتابك واعتبره قريبًا فكفىٰ بنفسك لي عليك حسيبًا

أكذا يكون خطابُ إخوان الصفا إن أرسلوا جعلوا الخطابَ خُطُوبًا؟

ما كان عذري إن أجبتُ بمثله أو كنتُ بالعتب العنيف مُجيبًا

لكنني خفت انتقاص مَوَدَّتي فيُعَد إحساني إليك ذنوبًا

كما أن من الواجب علىٰ المرء: ألا يعاتبَ في كل شيء، حتىٰ يكون العتاب له سمة وعلامة يُعرَف بها، فيحط قدره عند إخوانه، ويعرف أنه يعاتب علىٰ كل شيء، ويغضب لأي شيء، فالمرء كلما استطاع أن يجعل عتابه عزيزًا فليفعل، حتىٰ إذا عاتب عُرِف أنه لا يعاتب إلا علىٰ ما يُستَحق أن يعاتَب عليه، كما أنَّ كثرة العتاب توجب البغضاء، وقد قيل:

فدع ذِكرَ العتابِ فرُبَّ شرٍّ طويلٍ هاج أولهُ العتابُ

وينبغي للعاقل إن عاتب أخاه أو صاحبه أو عشيره أن يتلطف معه، ولا يسبه فيما عرفه عنه، فإن من أخلاق اللؤم عند بعض الناس إن غضب علىٰ صاحبه بشيء، أظهر

كل ما يعرفه عنه، فقطع وصله، وأثار ضغينته، ولم يُبق للصلح موضعًا وسبيلًا، وقد أحسن من قال:

وأعرض عن أشياءَ لو شئتُ قلتُها ... ولو قلتها لم أُبق للصلح موضعَا

فكلٌّ منا يرىٰ في الناس ما لا يرىٰ في نفسه، فلو كان في حال عتابه ومخاصمته لصديقه أظهر كل ما في مكنونه، هل يأمل أن ترجع الصحبة إلىٰ موضعها في يوم من الأيام؟

فإن هذا الخلق يعمل به من أراد قطع صلته بصاحبه، وليس من أراد تقريبها بعد انفلاتها.

وليحذر العاقل من العتاب المفضي إلىٰ القطيعة، فالعاقل يميز، فإن رأىٰ أن هذا الشخص مما يجدي معه العتاب عاتبه، وإن رأىٰ أن هذا مما يفسد عليه صحبته أحجم عنه.

قال إياس بن معاوية: «خرجت في سفر ومعي رجل من الأعراب، فلما كان في بعض المناهل، لقيه ابن عم له، فتعانَقَا وتعاتَبَا، وإلىٰ جانبهما شيخ من الحي فقال لهما: انْعَمَا عَيشًا، إن المعاتبة تبعث التجني، والتجني يبعث المُخاصمة، والمخاصمة تبعث العداوة، ولا خير في شيء ثمرته العداوة».

هذا وإن من الخير للصديق إن رأىٰ من صاحبه شيئًا وهو صديق له ويحبه، أن يذهب إليه مباشرة ويسأله عما في نفسه، ولا يجعل بينهما وسيطًا فيظل يكلم الناس -وإن كانوا أصدقاء- وصاحبه أمامه فلا يسأله حتىٰ يبين له وجهة نظره، لا سيما في هذا الوقت الذي كثر فيه مستشارو السوء وناقصو المروءة، فلعلهم يوقعون بينه وبين صديق يحبه ويألفه.

وقد قال عُمَر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «إذا رزقك الله مودة امرئ فتشبث به».

هذا وإنَّ تَرك مصارحة الصاحب لصاحبه فيما يعاتبه به، مما يزيد التفرق

والشتات ويذهب الألفة، كما أنه من كتم النصيحة والنبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**الدين النصيحة**»(١).

ومن رزق بإخوانٍ فليكن اتساع صدره لهم طبيعته وسجيته، وليعلم أن من طلب صديقًا لا يَزِل، فقد طلب المُحَال، ورام الوصول إلىٰ مرتقىٰ بعيد المنال، وقد قيل: من لا يؤاخي إلا من لا عيب فيه مَلَّ صديقه، ومن لم يرضَ من صديقه إلا بإيثاره علىٰ نفسه دام سخطه، ومن عاتب علىٰ كل ذنب ضاع عتبه وكثر تعبه، ولذا قيل:

إذا كنتَ في كل الأمور مُعَاتِبًا … صديقك لم تلق الذي لا تعاتِبُهْ

وإن أَنتَ لم تشرب مرارًا من القذىٰ … ظَمِئتَ وأي الناس تصفو مَشَارِبُهْ

وقد قال بعض أهل العلم: إذا رأيت من أخيك أمرًا تكرهه، أو خلةً لا تحبها، فلا تقطع حبله، ولا تصرم وده، ولكن دَاوِ جُرحَه، واستُر عورَتَه، وأبقِهِ وابرأ من عمله، وقد قال تعالىٰ لنبيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء:٢١٥-٢١٦]، فلم يأمره بقطعهم؛ وإنما بالبراءة من عملهم السيئ.

❊ ❊ ❊

(١) رواه مسلم (٨٢).

الحياء

الحَياء من أنبل الخلال، وأجمل الخصال، وشاهد علىٰ الإيمان، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحياء شُعبَة من الإيمان**»(١).

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مكارم الأخلاق عشرة: صدق الحديث، وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والمكافأة بالصنيع، وبذل المعروف، وحفظ الذمام للجار، وحفظ الذمام للصاحب، وقرىٰ الضيف، ورأسهن الحياء».

وقد قيل: إنَّ القناعة دليل الأمانة، والأمانة دليل الشكر، والشكر دليل الزيادة، والزيادة دليل بقاء النعمة، والحياء دليل الخير كله.

والوجه المصون بالحياء، كالجوهر المكنون في الوعاء.

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من كسَا بالحياء ثوبَه؛ لم يَرَ الناسُ عَيبَه».

وقال الخوَّاص: «إن العباد عملوا علىٰ أربع منازل: علىٰ الخوف، والرجاء، والتعظيم، والحياء، فأرفعها منزلة الحياء؛ لما أيقنوا أن الله يراهم علىٰ كل حال قالوا: سواء علينا رأيناه أو رآنا، وكان الحاجزُ لهم عن معَاصيه الحياء منه».

وإذا ذهب الحياء حَلَّ البلاء، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن ممَّا أدرك الناس من كلام النبوة الأولىٰ: إذا لم تستح فاصنع ما شِئت**»(٢).

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البخاري (٨)، ومسلم (٥٠).

(٢) رواه البخاري (٣٢٢٤).

التواضع

التواضع سُلَّم الشرف، ومن اتصف به فقد رفع الله قدره، وأعلىٰ بين الخلائق ذكره، قال الله تعالىٰ: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣].

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله**»[١].

وقد أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتواضع؛ لأنه من الأخلاق المحبوبة إليه سبحانه؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر:٨٨].

وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر الناس تواضعًا مع علوِّ قدره، ورفعة منزلته التي لا يدانيها أحدٌ من الخلائق، فقد أتاه رجلٌ فكلَّمَهُ فجعل تُرعَدُ فرائصُه، فقال له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَوِّن عليك، فإني لستُ بمَلِك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكلُ القَدِيد**»[٢].

وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرَقِّع ثوبه، ويخصف نعله، ويكون في مهنة أهله، ولم يكن متكبرًا، ولا مُتجَبرًا، أشد الناس حياء وأكثرهم تواضعًا، وكان إذا حدث بشيء مما آتاه الله تعالىٰ قال: «**ولا فَخر**»[٣].

والتواضع من أفضل العبادات المحبوبة لله رب العالمين.

قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «إنكم تدَعُون أفضل العبَادة؛ التَّواضُع».

(١) رواه مسلم (٤٦٨٩).

(٢) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٨٧٦).

(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٧١).

وقيل ليوسف بن أسباط: ما غاية التواضع؟ قال: أن تخرج من بيتك فلا تلقىٰ أحدًا إلا رأيت أنه خير منك.

وقد قيل: مَن رفع نفسه فوق قدره استجلب مَقتَ الناس.

وقال عدي بن أرطاة لإياس بن معاوية: إنك لسريع المشية، قال: ذلك أبعد من الكبر وأسرع في الحاجة.

وخرج معاوية علىٰ ابن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس؛ فإني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَن أحبَّ أن يتمثل له الناسُ قيامًا فليتبَوَّأ مقعده من النار**»(١).

وقال محمد بن سلام: رأت جاريةٌ للمنصور ثوبَه مرقوعًا، فقالت: خليفةٌ وقميصه مرقوع؟! فقال: ويحك!، أما سمعت ما قال ابن هرمة:

قد يدرك الشرفَ الفَتىٰ ورداؤه ... خَلَق وجيبُ قَميصِه مَرقوعُ

وبلغ مصعبًا عن عريف الأنصار شيءٌ فهمَّ به، فدخل عليه أنس بن مالك، فقال له: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**استوصوا بالأنصار خيرًا** -أو قال: **معروفًا**-، **اقبلوا من مُحسِنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم**»(٢)، فألقىٰ مصعبٌ نفسه عن سريره وألصق خدَّه بالبساط، وقال: أمرُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ الرأس والعين، فتركه.

ولما حج أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ومرَّ بالمدينة، أمر عمر بن عبد العزيز -وكان نائبَ المدينة- أشرافَ المدينة فتلقَّوه، فرحب بهم وأحسن إليهم، ودخل المدينة النبوية، فأُخلي له المسجد النبوي، فلم يبق به أحد سوىٰ سعيد بن المسيب لم يتجاسر أحد أن يخرجه، وإنما عليه ثياب لا تساوي خمسة دراهم، فقالوا له: تَنَحَّ

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٥٧).

(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٥٠٩).

عن المسجد أيها الشيخ، فإن أمير المؤمنين قادم، فقال: والله لا أخرج منه، فدخل الوليد المسجد فجعل يدور فيه يصلي هاهنا وهاهنا، ويدعو الله عَزَّوَجَلَّ.

قال عمر بن عبد العزيز: وجعلت أعدل به عن موضع سعيد خشية أن يراه، فحانت منه التفاتة، فقال: من هذا؟ أهو سعيد بن المسيب؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، ولو علم بمكانك لقام إليك وسلم عليك، فقال الوليد: قد علمتُ حاله، وجعل يدور في المسجد ويتفرج في عمارته ويسألني عن سعيد بن المسيب، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه وإنه، وقصدت موافقته في ذلك، فشرع الوليد يثني عليه بالعلم والدين، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنه ضعيف البصر -وإنما قلت ذلك لأعتذر له-؛ فقال: نحن أحق بالسعي إليه، فجاء فوقف عليه فسلم عليه، فلم يَقُم له سعيد، ثم قال الوليد: كيف الشيخ؟ فقال: بخير والحمد لله، كيف أمير المؤمنين؟ فقال الوليد: بخير والحمد لله وحده، ثم انصرف وهو يقول لعمر بن عبد العزيز: هذا بقية الناس، فقال: أجل يا أمير المؤمنين.

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: كيف أصبحت يا أمير المؤمنين؟ فقال: أصبحت بطيئًا بطينًا، متلوثًا بالخطايا، أتمنىٰ علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

ودخل رجل علىٰ عمر بن عبد العزيز، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ من كان قبلك كانت الخلافة لهم زين، وأنت زين الخلافة، وإنما مثلك يا أمير المؤمنين، كما قال الشاعر:

وإذا الـــدُّر زانَ حُـــسْنَ وجـــوهٍ ... كـــان للـــدرِّ حـــسنُ وجهـــك زِيـــنا

قال: فأعرض عنه عمر.

قال رجاء بن حيوة: سمرت عند عمر بن عبد العزيز ذات ليلة فانطفأ السراج، فقلت: ألا أنبه هذا الغلام يصلحه؟ فقال: لا، دعه ينام، فقلت: أفلا أقوم أصلحه؟ فقال: لا، ليس من مروءة الرجل استخدام ضيفه، ثم قام بنفسه فأصلحه وصبَّ فيه زيتًا، ثم جاء وقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، وجئت وأنا عمر بن عبد العزيز.

ذم الكبر والخيلاء

الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل ويُكسبان الرذائل، وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصح وقبول التأديب.

والكبر يكسب المقت، ويمنع من التآلف، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مِثقال ذَرَّةٍ من كِبر**»[1].

والكبر من الأخلاق المذمومة، ولا يتصف بها إلا من شعر بنقص في نفسه فحاول أن يُخفي ذلك النقص تحت رداء الكبر الذي يرتديه، فإنَّه لا يتكبر إلا وضيع، ولا يتواضع إلا كلُّ رفيع لثقته في نفسه.

قال الأحنف بن قيس: «ما تكبر أحد إلا من ذلة يجدها في نفسه»، وقال: «عجبت لمن جرىٰ في مجرىٰ البول مرتين كيف يتكبر».

وقال قتيبة بن مسلم: من تكبر أعجب برأيه، ومن أعجب برأيه لم يسمع قول نصحائه، ومن اتصف بالإعجاب وتخلق بالاستبداد، كان من الرشد بعيدًا ومن الخذلان قريبًا، ومن تكبر علىٰ عدوه احتقره، ومن احتقر عدوه قل احتراسه منه، ومن قلَّ احتراسه منه كثر عثاره، ولا يسلم من عدوه إلا من كان أحذر من غراب، وقد قيل: ليس لمعجب رأي صائب، ولا لمتكبر صديق، ومن أحبَّ أن يحبه الناس يحبِّبُهم إليه ويقربهم منه، ولما حفظها الراضي، وفهم معناها ارتاح إليها قلبه.

ومرَّ بعض أولاد المُهلب بمالك بن دينار وهو يتبختر في مشيه، فقال له مالك: يا بُنيَّ، لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل بك، فقال: أوما تعرفني؟ قال: أعرفك

---

(١) رواه مسلم (١٣١).

معرفة أكيدة، أَوَّلُك نُطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة، فأرخىٰ الفتىٰ رأسه وكفَّ عما كان عليه.

وقالوا: لا يدوم الملك مع الكبر، وحسبك به من خلق يسلب الرياسة والسيادة، وأعظم من ذلك أن الله تعالىٰ حرم الجنة علىٰ المتكبرين؛ فقال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص:٨٣].

والكبر يوجب المقت، ومن مقته رجاله لم يستقم حاله، وكان أحد الناس غاية في الكبر، وكان لا ينادم أحدًا لتكبره ويقول: إنما ينادمني الفرقدان.

وجاء عن بعض المتكبرين -وقد كان من أقبح الناس كبرًا- أنه قال لغلامه: اسقني ماء، فقال: نعم، فقال: إنما يقول نعم من يقدر أن يقول لا، اصفعوه، فصُفع، ودعا زراعًا فكلمه، فلما فرغ دعا بماء فتمضمض به استقذارًا لمخاطبته.

وفي وصف المتكبر يقال: فلان وضع نفسه في درجة لو سقط منها لتكسر.

ومن المشهورين بالكبر الأكاسرة، فقد كانوا لا يعدون الناس إلا عبيدًا، وأنفسهم إلا أربابًا.

❊ ❊ ❊

الفخر والتفاضل في الشرف والسؤدد

لا زالت العرب تتفاخر بجميل أفعالها وزين خصالها، فتجد كلَّ فريق من الخلق يفخر بصنائع سلفه؛ لما لهم من الفضل في خلود ذكره ومدح فعله.

لما ولَّىٰ عبدُ الملك بن مروان ابنَه الوليدَ علىٰ دمشق، كتب له بذلك قائلًا: يا بُنَيَّ، إنَّ لأبيك صنائع قد رسخت في المجد أصولها، وأورقت في العلا فروعها، وانتشر عند الناس ذكرها، فلا تهدِمَنَّ ما قد شرف لك بناؤه، وأضاء لك ضياؤه، فكفىٰ من سوءِ رأيِ المرء وقبيحِ أثره وضعةِ نفسه أن يهدم ما قد شُيِّد له من فضيلة البناء ورفيع الثناء، وإياك وأعراض الأحرار، فإنَّ الحرَّ لا يرضيه من عرضه عوض، واجتنب العقوبة فإنها ثأرٌ مطلوب وعار باقٍ، ولا يمنعك من ذي فضل سبَقَت إليه صنيعة غيرك أن تصطنعه، فإنَّ صنيعة ذي الفضل شكرٌ تستوجبه وكنزٌ تدخره.

واستعمل أهل الفضل دون أهل الهون، ولا تعزل إلا عن عجزٍ أو خيانة، وليكن جلساؤك غير أسنانك، فإنَّ الشباب شعبةٌ من جنون، وإن نازعتك نفسك علىٰ أخذ شيءٍ من المال، فلا يكن خصمك إلا بيت المال، وليكن رسولك فيما بيني وبينك من يفهم عني وعنك، وإذا كتبت كتابًا فأكثر النظر فيه؛ فإنَّ كتاب الرجل موضع عقله.

ألا وإنَّ أعظم ما ينبغي للمرء أن يفخر به: انتسابه للإسلام وقيامه بالعمل مريدًا بذلك وجه الله عَزَّوَجَلَّ، فهو الفخر الذي بعده عظيم الأجر وحسن العاقبة.

ومن المُفَاخرة بالفضائل: ما جاء عن أبي بكر الهذلي قال: سايرت المنصور فعرض لنا رجل علىٰ ناقة حمراء تطوي الفلاة وعليه جبة حمراء وعمامة عدنية، وفي يده سوط يكاد يمس الأرض، فلما رآه المنصور أمرني بإحضاره، فدعوته وسألته عن

نسبه وبلاده وعن قومه وعشيرته وعن ولاة الصدقة، فأحسن الجواب، فأعجبه ما رأىٰ منه، فقال: أنشدني شعرًا، فأنشده شعر الأوس بن حجر وغيره من الشعراء من بني عمرو بن تميم، وحدثه حتىٰ أتىٰ علىٰ بيت شعر لطريف بن تميم وهو قوله:

إن الأمور إذا أوردتها صدرت ... إن الأمور لها ورد وإصدارُ

فقال: ويحك ما كان طريف فيكم حيث قال هذا البيت؟ قال: كان أثقل العرب علىٰ عدوه وطأة، وأقراهم لضيفه، وأحوطهم من وراء جاره، اجتمعت العرب بعكاظ فكلهم أقروا له بهذه الخلال، فقال له: والله يا أخا بني تميم، لقد أحسنت إذ وصفت صاحبك، ولكني أحق ببيته منه ومن شعر أبي الطحان:

وإني من القوم الذين همُ همُ ... إذا مات منهم سيدٌ قام صاحبُه

نجومُ سماءٍ كلما غاب كوكبٌ ... بدا كوكب تأوي إليه كواكبُه

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم ... دُجىٰ الليلِ حتىٰ نظَّم الجزع ثاقبُه

وما زال فيهم حيث كان مُسَودًا ... تسير المنايا حيث سارت ركائبُه

وتفاخر رجلان علىٰ عهد موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقال أحدهما: أنا فلان بنُ فلان حتىٰ عد تسعة آباء مشركين، فقال الآخر: أنا ابنُ فلان ولولا أنه مسلم ما ذكرته، فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أما الذي عد تسعة آباء مشركين فحقٌّ علىٰ الله أن يجعله عاشرهم في النار، والذي انتسب إلىٰ أبٍ مسلم فحقٌّ علىٰ الله أن يجعله مع أبيه المسلم في الجنة.

قال سلمان الفارسي:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيسٍ أو تميمِ

وتفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك، فقال الفرزدق: أنا ابن محيي الموتىٰ، فأنكر سليمان قوله، فقال: يا أمير المؤمنين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا

﴿فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المائدة:٣٢]، وجدي فدىٰ الموءودات فاستحياهن، فقال سليمان: إنك مع شعرك لفقيه، وكان صعصعة جد الفرزدق أول من فدىٰ الموءودات.

وقال السموأل بن عادياء:

إذا المرء لم يدنَس مِن اللؤم عرضُه فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلُ
وإن هو لم يحمل علىٰ النفس ضَيمَهَا فليس إلىٰ حسنِ الثناء سبيلُ
تعيرنا أنا قليلٌ عديدُنا فقلت لها إن الكرامَ قليلُ
وما ضرنا أنا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليلُ

وأشد الناس شناعةً: مَن لم يكن علىٰ ما كان عليه أهله من جميل الخصال، قال أحمد بن سهل: الرجال ثلاثة: سابق ولاحق وماحق، فالسابق: الذي سبق بفضله، واللاحق: الذي لحق بأبيه في شرفه، والماحق: الذي محق شرف آبائه.

وقيل: إن عائشة بنت عثمان كفَلَت أبا الزناد صاحب الحديث، وأشعب الطماع وربتهما، قال أشعب: فكنت أَسفُل وكان يعلو حتىٰ بلغت أنا وهو هاتين الغايتين.

وحج أحد العرب بامرأته، وكانت شابة جميلة فعرض لها عمر بن أبي ربيعة، فغازلها، فأخبرت زوجها، فأتاه فقال:

وإني لينهاني عن الجهل والخنا وعن شَتمِ أقوامٍ خلائقُ أربعُ
حياءٌ وإسلامٌ وتقوىٰ وإنني كريمٌ ومثلي من يَضُر وينفعُ
فشتان ما بيني وبينك إنني علىٰ كلِّ حالٍ أستقيمُ وتضلعُ

قيل لقيس بن عاصم: بم سُدتَ قومَك؟ قال: لم أخاصم أحدًا إلا تركت للصلح موضعًا.

وقال سعيد بن العاص: «ما شاتَمتُ رجلًا مذ كنت رجلًا، لأني لم أشاتم إلا أحد

رجلين: إما كريم فأنا أحقُّ أن أُجلَّه، وإما لئيمٌ فأنا أولىٰ أن أرفعَ نفسي عنه».

وقالوا: من صفة السيد أن يكون يملأ العينَ جمالًا، والسمعَ مقالًا.

وقدم وفدٌ من العرب علىٰ معاوية وفيهم الأحنف بن قيس، فقال الحاجب: إن أمير المؤمنين يعزم عليكم ألا يتكلم منكم أحدٌ إلا لنفسه، فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لولا عزمُ أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفةً ردفت، ونازلةً نزلت، ونائبةً نابت، الكلُّ بهم حاجة إلىٰ المعروف من أمير المؤمنين، فقال له معاوية: حسبك يا أبا بحر، فقد كفيت الشاهد والغائب.

وقال رجل للأحنف: بِمَ سُدتَ قَومَك، وما أنت بأشرفهم بيتًا، ولا أصبحهم وجهًا، ولا أحسنهم خلقًا؟ فقال: بخلاف ما فيك، قال: وما ذاك؟ قال: تركي من أمرك ما لا يعنيني، كما عناك من أمري ما لا يعنيك.

وقيل: السيد من يكون للأولياء كالغيث الغادي، وعلىٰ الأعداء كالليث العادي.

وكان سبب ارتفاع عرابة الأوسي وسؤدده أنه قدم من سفر، فجمعه والشماخ بن ضرار المزني الطريق فتحادثا، فقال له عرابة: ما الذي أقدمك المدينة يا شماخ؟ قال: قدمتها لأمتار منها، فملأ له عرابة رواحله برًّا وتمرًا وأتحفه بتحف غير ذلك، فأنشد يقول:

رأيت عرابة الأوسي يسمو ... إلىٰ الخيرات منقطع القرينِ

إذا ما راية رُفعت بمجدٍ ... تلقاها عرابةُ باليمينِ

وعلو الهمة أصل الرياسة، وممن علت همته وشرفُت نفسه عَمارةُ بنُ حمزة، قيل: إنه دخل يومًا علىٰ المنصور، وقعد في مجلسه، فقام رجل، وقال: مظلوم يا أمير المؤمنين، قال: من ظلمك؟ قال: عمارة بن حمزة غصبني ضيعتي، فقال المنصور: يا عمارة قم، فاقعد مع خصمك، فقال: ما هو لي بخصم، إن كانت الضيعة له، فلست أنازعه فيها، وإن كانت لي فقد وهبتها له، ولا أقوم من مقام شرفني به أمير المؤمنين

ورفعني، وأقعد في أدنىٰ منه لأجل ضيعة.

وتحدث الخليفةُ السفَّاح وأمُّ سلمة زوجه يومًا في نزاهة نفس عمارة، فقالت له: ادع به وأنا أهب له سبحتي هذه، فإن ثمنها خمسون ألف دينار، فإن هو قبلها علمنا أنه غير كريم النفس، فوجه إليه فحضر، فحادثته ساعة، ثم رمت إليه بالسبحة، وقالت: هي من الطرف وهي لك، فجعلها عمارة بين يديه، ثم قام وتركها، فقالت: لعله نسيها، فبعثت بها إليه مع خادم، فقال للخادم: هي لك، فرجع الخادم فقال: قد وهبها لي، فأعطت أم سلمة للخادم ألف دينار واستعادتها منه.

وأهدىٰ عبيد الله بن السري إلىٰ عبد الله بن طاهر لما ولي مصر مائة وصيف، مع كل وصيف ألف دينار، ووجه إليه بذلك ليلًا، فردَّه وكتب إليه: لو قبلت هديتك ليلًا لقبلتها نهارًا، وما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون.

ومن الشرف والرياسة: حفظ الجوار وحماية الذمار، وكانت العرب ترىٰ ذلك دينًا تدعو إليه، وحقًّا واجبًا تحافظ عليه.

وكان أبو سفيان بن حرب إذا نزل به جار قال: يا هذا، إنك اخترتني جارًا، واخترت داري دارًا، فجناية يدك عليَّ دونك، فاحتكم حكم الصبي علىٰ أهله.

وذُكر أن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة فسجنه وعذبه واستأصل موجوده، فتوصَّل يزيد بحسن تلطفه وأرغب السجان واستماله، وهرب هو والسجان، وقصد الشام إلىٰ سليمان بن عبد الملك بن مروان، وكان الخليفة في ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك.

فلما وصل يزيد بن المهلب إلىٰ سليمان بن عبد الملك أكرمه وأحسن إليه وأقامه عنده، فكتب الحجاج إلىٰ الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن وأنه عند سليمان بن عبد الملك أخِ أمير المؤمنين ووليِّ عهد المسلمين، وأن أمير المؤمنين أعلىٰ رأيًا، فكتب الوليد إلىٰ أخيه سليمان بذلك، فكتب سليمان إلىٰ أخيه يقول: يا أمير المؤمنين، إني ما أجرت يزيد بن المهلب إلا لأنه هو وأبوه وإخوته من صنائعنا

قديمًا وحديثًا، ولم أجر عدوًّا لأمير المؤمنين، وقد كان الحجاج قصده وعذبه وأغرمه أربعة آلاف ألف درهم ظلمًا، ثم طالبه بعدها بثلاثة آلاف ألف درهم، وقد صار إليَّ واستجار بي فأجرتُه، وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم، فإن رأىٰ أمير المؤمنين ألا يخزيني في ضيفي فليفعل، فإنه أهل الفضل والكرم.

فكتب إليه الوليد: إنه لا بُد أن ترسل إليَّ يزيد مغلولًا مقيدًا، فلما ورد ذلك علىٰ سليمان أحضر ولده أيوب فقيَّده ودعا يزيد بن المهلب فقيده، ثم شد قيد هذا إلىٰ قيد هذا بسلسلة وغلهما جميعًا بغلين وأرسلهما إلىٰ أخيه الوليد، وكتب إليه: أما بعد، يا أمير المؤمنين، فقد وجهت إليك يزيد وابنَ أخيك أيوب بن سليمان، ولقد هممت أن أكون ثالثهما، فإن هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد، فبالله عليك ابدأ بأيوب من قبله، ثم اجعل يزيد ثانيًا، واجعلني إذا شئت ثالثًا، والسلام.

فلما دخل يزيد بن المهلب وأيوب بن سليمان في سلسلة واحدة، أطرق الوليد استحياء وقال: لقد أسأنا إلىٰ أبي أيوب إذ بلَغْنا به هذا المبلغ، فأخذ يزيد ليتكلم ويحتج لنفسه، فقال له الوليد: ما يحتاج إلىٰ كلام، فقد قبلنا عذرك وعلمنا ظلم الحجاج، ثم إنه أحضر حدادًا وأزال عنهما الحديد وأحسن إليهما ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين ألف درهم، ووصل يزيد بن المهلب بعشرين ألف درهم، وردَّهما إلىٰ سليمان، وكتب كتابًا إلىٰ الحجاج يقول له: لا سبيل لك علىٰ يزيد بن المهلب فإياك أن تعاودني فيه بعد اليوم، فسار يزيد إلىٰ سليمان بن عبد الملك وأقام عنده في أعلىٰ المراتب وأرفع المنازل.

وكان جعفر بن أبي طالب يقول لأبيه: يا أبت، إني لأستحي أن أَطعَم طعامًا وجيراني لا يقدرون علىٰ مثله، فكان أبوه يقول: إني لأرجو أن يكون فيك خلفٌ من عبد المطلب.

وسقط الجرادُ قريبًا من بيت بعض العرب، فجاء أهل الحي فقالوا: نريد جارك، فقال: أما وقد جعلتموه جاري فواللهِ لا تصلون إليه، وأجاره حتىٰ طار؛ فسُمِّي: مُجِير الجراد.

ومن أجمل حكايات الفخر والسؤدد: ما حدث في سنة سبعمائة من الهجرة، حيث وصل إلىٰ القاهرة وزير ملك المغرب يريد الحج، واجتمع بالسلطان وبالأمير سلار نائب السلطنة وبالأمير ركن الدين بيبرس، فقابلوه بالإكرام وأنعموا عليه واحترموه، فلما كان في بعض الأيام جلس الوزير المغربي المذكور بباب القلعة عند بيبرس وسلار، فحضر بعض كُتَّاب النصارىٰ، فقام إليه المغربي يتوهم أنه مسلم، ثم ظهر له أنه نصراني!

فقامت قيامته، وقام من وقته ودخل إلىٰ السلطان الناصر محمد، وتحدث معه في أمر النصارىٰ واليهود، وأنهم عندهم في بلادهم في غاية الذل والهوان، وأنهم لا يمكنونهم من ركوب الخيل، ولا من استخدامهم في الجهات السلطانية والديوانية، وأنكر علىٰ نصارىٰ ديار مصر ويهودها كونهم يلبسون أفخر الثياب ويركبون البغال والخيل، وأنهم يستخدمونهم في أجلِّ الجهات ويحكمونهم في رقاب المسلمين، وذكر أن عهد ذمتهم قد انقضىٰ من الهجرة النبوية، وذكر كلامًا كثيرًا من هذا النوع.

فأثَّر كلامه عند القلوب النيرة من أهل الدولة، وحصل له قبول من الخاص والعام بسبب هذا الكلام، وقام بنصرته الأمير ركن الدين بيبرس وجماعة كثيرة من الأمراء الذين وافقوه علىٰ ذلك، ورأوا أن في هذا الأمر مصلحة كبيرة لإظهار شعائر الإسلام.

فلما كان شهر رجب جمعوا النصارىٰ واليهود ورسَّموا لهم ألا يُستخدموا في الجهات السلطانية ولا عند الأمراء، وأن يغيروا عمائمهم فيلبس النصارىٰ عمائم زرقًا وزنانيرهم مشدودة في أوساطهم، وأن اليهود يلبسون عمائم صفرًا، فسعىٰ الملتان عند جميع أمراء الدولة وأعيانها، وساعدهم أعيان القبط وبذلوا الأموال الكثيرة الخارجة عن الحد للسلطان والأمراء علىٰ أن يُعفَوا من ذلك، فلم يقبل منهم شيئًا.

وشدد عليهم الأمير بيبرس رَحِمَهُ ٱللَّهُ غاية التشديد، فإنه هو الذي كان القائم في

هذا الأمر -عفا الله تعالىٰ عنه وأسكنه الجنة بما فعله- فإنه رفع الإسلام بهذه الفعلة، وخفض أهل المِلَّتَيْن بعد أن وُعِد بأموال جمَّة فلم يفعل.

فرحم الله ذلك الزمان وأهله، ما كان أعلىٰ هممهم، وأشبع نفوسهم!

وما أحسن قول المتنبي في وصف مثله:

أتىٰ الزمان بنوه في شبيبته فسرهم وأتيناه علىٰ الهرَمِ

ثم رسم السلطان الملك الناصر محمد بغلق الكنائس بمصر والقاهرة، فَضُرِب علىٰ كل باب منها دفوف ومسامير، وأصبح يوم الثاني والعشرين من شهر رجب المبارك من سنة سبعمائة، وقد لبس اليهود عمائم صفرًا، والنصارىٰ عمائم زرقًا، وإذا ركب أحد منهم بهيمة يكف إحدىٰ رجليه، وأُعفوا من الخدمة السلطانية، وكذلك من عند الأمراء، وأسلم لذلك جماعة كثيرة من النصارىٰ، منهم: أمين الملك عبد الله بن الغنام، مستوفي الصحبة وغيره.

ثم رسم السلطان أن يكتب بذلك في جميع بلاده من دنقلة إلىٰ الفرات، فأما أهل الإسكندرية لما وصل إليهم المرسوم سارعوا إلىٰ خراب كنيستين عندهم، وذكروا أنهما مستجدتان في عهد الإسلام.

ثم داروا إلىٰ دورهم فما وجدوه أعلىٰ علىٰ ما جاورها من دور المسلمين هدموه، وكل من كان جاور مسلمًا في حانوت أنزلوا مصطبة حانوته بحيث يكون المسلم أرفع منه، وفعلوا أشياء كثيرة من هذا، وأقاموا شعار الإسلام كما ينبغي علىٰ العادة القديمة، ووقع ذلك بسائر الأقطار لا سيَّما أهل دمشق، فإنهم أيضًا أمعنوا في ذلك، وعملت الشعراء في هذا المعنىٰ عدة مقاطيع شعر، ومما قاله الشيخ شمس الدين الطيبي:

تعجبوا للنصارىٰ واليهود معًا والسامريين لما عمموا الخرقا

وسأل رجل جريرًا: من أشعر الناس؟ فأخذ بيده وأدخله علىٰ أبيه، وإذا هو يرتضع من ثدي عنز، فاستدعاه فنهض واللبن يسيل علىٰ لحيته، فقال جرير للذي

سأله: أتبصر هذا؟ قال: نعم، قال: أتعرفه؟ قال: لا، قال: هذا أبي، وإنما يشرب من ضرع العنز لئلَّا يحلبها فيسمع جيرانه حس الحلب فيطلبوا منه لبنًا، فأشعر الناس من فاخر بهذا ثمانين شاعرًا فغلبهم.

وخطب خالد القسري يومًا بواسط، فقال: يا أيها الناس، تنافسوا في المكارم، وسارعوا إلىٰ المغانم، واشتروا الحمد بالجود، ولا تكتسبوا بالمطل ذمًّا، ولا تعتدوا بمعروف لم تعجِّلوه، ومهما يكن لأحد منكم نعمة عند أحد لم يبلغ شكرها، فالله أحسن له جزاء، وأجزل عطاء، واعلموا أن حوائج الناس إليكم نِعَم، فلا تملوها فتحول نقمًا، فإنَّ أفضل المال ما أكسب أجرًا وأورث ذكرًا، فلو رأيتم المعروف لرأيتموه رجلًا حسنًا جميلًا يَسُر الناظرين، ويفوق العالمين، ولو رأيتم البخل لرأيتموه رجلًا مشوهًا قبيحًا تنفر منه القلوب، وتغض دونه الأبصار، إنه من جاد ساد، ومن بخل ذل، وأكرم الناس من أعطىٰ من لا يرجوه، ومن عفا عن قدرة، وأوصل الناس من وصل من قطعه، ومن لم يُطِب حرثه لم يزك نبتُه، والفروع عند مغارسها تنمو، وبأصولها تسمو.

وورَدَ صعصعة بن صوحان علىٰ علي بن أبي طالب من البصرة، فسأله عن ابن عباس -وكان أميرًا عليها- فقال صعصعة: يا أمير المؤمنين، إنه آخذ بثلاث وتارك لثلاث، آخذٌ بقلوب الرجال إذا حدَّث، وبحسن الاستماع إذا حُدِّث، وبأيسر الأمرين إذا خُولِف، وترك المراء، ومقارنة اللئيم، وما يُعتَذر منه.

وقال سعد بن أبي وقاص: «ما رأيتُ أحدًا أحضر فهمًا، ولا ألب لبًّا، ولا أكثر علمًا، ولا أوسع حلمًا من ابن عباس، ولقد رأيت عمر يدعوه للمعضلات، ثم يقول: عندك قد جاءتك معضلة، ثم لا يجاوز قوله، وإنَّ حوله لَأهلُ بدر من المهاجرين والأنصار».

ولمَّا بلغ جابرَ بن عبد الله موتُ ابن عباس، صفَّق بإحدىٰ يديه علىٰ الأخرىٰ، وقال:

«مات اليوم أعلم الناس وأحلم الناس، وقد أصيبت به هذه الأمة إصابةً لا ترتق».

وقال الشعبي: «ركب زيد بن ثابت فأخذ ابن عباس بركابه، فقال: لا تفعل يا ابن عم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا».

وقال عروة بن الزبير: «ما رأيت مثل ابن عباس قط».

وقال عطاء: «ما رأيتُ مجلسًا أكرم من مجلس ابن عباس، أكثر فقهًا، ولا أعظم هيبةً، أصحاب القرآن يسألونه، وأصحاب العربية يسألونه، وأصحاب الشعر عنه يسألونه، فكلهم يصدر في وادٍ واسع».

وقال ليث بن أبي سليم: «قلت لطاوس: لم لزمت هذا الغلام -يعني: ابن عباس- وتركت الأكابر من الصحابة؟ فقال: إني رأيت سبعين من الصحابة إذا تدارَءُوا في شيء صاروا إلىٰ قوله».

وقال مجاهد: «كان ابن عباس أمدهم قامة، وأعظمهم جفنة، وأوسعهم علمًا»، **وقال أيضًا**: «ما رأيت أحدًا قط أعرب لسانًا من ابن عباس».

وعن عمرو بن دينار قال: «ما رأيت مجلسًا قط أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس، الحلال والحرام، وتفسير القرآن، والعربية والشعر، والطعام».

وعن مسروق قال: «كنت إذا رأيت ابن عباس قلت: أجمل الناس، فإذا نطق قلت: أفصح الناس، فإذا تحدث قلت: أعلم الناس».

وكان الأحنف بن قيس سيدًا شريفًا مطاعًا، عليم اللسان، وكان يُضرب بحلمه المثل، وقد انتهىٰ إليه الحلم والسؤدد، وله أخبار في حلمه سارت بها الركبان، قال عنه عمر بن الخطاب: هو مؤمن عليم اللسان، وقال الحسن البصري: ما رأيت شريفَ قوم أفضل منه.

وكان الأحنفُ سيدَ قومه، وكان أعورَ قد ذهبت عينه بالجدري، وكان أحنف الرجلين، دميمًا قصيرًا، قيل: إنه خطب عند عمر فأعجبه منطقه، وقال يعقوب بن

سفيان: «كان الأحنف جوادًا حليمًا، وكان رجلًا صالحًا».

قيل له: بأيِّ شيء سودك قومك؟ قال: لو عاب الماءَ الناسُ ما شربته.

وكان الأحنف لا يحسد، ولا يجهل، ولا يدفع الحق، وقال: إن من السؤدد الصبر علىٰ الذل، وكفىٰ بالحلم ناصرًا.

وقال: «ما نازعني أحدٌ إلا أخذت من أمري إحدىٰ ثلاث: إن كان فوقي عرفتُ قدره، وإن كان دوني رفعتُ نفسي عنه، وإن كان مثلي تفضَّلت».

وقال: «ما ذكرت أحدًا بسوء بعد أن يقوم من عندي، ولا سمعت كلمة تسوؤني إلا طأطأت رأسي، لما هو أعظم منها».

وأغلظ له رجل في الكلام، فلما وصل إلىٰ نادي قومه وقف، وقال: إن كان عندك شيء آخر فقل، لئلَّا يسمعك قومي فيؤذوك.

وقيل: إن عبد الملك بن مروان كتب إليه يدعوه لنفسه، ويعده بولاية الشام، فقال: يدعوني ابن مروان إلىٰ ولاية الشام! واللهِ وددت أنَّ بيني وبينهم جبلًا من نار.

وكان زياد بن أبيه يقول: قد بلغ الأحنف من السؤدد والشرف ما لا ينفعه معه ولاية، ولا يضره عزل، وإنه ليفر من الشرف وهو يتبعه، قال له رجل: بِمَ سُدتَ قومك؟ قال: بتركي من أمرك ما لا يعنيني، كما عناك من أمري ما لا يعنيك.

وكان يقول: «أحي معروفك بإماتة ذكره».

وقال: «عجبت لمن يجري في مجرىٰ البول مرتين كيف يتكبر؟!».

وقال: «ما أتيت باب أحد من هؤلاء إلا أن أدعىٰ، ولا دخلت بين اثنين إلا أن يُدخلاني بينهما».

وكان يقول في دعائه: «اللهم إن تعذبني فأنا أهل لذلك، وإن تغفر لي فأنت أهل لذلك».

وكان زيادُ بن أبيه يقرب الأحنف بن قيس ويُعظِّمه ويُدنيه، فلما مات زياد وولي

ابنه عبيد الله لم يرفع به رأسًا، فتأخرت عنده منزلته، لقبح منظره، وصار يقدم عليه من هو دونه، فلما وفد برؤساء أهل العراق علىٰ معاوية، أدخلهم عليه علىٰ مراتبهم عنده، فكان الأحنف آخر من أدخله عليه، فلما رآه معاوية أجلَّه وعظمه، وأدناه وأكرمه، وأجلسه معه علىٰ الفراش، ثم أقبل عليه يحادثه دونهم.

ثم شرع الحاضرون في الثناء علىٰ عبيد الله بن زياد، والأحنف ساكت، فقال له معاوية: ما لك لا تتكلم؟ قال: إن تكلمت خالفتهم، فقال معاوية: اشهدوا عليَّ أني قد عزلت عبيد الله عن العراق، ثم قال لهم: انظروا لكم نائبًا عليكم، وأجَّلهم ثلاثة أيام، فاختلفوا بينهم اختلافًا كثيرًا، ولم يذكر أحد منهم بعد ذلك عبيد الله، ولا طلبه أحد منهم، ولم يتكلم الأحنف في هذه الأيام في ذلك كلمة واحدة مع أحد منهم.

فلما اجتمعوا بعد ثلاث أفاضوا في ذلك، وكثر اللغط وارتفعت الأصوات، والأحنفُ ساكت، فقال له معاوية: تكلم، فقال له: إن كنت تريد أن تولِّي فيها أحدًا من أهل بيتك فليس فيهم مَن هو مثل عبيد الله فإنه رجل حازم، ولا يسدُّ أحدٌ منهم مسدَّه، وإن كنت تريد غيره فأنت أعلم بنوابك.

فردَّه معاوية إلىٰ الولاية، ثم قال لعُبيد الله بينه وبينه: كيف جهلتَ مثل الأحنف؟ إنه عزلك وولاك وهو ساكت، فعظمت منزلة الأحنف بعد ذلك عند ابن زياد.

وكان عبد الله بن صفوان الجمحي سيدًا شريفًا مطاعًا، وكان حليمًا يحتمل الأذىٰ، لو سبه عبد أسود ما استنكف عنه، وكان كريمًا جدًّا لم يقصده أحدٌ في شيء فرده خائبًا، ولا سمع بأرض منقطعة إلا حفر فيها بئرًا أو عمل فيها بركة، ولا عقبة إلا سهلها.

وقيل: إن المهلب بن أبي صفرة قدم علىٰ ابن الزبير من العراق، فأطال الخلوة معه، فجاء ابن صفوان فقال: مَن هذا الذي شغلك منذ اليوم؟ قال: هذا سيد العرب من أهل العراق، فقال: ينبغي أن يكون المهلب.

فقال المهلب لابن الزبير: ومَن هذا الذي يسأل عني يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا

سيد قريش بمكة، فقال: ينبغي أن يكون عبد الله بن صفوان.

وقال الأوزاعي: «كنا قبل اليوم نضحك ونلعب، أما إذ صرنا أئمة يقتدىٰ بنا فينبغي أن نتحفظ».

❊ ❊ ❊

الوفاء

الوفاء من شيم النفوس الشريفة، والأخلاق الكريمة، والخلال الحميدة، يَعظُم صاحبه في العيون، وتصدق فيه خطرات الظنون، قال الله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ [الرعد:٢٠].

وقال سبحانه: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [النحل:٩١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٤].

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»[1].

إن الحديث عن الوفاء حديث شيِّق وجميل، يتصف بعذوبة معانيه، وجميل مبانيه، لما يتصل به من محاسن الآداب التي تنم عن رقة قلوب من اتصفوا به.

وما أحوجنا أن نتصف به في هذه الأزمان التي افتقدت رونقها الصافي، وغشاها القتر الذي أخفىٰ جميل معالمها ولطيف محاسنها.

وكم هي تلك المآثر التي تبين شرف هذا الأدب الرفيع، حتىٰ ضُربت بأصحابه الأمثال، وسار بذكرهم الركبان عبر الليالي والأزمان.

وكم أعلىٰ الوفاءُ رتبةَ من اعتقله بيديه، وأغلىٰ قيمةَ من جعله نصب عينيه، واستنطق الأفواهَ لفاعله بالثناء عليه، واستنطق الأيدي المقبوضةَ عنه بالإحسان إليه.

وقد نقل في الوفاء من عجائب الوقائع وغرائب البدائع ما يطرب السامع ويشنف

(١) رواه البخاري (٣٢)، ومسلم (٨٩).

المسامع، ومن ذلك ما ذُكر عن النعمان بن المنذر أنه كان له يومان، يوم بؤسٍ من صادفه فيه قتله وأرداه، ويوم نعيمٍ مَن لقيه فيه أحسن إليه وأغناه، وذات يوم خرج النعمان للصيد علىٰ فرسه، وقد انفرد عن أصحابه فأمطرت عليه السماء، وحال ذلك بينه وبين العودة إلىٰ رفاقه، فطلب ملجأً يلجأ إليه، فوجد بناءً فإذا فيه رجل من طيئ ومعه امرأةٌ له، فقال لهما: هل من مأوىٰ، فقال الرجل: نعم، فخرج إليه فأنزله ولم يكن للطائي غير شاة، وهو لا يعرف النعمان، فقال لامرأته: أرىٰ رجلًا ذا هيئة، وما أحراه أن يكون سيدًا شريفًا، فما الحيلة؟

قالت: عندي شيء من طحين كنت ادخرته، فاذبح الشاة لأتخذ من الطحين ملة، فأخرجت المرأة الدقيق فخبزت منه ملة، وقام الطائي إلىٰ شاته فاحتلبها ثم ذبحها، وأطعمه من لحمها، وسقاه من لبنها، وجعل يحدثه بقية ليلته، فلما أصبح النعمان لبس ثيابه وركب فرسه ثم قال: يا أخا طيئ، اطلب ثوابك، أنا الملك النعمان، قال: أفعل إن شاء الله.

ثم لحق الخيل فمضىٰ نحو الحيرة، ومكث الطائي بعد ذلك زمانًا حتىٰ أصابته نكبة وجَهد وساءت حاله، فقالت له امرأته: لو أتيت الملك لأحسن إليك. فأقبل حتىٰ انتهىٰ إلىٰ الحيرة فوافق يوم بؤس النعمان، فإذا هو واقفٌ في خيله في السلاح، فلما نظر إليه النعمان عرفه وساءه مكانه فقال له: أفلا جئت في غير هذا اليوم؟ قال: أبيت اللعن، وما كان علمي بهذا اليوم.

قال: والله لو خرج ابني في هذا اليوم لم أجد بُدًّا من قتله، فاطلب حاجتك من الدنيا، وسل ما بدا لك فإنك مقتول، قال: أبيت اللعن، وما أصنع بالدنيا بعد نفسي؟!

فقال النعمان: إنه لا سبيل إليها، قال: فإن كان لا بُد فأمهلني حتىٰ ألمَّ بأهلي فأوصي إليهم وأهيئ حالهم، ثم أنصرف إليك.

قال النعمان: فأقم لي كفيلًا إلىٰ حين رجوعك، فالتفت الطائي إلىٰ شريك بن عمرو من بني شيبان، وهو واقف بجنب النعمان فقال له:

يـــا شـــريك بـــن عـــدي ... مـــا مـــن المـــوت انهـــزامْ
مَـــن لأطفـــالٍ ضـــعافٍ ... عُدِمـــوا طعـــمَ الطعـــامْ
يـــا أخـــا كـــل كـــريم ... أنـــت مـــن قـــوم كـــرامْ
يـــا أخـــا الـــنعمان جُـــد لـــي ... بـــضمانٍ والتـــزامْ
ولـــك اللَّـــهُ بأنـــي ... راجـــعٌ قـــبل الظـــلامْ

فقال شريك بن عدي: أصلح الله الملك، عَلَيَّ ضمانُه، فأمر النعمان للطائي بخمسمائة ناقة، فمضىٰ الطائي إلىٰ أهله، وجعل الأجل حولًا، من يومه ذلك إلىٰ مثله من العام المقبل.

فلما حال الحول، أصبح النعمان، وركب في خيله ورَجله متسلحًا كما كان يفعل، وأخرج معه شُريكًا وأمر بقتله، فقال له وزراؤه: ليس لك أن تقتله حتىٰ يستوفي يومه، فتركه، وكان النعمان يشتهي أن يقتل شريكًا ليُفلت الطائي من القتل.

فلما كادت الشمسُ أن تغرب وقَرُب المساء، قال النعمان لشريك: قد جاء وقتك فقم تأهب للقتل، فقال شريك: هذا شخص قد لاح مقبلًا وأرجو أن يكون الطائي، فإن لم يكن فَأَمر الملك ممتثل، فبينما هم كذلك وإذ بالطائي قد اشتد عَدوُه في سيره مسرعًا حتىٰ وصل، فقال: خشيتُ أن ينقضيَ النهارُ قبل وصولي، ثم وقف قائمًا وقال: أيها الملك، مُر بأمرك، فقال له النعمان: ما حملك علىٰ الرجوع بعد إفلاتك من القتل؟ قال: الوفاء.

فأطرق النعمان ثم رفع رأسه وقال: والله ما رأيت أعجب منكما، أما أنت يا طائي فما تَرَكتَ لأحدٍ في الوفاء مقامًا يقوم فيه ولا ذكرًا يفتخر به، وأما أنت يا شريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها في الكرماء، ووالله ما أدري أيهما أوفىٰ وأكرم: أهذا الذي

نجا من القتل فعاد أم هذا الذي ضمنه؟ واللهِ لا أكون أَلأَم الثلاثة، ألا وإني قد رفعتُ يوم بؤسي عن الناس، ونقضتُ عادتي كرامة لوفاء الطائي وكرم شريك، فقال الطائي:

ما كنت أُخلِف ظنَّه بعد الذي ... أسدىٰ إليَّ من الفِعال الخالي

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي ... فعددتُ قولهمُ من الإضلالِ

إني امرؤٌ مني الوفاءُ سجيةٌ ... وفعال كلِّ مهذبٍ مفضالِ

فأحسن إليه النعمان ووصله بما أغناه، وأعاده مكرمًا إلىٰ أهله.

ومما أسفرت عنه وجوه الأوراق، وأخبرت به الثقات في الآفاق، وظهرت روايته بالشام والعراق، وضرب به الأمثال في الوفاء بالاتفاق: حديث السموأل بن عاديا، حيث إنَّ امرأ القيس الكندي لما أراد المضي إلىٰ قيصر ملك الروم أودع عند السموأل دروعًا وسلاحًا وأمتعة تساوي من المال جملة كثيرة، فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموأل، فقال السموأل: لا أدفعها إلا لمستحقها، وأبىٰ أن يدفع إليه منها شيئًا، فعاوده، فأبىٰ وقال: لا أغدر بذمتي، ولا أخون أمانتي، ولا أترك الوفاء الواجب علي.

فقصده ملك كندة بعسكره، فدخل السموأل في حصنه وامتنع به، فحاصره ذلك الملك، وكان ولد السموأل خارج الحصن، فظفر به ذلك الملك، فأخذه أسيرًا ثم طاف حول الحصن وصاح بالسموأل، فأشرف عليه من أعلىٰ الحصن، فلما رآه قال له: إن ولدك قد أسرته، وهاهو معي، فإن سلمت إلي الدروع والسلاح التي لامرئ القيس عندك رحلت عنك وسلمت إليك ولدك، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر، فاختر أيهما شئت.

فقال له السموأل: ما كنت لأخفر ذمامي وأبطل وفائي، فاصنع ما شئت، فذبح ولده وهو ينظر، ثم لما عجز عن الحصن رجع خائبًا، واحتسب السموأل ذبح ولده، وصبر محافظة علىٰ وفائه، فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرئ القيس سلم إليهم

الدروع والسلاح، ورأىٰ حفظ ذمامه ورعاية وفائه أحب إليه من حياة ولده وبقائه.

فسارت الأمثال في الوفاء تضرب بالسموأل، وإذا مدحوا أهل الوفاء في الأنام ذكروا السموأل، وفي ذلك يقول السموأل:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عِرضُه ... فكل رداء يَرتديه جَميلُ

وإن أنت لم تحمل علىٰ النفس ضَيمهَا ... فليس إلىٰ حسن الثناء سبيلُ

تعيرنا أنا قليلٌ عديدُنا ... فقلتُ لها إن الكرام قليلُ

وما ضرنا أنا قليلٌ وجارُنا ... عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليلُ

وكم أعلىٰ الوفاء رتبة من اعتقله بيديه، وأغلىٰ قيمة من جعله نُصب عينيه، واستنطق الأفواه لفاعله بالثناء عليه، واستنطق الأيدي المقبوضة عنه بالإحسان إليه.

ومن ذلك: ما حكي أن الخليفة المأمون لما ولَّىٰ عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر والشام وأطلق حكمه، دخل علىٰ المأمون بعض إخوانه يومًا فقال: يا أمير المؤمنين، إن عبد الله بن طاهر يميل إلىٰ ولد أبي طالب وهواه مع العلويين وكذلك كان أبوه قبله.

فحصل عند المأمون شيء من كلام أخيه من جهة عبد الله بن طاهر فتشوش فكره وضاق صدره، فاستحضر شخصًا وجعله في زي الزهاد والنساك الغزاة ودسه إلىٰ عبد الله بن طاهر، وقال له: امض إلىٰ مصر وخالط أهلها وداخل كبراءها واستملهم إلىٰ القاسم بن محمد العلوي، واذكر مناقبه، ثم بعد ذلك اجتمع ببعض بطانة عبد الله بن طاهر ثم اجتمع بعبد الله بن طاهر بعد ذلك وادعه إلىٰ القاسم بن محمد العلوي واكشف باطنه وابحث عن دفين نيته، وَأْتِنِي بما تسمع.

ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون وتوجه إلىٰ مصر ودعا جماعة من أهلها، ثم كتب ورقة لطيفة ودفعها إلىٰ عبد الله بن طاهر وقت ركوبه، فلما نزل من الركوب وجلس في مجلسه خرج الحاجب إليه وأدخله علىٰ عبد الله بن طاهر وهو جالس وحده، فقال

له: لقد فهمت ما قصدت فهات ما عندك، فقال: ولي الأمان؟ قال: نعم، فأظهر له ما أراده ودعاه إلىٰ القاسم بن محمد.

فقال له عبد الله: أوَتُنْصِفُني فيما أقوله لك؟ قال: نعم.

قال: فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة؟ قال: نعم، قال: فيجب عليَّ وأنا في هذه الحالة التي تراها من الحكم والنعمة والولاية ولي خاتم في المشرق وخاتم في المغرب، وأمري فيما بينهما مطاع وقولي مقبول، ثم إني ألتفت يمينًا وشمالًا فأرىٰ نعمة هذا الرجل غامرة وإحسانه فائضًا علي، أفتدعوني إلىٰ الكفر بهذه النعمة وتقول: اغدر وجانب الوفاء، والله لو دعوتني إلىٰ الجنة عيانًا لما غدرت، ولما نكثت بيعته وتركت الوفاء له، فسكت الرجل، فقال له عبد الله: والله ما أخاف إلا علىٰ نفسك، فارحل من هذا البلد.

فلما يئس الرجل منه وكشف باطنه وسمع كلامه رجع إلىٰ المأمون، فأخبره بصورة الحال، فسَرَّهُ ذلك، وزاد في إحسانه إلىٰ عبد الله بن طاهر، وضاعف إنعامه عليه.

ومما وضع في بطون الدفاتر، واستحسنته عيون البصائر، ونقلته الأصاغر عن الأكابر، وتداولته الألسنة من الأوائل والأواخر: ما رواه خادم أمير المؤمنين المأمون، قال: طلبني أمير المؤمنين ليلة وقد مضىٰ من الليل ثلثه، فقال لي: خذ معك علي بن محمد ودينارًا الخادم، واذهب مسرعًا لما أقوله لك، فإنه قد بلغني أن شيخًا يحضر ليلًا إلىٰ دور البرامكة، وينشد شعرًا ويذكرهم ذكرًا كثيرًا ويندبهم ويبكي عليهم، ثم ينصرف، فامض الآن أنت وعلي ودينار حتىٰ تروا هذه الخرابات، فاستتروا خلف بعض الجدران، فإذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكىٰ وندب وأنشد شيئًا، فَأْتُوني به.

قال: فأخذتهما ومَضَينا حتىٰ أتينا الخرابات، وإذا نحن بغلام قد أتىٰ ومعه بساط وكرسي حديد، وإذا شيخ وسيم له جمال وعليه مهابة ووقار قد أقبل، فجلس علىٰ الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول:

ولمـا رأيـتُ الـسيفَ جَـندل جعفـرًا ... ونــادىٰ مُــنادٍ للخلــيفة فــي يحيــىٰ

بكــيتُ علــىٰ الدنــيا وزاد تأسُّــفي ... علــيهم وقلــت الآن لا تــنفع الدنــيا

مع أبيات أطالها ورددها، فلما فرغ قبضنا عليه، وقلنا له: أجب أمير المؤمنين، ففزع فزعًا شديدًا، وقال: دعوني حتىٰ أوصي وصية، فإني لا أوقن بعدها بحياة، ثم تقدم إلىٰ بعض الدكاكين، فاستفتح، وأخذ ورقة، وكتب فيها وصية ودفعها إلىٰ غلامه، ثم سرنا به، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين زجره، وقال له: من أنت، وبماذا استوجبَت البرامكة منك ما تفعله في خرائب دورهم وما تقوله فيها؟

قال الخادم -ونحن وقوف نَسمَع-: يا أمير المؤمنين، إن للبرامكة عندي أيادي خطيرة، أفتأذن لي أن أحدثك حديثي معهم؟ قال: قل. قال: يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك، وقد زالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال، فلما ركبني الدَّين، واحتجت إلىٰ بيع مسقط رأسي ورؤوس أهلي، أشاروا عليَّ بالخروج إلىٰ البرامكة، فخرجت من دمشق ومعي نيف وثلاثون امرأة وصبيًا وصبية، وليس معنا ما يُباع ولا ما يُوهَب، حتىٰ دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد، فدعوت بثويبات لي كنت قد أعددتها لأستمنح بها الناس، فلبستها وخرجت وتركتهم جياعًا لا شيء عندهم، ودخلت شوارع بغداد أسأل عن دور البرامكة.

فإذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ بأحسن زي وزينة وعلىٰ الباب خادمان، فطمعت في القوم وولجت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأؤخر والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي، وإذا بخادم قد أقبل فدعا القوم، فقاموا وأنا معهم، فدخلوا دار يحيىٰ بن خالد، ودخلت معهم، وإذا بيحيىٰ جالس علىٰ دكة له في وسط بستان، فسلمنا، وهو يعدنا مائة وواحد وبين يديه عشرة من ولده، وإذا غلام صغير أمرد قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم ممنطقون في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال، ومع كل خادم مجمرة من ذهب في كل مجمرة قطعة من

عود كهيئة الفهر، قد قرن بها مثلها من العنبر السلطاني، فوضعوه بين يدي الغلام إلىٰ جنب يحيىٰ.

ثم قال يحيىٰ للقاضي: تكلم وزوج بنتي عائشة من ابن عمي هذا، فخطب القاضي، وزوجه، وشهد أولئك الجماعة، وأقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر، فالتقطت، والله يا أمير المؤمنين ملء كمي، ونظرت فإذا نحن في المكان ما بين يحيىٰ والمشايخ وولده والغلام مائة واثنا عشر رجلًا، فخرج إلينا مائة واثنا عشر خادم مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار، فوضعوا بين يدي كل رجل منا صينية، فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم، ويقوم الأول فالأول، حتىٰ بقيت وحدي بين يدي يحيىٰ لا أجسر علىٰ أخذ الصينية، فغمزني الخادم، فجسرت وأخذتها، وجعلت الذهب في كمي، وأخذت الصينية في يدي وقمت، وجعلت ألتفت إلىٰ ورائي مخافة أن أمنع من الذهاب بها.

فبينما أنا كذلك في صحن الدار ويحيىٰ يلحظني إذ قال للخادم: ائتني بذلك الرجل، فرددت إليه، فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان في كمي، ثم أمرني بالجلوس، فجلست فقال لي: ممن الرجل؟ فقصصت عليه قصتي، فقال للخادم: ائتني بولدي موسىٰ، فأتىٰ به، فقال له: يا بني، هذا رجل غريب، فخذه إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك.

فقبض موسىٰ علىٰ يدي وأدخلني إلىٰ دار من دوره، فأكرمني غاية الإكرام، وأقمت عنده يومي وليلتي في ألذ عيش، وأتم سرور، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال: إن الوزير قد أمرني بالعطف علىٰ هذا الرجل، وقد علمت اشتغالي في دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك، وأكرمه، ففعل ذلك وأكرمني غاية الإكرام، فلما كان من الغد تسلمني أخوه أحمد، ثم لم أزل في أيدي القوم يتداولوني عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصبياني أفي الأموات هم أم في الأحياء؟

فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم، فقالوا لي: قم، فاخرج إلىٰ عيالك بسلام.

فقلت: وا ويلاه سلبت الدنانير والصينية، وأخرج إلىٰ عيالي في هذه الحالة، إنا لله وإنا إليه راجعون، فرفع الستر الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم الرابع، فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لي: مهما كان لك من الحوائج فارفعها إليَّ فإني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به.

فلما رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حسنًا ونورًا واستقبلني منها رائحة الند والعود ونفحات المسك، وإذا بصبياني وعيالي يتقلبون في الحرير والديباج، وحُمل إليَّ ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشورين بضيعتين، وتلك الصينية التي كنت أخذتها بما فيها من الدنانيرو البنادق، وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمِن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطنعوني، فلما جاءتهم البلية، ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد ما نزل، أجحفني عمرو بن مسعدة وألزمني في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به، فلما تحامل عليَّ الدهر كنت في أواخر الليل أقصد خرابات القوم، فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إليَّ وأشكرهم علىٰ إحسانهم.

فقال المأمون: عليَّ بعمرو بن مسعدة، فلما أتي به قال: يا عمرو، أتعرف هذا الرجل؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة، قال: كم ألزمته في ضيعته؟ قال: كذا كذا، قال: ردَّ له كل مما استأْديته منه في مدته، ووقع له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده، قال: فعلا نحيب الرجل وبكاؤه، فلما رأىٰ المأمون كثرة بكائه قال: يا هذا، قد أحسنا إليك، فلِمَ تبكي؟

قال: يا أمير المؤمنين، وهذا أيضًا من صنائع البرامكة، إذ لو لم آت خراباتهم، فأبكيهم وأندبهم حتىٰ اتصل خبري بأمير المؤمنين، ففعل ما فعل، فمن أين كنت

أصل إلىٰ أمير المؤمنين؟! قال إبراهيم بن ميمون: فلقد رأيت المأمون قد دمعت عيناه، وظهر عليه حزنه وقال: لعمري هذا من صنائع البرامكة، فعليهم فابك، وإياهم فاشكر، ولهم فأوف، ولإحسانهم فاذكر.

وقد قيل: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل، ودوام عهده، فانظر إلىٰ حنينه إلىٰ أوطانه، وتشوقه إلىٰ إخوانه، وكثرة بكائه علىٰ ما مضىٰ من زمانه.

قال الشاعر:

سقىٰ اللَّه أطلال الوفاء بكفه ... فقد دُرِست أعلامه ومنازلُه

وقال آخر:

اشدد يديك بمن بلوت وفاءه ... إن الوفاء من الرجال عزيزُ

قال مسرور الكبير: لما أمرني الرشيد بقتل جعفر بن يحيىٰ البرمكي دخلت عليه، فوجدت عنده أبا بكار الأعمىٰ ينشده ويقول:

فلا تحزن فكل فتىٰ سيأتي ... عليه الموت يطرق أو يغادي

فقلت: في هذا واللهِ قد أتيتك، ثم أمسكت بيد جعفر وأقمته وضربت عنقه، فقال أبو بكار: ناشدتك الله إلا ما ألحقتني به، فقلت له: ما الذي حملك علىٰ هذا، فقال: أغناني عن الناس، فقلت: حتىٰ أستأمر الرشيد، ثم أحضرت الرأس إلىٰ الرشيد، وأخبرته بخبر أبي بكار، فقال: هذا رجل فيه مصطنع ضمه إليك، وانظر ما كان يُجري عليه جعفر فادفعه إليه.

وكان يحيىٰ بن خالد إذا أكد في يمينه قال: لا والذي جعل الوفاء أعز ما يُرىٰ.

قال أبو فراس بن حمدان الشاعر:

بمن يتقي الإنسان فيما ينوبه ... ومن أين للحر الكريم صحابُ

وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ... ذئابًا علىٰ أجسادهن ثيابُ

وسأل المنصور بعض بطانة هشام عن تدبيره في الحروب، فقال: كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يفعل كذا وكذا، فقال المنصور: قاتلك الله! تطأ بساطي وتترحم علىٰ عدوي؟ فقال: إن نعمة عدوك لقلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي، فقال له المنصور: ارجع يا شيخ، فإني أشهد أنك لَوفي حافظ للخير، ثم أمر له بمال، فأخذه ثم قال: والله لولا جلالةُ أمير المؤمنين وإمضاءُ طاعته ما لبست لأحد بعد هشام نعمة.

فقال له المنصور: لله درك، فلو لم يكن في قومك غيرك، لكنت قد أبقيت لهم مجدًا مخلدًا.

وخرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المهلب في بعض نواحي الشام، فإذا امرأة جالسة علىٰ قبر تبكي، فرفَعَت البرقع عن وجهها، فحكت شمسًا عن متون غمامة، فوقفا متحيرين ينظران إليها، فقال لها يزيد بن المهلب: يا أمة الله، هل لك في أمير المؤمنين بعلًا ؟

فنظرت إليهما، ثم أنشأت تقول:

فإن تسألاني عن هواي فإنه ... يجول بهذا القبر يا فتيَانِ
وإني لأستحييه والتربُ بيننا ... كما كنت أستحييه وهو يراني

ولما أحس مصعب بن الزبير بالقتل دفع إلىٰ مولاه زياد فص ياقوت قيمته ألف ألف، وقال له: انج بهذا، فأخذه زياد ودقه بين حجرين، وقال: والله لا ينتفع به أحد بعدك.

ومن القضايا التي جمعت وفاءً وغدرًا، واشتملت علىٰ حال شخصين، أحدهما وفىٰ بعهده ففاز ونجا، والآخر غدر فلم يجد له من جزاءِ غدره إلىٰ النجاة فرجًا: ما ذكر عبد الله بن عبد الكريم -وكان مطلعًا علىٰ أحوال أحمد بن طولون- عارفًا بأموره، عالمًا بوروده وصدوره، قال: إن أحمد بن طولون وجد عند سقايته طفلًا مطروحًا، فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهره باليتيم، فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة، وأحسنهم زيًّا وصورة، فصار يرعاه ويعلمه حتىٰ تهذب وتمرن، فلما

حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصىٰ ولده أبا الجيش خمارويه به، فأخذه إليه.

فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش إليه، وقال له: أنت عندي بمكانة أرعاك بها، ولكن عادتي أني آخذ العهد علىٰ كل من أصرفه في شيء أنه لا يخونني، فعاهده ثم حكَّمه في أمواله وقدمه في أشغاله، فصار أحمد اليتيم مستحوذًا علىٰ المقام، حاكمًا علىٰ جميع الحاشية الخاص والعام، والأمير أبو الجيش بن طولون يحسن إليه.

فلما رأىٰ خدمته متصفة بالنصح ومساعيه متسمة بالنجاح ركن إليه، واعتمد في أمور بيوته عليه، فقال له يومًا: يا أحمد، امض إلىٰ الحجرة الفلانية ففي المجلس حيث أجلس سبحة جوهر فَأْتِنِي بها، فمضىٰ أحمد، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع شباب من الفراشين ممن هو من الأمير بمحل قريب، فلما رأياه خرج الفتىٰ وجاءت الجارية إلىٰ أحمد وعرضت نفسها عليه، ودعته إلىٰ قضاء وطره، فقال لها: معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إليَّ وأخذ العهد عليَّ، ثم تركها وأخذ السبحة وانصرف إلىٰ الأمير وسلمها إليه، وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعدما أخذ السبحة وخرج من الحجرة لئلَّا يذكرها للأمير، فأقامت أيامًا لم تجد من الأمير ما غيَّره عليها.

ثم اتفق أن الأمير اشترىٰ جارية وقدمها علىٰ حظاياه، وغمرها بعطاياه، واشتغل بها عن سواها، وأعرض -لشغفه بها- عن كل مَن عنده، حتىٰ كاد لا يذكر جارية غيرها ولا يراها، وكان أولًا مشغولًا بتلك الجارية الخائنة، فلما أعرض عنها اشتغالًا بالجارية الجديدة، وصرف لبهجة محاسنها وكثرة آدابها وجهه عن ملاعبة أترابها، وشغلته بعذوبتها عن أضرابها، كبر علىٰ تلك الجارية إعراضه عنها، ونسبت ذلك إلىٰ أحمد اليتيم لاطلاعه علىٰ ما كان منها، فدخلت علىٰ الأمير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها، وقالت: إن

أحمد اليتيم راودني عن نفسي.

فلما سمع الأمير ذلك استشاط غيظًا وغضبًا، وهمَّ في الحال بقتله، ثم عاوده حاكمُ عقله، فتأنىٰ في فعله، واستحضر خادمًا يعتمد عليه، وقال له: إذا أرسلت إليك إنسانًا ومعه طبق من ذهب، وقلت لك علىٰ لسانه: املأ هذا الطبق مسكًا؛ فاقتل ذلك الإنسان واجعل رأسه في الطبق، وأحضره مغطىٰ.

ثم إن الأمير أبا الجيش جلس، وأحضر عنده ندماءه الخواص، وأدناهم لمجلس قربه، وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن في سربه لم يخطر بخاطره شيء، ولا هجس هاجس في قلبه، فلما مثل بين يدي الأمير شرع في التدبير، فقال: يا أحمد، خذ هذا الطبق وامض به إلىٰ فلان الخادم، وقل له: يقول لك أمير المؤمنين: املأ هذا الطبق مسكًا، فأخذه أحمد اليتيم ومضىٰ، فاجتاز في طريقه بالمغنين وبقية الندماء والخواص، فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم، فقال: أنا ماضٍ في حاجة للأمير أمرني بإحضارها في هذا الطبق.

فقالوا له: أرسل من ينوب عنك في إحضارها وخذها أنت وادخل بها علىٰ الأمير، فأدار عينيه فرأىٰ الفتىٰ الفراش الذي كان مع الجارية فأعطاه الطبق، وقال له: امض إلىٰ فلان الخادم وقل له: يقول لك الأمير: املأ هذا الطبق مسكًا، فمضىٰ ذلك الفراش إلىٰ الخادم، فذكر له ذلك فقتله وقطع رأسه وغطاه وجعله في الطبق وأقبل به، فناوله لأحمد اليتيم فأخذه وليس عنده علمٌ من باطن الأمر.

فلما دخل به علىٰ الأمير كشفه وتأمله وقال: ما هذا؟ فقص عليه خبره وقعوده مع المغنين وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم، وما كان من إنفاذ الطبق وإرساله مع الفراش، وأنه لا علم عنده غير ما ذكره. قال: أتعرف لهذا الفراش خبرًا يستوجب به ما جرىٰ عليه.

فقال: أيها الأمير، إن الذي تم عليه بما ارتكبه من الخيانة، وقد كنت رأيت

الإعراض عن إعلام الأمير بذلك، وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وما جرىٰ له من حديث الجارية من أوله إلىٰ آخره لما أنفذه لإحضار السبحة الجوهر، فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها، فأقرت بصحة ما ذكره أحمد، فأعطاه إياها وأمره بقتلها ففعل، وازدادت مكانة أحمد عنده، وعلت منزلته لديه، وضاعف إحسانه إليه، وجعل أزمة جميع ما يتعلق به بيديه.

ومن وفاء الحيوان: ما حُكي أن رجلًا دعَا جماعة، فتخلَّف شخصٌ منهم في منزله، ودخل علىٰ زوجة صاحب المنزل فضاجعها، فوثب الكلب عليهما فقتلهما، فرجع صاحب المنزل فوجدهما قتيلين، فأنشد يقول:

ومـا زال يرعـىٰ ذمتـي ويحوطنـي ... ويحفـظ عهـدي والخلـيلُ يخـونُ
فـواعجـبًا للخِـلِّ يهـتك حرمتـي ... وواعجـبًا للكلـب كـيف يـصونُ

ومن ذلك: ما حكي أن رجلًا قُتِل ودُفِن وكان معه كلب، فصار يأتي كل يوم إلىٰ الموضع الذي دفن فيه فينبح وينبش ويتعلق برجل هناك، فقال الناس: إن لهذا الكلب شأنًا، فكشفوا عن ذلك وحفروا ذلك الموضع فوجدوا قتيلًا، فقبضوا علىٰ ذلك الرجل الذي ينبح عليه الكلب وضربوه، فأقرَّ بقتله، فقُتل.

ومن الوفاء: تعجيل المرء ما وعد به، فإنَّ الوعد سحابة والإنجاز مطره، قال عمر ابن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لكل شيء رأس، ورأس المعروف تعجيله، وأنشدوا:

إذا قلـت فـي شـيءٍ نعـم فأتمَّـهُ ... فـإنَّ نَعَـم ديـنٌ علـىٰ الحـرِّ واجـبُ
وإلا فقـل لا، تـسترح وتُـرِح بهـا ... لـئلَّا يقـول الـناسُ إنـك كـاذبُ

فوعد الكريم نقد وتعجيل، ووعد اللئيم مَطل وتعليل، وقد قال بعض الأعراب: العذر الجميل خير من المَطل الطويل.

وكان ابن صفوان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من جُملة من صبر مع ابن الزبير حين حَصَره الحجاج، فقال له ابن الزبير: إني قد أقلتك بيعتي، فاذهب حيث شئت.

فقال: إني إنما قاتلت عن ديني، ثم صبَّر نفسه حتىٰ قُتل وهو متعلق بأستار الكعبة في هذه السنة.

ووهب الفضل بن يحيىٰ لطباخه مائة ألف درهم، فعاتبه أبوه في ذلك، فقال: يا أبت، إنَّ هذا كان يصحبني في العسر والعيش الخشن، واستمر معي في هذا الحال فأحسَن صحبتي، وقد قال الشاعر:

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا … مَن كان يؤنسهم في المنزل الخَشِنِ

ووهب الفضل بن يحيىٰ يومًا لبعض الأدباء عشرة آلاف دينار، فبكىٰ الرجل، فقال له: مِمَّ تَبكي، أَستَقْلَلتَهَا؟ قال: لا والله، ولكني أبكي أسفًا أنَّ الأرض تواري مثلك.

ولما قُتِل مصعب بن الزبير في وقعته مع عبد الملك بن مروان كانت معه امرأته سكينة بنت الحسين، فتطلبته في القتلىٰ حتىٰ عرفته بشامة في فخذه، فقالت: نِعْمَ زوج المرأة المسلمة كنت، أدركك والله ما قال عنترة:

وحليل غانيةٍ تركتُ مجدَّلًا … بالقاع لم يعهد ولم يتثلمِ

فهتكتُ بالرمح الطويل إهابَه … ليس الكريمُ علىٰ القَنَا بمُحَرَّمِ

وقدم أعرابي ومعه كتاب مَختُوم، فجعل يقول: هذا كتابُ أمير المؤمنين، أين الرجل الذي يقال له: الربيع؟ فدلوه علىٰ الربيع الحاجب، فأخذ الكتاب وجاء به إلىٰ أمير المؤمنين، وأوقف الأعرابي وفتح الكتاب، فإذا هو قطعةُ أديم، فيها كتابة ضعيفة، والأعرابي يزعم أن هذا خط الخليفة، فتبسم المهدي وقال: صدق الأعرابي، هذا خطي، إني خرجت يومًا إلىٰ الصيد فضعت من الجيش، وأقبل الليل فتعوذت بتعوذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرُفِع لي نار من بُعد، فقصدتها فإذا هو الشيخ وامرأته في خباء يوقدان نارًا، فسلَّمت، فرد السلام، وفرش لي كساء وسقاني من لبن مشوب بماء، فما شربت شيئًا إلا وهي أطيب منه، ونمت نومة علىٰ تلك العباءة ما أذكر أني

نمت نومة أحلىٰ منها، ثمَّ قام إلىٰ شويهة له فذبحها، فسمعت امرأته تقول له: عمدت إلىٰ معيشتك ومعيشة أولادك فذبحتها؟! أهلكت نفسك وعيالك، فما التفت إليها، واستيقظت من النوم فاشتويت من تلك الشويهة، وقلت له: أعندك شيء أكتب لك فيه كتابًا؟ فأتاني بهذه الرقعة من الأديم فكتبت له بعود من ذلك الرماد خمسمائة ألف، وإنما أردت خمسين ألفًا، والله لأنفذنَّها له كلها ولو لم يكن في بيت المال سواها.

فقبضها الأعرابي، واستمر مقيمًا في ذلك الموضع وهو في طريق الحاج من ناحية الأنبار، فجعل يُقري الناس في ذلك الموضع، فعرف بمنزل مُضيف أمير المؤمنين المهدي.

وكتب عبد الملك بن مروان إلىٰ أخيه عبد العزيز وهو بالديار المصرية يسأله أن ينزل عن العهد الذي له من بعده لولده الوليد، أو يكون ولي العهد من بعده، فإنه أعز الخلق علي، فكتب إليه عبد العزيز يقول: إني أرىٰ في أبي بكر بن عبد العزيز ما ترىٰ في الوليد، وإني وإياك يا أمير المؤمنين قد بلغنا سنًّا لم يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلًا، وإني لا أدري ولا تدري أينا يأتيه الموت أولًا، فإن رأيت ألا تغثث عليَّ بقية عمري فافعل، فرقَّ له عبد الملك، وقال: لعمري لا أغثث عليك بقية عمرك، وقال لابنه الوليد: إن يرد الله أن يعطيكها لا يقدر أحد من العباد علىٰ ردِّ ذلك عنك.

فمات عبد العزيز في سنته، وجاء الخبر بموته إلىٰ عبد الملك ليلًا، فحزن وبكىٰ، وبكىٰ أهله بكاءً كثيرًا علىٰ عبد العزيز، ونال ابناه الوليد وسليمان ما كان يؤمِّله لهما من ولايته إياهما العهد من بعده.

❊ ❊ ❊

التحذير من الغدر والخيانة

الغدر والخيانة من أسوأ الأخلاق وأشنع الصفات، وكم وقع في المهالك من غادر حتىٰ ضاقت عليه فسيحات المصادر، وطوقه غدره طوق خزي فهو علىٰ فكه غير قادر، وأوقعه في خطةِ خسفٍ وورطةِ حتفٍ فما له من قوة ولا ناصر، ويشهد لصحة هذه الأسباب ما أحاطت به علوم ذوي الألباب، وأصدق شاهد علىٰ ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس:٢٣].

قال أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ثلاث من كنَّ فيه كنَّ عليه: البَغي، والنكث، والمَكر».

ولم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء، واتضاع قدره عن احتمال المكاره في جنب نيل المكارم، كما قال الشاعر:

غدرت بأمر كنت أنت جذبتنا ... إليه وبئس الشِّيمة الغدر بالعَهدِ

ولما حلف محمد الأمين للمأمون في بيت الله الحرام -وهما وليَّا عهدٍ- طالبه جعفر بن يحيىٰ أن يقول: خذلني الله إن خذلته، فقال ذلك ثلاث مرات، فقال الفضل ابن الربيع: قال لي الأمين في ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله: يا أبا العباس، أجد نفسي أن أمري لا يتم، فقلت له: ولِمَ ذلك أعزَّ الله الأمير؟ قال: لأني كنت أحلف وأنا أنوي الغدر، وكان كذلك، فلم يتم أمره.

وورد في أخبار العرب أن الضيزن بن معاوية بن قضاعة كان ملكًا بين دجلة والفرات، وكان له هناك قصر مشيد يُعرَف بالجوسق، وبلغ ملكه الشام، فأغار علىٰ مدينة سابور في الأكتاف، فأخذها وأخذ أخت سابور وقتل منهم خلقًا كثيرًا، ثم إن

سابور جمع جيوشًا وسار إلىٰ الضيزن.

فأقام علىٰ الحصن أربع سنين لا يَصِل منه إلىٰ شيء، ثم إن النضيرة بنت الضيزن حاضت فخرجت من الحصن -وكانت من أجمل أهل دهرها، وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا حضن- وكان سابور من أجمل أهل زمانه، فرآها ورأته فعشقها وعشقته وأرسلت إليه تقول: ما تجعل لي إن دللتك علىٰ ما تهدم به هذه المدينة وتقتل أبي؟ فقال: أحكِّمك.

فقالت: عليك بحمامة مطوقة ورقاء فاكتب عليها بحيض جارية ثم أطلقها فإنها تقعد علىٰ حائط المدينة فتتداعىٰ المدينة كلها -وكان ذلك طلسمًا لا يهدمها إلا هو-، ففعل ذلك فقالت له: وأنا أسقي الحرس الخمر فإذا صرعوا فاقتلهم، ففعل ذلك فتداعت المدينة وفتحها سابور عنوة وقتل الضيزن، واحتمل ابنته النضيرة وأعرس بها.

فلما دخل بها لم تزل ليلتها تتضرر وتتململ في فراشها وهو من حرير محشو بريش النعام، فالتمس ما كان يؤذيها فإذا هو ورقة آس التصقت بعُكنتها وأثَّرت فيها، وقيل: كان ينظر إلىٰ مخ عظمها من صفاء بشرتها، ثم إن سابور بعد ذلك غدر بها وقتلها.

وتقول العرب: «جزاني جزاء سِنِمَّار»، وذلك أن أزدجرد بن سابور لما خاف علىٰ ولده بهرام -وكان قبله لا يعيش له ولد- سأل عن منزل صحيح، فدُلَّ علىٰ ظهر الجزيرة، فدفع ابنه بهرام إلىٰ النعمان وهو عامله علىٰ أرض العرب وأمره أن يبني له حصنًا، فامتثل أمره وبنىٰ له حصنًا كأحسن ما يكون، وكان الذي بناه رجلٌ يقال له: سِنِمَّار، فلما فرغ من بنائه عجبوا من حُسنه، فقال: لو علمت أنكم توفوني أجرته لبنيته بناء يدور مع الشمس حيث دارت، فقالوا: وإنك لتبني أحسن من هذا ولم تبنه، ثم أمر به فطرح من أعلىٰ الحصن فتقطَّع، فكانت العرب تقول: جزاني جزاء سنمار.

وخرج قوم لصيد فطردوا ضبعة حتىٰ ألجأوها إلىٰ خباء أعرابي فأجارها، وجعل يطعمها ويسقيها، فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت، فجاء ابن عمه يطلبه، فوجده ملقىٰ فتبعها حتىٰ قتلها، وأنشد يقول:

ومَن يصنع المعروف في غير أهله يلاقي كما لاقىٰ مجيرُ أمِّ عامرِ
أعدَّ لها لما استجارت ببيته أحاليب ألبانِ اللقاح الدوائرِ
وأسمَنَها حتىٰ إذا ما تمكنت فَرَته بأنيابٍ لها وأظافرِ
فقل لذوي المعروف هذا جزاءُ مَن يجود بمعروفٍ علىٰ غير شاكرِ

وحكىٰ بعضهم قال: دخلت البادية فإذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة وإلىٰ جانبها جرو ذئب، فقالت: أتدري ما هذا؟ فقلت: لا، قالت: هذا جروُ ذئبٍ أخذناه صغيرًا، وأدخلناه بيتنا وربيناه، فلما كَبر فعل بشاتي ما ترىٰ، وأنشدت:

بقرتَ شويهتي وفجعتَ قلبي وأنت لشاتنا ابنٌ ربيبُ
غُذيت بدرِّها ونشأتَ مَعها فمن أنباك أن أباك ذيبُ
إذا كان الطباعُ طباعَ سوءٍ فلا أدبٌ يُفيد ولا أديبُ

وفي سنة تسع وستين ركب عبد الملك بن مروان في جنوده قاصدًا قرقيسياء، ليحاصر زفر بن الحارث الكلابي الذي أعان سليمان بن صرد علىٰ جيش مروان حين قاتلوهم بعين وردة،، فلما سار إليها استخلف علىٰ دمشق عمرو بن سعيد الأشدق، فتحصَّن بها وأخذ أموال بيت المال، واستحوذ علىٰ ما فيها من الخزائن، وخطب بالناس فوعدهم العدل والنصف والعطاء الجزيل والثناء الجميل.

ولما علم عبد الملك بما فعله الأشدق، كرَّ راجعًا من فوره فوجد الأشدق قد حصَّن دمشق، وعلق عليها الستائر والمسوح، وانحاز الأشدق إلىٰ حصن رومي منيع كان بدمشق فنزله، فحاصره عبد الملك وقاتله عمرو بن سعيد الأشدق مدة ستة عشر يومًا، وراسله عبد الملك، وقال له: أنشدك الله والرحم أن تفسد أمر بيتك وما هم عليه من اجتماع الكلمة، وإن فيما صنعت قوة لابن الزبير، فارجع إلىٰ بيتك، ولك عليَّ عهد الله وميثاقه أنك ولي عهدي من بعدي، وكتبا بينهما كتابًا.

فانخدع له عمرو وفتح أبواب دمشق، ثم اصطلحا علىٰ ترك القتال، وعلىٰ أن يكون ولي العهد من بعد عبد الملك، وعلىٰ أن يكون مع كل عامل لعبد الملك عامل له، وكتبا بينهما كتاب أمان.

ودخل عبدُ الملك دمشقَ إلىٰ دار الإمارة علىٰ عادته، وبعث إلىٰ عمرو بن سعيد الأشدق يقول له: ردَّ علىٰ الناس أعطياتهم التي أخذتها لهم من بيت المال، فبعث إليه عمرو يقول له: إن هذا ليس إليك، وليس هذا البلد لك، فاخرج منه، فبعث عبد الملك إلىٰ عمرو بن سعيد يأمره بالإتيان إلىٰ منزله بدار الإمارة الخضراء، فلما جاءه الرسول صادف عنده عبد الله بن يزيد بن معاوية وهو زوج ابنته أم موسىٰ بنت عمرو بن سعيد، فاستشاره عمرو في الذهاب إلىٰ عبد الملك فقال له: يا أبا سعيد، والله لأنت أحب إلي من سمعي وبصري، وأرىٰ ألا تأتيه، فقال عمرو: والله لو كنت نائمًا ما تخوفت أن ينبهني ابن الزرقاء، وما كان ليجترئ علىٰ ذلك مني، مع أن عثمان بن عفان أتاني البارحة في المنام فألبسني قميصه، ثمَّ قال عمرو بن سعيد للرسول: أبلغه السلام، وقل له: أنا رائح إليك العشية -إن شاء الله-.

فلما كان العشي -يعني: بعد الظهر- لبس عمرو درعًا بين ثيابه، وتقلَّد سيفه ونهض فعثر بالبساط، فقالت امرأته وبعض من حضره: إنا نرىٰ ألا تأتيه، فلم يلتفت إلىٰ ذلك ومضىٰ في مائة من مواليه، وعبد الملك قد أمر بني مروان فاجتمعوا كلهم عنده، فلما انتهىٰ عمرو بن سعيد إلىٰ الباب أمر عبد الملك أن يدخل وأن يحبس من معه عند كل باب طائفة منهم، فدخل كذلك حتىٰ انتهىٰ إلىٰ المكان الذي فيه عبد الملك، ولم يبق معه من مواليه سوىٰ وصيف واحد، فرمىٰ ببصره فإذا بنو مروان عن بكرة أبيهم مجتمعون عند عبد الملك، فأحسَّ بالشر، فالتفت إلىٰ وصيفه، فقال له همسًا: ويلك انطلق إلىٰ أخي يحيىٰ بن سعيد فقل له فليأتني، فلم يفهم عنه، وقال له: لبيك، فأعاد عليه ذلك، فلم يفهم أيضًا، وقال: لبيك، فقال: ويلك، اغرب عني في حرق الله وناره.

وكان عند عبد الملك حسان بن مالك بن بحدل، وقبيصة بن ذؤيب، فأذن لهما عبد الملك بالانصراف، فلما خرجا غلقت الأبواب واقترب عمرو من عبد الملك، فرحب به وأجلسه معه علىٰ السرير، ثم جعل يحدثه طويلًا.

ثم إن عبد الملك قال لبعض خدمه: يا غلام، خذ السيف عنه، فقال عمرو: إنا لله يا أمير المؤمنين، فقال له عبد الملك: أوَتطمع أن تتحدث معي متقلدًا سيفك؟

فأخذ الغلام السيف عنه، ثم تحدثا ساعة، ثم قال له عبد الملك: يا أبا أمية، قال: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: إنك حيث خلعتني آليتُ بيميني إن ملأت عيني منك -وأنا مالك لك- أن أجمعك في غلٍّ، فقالت بنو مروان: ثم تطلقه يا أمير المؤمنين، قال: ثم أطلقه، وما عسيت أن أفعل بأبي أمية؟ فقال بنو مروان: أبرَّ قسم أمير المؤمنين، فقال عمرو: فأبرَّ قسمك يا أمير المؤمنين.

فأخرج عبد الملك من تحت فراشه غلًّا فطرحه إليه، ثم قال: يا غلام، قم فاجمعه فيه، فقام الغلام فجمعه فيه، فقال عمرو: أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تخرجني فيها علىٰ رؤوس الناس، فقال عبد الملك: أمكرًا يا أبا أمية عند الموت؟ لا والله، ما كنا لنخرجك في جامعة علىٰ رؤوس الناس، ثم اجتبذه اجتباذة أصاب فمه السرير فكسر ثنيته، فقال عمرو: أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن يدعوك كسر عظمي إلىٰ ما هو أعظم من ذلك. فقال عبد الملك: والله لو أعلم أنك إذا بقيت تفي لي وتصلح قريش لأطلقتك، ولكن ما اجتمع رجلان قط في بلد علىٰ ما نحن عليه إلا أخرج أحدهما صاحبه، فلما تحقق عمرو ما يريد من قتله قال له: أغدرًا يا ابن الزرقاء؟

وبينما هما كذلك إذ أذن للعصر، فقام عبد الملك ليخرج إلىٰ الصلاة، وأمر أخاه عبد العزيز بن مروان بقتله، وخرج عبد الملك وقام إليه عبد العزيز بالسيف، فقال له عمرو: أذكرك الله والرحم ألا تلي ذلك مني، وليتولَّ ذلك غيرك، فكفَّ عنه عبد العزيز بن مروان.

ولما رأىٰ الناس عبد الملك قد خرج وليس معه عمرو أرجف الناس بعمرو، وأقبل أخوه يحيىٰ بن سعيد في ألف عبدٍ لعمرو بن سعيد، وأناسٍ معهم كثير، وأسرع عبد الملك الدخول إلىٰ دار الإمارة، وجاء أولئك فجعلوا يدقون باب الإمارة ويقولون: أسمعنا صوتك يا أبا أمية، وضرب رجلٌ منهم الوليد بن عبد الملك في رأسه بالسيف فجرحه، فأدخله إبراهيم بن عربي صاحب الديوان بيتًا وأحرزه فيه، ووقعت خبطة عظيمة في المسجد وضجت الأصوات.

ولما رجع عبد الملك وجد أخاه لم يقتله، فلامه وسبَّه، فقال: إنه ناشدني الله والرحم، وكان ابنَ عمة عبد الملك بن مروان، فقال عبد الملك: يا غلام، ائتني بالحربة، فأتاه بها فهزها وضربه بها فلم تُغْنِ شيئًا، ثم ثنَّىٰ فلم تغن شيئًا، فضرب بيده إلىٰ عضد عمرو فوجد مس الدرع فضحك، وقال: ودارع أيضًا! يا غلام، ائتني بالسيف، فأتاه بسيفه ثم أمر بعمرو فصُرع فجلس علىٰ صدره فذبحه، وهو يقول:

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي ... أضربك حيث تقول الهامةُ اسقوني

وانتفض عبد الملك بعدما ذبحه، بحيث إنهم ما رفعوه عن صدره إلا محمولًا، فوضعوه علىٰ سريره وهو يقول: ما رأيت مثل هذا قط قتلة، صاحب دنيا ولا طالب آخرة.

ودفع الرأس إلىٰ عبد الرحمن بن أم الحكم، فخرج به للناس فألقاه بين أظهرهم، وخرج عبد العزيز بن مروان ومعه الأموال تحمل، فألقِيَت بين الناس فجعلوا يختطفونها.

وقيل: إنَّ عبد الملك قال: لقد كان عمرو بن سعيد أحب إلي من دم النواظر، ولكن واللهِ لا يجتمع فحلان في الإبل إلا أخرج أحدهما الآخر، وإنا لكما قال أخو بني يربوع:

أجازي من جزاني الخيرَ خيرًا ... وجازي الخيرِ يُجزىٰ بالنوالِ

وأجزي من جزاني الشرَّ شرًّا ... كما تحذىٰ النعال علىٰ النعالِ

وخطب ثابتُ قطنة امرأةً كان يميل إليها، فجعل السفيرَ بينه وبينها جويبر بن سعيد، فاندس فخطبها لنفسه، فتزوجها ودفع عنها ثابتًا، فقال ثابت حين بان له الأمر:

أفشَىٰ عليَّ مقالةً ما قلتها ... وسعىٰ بأمرٍ كان غيرَ سديدِ

إني دعوت الله حين ظلمتني ... ربِّي وليس لمن دعا ببعيدِ

ألا تزال متيَّمًا بخريدةٍ ... تسبي الرجالَ بمقلتين وجِيدِ

حتىٰ إذا وجب الصَّداق تلبَّست ... لك جلدَ أَغضفَ بارزٍ بصعيدِ

تدعو عليك الحاريات مُبِرَّةً ... فترىٰ الطلاق وأنت غيرُ حميدِ

فلقي جويبر كل ما دعا عليه ثابت، ولحقه من المرأة كلُّ شرٍّ وضُرٍّ، حتىٰ طلقها بعد أن قبضت صداقها منه.

❊ ❊ ❊

كتمان السرِّ وذم إفشائه

قد صح في الحديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**استعينوا علىٰ قضاء حوائجكم بالكتمان؛ فإنَّ كلَّ ذي نعمة محسود**»[1].

وقال عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «سرُّك أسيرك، فإذا تكلمت به صرت أسيره».

ومما لا بُدَّ من معرفته: أنَّ أمناء الأسرار أقل وجودًا من أمناء الأموال، وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار؛ لأن حصون الأموال منيعة بالأبواب والأقفال، وحصون الأسرار بارزة، يذيعها لسان ناطق، ويشيعها كلام سابق.

وحَمْل الأسرار أثقل من حمل الأموال؛ فإنَّ الرجل يستقل بالحمل الثقيل فيحمله ويمشي به، ولا يستطيع كتم السر، وإنَّ الرجل يكون سره في قلبه، فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال، فإذا أذاعه استراح قلبه، وسكن خاطره، وكأنما ألقىٰ عن نفسه حملًا ثقيلًا.

قال عمر بن عبد العزيز: «القلوب أوعية، الشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها؛ فليحفظ كل إنسان مِفتَاح سِره».

ومن عجائب الأمور: أن الأموال كلما كثرت خزائنها كان أوثق لها، وأما الأسرار فإنها كلما كثرت خزائنها كان أضيع لها، وكم من إظهار سرٍّ أراق دم صاحبه، ومنعه من بلوغ مآربه، ولو كتمه أمن سطواته.

قال أنوشروان: «مَن حصَّن سرَّه فله بتحصينه خصلتان: الظفر بحاجته، والسلامة من السطوات».

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٤٥٣).

وكلما كثرت خزائن الأسرار زادت ضياعًا، وقد قيل: انفرد بِسِرِّك لا تودعه حازمًا فيزل، ولا جاهلًا فيخون، قال الشاعر:

ولستُ بمُبدٍ للرجالِ سَريرتي ... ولا أنا عن أسرارهم بسَئولِ

وكان أبو مسلم الخراساني يهيِّج علىٰ الدولة الأموية حتىٰ أسقطها، فقيل له: بِمَ نلت ما أنت فيه من القهر للأعداء؟! فقال: ارتديت الصبر، وآثرت الكتمان، وحالفت الأحزان والأشجان، وسامحت المقادير والأحكام، حتىٰ بلغت غاية همتي، وأدركت نهاية بغيتي، ثم أنشأ يقول:

قد نلت بالحزم والكتمان ما عجزت ... عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
ما زلت أسعىٰ عليهم في ديارهمُ ... والقوم في مُلكهم بالشام قد رقدوا
حتىٰ ضربتهمُ بالسيف فانتبهوا ... من نومةٍ لم يَنَمْها قبلَهُم أحَدُ
ومن رَعىٰ غنمًا في أرض مسبعة ... ونام عنها تولىٰ رعيَها الأسَدُ

ويحسن بالمرء إن استُودِع سرًّا أن ينساه، قال المهلب: أدنىٰ أخلاق الشريف كتمان السر، وأعلىٰ أخلاقه نسيان ما أسر إليه.

وأسرَّ رجلٌ إلىٰ صديقِه حديثًا، ثم قال له: أفهمت؟ قال: بل جهلت، ثم قال له: أحفظت؟ قال: بل نسيت.

وقيل لبعضهم: كيف كتمانك للسر؟ قال: أجحد المخبر، وأحلف للمستخبر.

ومن أحسن ما قيل في كتمان السر قول الشاعر:

ولها سرائر في الضَّمير طويتها ... نسي الضميرُ بأنها في طَيِّهِ

وكتمان الأسرار يَدُل علىٰ جواهر الرجال، وكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها، فكذلك لا خير في إنسان لا يمسك سره.

وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «ما أفشيتُ سري إلىٰ أحد قط فأفشاه فلمته؛ إذ كان صدري به أضيق».

وقال الأحنف بن قيس: «يضيق صدر الرجل بسره، فإذا حدث به أحدًا قال: اكتمه عليَّ».

قال الشاعر:

إذا المرءُ أفشىٰ سِرَّه بلسانِهِ ... ولام عليه غَيرَه فهو أحمَقُ
إذا ضاق صَدرُ المرء عن سر نَفسِه ... فصدر الذي يستودع السر أضيقُ

وقال آخر:

إذا ما ضاق صدرك عن حديثٍ ... وأفشته الرجالُ فمن تلومُ
وإن عاتبتُ من أفشىٰ حديثي ... وسري عنده فأنا الملومُ

قال صالح بن عبد القدوس: «لا تودع سرك إلىٰ طالبه؛ فالطالب للسر مذيع، ولا تودع مالك عند من يستدعيه؛ فالطالب للوديعة خائن».

وقيل لأعرابي: ما بلغ من حفظك للسر؟ قال: أفرقه تحت شغاف قلبي، ثم أجمعه وأنساه كأني لم أسمعه.

وأحزم الناس من لا يفشي سرَّه إلىٰ صديقه مخافة أن يقع بينهما شرٌّ، فيفشيه عليه.

وقال حكيم: قلوب الأحرار قبور الأسرار، وقيل: الطمأنينة إلىٰ كل أحد قبل الاختبار حمق.

وأين هذا من قول القائل:

ولا تودع الأسرار أذني فإنما ... تصبَّنَّ ماءً في إناء مثلمِ

أو القائل:

ولا أكــتم الأســرار لكــن أذيعُهــا ... ولا أدع الأســرارَ تعلــو علـىٰ قلبــي

وإنَّ قلــيلَ العقــلِ مــن بــات لــيلةً ... تقلــبه الأســرارُ جنــبًا إلــىٰ جــنبِ

* * *

العداوة والبغضاء وشماتة الأعداء

لقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ العَدَاوة والبَغضَاء في كتابه العزيز؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة:٦٤].

والعاقل لا يأمن عدوَّه؛ فإنَّ العدو لا يزال يتربَّص به الدوائر، ويتمنىٰ له الغوائل، ولا يؤمل صلاحًا إلا في فساده، ولا رفعةً إلا في سقوط حاله، **قال أبو بكر الصديق** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «العداوة تتوارث».

وقد قيل:

إن العدو وإن أبدىٰ مسالمة ... إذا رأىٰ منك يومًا غرةً وَثَبَا

وقيل لكسرىٰ: أي الناس أحب إليك أن يكون عاقلًا ؟ قال: عدوي، قيل: كيف ذلك؟ قال: لأنه إذا كان عاقلًا كنت منه في عافية وأمن.

وقيل: كونوا من المرء الدَّغِل أخوف من الكاشح المُعلن، فإن مداواة أهل العلل الظاهرة أهون من مداواة ما خفي وبطن.

وقال حكيم: لا تأمن عدوك وإن كان ضعيفًا، فإن القناة قد تقتل، وإن عدمت السنان، قال الشاعر:

فلا تأمن عَدُوك لو تراه ... أَقَلَّ إذا نَظَرت من القُرَادِ

فإن الحرب ينشأ من جبَان ... وإن النار تضرَمُ من رَمَادِ

وقالوا: إياك أن تعادي من إذا شاء طرح ثيابه، ودخل مع الملك في لحافه.

وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب، فقتل أخوها زوجها وهي حبلىٰ بهجرس بن كليب، فلما كبر وشب قال:

أصاب أبي خالي وما أنا بالذي ... أميل وأمري بين خالي ووالدي
وأورث جساسَ بنَ مرةَ غصةً ... إذا ما اعترتني حرُّها غيرُ باردِ

ثم حمل علىٰ خاله فقتله، وقال:

ألم ترني ثأرت أبي كليبًا ... وقد يرجىٰ المرشَّح للدخولِ
غسلت العار عن جسم ابن بكر ... بجساس بن مرة ذي البتولِ

ويقال: دَارِ عدوك لأحد أمرين: إما لصداقة تؤمنك، أو لفرصة تمكنك.

وكتب رجلٌ إلىٰ مصعب بن الزبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُول:

فبلغ مصعبًا عني رسولي ... وهل تلقىٰ النصيح بكل وَادِ
تعلَّم أن أكثر من تناجي ... وإن ضحكوا إليك هم الأعادي

وقال الحجاج لخارجي: والله إني لأبغضك، قال: أدخل الله الجنة أشدنا بُغضًا لصَاحِبه.

ولما أراد أنوشروان أن يقلد ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته، فأنكروا عليه، وقال بعضهم: إن أمه تركية وقد علمت في أخلاقهم ما علمت، فقال: إن الأبناء يُنسبون إلىٰ الآباء لا إلىٰ الأمهات، وكانت أم قباذ تركية، وقد رأيتم من حسن سيرته ما رأيتم.

فقيل: هو قصير وذلك يذهب ببهاء الملك، فقال: إن قصره في رجليه ولا يكاد يرىٰ إلا جالسًا أو راكبًا، فلا يستبين ذلك فيه.

فقيل: هو بغيض في الناس، فقال: أراه هلك ابني هرمز، فقد قيل: إذا كان في الإنسان خير واحد ولم يكن ذلك الخير المحبة إلىٰ الناس فلا خير فيه، وإذا كان فيه عيب واحد ولم يكن ذلك العيب البغض في الناس فلا عيب فيه.

وفي ذلك يقول القائل:

ولست براءٍ عيب ذي الود كله ... ولا بغض ما فيه إذا كنت رَاضِيَا

فعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدي المُسَاوِيَا

وفي هذا المعنىٰ أيضًا قيل:

وعين البغض تبرز كلَّ عيبٍ ... وعين الحب لا تجد العُيوبَا

ومما تقرر لدىٰ العقلاء: أنَّه لا يخلو المرء من ودود يمدح، وعدوٍّ يقدح، ولكن أشد ما يقاسيه العاقل شماتة الأعداء، حتىٰ قيل: إنَّ نزحَ البحار وكنس القفار أهون من شماتة الأعداء، ولا همَّ أكبر، ولا سنان أنفذ من شماتتهم.

قيل لأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: أيُ شيءٍ كان عليك في بلائك أشد؟ قال: شماتة الأعداء.

وفي ذلك يقول الشاعر:

كل المصَائب قد تَمُر علىٰ الفتىٰ ... فتهون غير شماتة الأعداءِ

وقال غيره:

تقول العاذلات تسل عنها ... وداوِ عليل قلبك بالسلوِّ

وكيف ونظرة منها اختلاسًا ... ألذ من الشَّماتة بالعدوِّ

ولما قبض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمع بموته نساءٌ من كندة وحضرموت، فخضبنَ أيديهن، وضربنَ بالدفوف، فقال رجل منهم:

أبلغ أبا بكر إذا ما جئته ... أن البغايا من بني مرامِ

أظهرن في موت النبي شماتةً ... وخضبن أيديهن بالغُلَّامِ

فاقطع هديت أكفهن بصارمٍ ... كالبرق أومض في متون غمامِ

فكتب أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلىٰ المهاجر عامله، فأخذهن وقطع أيديهن.

وقالت الحكماء: لا تشتك ضعفك إلىٰ عدوك؛ فإنك تشمته بك وتطمعه فيك.

❊ ❊ ❊

الحسد

الحسد يفسد الدين، ويضعف اليقين، ويذهب المروءة؛ قال الله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء:٥٤].

وقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**استعينوا علىٰ قضاء حوائجكم بالكتمان؛ فإن كل ذي نعمة محسود**»(١).

وقال عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «الحاسد مغتاظ علىٰ مَن لا ذنب له».

وقيل: الحسود غضبان علىٰ القَدَر.

ويقال: ثلاثة لا يهنأ لصاحبها عيش: الحقد، والحسد، وسوء الخلق.

وقيل: بئس الشعار الحسد.

وقيل لبعضهم: ما بال فلان يبغضك؟ قال: لأنه شقيقي في النسب، وجاري في البلد، وشريكي في الصناعة، فذكر جميع دواعي الحسد.

وقال أعرابي: الحسد داء مُنصِف؛ يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود.

وقد قيل: قاتل الله الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله.

وقيل: يصل إلىٰ الحاسد خمسُ عقوبات قبل أن يصل حسَدُه إلىٰ المَحسُود: غمٌّ لا ينقطع، ومصيبة لا يؤجر عليها، ومذمة لا يحمد عليها، وسخط الرب، ويغلق عنه باب التوفيق.

حكي أن رجلًا من العرب دخل علىٰ أحد الخلفاء فقرَّبه وأدناه وجعله نديمه، وصار يدخل علىٰ حريمه من غير استئذان، وكان له وزير حاسد فغار من البدوي

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٤٥٣).

وحسده، وقال في نفسه: إن لم أحتل علىٰ هذا البدوي في قتله أخذ بقلب أمير المؤمنين وأبعدني منه.

فصار يتلطف بالبدوي حتىٰ أتىٰ به إلىٰ منزله، فطبخ له طعامًا وأكثر فيه من الثوم، فلما أكل البدوي منه قال له: احذر أن تقترب من أمير المؤمنين فيشم منك رائحة الثوم فيتأذىٰ من ذلك فإنه يكره رائحته، ثم ذهب الوزير إلىٰ أمير المؤمنين، فخلا به وقال: يا أمير المؤمنين، إن البدوي يقول عنك للناس: إن أمير المؤمنين أبخر وهلكت من رائحة فمه.

فلما دخل البدوي علىٰ أمير المؤمنين جعل كُمَّه علىٰ فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم، فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال: إن الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح، فكتب أمير المؤمنين كتابًا إلىٰ بعض عماله يقول فيه: إذا وصل إليك كتابي هذا، فاضرب رقبة حامله، ثم دعا البدوي ودفع إليه الكتاب، وقال له: امض به إلىٰ فلان وائتني بالجواب.

فامتثل البدوي ما رسم به أمير المؤمنين وأخذ الكتاب وخرج به من عنده، فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير، فقال: أين تريد؟ قال: أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلىٰ عامله فلان، فقال الوزير في نفسه: إن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل، فقال له: يا بدوي، ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك، ويعطيك ألفي دينار؟ فقال: أنت الكبير، وأنت الحاكم، ومهما رأيته من الرأي افعل. قال: أعطني الكتاب، فدفعه إليه، فأعطاه الوزير ألفي دينار، وسار بالكتاب إلىٰ المكان الذي هو قاصده، فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير.

فبعد أيام تذكر الخليفة أمر البدوي، وسأل عن الوزير فأخبر بأن له أيامًا ما ظهر، وأن البدوي بالمدينة مقيم، فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي فحضر، فسأله عن حاله فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها إلىٰ آخرها، فقال له: أنت

قلت عني للناس أني أبخر؟ فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لي به علم، وإنما كان ذلك مكرًا منه وحسدًا، وأعلمه كيف دخل به إلىٰ بيته وأطعمه الثوم وما جرىٰ له معه، فقال أمير المؤمنين: قاتل الله الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله، ثم خلع علىٰ البدوي واتخذه وزيرًا، وراح الوزير بحسده.

وقال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك».

وقال مالك بن دينار: «شهادة القراء مقبولة في كل شيء إلا شهادة بعضهم علىٰ بعض؛ فإنهم أشد تحاسدًا من التيوس».

أيا حاسدًا لي علىٰ نعمتي ... أتدري علىٰ من أسأت الأدَبْ

أسأت علىٰ الله في حُكمه ... لأنك لم ترض لي ما وهَبْ

فأخزاك ربي بأن زادني ... وسد عليك وجوه الطَّلَبْ

قال الأصمعي: «رأيتُ أعرابيًّا قد بلغ عمره مائة وعشرين سنة، فقلت له: ما أطول عمرك؟ فقال: تركت الحسد فبقيت».

وقال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ألا لا تعادُوا نِعَم الله، قيل: ومَن يُعَادي نِعَم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس علىٰ ما آتاهم الله من فضله».

وقيل لعبد الله بن عروة: لم لزمت البدو وتركت قومك؟ فقال: وهل بقي إلا حاسدٌ علىٰ نعمة، أو شامتٌ علىٰ نكبة، قال الشاعر:

يا طالب العيش في أمنٍ وفي دعةٍ ... رغدًا بلا قتر صفوًا بلا رَنْقِ

خلص فؤادك من غلٍّ ومن حسدٍ ... فالغل في القلب مثل الغل في العُنُقِ

وقال آخر:

اصبر علىٰ كيد الحسود ... فإن صبرك قاتلُهْ

فالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكُلُهْ

وقيل لرجل: ما بال الحسود أشد غمًّا؟ قال: لأنه أخذ بنصيبه من غموم الدنيا، ويُضَاف إلىٰ ذلك غمه لسرور الناس.

وشر ما صحب المرء الحسد، فهو همٌّ دائمٌ، وداءٌ مُتمَكِّن، حتىٰ قيل:

هم يَحسُدوني علىٰ موتي فيا أسفا   حتىٰ علىٰ الموت لا أخلو من الحَسَدِ

❊ ❊ ❊

الشجاعة

الشجاعة عماد الفضائل، ومن فقدها لم تكمل فيه فضيلة، ويعبَّرعنها بالصبر وقوة النفس، وأعظم موقف يجب أن تتجلىٰ فيه الشجاعة الجهادُ في سبيل الله، نظرًا لقوة الدافع إليه، وما يعقبه من الأجر العظيم والنعيم المقيم في جنات الخلد.

سمع رجلٌ أبا موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الجنة تحت ظلال السيوف**»(١)، فقال: يا أبا موسىٰ، أنت سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوله؟ قال: نعم، فرجع إلىٰ أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه، فألقاه، ثم مشىٰ بسيفه إلىٰ العدوِّ، فضرب به حتىٰ قُتِل.

وكتب أبو بكر الصديق إلىٰ خالد بن الوليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «اعلم أن عليك عيونًا من الله ترعاك وتراك، فإذا لقيت العدو فاحرص علىٰ الموت توهب لك السلامة، ولا تغسل الشهداء من دمائهم؛ فإن دم الشهيد يكون له نورًا يوم القيامة».

وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين انتهينا إلىٰ خيبر: «**الله أكبر، خربت خيبر، إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**»(٢).

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لغدوةٌ في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها**»(٣).

وجاء عن أنس بن النضر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه لم يشهد بدرًا، فلم يزل متحسرًا يقول: أول مشهد شهده رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غُيِّبت عنه؟ فلما كان يوم أحد قال: واهًا لريح الجنة، إني أجد ريح الجنة دون أُحُد، فقاتل حتىٰ قُتِل، فوُجِد في بدنه بضعٌ وثمانون،

---

(١) رواه البخاري (٣٨٥٢)، ومسلم (٣٥٢١).

(٢) رواه البخاري (٣٥٨)، ومسلم (٢٥٦١).

(٣) رواه البخاري (٢٥٨٣)، ومسلم (٣٤٩٢).

ما بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته الربيع بنت النضر: فما عرفتُه إلا بِبَنانه.

وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كل ميت يُختم علىٰ عمله إلا المُرَابط فإنه ينمَّىٰ له عمله إلىٰ يوم القيامة، ويُؤَمَّن من فتنة القبر**»(١).

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من سأل اللهَ الشهادةَ بصدقٍ، بلَّغه اللهُ منازلَ الشهداء وإن مات علىٰ فراشه**»(٢).

وأصل الخير كله في ثبات القلب، لمَّا خرج يزيد بن عبد الملك من بعض مقاصيره وعليه درع، وذلك في أيام قتال يزيد بن المهلب، فأنشده مسلمة قول الحطيئة:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم   دون النساء ولو باتت بأطهَارِ

فقال يزيد: إنما ذاك إذا حاربنا أكفاءنا، وأما مثل هذا ونظرائه فلا، فقام إليه مسلمة وقبله بين عينيه.

ولما أقبل كسرىٰ بن هرمز إلىٰ محاربة بهرام قال له صاحبه: أما تستعد؟ قال: عدتي ثبات قلبي، وإصابة رأيي، ونصل سيفي، ونصرة خالقي.

وقيل: لما مات ملك الفرس أرادوا أن يملكوا عليهم رجلًا من آل ساسان، فوفد عليهم بهرام جور فقال: اعمدوا إلىٰ أسدين جائعين، فاطرحوا بينهما التاج، فمن أخذه فهو الملك، ففعلوا، فدنا منهما فأهويا نحوه، فأخذ برأس أحدهما فأدناه من رأس الآخر، ثم نطحه به فقتلهما جميعًا، وشد علىٰ التاج فأخذه ووضعه علىٰ رأسه، وملكته الفرس عليهم.

والشجاع محبوب لكل أحد، حتىٰ قيل: الشجاع محبَّبٌ حتىٰ إلىٰ عدوه، والجبانُ مبغَّض حتىٰ إلىٰ أمه.

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٢١٨).

(٢) رواه مسلم (٣٥٣٢).

قالت الحُكماء: الشجاعة عند اللقاء علىٰ ثلاثة أوجه:

الأول: إذا التقىٰ الجمعان وتزاحف العسكران، وتكالحت الأحداق بالأحداق، برز من الصف إلىٰ وسط المعترك يحمل ويكر وينادي: هل من مبارز.

والثاني: إذا نشب القوم واختلطوا ولم يدر أحد منهم من أين يأتيه، يكون رابط الجأش ساكن القلب حاضر اللب، لم يخالطه الدهش ولم تأخذه الحيرة، فيتقلب تقلب المالك لأموره القائم علىٰ نفسه.

والثالث: إذا انهزم أصحابه يلزم الساقة ويضرب في وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم، ويقوي قلوب أصحابه، ويرجي الضعيف ويمدهم بالكلام الجميل، ويشجع نفوسهم، فمن وقع أقامَه، ومن وقف حمله، ومن كبا به فرسه حماه، حتىٰ ييأس العدو منهم، وهذا أبلغهم شجاعة.

وعن مثل هذا قالوا: إن المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين، ومِن أكرم الكرم الدفاعُ عن الحرم.

والشجاعُ مع ثقته بنفسه لا يحتقر أحدًا من الناس مهما ضعف قدره، فمن الحزم ألَّا يحتقِرَ الرجلُ عدوه وإن كان ذليلًا، ولا يغفل عنه وإن كان حقيرًا، فكم برغوث أسهر فيلًا، ومنع الرقادَ مَلِكًا جليلًا، وقد قيل:

فلا تحقرن عدوًّا رماك ... وإن كان في ساعديه قِصَرْ
فإن السيوفَ تحِزُّ الرقابَ ... وتعجز عما تنالُ الإِبَرْ

ومن قصص الشجاعة البَاهرة: ما ذكر أنه دارت حرب بين المسلمين والكفار، ثم افترقوا، فوجدوا في المعترك قطعة خوذة قدر الثلث بما حوته من الرأس، فقالوا: إنه لم ير قط ضربة أقوىٰ منها ولم يسمع بمثلها في جاهلية ولا إسلام، فحملتها الروم وعلقتها في كنيسة لهم، فكانوا إذا عُيِّروا بانهزامهم يقولون: لقينا أقوامًا هذا ضربهم، فيرحل أبطال الروم إليها ليروها.

وحُكي عن المنصور بن أبي عامر أنه وقف في بعض غزواته علىٰ مرتفع من الأرض، فرأىٰ جيوش المسلمين من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، قد ملئوا السهل والجبل، فالتفَتَ إلىٰ مقدَّم العسكر، وهو رجل يُعرف بابن المضجعي، فقال له: كيف ترىٰ هذا العسكر أيها الوزير؟ قال: أرىٰ جمعًا كثيرًا وجيشًا واسعًا كبيرًا.

فقال له المنصور: ما ترىٰ هل يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبسالة؟ فسكت ابن المضجعي. قال له المنصور: ما سكوتك، أليس في هذا الجيش ألف مقاتل؟ قال: لا، فتعجب المنصور، ثم قال: فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الأبطال المعدودين؟ قال: لا، فحنق المنصور، ثم قال: أفيهم مائة رجل من الأبطال. قال: لا، قال: أفيهم خمسون رجلًا من الأبطال؟ قال: لا، فسبه المنصور وأغلظ عليه، وأمر به فأخرج علىٰ أسوأ حال.

فلما توسطوا بلاد الروم اجتمعت الروم وتصاف الجمعان، فبرز علج من الروم بين الصفين شاكي السلاح، وجعل يكر ويفر ويقول: هل من مبارز، فبرز إليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج ففرح المشركون وصاحوا، واضطرب المسلمون لها، ثم جعل العلج يموج بين الصفين وينادي: هل من مبارز اثنين لواحد؟ فبرز إليه رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة فقتله العلج، وجعل يكر ويحمل، وينادي ويقول: هل من مبارز ثلاثة لواحد؟، فبرز إليه رجل من المسلمين، فقتله العلج فصاح المشركون، وذل المسلمون، وكادت أن تكون كسرة، فقيل للمنصور: ما لها إلا ابن المضجعي.

فبعث إليه فحضر، فقال له المنصور: ألا ترىٰ ما صنع هذا العلج الكلب منذ اليوم؟ فقال: لقد رأيته، فما الذي تريد؟ قال: أن تكفي المسلمين شره، قال: الآن يُكفىٰ المسلمون شره -إن شاء الله تعالىٰ-، ثم قصد إلىٰ رجال يعرفهم، فاستقبله رجل من أهل الثغور علىٰ فرسٍ قد تهرت أوراكُها هُزالًا، وهو حامل قربةَ ماءٍ بين يديه علىٰ الفرس، والرجل في حليته ونفسِه غير متصنع، فقال له ابن المضجعي: ألا ترىٰ ما يصنع هذا العلج منذ اليوم قال: قد رأيته، فما الذي تريد؟ قال: أريد أن تكفي

المسلمين شره، قال: حبًّا وكرامة.

ثم إنه وضع القربة علىٰ الأرض، وبرز إليه غير مكترث به، فتجاولا ساعة، فلم ير الناس إلا المسلم خارجًا إليهم يركض ولا يدرون ما هناك، وإذا برأس العلج يلعب به في يده، ثم ألقىٰ الرأس بين يدي المنصور، فقال له ابن المضجعي: عن هؤلاء الرجال أخبرتك.

قال: فرد ابن المضجعي إلىٰ منزلته، وأكرمه ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين.

وحُكي أنه كان للعرب فارس يقال له: ابن فتحون، وكان أشجع العرب والعجم في زمانه، وكان المستعين يكرمه ويعظمه ويجري له في كل عطية خمسمائة دينار، وكانت جيوش الكفار تهابه، وتعرف منه الشجاعة وتخشىٰ لقاءه، فيحكىٰ أن الرومي كان إذا سقىٰ فرسه ولم يشرب يقول له: ويلك لم لا تشرب، هل رأيت ابن فتحون في الماء؟

فحسده نظراؤه علىٰ كثرة العطاء ومنزلته من السلطان، فوشوا به عند المستعين فأبعده ومنعه من عطائه، ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلىٰ بلاد الروم، فتقابل المسلمون والمشركون صفوفًا، ثم برز علج إلىٰ وسط الميدان، ونادىٰ وقال: هل من مبارز؟ فبرز إليه فارس من المسلمين، فتجاولا ساعة فقتله الرومي، فصاح المشركون سرورًا، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الرومي يجول بين الصفين وينادي: هل من اثنين لواحد؟، فخرج إليه فارس من المسلمين فقتله الرومي، فصاح الكفار سرورًا، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الرومي يجول بين الصفين وينادي ويقول: ثلاثة لواحد، فلم يجترئ أحد من المسلمين أن يخرج إليه.

وبقي الناس في حيرة، فقيل للسلطان: ما لها إلا أبو الوليد بن فتحون فدعاه وتلطف به، وقال له: يا أبا الوليد، ما ترىٰ ما يصنع هذا العلج؟ فقال: هاهو بعيني، قال: فما الحيلة فيه؟ قال: الساعة أكفي المسلمين شره إن شاء الله، فلبس قميص

كتان، واستوىٰ علىٰ سرج فرسه بلا سلاح، وأخذ بيده سوطًا طويلًا، وفي طرفه عقدة معقودة، ثم برز إليه فتعجب منه النصراني، ثم حمل كل واحد منهما علىٰ صاحبه فلم تخط طعنة النصراني سرج ابن فتحون، وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس ونزل إلىٰ الأرض لا شيء منه في السرج، ثم انقلب في سرجه وحمل علىٰ العلج وضربه بالسوط، فالتوىٰ علىٰ عنقه، فجذبه بيده من السرج فاقتلعه، وجاء به يجره حتىٰ ألقاه بين يدي المستعين.

فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ في صنعه مع أبي الوليد بن فتحون، فاعتذر إليه، وأكرمه، وأحسن إليه، وبالغ في الإنعام عليه، ورده إلىٰ أحسن أحواله، وكان من أعز الناس إليه.

وفي سنة إحدىٰ وأربعين ومائة خرجت طائفة يقال لهم: الراوندية علىٰ أبي جعفر المنصور؛ وذلك أنَّ المنصور قد أرسل إلىٰ رؤسائهم فحبس منهم مائتين، فغضبوا من ذلك، وعمدوا إلىٰ نعشٍ فحملوه علىٰ كواهلهم وليس عليه أحد، واجتمعوا حوله كأنهم يشيعون جنازة، فاجتازوا بباب السجن وألقوا النعش ودخلوا السجن قهرًا واستخرجوا مَن فيه من أصحابهم، وقصدوا نحو المنصور وهم في ستمائة.

فتنادىٰ الناس وغلِّقت أبواب البلد، وخرج المنصور من القصر ماشيًا؛ لأنه لم يكن في القصر دابة يركبها، ثم جيء بدابة فركبها وقصد نحو الراوندية، وجاء الناس من كل ناحية، وجاء معن بن زائدة، فلما رأىٰ أميرَ المؤمنين ترجل وأخذ بلجام دابة المنصور وقال: يا أمير المؤمنين، ارجع ونحن نكفيكهم، فأبىٰ، وقام أهل السوق إليهم فقاتلوهم، وجاءت الجيوش فالتفُّوا عليهم من كل ناحية، فحصدوهم عن آخرهم حتىٰ لم يبق منهم بقية، وجرحوا عثمان بن نهيك بسهم بين كتفيه فمرض أيامًا ثم مات، فولي الصلاة عليه الخليفة المنصور، وقام علىٰ قبره حتىٰ دفن ودعا له، وولَّىٰ أخاه عيسىٰ ابن نهيك علىٰ الحرس، وكان ذلك كله بالمدينة الهاشمية من الكوفة.

ولما فرغ المنصور من قتال الراوندية ذلك اليوم صلىٰ بالناس الظهر في آخر

وقتها، ثم أُتِي بالطعام، فقال: أين معن بن زائدة؟ وأمسك عن الطعام حتىٰ جاء معن، فأجلسه إلىٰ جانبه، ثم أخذ في شكره أمام مَن حضر، لِما رأىٰ من شهامته يومئذٍ، فقال معن: واللهِ يا أمير المؤمنين، لقد جئتُ وإنِّي لَوَجِل، فلما رأيتُ استهانتَك بهم وإقدامَك عليهم قَوِي قلبي بذلك، وما ظننت أنَّ أحدًا يكون في الحرب هكذا، فذاك الذي شجعني يا أمير المؤمنين.

فأمر له المنصور بعشرة آلاف، ورضي عنه وولاه اليمن، وكان معنُ بن زائدة قبل ذلك مختفيًا؛ لأنه قاتل المسودة مع ابن هبيرة، فلم يظهر إلا في هذا اليوم، فلما رأىٰ الخليفة صدقه في قتاله رضي عنه.

وقيل: إن المنصور كان يقول: أخطأت في ثلاث: قتلت أبا مسلم وأنا في جماعة قليلة، وحين خرجت إلىٰ الشام ولو اختلف سيفان بالعراق لذهبت الخلافة، ويوم الراوندية لو أصابني سهم غَرب لذهبت ضياعًا، وهذا من حزمه وصرامته.

وكتب عبد الملك بن مروان إلىٰ بكير بن وشاح نائب ابن خازم علىٰ مرو يعده بإمرة خراسان إن هو خلع عبد الله بن خازم فخلعه، فجاءه ابن خازم فقاتله فقُتل في المعركة عبد الله بن خازم، قتله رجل يقال له: وكيع بن عميرة، وقد ساعده غيره، فجلس وكيع علىٰ صدره وفيه رمق، فذهب لينوء فلم يتمكن من ذلك، وجعل وكيع يقول: يا ثارات دويلة -يعني: أخاه- وكان دويلة قد قتله ابن خازم.

ثمَّ إن ابن خازم بصَق في وجه وكيع، قال وكيع: لم أرَ أحدًا أكثرَ ريقًا منه في تلك الحال، وكان أبو هبيرة إذا ذكر هذا يقول: هذه والله البسالة، وقال له ابن خازم: ويحك، أتقتلني بأخيك؟ لعنك الله، أتقتل كبش مُضَر بأخيك العلج وكان لا يساوي كفًّا من تراب؟ فاحتز رأسه، وأقبل بكير بن وشاح فأخذ الرأس، ثم بعثه إلىٰ عبد الملك بن مروان، وكتب إليه بالنصر والظفر، ومقتل عبد الله بن خازم، فسُرَّ بذلك سرورًا كثيرًا، وكتب إلىٰ بكير بن وشاح فأقره علىٰ نيابة خراسان.

وقال عبد الملك بن مروان يومًا لجلسائه: مَن أشجع العرب؟ قالوا: شبيب، قطري

ابن الفجاءة، فلان، فلان، فقال عبد الملك: إنَّ أشجع العرب لَرَجل جمع بين سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة، سيد ضاحية العرب، ووليَ العراقين خمس سنين، فأصاب ألف ألف، وألف ألف، وألف ألف، وأُعطي الأمان فأبىٰ، ومشىٰ بسيفه حتىٰ مات، ذلك مصعب بن الزبير، لا مَن قطع الجسور مرة هاهنا، ومرة هاهنا.

ولما ملَّكت الروم عليهم النقفور، نقضوا الصلح الذي كان بينهم وبين المسلمين والذي كان قد عقده الرشيد بينه وبين ملكة الروم الملقبة (أغسطة)، وذلك أن الروم عزلوها عنهم وملكوا عليهم النقفور وكان شجاعًا، فكتب إلىٰ الرشيد: من نقفور ملك الروم إلىٰ هارون ملك العرب، أما بعد، فإن الملكة التي كانت قبلي حملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أمثاله إليها، ولكن ذلك من ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها، وافتد نفسك، وإلا فالسيف بيننا وبينك.

فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب، حتىٰ لم يمكن أحدًا أن ينظر إليه دون أن يخاطبه، وتفرق جلساؤه خوفًا منه، واستدعىٰ بدواة وكتب علىٰ ظهر الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلىٰ نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه، والسلام.

ثم سار من يومه حتىٰ أقام بباب هرقلة، ففتحها واصطفىٰ ابنةَ ملكها، وغنم من الأموال شيئًا كثيرًا، وخرَّب وأحرق، فطلب نقفور منه الموادعة علىٰ خراج يؤديه إليه في كل سنة، فأجابه الرشيد إلىٰ ذلك.

وفي سنة ستٍّ وسبعين بايع الخوارج شبيبًا، فدخل الكوفة ومعه زوجته غزالة، فبعث الحجاج جيشًا فقاتلوه فهزموه ثم هزمهم بعد ذلك، فجهز الحجاج جيشًا قوامه أربعة آلاف مقاتل، فساروا في طلب شبيب، فجعل شبيب يسير بين أيديهم قليلًا قليلًا وهو يريهم أنه خائف منهم، ثم يكر في كل وقت علىٰ المقدمة فيكسرها، وينهب ما فيها ولا يواجه أحدًا إلا هزمه، والحجاج يلح في طلبه، ويجهز إليه السرايا

والبعوث والمدد، وشبيب لا يبالي بأحد، وإنَّ ما معه مائة وستون فارسًا، وهذا من أعجب العجب.

ثم سار من طريق أخرىٰ حتىٰ واجه الكوفة، وهو يريد أن يحاصرها، فخرج الجيش بكماله لقتاله، وبلغه ذلك فلم يُبَالِ بهم، وانزعج الناس وخافوا منه، وهو نازل بالكوفة ليس عنده خبر منهم ولا خوف، وقد أمر بطعام وشواء أن يصنع له، فقيل له: قد جاءك الجند فأدرك نفسك، فجعل لا يلتفت إلىٰ ذلك ولا يكترث بهم، ويقول للدهقان الذي يصنع له الطعام: عجِّل به.

فلما استوىٰ أكَلَه، ثم توضأ، ثم صلىٰ بأصحابه صلاة تامة بتطويل وطمأنينة، ثم لبس درعه، وتقلَّد سيفين، وأخذ عمودَ حديد، ثم قال: أسرجوا لي البغلة، فقال له أخوه: أفي هذا اليوم تركب بغلة، وقد أحاط بك الأعداء من كل جانب؟ قال: نعم، فركبها، ثم تقدَّم وهو يقول: أنا أبو المدله، لا حكم إلا لله، وتقدم إلىٰ أمير الجيش الذي تقدموا إليه، فضربه بعمود الحديد فقتله، وحمل علىٰ الجيش الآخر الكثيف فصرع أميره، وهرب الناس من بين يديه، ولجأوا إلىٰ الكوفة، ومضىٰ شبيب حتىٰ أغار علىٰ أسفل الفرات، وقتل جماعة هناك.

وخرج الحجاج من الكوفة إلىٰ البصرة، واستخلف علىٰ الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة، ثم اقترب شبيب من الكوفة يريد دخولها، فكتب عروة بن المغيرة إلىٰ الحجاج يعلمه بذلك، فأسرع الحجاج الخروج من البصرة وقصد الكوفة فأسرع السير، وبادره شبيب إلىٰ الكوفة، فسبقه الحجاج إليها، فدخلها العصر، ووصل شبيب عند الغروب.

فلما كان آخر الليل دخل شبيب الكوفة، وقصد قصر الإمارة، فضرب بابه بعموده الحديد، فأثرت ضربته في الباب، وسلك في طرق المدينة، وتقصَّد محال القبائل، وقتل رجالًا من رؤساء أهل الكوفة وأشرافهم، وكان مع شبيب امرأته غزالة، وكانت معروفة بالشجاعة، فدخلت مسجد الكوفة، وجلست علىٰ منبره، وجعلت تذم بني مروان.

ونادىٰ الحجاج في الناس: يا خيل الله اركبي وأبشري، فخرج شبيب من الكوفة، فجهز الحجاج في أثره ستة آلاف مقاتل، فساروا وراءه، وهو بين أيديهم، ينعس ويهز رأسه، وفي أوقات كثيرة يكر عليهم شبيب، فيقتل منهم جماعة، حتىٰ قتل من جيش الحجاج خلقًا كثيرًا.

فوجه الحجاج عثمان بن قطن الحارثي فالتقوا، فقتل عثمان بن قطن، وانهزمت جموعه بعد أن قُتل من أصحابه ستمائة نفس، واستفحل أمر شبيب، وتزلزل له عبد الملك بن مروان، والحجاج، وسائر الأمراء، وخاف عبد الملك منه خوفًا شديدًا، فبعث له جيشًا من أهل الشام، فقدموا في السنة الآتية، وما مع شبيب إلا نفرٌ قليل، وقد ملأ قلوب الناس رعبًا، وجرت خطوب كثيرة له معهم.

ولم يزل ذلك دأبه ودأبهم حتىٰ استهلت هذه السنة، فكتب الحجاج إلىٰ نائبه علىٰ البصرة الحكم بن أيوب بن الحكم وهو زوج ابنة الحجاج يأمره أن يجهز جيشًا أربعة آلاف يتطلبون شبيبًا، ففعل فالتقوا فاقتتلوا قتالًا شديدًا، وصبر كل من الفريقين لصاحبه، ثم عزم أصحاب الحجاج فحملوا علىٰ الخوارج، ففروا بين أيديهم ذاهبين حتىٰ اضطروهم إلىٰ جسر هناك، فوقف عنده شبيب في مائة من أصحابه، وعجز سفيان بن الأبرد عن مقاومته، ورده عن موقفه هذا بعدما تقاتلوا نهارًا كاملًا أشد قتال يكون، ثم أمر سفيان بن الأبرد الرماة من أصحابه فرشقوهم بالنبل رشقًا واحدًا، ففرت الخوارج، ثم كرَّت علىٰ الرماة، فقتلوا منهم نحوًا من ثلاثين رجلًا من أصحاب ابن الأبرد، وجاء الليل بظلامه فكفَّ الناس بعضهم عن بعض، وبات كل من الفريقين مصرًّا علىٰ مُناهَضَة الآخر.

فلما طلع الفجر عبر شبيب وأصحابه علىٰ الجسر، فبينما شبيب علىٰ متن الجسر، وهو علىٰ حصان له وبين يديه فرس أنثىٰ، فنزا فرسه وهو علىٰ الجسر، ونزل حافر فرسه علىٰ حرف السفينة فسقط في الماء، فقال: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال:٤٢]، ثم انغمر في الماء، ثم ارتفع وهو يقول: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ

ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس:٣٨]، فغرق.

ولما نُعي شبيب إلىٰ أمه، قالت: صدقتم، إني كنت رأيت في المنام وأنا حامل به أنه قد خرج مني شهاب من نار، فعلمت أنه لا يطفئه إلا الماء.

وكانت أمه جارية اسمها جهيزة، وكانت جميلة، وكانت من أشجع النساء تقاتل مع ابنها في الحروب فقُتلت في هذه الغزوة، وكذلك قُتلت زوجته غزالة، وكانت شديدة البأس خارجية، وكان الحجاج مع هيبته يخاف منها أشد خوف، حتىٰ قال فيه بعض الشعراء:

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافرِ

هلا برزتَ إلىٰ غزالة في الوغىٰ بل كان قلبك في جناحَي طائرِ

وكان قطري بن الفجاءة التميمي الخارجي من الشجعان المشاهير، قيل: إنه مكث عشرين سنة يسلم عليه أصحابه بالخلافة، وقد جرت له خطوب وحروب مع جيش المهلب بن أبي صفرة من جهة الحجاج وغيره، وكان خروجه في زمن مصعب ابن الزبير، وتغلب علىٰ قلاع كثيرة وأقاليم، وقد أرسل إليه الحجاج جيوشًا كثيرة فهزمها، وبرز إليه رجل وهو علىٰ فرس هزيل، وبيده عمود حديد، فلما قرب منه كشف قطري عن وجهه، فولىٰ الرجل هاربًا، فقال له قطري: إلىٰ أين؟ أما تستحي أن تفر ولم تر طعنًا ولا ضربًا؟ فقال: إنَّ الإنسان لا يستحي أن يفر من مثلك.

وفي سنة ثلاث وعشرين ومائتين ورد الكتاب إلىٰ ملك الروم توفيل أنَّ ملك العرب المعتصم قد جهَّز جمهور جيشه لقتال بعض الجهات، ولم يبق في أطراف بلاده من يحفظها، فإن كنت تريد الغنيمة فانهض سريعًا إلىٰ ما حولك من بلاده فخذها، فإنك لا تجد أحدًا يمانعك عنها.

فركب توفيل في مائة ألف حتىٰ وصلوا إلىٰ زبطرة فقتلوا من رجالها خلقًا كثيرًا وأسروا من حريمها أمة كثيرة، وأوقع ملك الروم توفيل بأهل ملطية من المسلمين

وما والاها ملحمة عظيمة قتل فيها منهم خلقًا كثيرًا من المسلمين، وأسر ما لا يحصون كثرة، وكان من جملة من أسر ألف امرأة من المسلمات، وشوَّه من وقع في أسره من المسلمين، فقطع آذانهم وآنافهم وسمل أعينهم.

فبلغ ذلك المعتصم فانزعج لذلك جدًّا، وصرخ في قصره بالنفير، ونهض من حينه، فأمر بتعبئة الجيوش، واستدعىٰ القاضي والعدول فأشهدهم أن ما يملكه من الضياع ثلثه صدقة، وثلثه لولده، وثلثه لمواليه.

وخرج من بغداد فعسكر غربي دجلة، ووجه بين يديه طائفةً من الأمراء ومعهم خلق من الجيش إعانة لأهل زبطرة، فأسرعوا السير، فوجدوا ملك الروم قد فعل ما فعل وانشمر إلىٰ بلاده راجعًا، وتفارط الحال ولم يمكن الاستدراك فيه، ورجعوا إلىٰ الخليفة لإعلامه بما وقع من الأمر، فقال للأمراء: أي بلاد الروم أمنع؟ قالوا: عمورية، لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية.

فاستدعىٰ المعتصم بالجيوش، وتجهَّز جهازًا لم يتجهزه أحد كان قبله من الخلفاء، وأخذ معه من آلات الحرب والأحمال والجمال والقِرَب والدواب والخيل والبغال شيئًا لم يُسمع بمثله، وسار إليها في جحافل كالجبال، وعبأ جيشَه تعبئة لم يُسمع بمثلها، وقدم بين يديه الأمراء المعروفين بالحرب، فانتهىٰ في سيره إلىٰ نهر اللمس وهو قريب من طرسوس.

وقد ركب ملك الروم في جيشه، فقصد نحو المعتصم فتقاربا حتىٰ كان بينهما مسافة قريبة، ودخل أحد قادة المعتصم بلاد الروم من ناحية أخرىٰ، فجاء من وراء ملك الروم فحار ملك الروم في أمره وضاق ذرعه بسبب ذلك، إن هو ناجز الخليفة جاءه القائد العباسي من خلفه، فالتقيا عليه فيهلك، وإن سار إلىٰ أحدهما وترك الآخر أخذه من ورائه.

ثم اقترب منه القائد العباسي فسار إليه ملك الروم في جماعة من الجيش، واستخلف

علىٰ بقيته قريبًا له، فالتقىٰ هو والقائد العباسي فثبت له، وقتل من الروم خلقًا وجرح آخرين، وتفلتت فئة ملك الروم، وبلغه أن بقية الجيش قد شردوا عن قرابته وذهبوا عنه وتفرقوا عليه فأسرع العودة، فإذا نظام الجيش قد انحل، فغضب علىٰ قرابته وضرب عنقه، وجاءت الأخبار بذلك كله إلىٰ المعتصم، فسره ذلك جدًّا، فركب من فوره وجاء إلىٰ أنقرة ووافاه القائد العباسي بمن معه إلىٰ هنالك، فوجدوا أهلها قد هربوا منها وتفرقوا عنها، فتقوَّوا منها بطعام وعلف كثير.

ثم فرق المعتصم جيشه ثلاث فرق، وجعل علىٰ كل فرقة أميرًا، وأمرهم أنهم مهما مروا عليه من القرىٰ حرقوا، وخربوا، وأسروا، وغنموا، وسار بهم كذلك قاصدًا إلىٰ عمورية حتىٰ وصلها، فدار حولها دورة، ثم نزل قريبًا منها، وقد تحصن أهلها، وملئوا أبراجها بالرجال والسلاح، وكانت مدينة عظيمة كبيرة جدًّا ذات سور منيع، وأبراج عالية كبيرة، وقسم المعتصم الأبراج علىٰ الأمراء، فنزل كل أمير تجاه الموضع الذي عينه له، ونزل المعتصم بمكان هناك قد أرشده إليه بعض من كان فيها من المسلمين الأسراء، وكان قد تنصر عندهم وتزوج منهم.

فلما رأىٰ أمير المؤمنين والمسلمين معه رجع إلىٰ الإسلام، وخرج إلىٰ الخليفة فأسلم وأعلمه بمكانٍ في السور كان قد هدمه السيل وبُني بناءً فاسدًا بلا أساس، فنصب المعتصم المجانيق حول عمورية فكان أول موضع انهدم ذلك الموضع الذي نصح فيه ذلك الأسير، فبادر أهل البلد، فسدُّوه بالخشب الكبار المتلاصقة، فألح عليها المنجنيق فكسرها ولم تغن شيئًا، وانهدم السور من ذلك الجانب وتفسَّخ.

فكتب نائب البلد إلىٰ ملك الروم يعلمه بذلك، وبعث ذلك مع غلامين من قومهم، فلما مروا بالجيش حُمِلَا إلىٰ المعتصم فقررَهما، فإذا معهما كتاب نائب عمورية إلىٰ ملك الروم يعلمه بما حصل لهم من الحصار، وأنه عازم علىٰ الخروج من أبواب البلد بمن معه بغتة فيناجز المسلمين كائنًا في ذلك ما كان.

فأمر المعتصم عند ذلك بتجديد الحرس والاحتفاظ فيه من خروج الروم بغتة، فضاقت الروم ذرعًا بذلك، وألح عليهم المسلمون في الحصار، وقد أعدَّ المعتصم عليها المجانيق الكثيرة والدبابات وغير ذلك من آلات الحرب، ولما رأىٰ المعتصم عمق خندقها، وارتفاع سورها عمل المجانيق في مقاومة سورها، وكان قد غنم في الطريق غنمًا كثيرًا جدًّا ففرقها في الناس، وقال: ليأكل الرجل الرأس، وليجئ بملء جلده ترابًا فيطرحه في الخندق.

ففعل الناس ذلك، فتساوىٰ الخندق بوجه الأرض من كثرة ما طرح فيه من الأغنام، ثم أمر بالتراب، فوضع فوق ذلك حتىٰ صار طريقًا ممهدًا، وبينما الناس في الحرس إذ هدم المنجنيق ذلك الموضع المعيب من السور، فلما سقط ما بين البرجين سمع الناس هدة عظيمة، فظنها من لم يرها أن الروم قد خرجوا علىٰ الناس بغتة، فبعث المعتصم من ينادي في الناس: إنما ذلك سقوط السور.

ففرح المسلمون بذلك فرحًا شديدًا، لكن لم يكن يتسع أن يدخل منه الجيش لضيقه عنهم، فأمر المعتصم بالمجانيق المتفرقة فجمعت هنالك، ونصبت حول ذلك الموضع الذي سقط، ليضرب بها ما حوله ليتسع لدخول الخيل والرجال، وقوي الحصار هنالك جدًّا، وقد وكلت الروم لكل برج من أبراج السور أميرًا يحفظه، واتفق أن ذلك الأمير الذي انهدم ما عنده من السور ضعف عن مقاومة ما يلقاه من المسلمين، فذهب إلىٰ نائب عمورية، فسأله النجدة، فامتنع أحد من الروم أن ينجده، وقالوا: لا نترك ما نحن بصدده من حفظ أماكننا التي عينت لنا.

فلما يئس منهم خرج إلىٰ المعتصم ليجتمع به، فلما وصل إليه أَمَر المعتصم المسلمين أن يدخلوا البلد من تلك الثغرة التي قد انهدمت وخلت من المقاتلة، فركب المسلمون نحوها، وتكاثروا علىٰ أهلها، ودخلوا البلد قهرًا، وتتابع المسلمون إليها يكبرون، وتفرقت الروم عن أماكنها، فجعلوا يقتلونهم في كل مكان حيث وجدوهم وأين ثقفوهم، وقد حصروهم في كنيسة لهم هائلة، ففتحوها قسرًا وقتلوا

من فيها قهرًا، وأحرقوا عليهم باب الكنيسة فأُحرقوا عن آخرهم، ولم يبق فيها موضع محصن سوىٰ المكان الذي فيه النائب في حصن منيع.

فركب المعتصم فرسه وجاء حتىٰ وقف بحذاء الحصن الذي فيه نائب عمورية، فناداه المنادي: ويحك يا ياطس، هذا أمير المؤمنين واقف تجاهك، فقال: ليس ياطس هاهنا، مرتين، فغضب المعتصم من ذلك وولىٰ، فنادىٰ ياطس: هذا ياطس، هذا ياطس، فرجع الخليفة ونصب السلالم علىٰ الحصن، وطلعت الرسل إليه، فقالوا له: ويحك، انزل علىٰ حكم أمير المؤمنين، فتمنع، ثم نزل متقلدًا سيفًا، فوضع السيف من عنقه، ثم جيء به حتىٰ أوقف بين يدي المعتصم، فضربه بالسوط علىٰ رأسه، ثم أمر به أن يمشي مهانًا إلىٰ المكان الذي فيه الخليفة نازل، فأوثق هناك، وأخذ المسلمون من عمورية أموالًا عظيمة وغنائم لا تُحدُّ ولا توصف، فحملوا ما أمكن حمله، وأمر المعتصم بإحراق ما بقي من ذلك، وبإحراق ما هنالك من المجانيق والدبابات وآلات الحرب، لئلَّا يتقوىٰ بها الروم علىٰ شيء من حرب المسلمين، وانصرف راجعًا عن عمورية إلىٰ ناحية طرسوس بعد إقامته عليها خمسة وخمسين يومًا.

وقال خفيف السمرقندي: كنت مع مولاي المعتضد في بعض متصيداته، وكان قد انقطع عن العسكر وليس معه غيري، إذ خرج علينا أسدٌ فقصدَنا، فقال لي المعتضد: يا خفيف، أفيك خير؟ قلت: لا والله يا مولاي، قال: ولا أن تمسك فرسي وأنزل أنا؟ فقلت: بلىٰ.

قال: فنزل عن فرسه فأمسكتها، وغرز أطراف ثيابه في منطقته واستل سيفه ورمىٰ بقرابه إلي، ثم تقدم إلىٰ الأسد فوثب الأسد عليه فضربه المعتضد بالسيف فأطار يده، فاشتغل الأسد بيده فضربه ثانية علىٰ هامته ففلقها، فخرَّ الأسد صريعًا، فدنا منه فمسح سيفه في صوفه، ثم أقبل إليَّ فأغمد سيفه في قرابه ثم ركب فرسه ثم عدنا إلىٰ العسكر، قال: وصحبتُه إلىٰ أن مات، فوالله ما سمعته ذكر ذلك لأحد، فما أدري من أي شيء أعجب، من شجاعته أم من عدم احتفاله بذلك حيث لم يذكره لأحد، أم من

عدم عتبه عليَّ حيث ضننت بنفسي عنه؟ والله ما عاتبني في ذلك قط.

وذكر القاضي أبو الحسن محمد بن عبد الواحد الهاشمي عن شيخ من التجار قال: كان لي علىٰ بعض الأمراء مال كثير فماطلني ومنعني حقي، وجعل كلما جئت أطالبه حجبني عنه ويأمر غلمانه يؤذونني، فاشتكيت عليه إلىٰ الوزير فلم يفد ذلك شيئًا، وإلىٰ أولياء الأمر من الدولة فلم يقطعوا منه شيئًا، وما زاده ذلك إلا منعًا وجحودًا، فأيست من المال الذي عليه ودخلني همٌّ من جهته.

فبينما أنا كذلك وأنا حائر إلىٰ مَن أشتكي إذ قال لي رجل: ألا تأتي فلانًا الخياط إمام مسجدٍ هناك، فقلت: وما عسىٰ أن يصنع خياط مع هذا الظالم، وأعيان الدولة لم يقطعوا فيه؟! فقال لي: هو أقطع وأخوف عنده من جميع مَن اشتكيت إليه، فاذهب إليه لعلك أن تجد عنده فرجًا.

قال: فقصدته غير محتفل في أمره، فذكرت له حاجتي ومالي، وما لقيت من هذا الظالم، فقام معي، وحين عاينه الأمير قام إليه وأكرمه واحترمه، وبادر إلىٰ قضاء حقي الذي عليه فأعطانيه كاملًا من غير أن يكون منه إلىٰ الأمير كبيرُ أمرٍ غير أنه قال له: ادفع إلىٰ هذا الرجل حقه وإلا أذنت.

فتغير لون الأمير ودفع إليَّ حقي، قال التاجر: فعجبت من ذلك الخياط، مع رثاثة حاله وضعف بنيته كيف انطاع ذلك الأمير له، ثم إني عرضت عليه شيئًا من المال فلم يقبل مني شيئًا، وقال: لو أردت هذا لكان لي من الأموال ما لا يُحصىٰ.

فسألته عن خبره، وذكرت له تعجبي منه وألححت عليه، فقال: إن سبب ذلك أنه كان عندنا هاهنا رجل تركي شاب حسن أمير، فلما كان ذات يوم أقبلت امرأة حسناء قد خرجت من الحمام وعليها ثياب مرتفعة ذات قيمة، فقام إليها وهو سكران فتعلَّق بها يريدها علىٰ نفسها ليدخلها منزله، وهي تأبىٰ عليه وتصرخ بأعلىٰ صوتها: يا معشر المسلمين، أنا امرأة ذات زوج، وهذا الرجل يريدني علىٰ نفسي ليدخلني منزله، وقد حلف زوجي بالطلاق ألا أبيت في غير منزله، ومتىٰ بت هاهنا طلقت منه ولحقني

بسبب ذلك عار لا تدحضه الأيام ولا تغسله المدامع.

قال الخياط: فقمت إليه فأنكرت عليه، وأردت خلاص المرأة من يديه، فضربني بدبوس في يده فشج رأسي، وغلب المرأة علىٰ نفسها وأدخلها منزله قهرًا، فرجعت أنا فغسلت الدم عني وعصبت رأسي وصليت بالناس العشاء، ثم قلت للجماعة: إنَّ هذا قد فعل ما قد علمتم فقوموا معي إليه لننكر عليه ونخلص المرأة منه، فقام الناس معي فهجمنا عليه في داره، فثار إلينا في جماعة من غلمانه بأيديهم العصي والدبابيس يضربون الناس، وقصدني هو مِن بينهم فضربني ضربًا شديدًا مبرِّحًا حتىٰ أدماني، وأخرجَنا من منزله ونحن في غاية الإهانة، فرجعت إلىٰ منزلي وأنا لا أهتدي إلىٰ الطريق من شدة الوجَع وكثرةِ الدماء، فنمت علىٰ فراشي فلم يأخذني نوم، وتحيرت ماذا أصنع حتىٰ أنقذ المرأة من يده في هذه الليلة لترجع فتبيت في منزلها حتىٰ لا يقع علىٰ زوجها الطلاق.

فألهمت أن أؤذن للصبح في أثناء الليل لكي يظن أن الصبح قد طلع فيخرجها من منزله فتذهب إلىٰ منزل زوجها، فصعدت المنارة وجعلت أنظر إلىٰ باب داره وأنا أتكلم علىٰ عادتي قبل الأذان هل أرىٰ المرأة قد خرجت، ثم أذنت فلم تخرج، ثم صممت إن لم تخرج أقمت الصلاة حتىٰ يتحقق الصباح، فبينا أنا أنظر هل تخرج المرأة أم لا؟ إذ امتلأت الطريق فرسانًا ورجالة وهم يقولون: أين الذي أذن هذه الساعة؟ فقلت: هأنذا، وأنا أريد أن يعينوني عليه، فقالوا: انزل.

فنزلت، فقالوا: أجب أمير المؤمنين.

فأخذوني وذهبوا بي لا أملك من نفسي شيئًا، وما زالوا بي حتىٰ أدخلوني علىٰ الخليفة المعتضد بالله، فلما رأيته جالسًا في مقام الخلافة ارتعدت من الخوف وفزعت فزعًا شديدًا، فقال: ادن، فدنوت، فقال لي: ليسكن روعك وليهدأ قلبك، وما زال يلاطفني حتىٰ اطمأننت وذهب خوفي، فقال: أنت الذي أذنت هذه الساعة؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، فقال: ما حملك علىٰ أن أذنت هذه الساعة وقد بقي من

الليل أكثر مما مضىٰ منه، فتغر بذلك الصائم والمسافر والمصلي وغيرهم.

فقلت: يؤمنني أمير المؤمنين حتىٰ أقص عليه خبري؟ فقال: أنت آمن، فذكرت له القصة، فغضب غضبًا شديدًا وأمر بإحضار ذلك الأمير والمرأة من ساعته علىٰ أيِّ حالة كانا، فأُحضرا سريعًا، فبعث بالمرأة إلىٰ زوجها مع نسوة من جهته ثقات، ومعهن ثقة من جهته أيضًا، وأمره أن يأمر زوجها بالعفو والصفح عنها والإحسان إليها؛ فإنها مكرهة ومعذورة، ثم أقبل علىٰ ذلك الشاب الأمير، فقال له: كم لك من الرزق؟ وكم عندك من المال؟ وكم عندك من الجواري والزوجات؟ فذكر له شيئًا كثيرًا.

فقال له: ويحك، أما كفاك ما أنعم الله به عليك حتىٰ انتهكت حرمة الله وتعديت حدوده وتجرأت علىٰ السلطان؟!

وما كفاك ذلك حتىٰ عمدت إلىٰ رجل أمرك بالمعروف ونهاك عن المنكر فضربته وأهنته وأدميته؟

فلم يكن له جواب، فأمر به فجُعِل في رجله قَيد وفي عنقه غُل، ثم أمر به فضُرب بالدبابيس ضربًا شديدًا حتىٰ خفت صوته، ثم أمر به فألقي في دجلة فكان ذلك آخر العهد به، ثم أمر بدرًا صاحب الشرطة أن يحتاط علىٰ ما في داره من الحواصل والأموال التي كان يتناولها من بيت المال بغير حِلِّها، ثم قال لي: كلما رأيت منكرًا صغيرًا كان أو كبيرًا ولو علىٰ هذا -وأشار إلىٰ صاحب الشرطة- فأعلمني به، فإن اتفق اجتماعك بي وإلا فعلامة ما بيني وبينك أن تؤذن في مثل وقت أذانك هذا.

قال الخياط: فبهذا السبب لا آمر أحدًا من هؤلاء بشيء من الخير أو أنهاه عن شيء إلا بادر إلىٰ امتثاله وقبوله خوفًا من المعتضد، وما احتجت أن أؤذن في مثل تلك الساعة إلىٰ الآن.

وفي عام ١٥٣هـ خرجت الخوارج ببلاد إفريقية، فاجتمع منهم ثلثمائة وخمسون ألفًا، فقاتلوا نائب إفريقية وهزموا جيشه وقتلوه، وأكثروا الفساد في البلاد، وقتلوا

الحريم والأولاد وآذوا عامة العباد، فولَّىٰ المنصور يزيد بن حاتم علىٰ إفريقية وجهزه في خمسين ألفًا، وأمره بقتال الخوارج، وأنفق علىٰ هذا الجيش نحوًا من ثلاثة وستين ألف ألف درهم.

فدخل يزيد بن حاتم بلاد إفريقية، فافتتحها عودًا علىٰ بدء، وقتل من كان تغلب عليها من الخوارج، وقتل أمراءهم، وأصغر كبراءهم، وأذل أشرافهم، وأرغم آنافهم، وبدَّد آلافهم، واستبدل أهل البلاد هناك بالخوف سلامة، وبالإهانة كرامة، وكان في جملة من قُتل من أمرائهم أبو حاتم وأبو عباد الخارجيان.

ولما استقامت له الأمور في البلدان، دخل بعد ذلك بلاد القيروان، فمهَّدَها، وأقرَّ أهلها، وقرر أمورها، وأزال محذورها.

وممَّا ورد من قصص الشجاعة والحزم: أنه لما كتب عبدُ الملك بن مروان للحجاج وهو بالمدينة بولاية العراق، سار من المدينة إلىٰ العراق في اثني عشر راكبًا علىٰ النجائب، فنزل قريب الكوفة فاغتسل واختضب ولبس ثيابه وتقلَّد سيفه، وألقىٰ عذبة العمامة بين كتفيه، ثم سار فنزل دار الإمارة وذلك يوم الجمعة، وقد أذن المؤذن الأول، فخرج عليهم وهم لا يعلمون، فصعد المنبر وجلس عليه وهو متلثم بطرف عمامته وأمسك عن الكلام طويلًا، وقد شخصوا إليه بأبصارهم، وجَثوا علىٰ الركب، وتناولوا الحصىٰ ليقذفوه بها، وقد كانوا حصبوا الذي كان قبله، فلما سكت أبهتهم وأحبُّوا أن يسمعوا كلامه، فكشف عن وجهه، وقال:

أنا ابن جَلا وطلَّاع الثَّنايا ... متىٰ أضع العمَامة تعرفونِي

يا أهل العراق، يا أهل الشقاقِ والنفاقِ ومساوئِ الأخلاق، واللهِ إن كان أمركم ليهمني قبل أن آتي إليكم، ولقد كنت أدعو الله أن يبتليكم بي، فأجاب دعوتي، إلا أني سرت البارحة فسقط مني سوطي الذي أؤذيكم به، فاتخذت هذا مكانه -وأشار إلىٰ سيفه-، والله لأجرنه فيكم جرَّ المرأة ذيلها، ولأفعلنَّ بكم ولأصنعن، فلما سمعوا

كلامه جعل الحصىٰ يتساقط من أيديهم، أما والله إني لأحمل الشَّر بحمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله، وإني لأرىٰ رؤوسًا قد أينعت وحان قِطَافها، وإني لأنظر إلىٰ الدماء تترقرق بين العمائم واللحىٰ، ثم أنشد:

هــذا أوان الــشدِّ فاشــتدي زيــمْ قــد لفهــا اللــيل بــسواق حطِــمْ

لــست براعــي إبــلٍ ولا غــنمْ ولا بجــزار علــىٰ ظهــر وَضَــمْ

ثم قال: يا أهل العراق، إنكم طالما أوضَعتُم في أودية الفتن، وسننتم سنن الغي، أما واللهِ لألحونكم لحي العود، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، إني والله لا أعد إلا وفيت، ولا أخلق إلا فريت، فإياي وهذه الجماعات، وقيلًا وقال، والله لتستقيمن علىٰ سبيل الحق، أو لأدعنَّ لكل رجل منكم شغلًا في جسده.

ثم قال للذين كانوا قد رجعوا عن المُهَلب لما سمعوا بموت بشر بن مروان: مَن وجدت بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه، وانتهبت ماله، ثم نزل فدخل منزله، ولم يزد علىٰ ذلك.

وقيل: إن الحجاج قال في خطبته هذه: شاهت الوجوه، إنَّ الله ضرب مثلًا ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، وأنتم أولئك، فاستوثقوا واستقيموا، فوالله لأذيقنكم الهوان حتىٰ تدروا، وأقسم بالله لتقبلن علىٰ الإنصاف، ولتدعن الإرجاف، وكان وكان، وأخبرني فلان عن فلان، والخبر وما الخبر، أو لأهبرنكم بالسيف هبرًا يدع النساء أيامىٰ، والأولاد يتامىٰ، حتىٰ تمشوا السمهىٰ، وتُقلِعوا عن هَا وهَا.

يا بني اللكيعة، وعبيد العصا، وأبناء الإماء والأيامىٰ، ألا يحسن رجل منكم حقن دمه، ويبصر موضع قدمه، أقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالًا لما قبلها، وأدبًا لما بعدها.

فقام إليه عمير بن ضابئ التميمي، فقال: أصلح الله الأمير، أنا في هذا البعث، وأنا شيخ كبير وعليل، وهذا ابني هو أشبُّ مني. قال: ومن أنت؟ قال: أنا عمير بن ضابئ التميمي، فقال له عنبسة بن سعيد: أيها الأمير، إنَّ هذا جاء إلىٰ عثمان وقد قُتِل فلطم وجهه وقال:

همممت ولم أفعل وكدت وليتني فعلت ووليت البكاء حلائِلُهْ

فقال الحجاج: إني لأحسب أنَّ في قتلك صلاح المصرين، ثم قال: قم إليه يا حرسيُّ فاضرب عنقه، فقام إليه رجل فضرب عنقه، وانتهب ماله، وأمر مناديًا في الناس: ألا إنَّ عمير بن ضابئ تأخر بعد سماع النداء ثلاثًا، فأُمر بقتله.

فخرج الناس حتىٰ ازدحموا علىٰ الجسر، فعبر عليه في ساعة واحدة أربعة آلاف، حتىٰ وصلوا إلىٰ المهلب، وأخذوا منه كتابًا بوصولهم إليه، فقال المهلب: قدم العراقَ واللهِ رجلٌ ذكر، اليومَ قوتِل العدو.

ولمَّا انتهىٰ الحجاج من الكوفة، ركب حتىٰ قدِم البصرة، فقام في أهلها بخطبة نظير ما قام في أهل الكوفة من الوعيد الشديد والتهديد الأكيد، ثم أتي برجل من بني يشكر، فقيل: هذا عاصٍ، فقال الرجل: إنَّ بي فتقًا، وقد عذرني بشر بن مروان، وهذا عطائي مردود علىٰ بيت المال، فلم يقبل منه وأمر بقتله، فقُتل، ففزع أهل البصرة، وخرجوا من البصرة فاجتمعوا خارجها قريبًا منها، فخرج إليهم الحجاج في أمراء الجيش من المصرين، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، فهزمهم الحجاج، وقتل أميرهم عبد الله بن الجارود في رؤوس من القبائل معه، وأمر برؤوسهم فنصبت عند الجسر، ثم بعث بها إلىٰ المهلب فقوي بذلك، وضعف أمر الخوارج، وأرسل الحجاج إلىٰ المهلب، فأمره بمناهضة الخوارج، فنهض بمن معه إلىٰ الخوارج فأجلوهم عن أماكنهم بأيسر قتال.

❊ ❊ ❊

ذكر أخبار الشجعان

إذا ما ذُكر الشجعان، فإنَّ أعظمهم منزلة صحابة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم أربط الناس قلوبًا، وأثبتهم جنانًا، وأشدهم بأسًا.

كان عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من أشجع الناس، وقد قيل له: كيف تقتل الأبطال؟ قال: لأني كنت ألقىٰ الرجل، فأقدِّر أني أقتُلُه، ويقدِّر هو أني قاتِلُه، فأكون أنا ونفسُه عونًا عليه.

قال مصعب بن الزبير: كان علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حذرًا في الحروب، شديدَ الرَّوغان، لا يكاد أحدٌ يتمكن منه، وكانت درعه صدرًا لا ظهر لها، فقيل له: أما تخاف أن تُؤتىٰ من قبل ظهرك؟ فقال: إذا مكَّنتُ عدوي من ظهري، فلا أبقىٰ اللهُ عليه إن أبقىٰ عليَّ.

وقد قتله أشقىٰ الناس عبد الرحمن بن مُلجم المرادي -عليه من الله ما يستحقه- غدره وهو في صلاة الصبح، وسبب ذلك أن عبد الرحمن بن ملجم تزوج بقطام بنت علقمة، وكانت خارجيَّة، فقالت له: لا أقنع إلا بصداق أسميه وهو ثلاثة آلاف درهم، وعبدٍ وأمة، وأن تقتل علي بن أبي طالب؛ فقال لها: لك ما سألت إلا عليَّ بنَ أبي طالب، وكيف لي به؟ قالت: تغتاله، فإن سلمتَ أرحتَ الناسَ من شرِّه وأقمتَ مع أهلك، وإن أُصِبتَ دخلتَ الجنة، فقال:

ثلاثـــــةُ آلاف وعــــــبدٌ وقيــــــنةٌ ... وضــرب علــيٍّ بالحــسام المــصممِ

فــلا مهــر أغلــىٰ مــن علــيٍّ وإن عــلا ... ولا فــتكَ إلا دون فــتكِ ابــن ملجــمِ

فطعنه وهو داخل المسجد في الغلس.

ومن الأبطال: خالد بن الوليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، سيف الله وسيف رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بطل مذكور، وفارس مشهور في الجاهلية والإسلام، كان له الفتح يوم اليمامة، وهو الذي فتح دمشق، وأكثر بلاد الشام، وله وقائع عظيمة في الروم، أيَّدَ الله بها الإسلام،

مات علىٰ فراشه، وكان يقول: لقد شهدت كذا وكذا، وما في جسدي موضع شِبر إلا وفيه أثر طعنة أو ضربة أو رمية، وهأنا أموت علىٰ فراشي، لا نامت عين الجبان، وكان يرتجز ويقول:

لا تـــرعبونا بالـــسيوف المبـــرقهْ　　　إنَّ الـــسهام بالـــردىٰ مفـــرَّقهْ

والحـــرب دونهـــا العقـــال مطلقـــهْ　　　وخالـــد مـــن ديـــنه علـــىٰ ثقـــهْ

ومنهم: عمرو بن مَعدِيكَرِب، فارس من فرسان الجاهلية، وله فيها مواقف مذكورة، ومواطن مشهورة، أسلم وشهد حروب الفرس، وكان له فيها أفعال عظيمة، سأله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومًا فقال له: يا عمرو، أيُّ السلاح أفضل في الحرب؟ قال: فعن أيها تسأل؟ قال: ما تقول في السهام؟ قال: منها ما يُخطئُ ويصيب، قال: فما تقول في الرمح؟ قال: أخوك وربما خانك. قال: فما تقول في الترس؟ قال: هو الدائر، وعليه تدور الدوائر. قال: فما تقول في السيف؟ قال: ذلك العدة عند الشدة.

جاء عنه أنه نزل يوم القادسية علىٰ النهر، فقال لأصحابه: إنني عابر علىٰ هذا الجسر، فإن أسرعتم مقدار جزر الجزور وجدتموني وسيفي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي، وقد عرفني القوم وأنا قائم بينهم، وإن بطأتم وجدتموني قتيلًا بينهم، ثم انغمس فحمل علىٰ القوم، فقال بعضهم لبعض: يا بني زبيد، علام تَدَعُون صاحبكم، واللهِ ما نظن أنكم تُدركونه حيًّا، فحصلوه فانتبهوا إليه وقد صُرِع عن فرسه، وقد أخذ برجلِ فرسِ رَجُلٍ من العجم، فأمسكها والفارسُ يضرب فرسه فلم تقدر أن تتحرك، فلما أَدركه أصحابُه، رمىٰ الرجلُ نفسَه وخلىٰ فرسه، فركبه عمرو وقال: أنا أبو ثور، كدتم والله تفقدونني.

وذُكر عنه أنه حمل يوم القادسية علىٰ رستم وهو الذي كان قدمه يزدجرد ملك الفرس يوم القادسية علىٰ قتال المسلمين، فاستقبله عمرو وكان رستم علىٰ فيل، فضرب عمرو الفيل، فقطع عرقوبه، فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خرجٍ كان فيه

أربعون ألف دينار، فقُتِل رستم وانهزمت العجم.

قُتل عمرو بنهاوند في وقعة الفرس بعد أن عمَّر حتىٰ ضَعُف، وكان من الشعراء المعدودين، وفيه يقول العباس بن مرداس:

إذا مات عمرو قلت للخيل أوطئي زبيدًا فقد أودىٰ بنجدتها عمرو

ومن الشجعان: عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قاتل جرجير ملك إفريقية الذي كان يُرىٰ أنه أشجع أهل عصره.

قال عمر بن عبد العزيز لابن أبي مليكة: صف لي عبد الله بن الزبير، فقال: والله ما رأيت جلدًا قطُّ ركِّب علىٰ لحمٍ، ولا لحمًا علىٰ عصب، ولا عصبًا علىٰ عظم، مثل جلده ولحمه وعصبه، ولا رأيت نفسًا بين جنبين مثل نفسٍ ركِّبَت بين جنبيه، ولقد قام يومًا إلىٰ الصلاة فمرَّ حجرٌ من حجارة المنجنيق بين لحييه وصدره، فوالله ما خشع له بصره ولا قطع له قراءته، ولا ركع دون الركوع الذي كان يركع.

قتله الحجاج بعد أن حُوصِر بمكة، وبعد أن قتله قام بصلبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن الشجعان: مسلمة بن عبد الملك بن مروان، فَحلُ بني أمية وفارسها ووالي حروبها، قيل: إنه جلس يومًا ليقضي بين الناس بمصر، فكلمته امرأة، فلم يقبل عليها، فقالت: ما رأيت أقلَّ حياءً من هذا قط، فكشف عن ساقه فإذا فيها أثر تسع طعنات، فقال لها: هل ترين أثر هذا الطعن، واللهِ لو أخرت رجلي قيد شبر ما أصابتني واحدة منهن، وما منعني من تأخيرها إلا الحياء، وأنت تصفيني بقلَّته!

وممن ذُكر بالشجاعة: جحدر بن ربيعة، كان بطلًا شجاعًا فاتكًا مغيرًا شاعرًا، قهر أهل اليمامة وأبادهم، فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف، فكتب إلىٰ عامله يوبخه بتغلب جحدر عليه، ويأمره بالتجرد له حتىٰ يقتله، أو يحمله إليه أسيرًا، فوجه العامل إليه فتية من بني حنظلة، وجعل لهم جُعلًا عظيمًا إن هم قتلوا جحدرًا أو أتوا به أسيرًا، فتوجه الفتية في طلبه، حتىٰ إذا كانوا قريبًا منه أرسلوا يقولون له: إنهم يريدون

الانقطاع إليه والارتفاق به، فوثق بذلك منهم وسَكَن إلىٰ قولهم، فبينما هو معهم يومًا إذ وثبوا عليه فشَدُّوه وثاقًا، وقدِمُوا به علىٰ الحجاج.

فلما قدموا به عليه ومثل بين يديه قال له: أنت جحدر؟ قال: نعم أصلح الله الأمير. قال: ما جرأك علىٰ ما بلغني عنك؟ قال: أصلح الله الأمير؛ كَلَب الزمان، وجفوة السلطان، وجرأة الجنان.

قال: وما بلغ من أمرك؟ قال: لو ابتلاني الأمير وجعلني مع الفرسان لرأىٰ مني ما يعجبه، فتعجب الحجاج من ثبات عقله ومنطقه، ثم قال: يا جحدر، إني قاذفٌ بك في حاجز فيه أسد عظيم، فإن قتلك كفانا مؤنتك، وإن قتلته عفونا عنك.

قال: أصلح الله الأمير؛ قرب الفرج -إن شاء الله تعالىٰ-.

فأمر به فصفدوه بالحديد، ثم كتب إلىٰ عامله أن يرتاد له أسدًا ويحمله إليه، فتحيل العامل وارتاد له أسدًا كان كاسرًا خبيثًا قد أفنىٰ عامة المواشي، فتحيلوا حتىٰ أخذوه وصيروه في تابوت وسحبوه علىٰ عجل، فلما قدموا به علىٰ الحجاج أمر به فألقي في الحاجز ولم يطعم شيئًا ثلاثة أيام حتىٰ جاع واستكلب، ثم أمر بجحدر أن ينزلوه إليه، فأعطوه سيفًا وأنزلوه إليه مقيدًا، وأشرف الحجاج والناس حوله ينظرون إلىٰ الأسد ما هو صانع بجحدر، فلما نظر الأسد إلىٰ جحدر نهض ووثب وتمطىٰ وزعق زعقة دويت منها الجبال، فشد عليه جحدر، وهو ينشد ويقول:

ليث وليث في مجال ضنكِ ... كلاهما ذو قوة وسفكِ

وصولة وبطشة وفتكِ ... إن يكشف اللهُ قناع الشكِّ

فأنتَ لي في قبضَتِي وملكِي

ثم دنا منه وضربه بسيفه ففلق هامته، فكبَّر الناس وأَعجب الحجاج ذلك، وقال: لله درك ما أنجبك!، ثم أمر به فأُخرج من الحاجز وفُكَّ عنه قيودُه، وقال له: اختر إما أن تقيم معنا فنكرمك ونقرب منزلتك، وإما أن نأذن لك فتلحق ببلادك وأهلك، علىٰ

أن تضمن لنا ألا تُحدث بها حدثًا، ولا تؤذي بها أحدًا، قال: بل أختار صحبتك أيها الأمير، فجعله من سُمَّاره وخواصه، ثم لم يلبث أن ولَّاه علىٰ اليمامة.

ومن نوادر القصص في الشجاعة: ما ذكره الفضل بن يزيد قال: نزل علينا بنو ثعلب في بعض السنين، وكنت مشغوفًا بأخبار العرب أن أسمعها وأجمعها، فبينما أنا أدور في بعض أحيائهم إذا أنا بامرأة واقفة في فناء خبائها، وهي آخذة بيد غلام قلما رأيت مثله في حُسنه وجماله، وهي تُعَاتبه بلسان رطب وكلام عذب، تحن إليه الأسماع وترتاح له القلوب، وأكثر ما أسمع منها: أي بنيَّ، وهو يبتسم في وجهها قد غلب عليه الحياء والخجل، كأنه جارية بكر لا يرد جوابًا.

فاستحسَنتُ ما رأيت واستحليت ما سمعت، فدنوت منه وسلمت، فرد عليَّ السلام، فوقفتُ أنظر إليها، فقالت: يا حضري، ما حاجتك؟ فقلت: الاستكثار مما أسمع، والاستمتاع بما أرىٰ من هذا الغلام، فقالت: يا حضري، إن شئت سقت إليك من خبره ما هو أحسن من منظره، فقلت: قد شئتُ -يرحمك الله-.

فقالت: حملته والرزقُ عسرٌ والعيشُ نكدٌ حملًا خفيفًا، حتىٰ مضت له تسعة أشهر، وشاء الله عَزَّوَجَلَّ أن أضعه، فوضعته خلقًا سويًّا، فورَبِّك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه حتىٰ أفضل الله عَزَّوَجَلَّ، وأعطىٰ وأتىٰ من الرزق بما كفىٰ وأغنىٰ، ثم أرضعته حولين كاملين، فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد إلىٰ فراش أبيه، فربي كأنه شبل أسد أقيه برد الشتاء وحر الهجير، حتىٰ إذا مضت له خمس سنين أسلمته إلىٰ المؤدب، فحفظه القرآن فتلاه، وعلمه الشعر فرواه، ورغب في مفاخر قومه وآبائه وأجداده.

فلما أن بلغ الحلم واشتد عظمه وكمل خلقه، حملته علىٰ عتاق الخيل فتفرس وتمرس ولبس السلاح ومشىٰ بين بويتات الحي الخيلاء، فأخذ في قرىٰ الضيف وإطعام الطعام، وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه، فاتفق أن نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب، فخرج فتيان الحي في طلب ثأر لهم، وشاء الله تعالىٰ

أن أصابته وعكة شغلته عن الخروج، حتىٰ إذا أمعن القوم ولم يبق في الحي غيره ونحن آمنون وادعون، ما هو إلا أن أدبر الليل وأسفر الصباح حتىٰ طلعت علينا غرر الجياد وطلائع العدو، فما هو إلا هنيهة حتىٰ أحرزوا الأموال دون أهلها، وهو يسألني عن الصوت، وأنا أستر عنه الخبر إشفاقًا عليه وضنًّا به.

حتىٰ إذا علت الأصوات وبرزت المخدرات رمىٰ دثاره وثار كما يثور الأسد، وأمر بإسراج فرسه، ولبس لأمة حربه، وأخذ رمحه بيده ولحق حماة القوم، فطعن أدناهم منه فرمىٰ به، ولحق أبعدهم منه فقتله، فانصرفت وجوه الفرسان، فرأوه صبيًّا صغيرًا لا مدد وراءه فحملوا عليه، فأقبل يؤم البيوت، ونحن ندعو الله عَزَّوَجَلَّ له بالسلامة، حتىٰ إذا امتدوا في أثره عطف عليهم، ففرق شملهم وشتت جمعهم، وقلل كثرتهم ومزَّقَهُم كلَّ مُمَزَّق، ومرق كما يمرق السهم، وناداهم: خَلُّوا عن المال، فوالله لا رجعت إلا به، أو لأهلكن دونه.

فانصرفت إليه الأقران، وتمايلت نحوه الفرسان، وتميزت له الفتيان، وحملوا عليه وقد رفعوا إليه الأسنة، وعطفوا عليه بالأعنة، فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الإبل، وجعل لا يحمل علىٰ ناحية إلا حطمها، ولا كتيبة إلا مزقها حتىٰ لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه، ثم ساق المال، وأقبل به، فكبر القوم عند رؤيته، وفرح الناس بسلامته، فوالله ما رأينا قط يومًا كان أسمح صباحًا وأحسن رواحًا من ذلك اليوم، ولقد سمعته يقول في وجوه فتيان الحي هذه الأبيات:

تأمَّلْن فِعلِي هل رأيتن مثله ... إذا حشرجت نفس الجبان من الكربِ
وضاقت عليه الأرض حتىٰ كأنه ... من الخوف مسلوب العزيمة والقلبِ
أبىٰ ليَ أن أعطي الظلامة مرهفٌ ... وطرفٌ قويُّ الظهر والجوف والجنبِ
وعرضٌ نقيٌّ أتَّقي أن أعيبَه ... وبيتٌ شريفٌ في ذرىٰ ثعلب الغلبِ
فإن لم أقاتل دونكن وأحتمي ... لَكُنَّ وأحميكُن بالطعن والضربِ

فلا صدقَ اللاتي مشَين إلىٰ أبي يهنينَه بالفارس البطلِ النَّدبِ

وفي سنة تسع عشرة ومائة قَتل أسدُ بن عبد الله القسري ملك الترك خاقان، وكان سبب ذلك أن أسد بن عبد الله أمير خراسان عمل نيابة عن أخيه خالد بن عبد الله علىٰ العراق، ثم سار بجيوشه إلىٰ مدينة ختل فافتتحها، وتفرقت في أرضها جنوده يقتلون ويأسرون ويغنمون، فجاءت العيون إلىٰ ملك الترك خاقان أن جيش أسد قد تفرق في بلاد ختل.

فاغتنم خاقان هذه الفرصة وركب من فوره في جنوده قاصدًا إلىٰ أسد، وتزود خاقان وأصحابه سلاحًا كثيرًا، وقديدًا وملحًا، وساروا في خلق عظيم، وجاءت العين الصافية إلىٰ أسد فأعلموه بقصد خاقان له في جيش عظيم كثيف، فتجهز لذلك وأخذ أهبته وأرسل من فوره إلىٰ أطراف جيشه فلمها عليه، وأشاع بعض الناس أن خاقان قد هجم علىٰ أسد بن عبد الله فقتله وأصحابه، ليحصل بذلك خذلان لأصحابه فلا يجتمعوا إليه، فرد الله كيدهم في نحورهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم.

وذلك أن المسلمين لما سمعوا بذلك أخذتهم حمية الإسلام، وازدادوا حنقًا علىٰ عدوهم، وعزموا علىٰ الأخذ بالثأر، فقصدوا الموضع الذي فيه أسد فإذا هو حي قد اجتمعت عليه العساكر من كل جانب، وسار أسدٌ نحو خاقان حتىٰ أتىٰ جبل الملح وأراد أن يخوض نهر بلخ، وكان معهم أغنام كثيرة، فكره أسدٌ أن يتركها وراء ظهره، فأمر كل فارس أن يحمل بين يديه شاة علىٰ عنقه، وتوعد من لم يفعل ذلك بقطع اليد، وحمل هو معه شاة، وخاضوا النهر، فما خلصوا منه جيدًا حتىٰ دهمهم خاقان من ورائهم، فقتلوا من وجدوه لم يقطع النهر وبعض الضعفة.

فلما وقفوا علىٰ حافة النهر أحجموا، وظن المسلمون أنهم لا يقطعون إليهم النهر، فتشاور الأتراك فيما بينهم، ثم اتفقوا علىٰ أن يحملوا حملة واحدة -وكانوا خمسين ألفًا- فيقتحموا النهر، ثم رموا بأنفسهم في النهر رمية رجل واحد، فجعلت

خيولهم تنخر أشد النخير، وخرجوا منه إلىٰ ناحية المسلمين، فثبت المسلمون في معسكرهم، وكانوا قد خندقوا حولهم خندقًا لا يخلصون إليهم منه.

فبات الجيشان تتراءىٰ ناراهما، فلما أصبحا مال خاقان علىٰ بعض الجيش الذي للمسلمين، فقتل منهم خلقًا، وأسر أممًا، وأخذ أموالًا وإبلًا كثيرة، ثم تواجه الجيشان في يوم عيد الفطر، حتىٰ خاف جيش أسد أن يصلوا صلاة العيد، فما صلوها إلا علىٰ وَجَل.

ثم سار أسد بمن معه حتىٰ نزل مرج بلخ حتىٰ انقضىٰ الشتاء، فلما كان يوم عيد الأضحىٰ خطب أسد الناس، واستشارهم في لقاء خاقان، فاختلفت آراؤهم في ذلك، وأشار قوم بملتقاه والتوكل علىٰ الله، فوافق ذلك رأي أَسَدِ الأسَدِ، فقصد بجيشه إلىٰ خاقان، وصلىٰ بالناس ركعتين أطال فيهما، ثم دعا بدعاء طويل، ثم انصرف وهو يقول: نُصِرتم إن شاء الله تعالىٰ، ثلاثًا.

ثم سار بمن معه من المسلمين، فالتقت مقدمته بمقدمة خاقان، فقتل المسلمون منهم خلقًا، وأسروا أميرهم وسبعة أمراء معه، ثم ساق أسد فانتهىٰ إلىٰ أغنامهم فاستاقها، فإذا هي مائة ألف وخمسون ألف شاة، ثم التقىٰ معهم، وكان خاقان في هذا اليوم إنما معه أربعة آلاف أو نحوها، ومعه رجل من العرب قد أوىٰ إليه، يقال له: الحارث بن سريج، فهو يدله علىٰ عورات المسلمين، فلما اقتتل الناس هربت الأتراك في كل جانب، وانهزم خاقان، ومعه الحارث بن سريج المذكور يحميه ويثبته، فتبعهم أسد.

ولما كان عند الظهيرة انخذل خاقان في أربعمائة من أصحابه، فأدركهم المسلمون ولم يستطيعوا الانصراف، فتقدم المسلمون، فاستولوا علىٰ معسكرهم واحتازوه بما فيه من الأمتعة العظيمة، والأواني من النقد، والنساء والصبيان من الأتراك ومن معهم من الأسارىٰ من المسلمات وغيرهم، مما لا يحد ولا يوصف، لكثرته وعظم قيمته وحسنه.

ثمَّ هرب خاقان بمن معه حتىٰ دخل بعض المدن فتحصن بها، فاتفق أنه لعب بالنرد مع بعض أمرائه فغلبه الأمير، فتوعده خاقان بقطع اليد، فحنق عليه ذلك الأمير، ثم عمل علىٰ قتله فقتله، وتفرقت الأتراك فرقًا يعدو بعضهم علىٰ بعض، وينهب بعضهم بعضًا، وبعث أسد إلىٰ أخيه خالد يعلمه بما وقع من النصر والظفر بخاقان، وبعث إليه بطوق خاقان وشيءٍ كثير من حواصله وأمتعته، فوفدها خالد إلىٰ أمير المؤمنين هشام ففرح بذلك فرحًا شديدًا جدًّا، وأطلق للرسل أموالًا جزيلة كثيرة من بيت المال، وقد قال بعض الشعراء في أسد يمدحه علىٰ ذلك:

لو سرت في الأرض تقيس الأرضَا	**تقيس منها طولها والعرضَا**
لم تلق خيرًا مرة ونقضَا	**من الأمير أسد وأمضَىٰ**
أفضىٰ إلينا الخير حين أفضَىٰ	**وجمع الشمل وكان رفضَا**
ما فاته خاقانُ إلا ركضَا	**قد فض من جموعه ما فَضَّا**

ومن الشجعان الذين تزدان بذكرهم الصفحات، وتعمر بسيرتهم الأوقات: الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان عبد الله أول مولود ولد بعد الهجرة بالمدينة من المهاجرين، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين، هاجرت به وهي حامل به، فولدته بقباء أول مقدمهم المدينة، فأتت به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه، فكان أول ما دخل في جوفه ريق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم حنَّكه ودعا له وبرك عليه وسماه عبد الله، وكان أول مولود ولد في الإسلام.

وقد فرح المسلمون به؛ لأن اليهود كانوا قد زعموا أنهم قد سحروا المهاجرين فلا يولد لهم في المدينة، فلما ولد ابن الزبير كبَّر المسلمون، وقد سمع عبد الله بن عمر جيش الشام حين كبروا عند قتله، فقال: أما واللهِ لَلذين كبَّروا عند مولده خير من هؤلاء الذين كبروا عند قتله، وقد طاف الصدِّيق به في المدينة ليشتهر أمرُ ميلاده علىٰ

خلاف ما زعمت اليهود.

كان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عابدًا ناسكًا، قال ثابت البناني: كنت أمرُّ بعبد الله بن الزبير وهو يصلي خلف المقام كأنه خشبة منصوبة لا يتحرك.

وقال يحيىٰ بن وثاب: «كان ابن الزبير إذا سجد وقعت العصافير علىٰ ظهره، تصعد وتنزل لا تراه إلا جذم حائط».

وقال ابن المُنكدر: «لو رأيت ابن الزبير يصلي كأنه غصن شجرة تصفقها الريح، والمنجنيق يقع هاهنا وهاهنا كأنه لا يبالي».

وحكىٰ بعضهم لعمر بن عبد العزيز أن حجرًا من المنجنيق وقع علىٰ شرافة المسجد فطارت فلقة منه فمرت بين لحية ابن الزبير وحلقه، فما زال عن مقامه، ولا عُرف ذلك في صوته، فقال عمر بن عبد العزيز: لا إله إلا الله، جاد ما وصفت.

قال مجاهد: «لم يكن أحد يطيق ما يطيقه ابن الزبير من العبادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ».

ولقد جاء سيل مرة فطبق البيت، فجعل ابن الزبير يطوف سباحة.

وقال بعضهم: كان ابن الزبير لا ينازع في ثلاث: في العبادة، والشجاعة، والفصاحة.

وفي سنة ثلاث وسبعين كان مقتل عبد الله بن الزبير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ علىٰ يدَي الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد استهلت هذه السنة وأهلُ الشام محاصرون أهلَ مكة، وقد نصب الحجاج المنجنيق علىٰ مكة ليحصر أهلها حتىٰ يخرجوا إلىٰ الأمان والطاعة لعبد الملك، وكان مع الحجاج خلق قدموا عليه من أرض الحبشة، فجعلوا يرمون بالمنجنيق، فقتلوا خلقًا كثيرًا، وكان معه خمس مجانيق، فألح عليها بالرمي من كل مكان، وحبس عنهم الزاد فجاعوا، وكانوا يشربون من ماء زمزم، وجعلت الحجارة تقع في الكعبة، والحجاجُ يصيح بأصحابه: يا أهل الشام، اللهَ اللهَ في الطاعة!

فكانوا يحملون علىٰ ابن الزبير حتىٰ يُقَال: إنهم آخذوه في هذه الشدة، فيشد عليهم ابن الزبير وليس معه أحد، حتىٰ يخرجهم من باب بني شيبة، ثم يكرون عليه فيشد عليهم، يفعل ذلك مرارًا، وقتَل يومئذٍ جماعة منهم وهو يقول: خذها وأنا ابن الحواري، وقيل

لابن الزبير: ألا تكلمهم في الصلح؟ فقال: والله لو وجدوكم في جوف الكعبة لذبحوكم جميعًا، والله لا أسألهم صلحًا أبدًا.

وكان أهل الشام يرتجزون وهم يرمون بالمنجنيق ويقولون:

خطـــارة مـــثل الفنـــيق المـــزبد نرمـــي بهـــا عـــواذ هـــذا المـــسجد

فنزلت صاعقة علىٰ المنجنيق فأحرقته، فتوقف أهل الشام عن الرمي والمحاصرة، فخطبهم الحجاج فقال: ويحكم، ألم تعلموا أن النار كانت تنزل علىٰ من كان قبلنا فتأكل قربانهم إذا تُقبِّل منهم؟ فلولا أن عملكم مقبول ما نزلت النار فأكلته، فعادوا إلىٰ المحاصرة.

وما زال أهل مكة يخرجون إلىٰ الحجاج بالأمان ويتركون ابنَ الزبير، حتىٰ خرج إليه قريب من عشرة آلاف فأمَّنَهم، وقلَّ أصحابُ ابن الزبير جدًّا، حتىٰ خرج إلىٰ الحجاج حمزة وخبيب ابنا عبد الله بن الزبير، فأخذا لأنفسهما أمانًا من الحجاج فأمَّنهما.

ودخل عبد الله بن الزبير علىٰ أمِّه فشكا إليها خذلان الناس له، وخروجَهم إلىٰ الحجاج حتىٰ أولاده وأهله، وأنه لم يبق معه إلا اليسير، ولم يبق لهم صبر ساعة، والقوم يعطونني ما شئت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: يا بني، أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك علىٰ حق وتدعو إلىٰ حق فاصبر عليه فقد قُتِل عليه أصحابُك، ولا تمكن مِن رقبتك، يلعب بها الغلمان، وإن كنت إنما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من قُتل معك، وإن كنت علىٰ حقٍّ فإلىٰ كم خلودكم في الدنيا؟ القتل أحسن.

فدنا منها، فقبَّل رأسها، وقال: هذا والله رأيي، ووالله ما ركنت إلىٰ الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلىٰ الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمته، ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتيني بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أماه، فإني مقتولٌ من يومي

هذا فلا يشتد حزنك وسَلِّمي لأمرِ الله، فإنَّ ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عمل بفاحشةٍ قط، ولم يَجُر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلمَ مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلمٌ عن عامل فرضيته بل أنكرته، ولم يكن عندي آثر من رضا ربي عَزَّوَجَلَّ، اللهم إني لا أقول هذا تزكيةً لنفسي، اللهم أنت أعلم بي مني ومن غيري، ولكني أقول ذلك تعزية لأمي لتسلو عني.

فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسنًا إن تقدمتني، أو تقدمتك ففي نفسي، اخرج يا بني حتىٰ أنظر ما يصير إليه أمرك.

فقال: جزاك الله يا أمَّه خيرًا، فلا تدعي الدعاء قبلُ وبَعدُ لي.

فقالت: لا أدعه أبدًا، فمن قتل علىٰ باطل فلقد قتلت علىٰ حق.

ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب، والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبرَّه بأبيه وبي، اللهم إني قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فقابلني في عبد الله بن الزبير بثواب الصابرين الشاكرين، ثم قالت له: ادن مني أودعك. فدنا منها فقبلته، ثم أخذته إليها فاحتضنته لتودعه واعتنقها ليودعها، وكانت قد أضرَّت في آخر عمرها، فوجدته لابسًا درعًا من حديد، فقالت: يا بني، ما هذا لباس مَن يريد ما تريد من الشهادة.

فقال: يا أماه، إنما لبسته لأطيب خاطرك، وأسكِّن قلبك به، فقالت: لا يا بني، ولكن انزعه، فنزعه وجعل يلبس بقية ثيابه ويتشدد، وهي تقول: شمِّر ثيابك، وجعل يتحفظ من أسفل ثيابه لئلَّا تبدو عورته إذا قُتِل، وجعلت تذكِّره بأبيه الزبير، وجدِّه أبي بكر الصديق، وجدَّتِه صفية بنت عبد المطلب، وخالتِه عائشة زوج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وترجيه القدومَ عليهم إذا هو قُتل شهيدًا، ثم خرج من عندها، فكان ذلك آخرَ عهده بها -رضي الله عنهما وعن أبيه وأبيها-، ثم قالت: امض علىٰ بصيرة، فودعها وخرج وهو يقول:

ولست بمبتاع الحياة بسبة ولا مرتقٍ من خشية الموت سُلَّمَا

فلما دار القتال كان يخرج من باب المسجد الحرام، وهناك خمسمائة فارس وراجل، فيحمل عليهم فيتفرقون عنه يمينًا وشمالًا، ولا يثبت له أحد، وهو يقول:

إني إذا أعرف يومي أصبِرْ إذ بعضهم يعرف ثم يُنكِرْ

ويقول أيضًا:

الموت أكرم من إعطاء منقصة من لم يمت غبطة فالغاية الهرمُ

وكانت أبواب الحرم قد قلَّ من يحرسها من أصحاب ابن الزبير، وكان ابن الزبير لا يخرج علىٰ أهل باب إلا فرَّقهم وبدَّد شملهم، وهو غير مُبلس حتىٰ يخرجهم إلىٰ الأبطح، ثم يصيح: لو كان قرني واحدًا كفيته.

فيقول ابن صفوان وأهل الشام أيضًا: إي والله، وألف رجل.

ولقد كان حجر المنجنيق يقع علىٰ طرف ثوبه فلا ينزعج بذلك، ثم يخرج إليهم فيقاتلهم كأنه أسد ضَارٍ، حتىٰ جعل الناس يتعجبون من إقدامه وشجاعته، فلما كان ذات ليلة بات ابن الزبير يُصَلي طول ليلته، ثم جلس فاحتبىٰ بحميلة سيفه، فأغفىٰ ثم انتبه مع الفجر علىٰ عادته، ثم قال: أذن يا سعد، فأذَّن عند المقام، وتوضأ ابنُ الزبير، ثم صلىٰ ركعتي الفجر، ثم أقيمت الصلاة فصلىٰ الفجر ثم قرأ سورة (ن) حرفًا حرفًا، ثم سلم، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال لأصحابه: ما أراني اليوم إلا مقتولًا، فإني رأيت في منامي كأن السماء فرجت لي فدخلتها، وإني والله قد مللت الحياة، وجاوزَت سني اثنتين وسبعين سنة، اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي، ثم قال: اكشفوا وجوهكم حتىٰ أنظر إليكم، فكشفوا عن وجوههم، فحرَّضهم وحثهم علىٰ القتال والصبر، ثم نهض بهم فحمل وحملوا حتىٰ كشفوهم إلىٰ الحجون، فجاءته حجر منجنيق فأصابه في وجهه فارتعش لها، فلما وجد سخونة الدم يسيل علىٰ وجهه تمثل بقول بعضهم:

ولسنا علىٰ الأعقاب تَدمىٰ كُلُومنا ولكن علىٰ أقدامنا تقطر الدَّمَا

ثم رجع، فجاءه حجر منجنيق من ورائه فأصابه في قفاه فوقذه، ثم وقع إلىٰ الأرض علىٰ وجهه، ثم انتهض فلم يقدر علىٰ القيام وابتدره الناس، فشد عليه رجل من أهل الشام فضرب الرجلَ فقطع رجليه وهو متكئ علىٰ مرفقه الأيسر، وجعل يضرب وما يقدر أن ينتهض حتىٰ كثروا عليه، فابتدروه بالسيوف، فقتلوه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجاءوا إلىٰ الحجاج فأخبروه، فخر ساجدًا، ثم قام هو وطارق بن عمرو حتىٰ وقفا عليه، وهو صريع، فقال طارق: ما ولدت النساءُ أذكرَ من هذا.

فقال الحجاج: تمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين؟ قال: نعم، هو أعذر لنا، إنا محاصروه وليس هو في حصنٍ ولا خندقٍ ولا منعةٍ ينتصف منا، بل يفضل علينا في كل موقف، فلما بلغ ذلك عبد الملك صوَّب طارقًا.

ثم أمر الحجاج بجثة ابن الزبير فصلبت علىٰ ثنية كداء عند الحجون، وقد خرجت إليه أمه حتىٰ وقفت عليه وهي علىٰ دابة، فأقبل الحجاج في أصحابه فسأل عنها فأخبر بها، فأقبل حتىٰ وقف عليها، فقال: كيف رأيت، نصر الله الحق وأظهره؟ قالت: ربما أديل الباطل علىٰ الحق.

فقال: كيف رأيتيني صنعت بعدوِّ الله؟ قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك، كان أول مولود في الإسلام بالمدينة، وسُرَّ به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحنَّكه بيده، وكبَّر المسلمون يومئذٍ حتىٰ ارتجت المدينة فرحًا به، وقد فرحتَ أنت وأصحابك بمقتله، فمن كان فرح يومئذٍ خير منك ومن أصحابك، وكان مع ذلك برًّا بالوالدين، صوامًا، قوامًا بكتاب الله، معظمًا لحرم الله، يبغض أن يُعصىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وقد بلغني أنك تقول: يا ابن ذات النطاقين، أنا والله ذات النطاقين، أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطعام أبي بكر، وأما الآخر فنطاق المرأة الذي لا تستغني عنه، أما إن رسول الله حدثنا أن في ثقيف كذابًا ومبيرًا، فأما الكذاب

فرأيناه، وأما المُبِير فلا إخالك إلا إياه.

فانكسر الحجاج وانصرف ولم يُراجعها، فبلغ ذلك عبد الملك، فكتب إليه يلومه في مخاطبته أسماء، وقال: ما لك ولابنة الرجل الصالح؟!

وما زالت جثته مصلوبةً حتىٰ مرَّ به عبد الله بن عمر فوقف عليه، فقال: رحمة الله عليك يا أبا خبيب، أما واللهِ لقد كنت صوامًا قوامًا، وصولًا للرحم، أما والله لأمةٌ أنت شرها لأمةُ خير، ثم قال: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ فبعث الحجاج، فأُنزل عن الجذع، ودُفن هناك.

وقد رُثِي ابنُ الزبير وأخوه مصعب رَحِمَهُمَاٱللَّهُ بمَرَاثٍ كثيرة حسنة بليغة، ومن ذلك قول عمرو بن معمر الذهلي يرثيهما:

لعمرك ما أبقيت في الناس حاجة	ولا كنت ملبوس الهدىٰ متذبذبَا
غداة دعاني مصعب فأجبته	وقلت له أهلًا وسهلًا ومرحبَا
أبوك حواري الرسول وسيفه	فأنت بحمد الله من خيرنا أبَا
وذاك أخوك المهتدىٰ بضيائه	بمكة يدعونا دعاء مثوبَا
ولم أك ذا وجهين وجه لمصعب	مريض ووجه لابن مروان إذ صبَا
وكنت امرأ ناصحته غير مؤثر	عليه ابن مروانٍ ولا متقربَا
إليه بما تقذىٰ به عين مصعب	ولكنني ناصحت في الله مصعبَا
إلىٰ أن رمته الحادثات بسهمها	فلله سهمًا ما أسد وأصوبَا
فإن يك هذا الدهر أودىٰ بمصعب	وأصبح عبد الله شلوًا ملحبَا
فكل امرئ حاسٍ من الموت جرعة	وإن حاد عنها جهده وتهيبَا

ومن قصص عبد الله بن الزبير: أنه شهد مع عبد الله بن أبي سرح قتالَ البربر، وكانوا في مائة وعشرين ألفًا، والمسلمون عشرين ألفًا، فأحاطوا بهم من كل جانب،

فما زال عبد الله بن الزبير يحتال حتىٰ ركب في ثلاثين فارسًا وسار نحو ملك البربر وهو منفرد وراء الجيش، وجواريه يظللنه بريش النعام، فساق حتىٰ انتهىٰ إليه والناس يظنون أنه ذاهب في رسالة إليه.

فلما فهمه الملك ولىٰ مدبرًا، فلحقه عبد الله بن الزبير فقتله واحتز رأسه وجعله فوق رمحه، وكبَّر وكبَّر المسلمون، وحملوا علىٰ البربر فهزموهم بين أيديهم، فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وغنموا مغانم كثيرة جدًّا، وبعث ابن أبي سرح بالبشارة مع عبد الله ابن الزبير، فقص علىٰ عثمان الخبر وكيف جرىٰ، فقال له عثمان: أتستطيع أن تؤدي هذا للناس فوق المنبر؟ قال: نعم، فصعد ابن الزبير فوق المنبر فخطب الناس، وذكر لهم كيفية ما جرىٰ.

قال عبد الله: فالتفتُّ فإذا أبي الزبيرُ في جملة من حضر، فلما تبينت وجهه كاد أن يرتج عليَّ في الكلام من هيبته في قلبي، فزبرني بعينه، وأشار إليَّ ليحصبني، فمضيت في الخطبة كما كنت، فلما نزلت قال: واللهِ لكأني أسمعُ خطبة أبي بكر الصديق حين سمعت خطبتك يا بني.

ومن قصص الشجعان: أنه لما قُتل يحيىٰ بن زكرويه بن مهرويه القرمطي سنة تسعين ومائتين بعدما قتل خلقًا كثيرًا من المسلمين، فرح المسلمون بقتله فرحًا شديدًا، ثم قام بأمر القرامطة من بعده أخوه الحسين، وتلقب بأمير المؤمنين، وأطاعته القرامطة كما كانوا يطيعون أخاه، فحاصر دمشق فصالحه أهلها علىٰ مال، ثم سار إلىٰ حمص فافتتحها، وخُطِب له علىٰ منابرها، ثم سار إلىٰ حماة ومعرة النعمان فقهر أهل تلك النواحي واستباح أموالهم وحريمهم، وكان يقتل الدواب والصبيان في المكاتب، ويبيح لمن معه وطء النساء، فربما وطئ الواحدة الجماعة الكثيرة من الرجال فإذا ولدت ولدًا هنأ به كلُّ واحدٍ منهم الآخر.

فكتب أهل الشام إلىٰ الخليفة يشكون إليه ما يلقون من هذا اللعين، فجهز المكتفي جيوشًا كثيفة وأنفق أموالًا جزيلة لحربه، وركب في رمضان فنزل الرقة وبث

الجيوش في كل جانب لقتال القرمطي، وجرت وقعة هائلة بين القرامطة وجند الخليفة فهُزمت القرامطة هزيمة عظيمة، وأُسِر رئيسهم الحسين بن زكرويه، الملقب بأمير المؤمنين، الذي يقال له: ذو الشامة، والتف عليه خلق من الأعراب وغيرهم، واستفحل أمره جدًّا.

فلما أُسر حمل إلىٰ الخليفة في جماعة كثيرة من رؤوس أصحابه، أدخل بغداد علىٰ فيل مشهور للناس، فأمر الخليفة بعمل دكة مرتفعة فأُجلس عليها القرمطي، وجيء بأصحابه فجعل يضرب أعناقهم بين يديه وهو ينظر، وقد جعل في فمه خشبة معترضة مشدودة إلىٰ قفاه، ثم أنزل فضرب مائتي سوط، ثم قطعت يداه ورجلاه وكوي، ثم قُتِل وحمل رأسه علىٰ خشبة، وطيف به في أرجاء بغداد.

❊ ❊ ❊

ذم الجبن وذكر أخبار الجبناء

لقد استعاذ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الجُبْن؛ فقال: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال**»(١).

وقد قيل في وصف الجبان: إن أحس بعصفور طار فؤاده، وإن طنت بعوضة طال سهاده، يفزع من صرير الباب، ويقلق من طنين الذباب، إن نُظر إليه شزرًا أغمي عليه شهرًا، يحسب خفوق الرياح قعقعة الرماح، قال الشاعر:

إذا صوَّت العصفورُ طار فؤادُه ... وليثٌ حديدُ النابِ عند الثرائدِ

ومن أخبار الجبناء: ما ذُكر عن فتىٰ من قريش أنه كانت له جارية مليحة الوجه حسنة الأدب، وكان يحبها حبًّا شديدًا، فأصابته إضاقة وفاقة، فاحتاج إلىٰ ثمنها، فحملها إلىٰ العراق، وكان ذلك في زمن الحجاج بن يوسف، فابتاعها منه الحجاج فوقعت منه بمنزلة، فقدم عليه فتىٰ من ثقيف من أقاربه فأنزله قريبًا منه وأحسن إليه، فدخل علىٰ الحجاج والجارية عنده، وكان الفتىٰ جميلًا فجعلت الجارية تسارقه النظر، ففطن الحجاج بها فوهبها له فأخذها وانصرف، فباتت معه ليلتها وهربت بغلس فأصبح لا يدري أين هي، وبلغ الحجاج ذلك، فأمر مناديًا أن ينادي برئت الذمة ممن رأىٰ وصيفة من صفتها كذا وكذا ولم يحضرها، فلم يلبث أن أتي له بها.

فقال لها الحجاج: يا عدوة الله، كنت عندي من أحب الناس إلي، فاخترت ابن عمي شابًّا حسن الوجه، ورأيتك تسارقينه النظر، فعلمت أنك شغفت به، فوهبتك له، فهربت من ليلتك؟!

---

(١) رواه البخاري (٢٦٧٩).

فقالت: يا سيدي، اسمع قصتي، ثم اصنع بي ما شئت، قال: هاتي ولا تخفي شيئًا.

قالت: كنت للفتىٰ القرشي، فاحتاج إلىٰ ثمني فحملني إلىٰ الكوفة، فلما قربنا منها دنا مني فوقع علي فسمع زئير الأسد، فوثب واخترط سيفه وحمل عليه وضربه فقتله وأتىٰ برأسه، ثم أقبل عليَّ وما برد ما عنده ثم قضىٰ حاجته، وإن ابن عمك هذا الذي اخترته لي لما أظلم الليل قام إليَّ، فلما علا بطني وقعت فأرة من السقف فغشي عليه، فمكثت زمانًا طويلًا وأنا أرش عليه الماء وهو لا يفيق، فخفت أن يموت فتتهمني به، فهربت فزعًا منك.

فما مَلَك الحجاج نفسه من شدة الضحك، وقال: ويحك اكتمي هذا ولا تعلمي به أحدًا، قالت: علىٰ ألَّا تَرُدَّني إليه، قال: لك ذلك.

وخرج المعتصم يومًا إلىٰ بعض متصيداته فظهر له أسد، فقال لرجل من أصحابه أعجبه قوامُه وسلاحُه وتمامُ خلقه: أفيك خيرٌ يا رجل؟ قال: لا، فضحك المعتصم وقال: قبح الله الجبان!

ورأىٰ الإسكندر سميًّا له لا يزال ينهزم، فقال له: يا رجل، إما أن تغير فعلك، وإما أن تغير اسمك.

ووقع في بعض العساكر ضجة، فوثب رجلٌ إلىٰ دابته ليلجمها، فصيَّر اللجام في الذنب من الدهش، وقال يخاطب الفرس: هب جبهتك عرضت، فناصيتك كيف طالت؟!

وخرج أسلم بن زرعة الكلابي في ألفين لمحاربة أبي بلال مرداس، وكان مرداس في أربعين، فانهزم أسلم منه، فلاموه علىٰ ذلك، وذمه ابن أبي زياد، فقال: لأن يذمني ابن أبي زياد حيًّا أحب إلي من أن يمدحني ميتًا.

❊ ❊ ❊

في المدح والثناء

ينبغي للمرء أن يتجنَّب مدح الآخرين من غير حاجة، فإن ذلك قد يدفع بهم إلىٰ الغرور، وتحول القلوب والنيات عما عزمت عليه من صدق النية في فعل المعروف، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إياكم والتمَادُح؛ فإنه الذبح**»(١).

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «المدح هو الذبح».

ويجوز مدح الإنسان بما فيه من الأخلاق الحميدة إذا لم يُخش عليه الفتنة، فقد مدح أبو طالب والعباس وحسان وكعب وغيرهم رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما ردَّ عليهم ذلك، ومن ذلك ما ورد من مدح حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله:

وأحسن منك لم تر قط عيني ... وأجمل منك لم تلد النسَاءُ

خلقت مبرأ من كل عيب ... كأنك قد خُلقت كما تشَاءُ

كما مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ولا يجوز مدحُ الإنسان بالكذب والباطل؛ فقد ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إذا رأيتم المَدَّاحين فاحثوا في وجوههم التراب**»(٢)، والمراد بذلك من يمدح الناس في وجوههم بالباطل، وأما مدح الرجل بما فيه فلا بأس به ولا يدخل في النهي، فقد مُدِح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الشعر والخطب والمخاطبة ولم يَحْثُ في وجه مادحه ترابًا.

ويجب علىٰ الممدوح أن يتواضع لله، وأن يكره ذلك حتىٰ لا يعتاده فيقوده ذلك إلىٰ الكبر وانحراف النية عن طلب وجه الله في عمله، ولذا كان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا

---

(١) رواه ابن ماجه، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٨٤).

(٢) رواه مسلم (٥٣٢٣).

مُدِحَ قال: «اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيرًا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون».

ومدح رجل هشام بن عبد الملك، فقال له: يا هذا، إنه قد نُهي عن مدح الرجل في وجهه، فقال: ما مدحتك، ولكن ذكرتك نعم الله عليك لتجدد لها شكرًا، فقال له هشام: هذا أحسن من المدح، فوصله وأكرمه.

ومن أجمل عبارات المدح والثناء: ما كتبه رجلٌ إلىٰ عبد الله بن يحيىٰ، فقال: رأيت نفسي فيما أتعاطىٰ من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر، والقمر الزاهر، وأيقنت أني حيث أنتهي من القول، منسوب الىٰ العجز، مقصر عن الغاية، فانصرفت عن الثناء عليك إلىٰ الدعاء لك، ووكلت الإخبار عنك إلىٰ علم الناس بك.

ومثله في الجمال ما قاله أعرابي في رجل يمدحه: لا يُذَم بلدٌ أنت تأويه، ولا يُشتَكىٰ زمان أنت فيه.

وأثنىٰ رجل علىٰ رجل، فقال: هو أفصح أهل زمانه إذا حدَّث، وأحسنهم استماعًا إذا حُدِّث، وأمسكهم عن الملاحاة إذا خولف، يعطي صديقه النافلة ولا يسأله الفريضة، له نفس عن الفحشاء مَحصُورة، وعلىٰ المعالي مقصورة، كالذهب الإبريز الذي يعز كل أوان، والشمس المنيرة التي لا تخفىٰ بكل مكان، وهو النجم المضيء للحيران، والمنهل البارد العذب للعطشان.

واستأذن جريرٌ علىٰ عمر بن عبد العزيز، فلما مثل بين يديه قال: يا جرير، اتق الله، ولا تقل إلا حقًّا، فأنشأ يقول:

كم باليمامة من شعثاء أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والنظرِ
ممن بعدلك يُكفىٰ فقدَ والده ... كالفرخ في العش لم يدرج ولم يَطِرِ
أأذكر الجهد والبلوىٰ التي نزلت ... أم قد كفاني ما بلغت من خبري
إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطرِ

إن الخلافة جاءته على قدر كما أتى ربه موسى على قدرِ

هذي الأرامل قد قضيت حاجتها فمن لحاجة هذا الأرمل الذكرِ

الخير ما زلت حيًّا لا يفارقنا بوركت يا عمر الخيرات من عمرِ

فقال: والله يا جرير لقد وافيت الأمر، ولا أملك إلا ثلاثين دينارًا فعشرة أخذها عبد الله ابني، وعشرة أخذتها أم عبد الله، ثم قال لخادمه: ادفع إليه العشرة الثالثة، فقال: والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال اكتسبته، ثم خرج فقال له الشعراء: ما وراءك يا جرير؟ فقال: ورائي ما يسوؤكم، خرجت من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع الشعراء، وإنني عنه لراضٍ، ثم أنشأ يقول:

رأيتُ رُقَىٰ الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطاني من الجن رَاقِيَا

والمدح يليِّن القلوب، علىٰ أن الواجب علىٰ المرء أن يتجنب الكذب والمبالغة في مدحه، كان الحجاج يستثقل زياد بن عمرو العكلي، فلما قدم علىٰ عبد الملك بن مروان قال: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج سَيفُك الذي لا ينبو، وسهمك الذي لا يطيش، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم، فلم يكن بعد ذلك علىٰ قلب الحجاج أخف منه.

وقال رجل لآخر: أنت بستان الدنيا، فقال له: وأنت النهر الذي يُسقىٰ منه ذلك البستان.

وقال رجل لأبي عمرو الزاهد: أنت والله عين الدنيا، فقال له: وأنت والله نور تلك العين.

وإنصاف الناس بمدحهم بما هو فيهم -وإن كانوا أعداء- دليل المروءة، كان الفرزدق هجاءً لعمر بن هبيرة، فلما سجن ونقب له السجن وصار هو وبنوه تحت الأرض، قال الفرزدق:

ولما رأيت الأرض قد سُدَّ ظهرها ولم يبق إلا بطنُها لك مخرجَا

دعوتُ الذي ناداه يونس بعدما ... ثوىٰ في ثلاث مظلمات ففرجَا

فقال ابن هُبَيرة: ما رأيت أشرف من الفرزدق، هجاني أميرًا ومدحني أسيرًا.

وقالت امرأة من بني نمير وقد حضرتها الوفاة وأهلها مجتمعون: من ذا الذي يقول:

لعمري ما رماحُ بني نمير ... بطائشةِ الصدور ولا قصارِ؟

قالوا: زياد الأعجم، قالت: أشهدكم أن له ثلثَ مالي، وكان مالًا كثيرًا.

قال الحسن بن هانئ:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح ... فأنت كما نثني وفوق الذي نثني

وإن جرت الألفاظ يومًا بِمِدحةٍ ... لغيرك إنسانًا فأنت الذي نعني

وحكي أن أبا دلف -وكان من الأجواد- سار يومًا مع أخيه معقل، فرأيا امرأتين تتماشيان، فقالت إحداهما للأخرىٰ: هذا أبو دلف؟ قالت: نعم، الذي يقول فيه الشاعر:

إنما الدنيا أبو دلفٍ ... بين باديهِ ومحتضرِهْ

فإذا ولىٰ أبو دلفٍ ... ولت الدنيا علىٰ أثرِهْ

فبكىٰ أبو دُلف حتىٰ جرت دموعُه، فقال له معقل: ما لك يا أخي تبكي؟ فقال: لأني لم أقض حقَّ الذي قال هذا.

قال: أوَلَم تعطه مائة ألف درهم؟ قال: واللهِ ما في نفسي حسرةٌ إلا لكوني لم أعطه مائة ألفِ دينار.

ولما عُزِل إبراهيم بن المنذر عن صدقات البصرة، تلقاه مجنون وأنشد:

ليت شعري أيُّ قوم أجدبوا ... فأغيثوا بك من بعد العجَفْ

نظر الله لهم من بيننا ... وحُرِمناك بذنب قد سَلَفْ

يـا أبـا إسـحاق سـر فـي دعـة ... وامـض مـصحوبًا فمـا مـنك خلَـفْ

إنمـا أنـت ربـيع باكـر ... حيـثما صـرفه الله انـصرَفْ

ويجب علىٰ العاقل أن يتجنب مدح نفسه؛ فإنَّ فضائل المرء ما نسبها الناس إليه لا ما نسبها هو إلىٰ نفسه، قيل لبعض الحكماء: ما الشيء الذي لا يحسن أن يقال، وإن كان حقًّا؟ قال: مدح الإنسان نفسه.

❊ ❊ ❊

شكر النعمة

قال عمر بن عبد العزيز: «تذكروا النعم؛ فإن ذكرها شكر».

وشكر النعمة يكون بالعمل لا الاقتصار على قول اللسان؛ فقد قال سبحانه: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ:١٣]، فجعل العمل شكرًا.

وصح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يقوم من الليل حتى تورمت قدماه، فقيل له: لِمَ تصنع هذا وقد غُفِر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»(١).

وقال أبو هارون: «دخلت على أبي حازم، فقلت له: يرحمك الله ما شكر العينين؟ قال: إذا رأيت بهما خيرًا ذكرته، وإذا رأيت بهما شرًّا سترته، قلت: فما شكر الأذنين؟ قال: إذا سمعت بهما خيرًا حفظته، وإذا سمعت بهما شرًّا نسيته».

وقد وعد الله تعالى عباده بالزيادة على الشكر، فقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم:٧].

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «من امتَطَى الشكر بلغ به المزيد».

وقيل: من جعل الحمد خاتمة النعمة جعله الله فاتحة للمزيد.

وكان الحسن يقول: «ابن آدم، متى تنفك من شكر النعمة وأنت مرتهن بها، كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر أعظم منها عليك، فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلا إلى ما هو أعظم منها».

ويجب الحذر من كفر النعمة، فكفر النعمة وعدم شكرها مُؤذِنٌ بزوالها.

---

(١) رواه البخاري (١٠٦٢)، ومسلم (٥٠٤٤).

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «احذروا إنفار النعم فما كل شارد مردود، وإذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا اتصالها بقلة الشكر».

وقال ابن السماك: «النعمة من الله تعالىٰ علىٰ عبده مجهولة، فإذا فُقِدَت عرفت».

ومن شكر النعمة الإحسان إلىٰ الخلق: قيل: إن إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يقول: لن يستطيع أحد أن يشكر الله علىٰ نعمة بمثل الإنعام علىٰ خلقه؛ ليكون صانعًا إلىٰ الخلق مثل ما صنع الخالق إليه، فإذا أردت أن تحرس دوام النعمة من الله تعالىٰ فعليك مواساة الفقراء.

وقال المُغيرة بن شُعبَة: «اشكر من أنعم عليك، وأنعم علىٰ من شكرك، فإنه لا بقاء للنعم إذا كُفِرَت، ولا زوال لها إذا شُكِرَت».

وذكر عن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه دعي إلىٰ أقوام ليأخذهم علىٰ ريبة، فافترقوا قبل أن يأخذهم عثمان، فأعتق رقبة شكرًا لله تعالىٰ إذ لم يجر علىٰ يديه فضيحة مسلم.

ومن لم يستطع شكر من أسدىٰ إليه معروفًا بعمله، فليُعمِل بذلك لسانه، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أتىٰ إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له حتىٰ تعلموا أن قد كافأتموه**»(١).

وقد قيل: إذا قصرت يداك عن المكافأة، فليطل لسانك بالشكر.

وقال بعض الحكماء: الشكر ثلاث منازل: ضمير القلب، ونشر اللسان، ومكافأة اليد، كما في قول الشاعر:

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً ... يدي ولساني والضميرَ المُحَجَّبَا

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أحمد، وصحَّحه الألباني في «المشكاة» (١٩٤٣).

المكافأة على المعروف

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتىٰ تروا أنكم قد كافأتموه»**(١).

وقال رجل لسعيد بن العاص، وهو أمير الكوفة: لي يد عندك بيضاء، قال: وما هي؟ قال: كبت بك فرسك، فتقدمت إليك قبل غلمانك، فأخذت بعضدك وأركبتك، وأسقيتك ماء، قال: فأين كنت إلىٰ الآن؟ قال: حُجِبتُ عن الوصول إليك، قال: قد أمرنا لك بمائتي ألف درهم، وبما يملكه الحاجب إذ حجبك عنا.

وذكر عن قطري بن الفجاءة الخارجي أن الحجاج أسره ثم منَّ عليه فأطلقه، فقيل له: عاود قتال عدو الله، فقال: هيهات، شدَّ يدًا مطلقُها، وأرقَّ رقبةً معتقُها، ثم قال:

أأقاتل الحجاج عن سلطانه ... بيد تقر بأنها مولاتُهْ

ماذا أقول إذا وقفت إزاءه ... في الصف واحتجت له فعلاتُهْ

أأقول جار عليَّ لا.. إني إذن ... لأحقُّ من جارت عليه ولاتُهْ

وتحدث الأقوام أن صنائعًا ... غرست لدي فحنظلت نخلاتُهْ

واجتاز الشافعي رَحِمَهُ اللهُ بمصر في سوق الحَدَّادين، فسقط سوطه، فقام إنسان، فأخذه ومسحه وناوله إياه، فقال لغلامه: كم معك؟ قال: عشرة دنانير، قال: ادفعها إليه واعتذر له.

واستنشد عبد الملك عامرًا الشعبي، فأنشده لغير ما شاعر حتىٰ أنشد لحسان:

من سرَّه شرف الحياة فلم يزل ... في عصبة من صالحي الأنصَارِ

البائعين نفوسهم لنبيهم ... بالمشرفيِّ وبالقنا الخطَّارِ

(١) رواه أحمد، وصحَّحه الألباني في «المشكاة» (١٩٤٣).

الناظـــرين بأعـــين محمـــرةٍ كالجمـــر غيـــرِ كلـــيلة الأبـــصَارِ

فقام أنصاري، فقال: يا أمير المؤمنين، استوجب عامر الصلة، عليَّ ستون من الإبل كما أعطينا حسان يوم قالها، فقال عبد الملك: وله عندي ستون ألفًا، وستون من الإبل.

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أحسنوا في عقب غيركم تُحفَظوا في عقبكم**».

ومما جاء في المكافأة: ما حكي عن الحسن بن سهل قال: كنت يومًا عند يحيىٰ بن خالد البرمكي وقد خلا في مجلسه لإحكام أمر من أمور الرشيد، فبينما نحن جلوس إذ دخل عليه جماعة من أصحاب الحوائج فقضاها لهم ثم توجهوا لشأنهم، فكان آخرهم قيامًا أحمد بن أبي خالد الأحول، فنظر يحيىٰ إليه والتفت إلىٰ الفضل ابنه، وقال: يا بني، إن لأبيك مع أبي هذا الفتىٰ حديثًا، فإذا فرغت من شغلي هذا فأذكرني أحدثك به.

فلما فرغ من شغله وطعم قال له ابنه الفضل: أعزك الله يا أبي، أمرتني أن أذكرك حديث أبي خالد الأحول، قال: نعم يا بني، لما قدم أبوك من العراق أيام المهدي كان فقيرًا لا يملك شيئًا، فاشتد بي الأمر إلىٰ أن قال لي من في منزلي: إنا قد كتمنا حالنا وزاد ضررنا ولنا اليوم ثلاثة أيام ما عندنا شيء نقتات به، قال: فبكيت يا بني لذلك بكاء شديدًا، وبقيت ولهان وحيران مطرقًا مفكرًا، ثم تذكرت منديلًا كان عندي، فقلت لهم: ما حال المنديل؟ فقالوا: هو باقٍ عندنا، فقلت: ادفعوه لي، فأخذته ودفعته إلىٰ بعض أصحابي وقلت له: بعه بما تيسر، فباعه بسبعة عشر درهمًا، فدفعتها إلىٰ أهلي، وقلت: أنفقوها إلىٰ أن يرزق الله غيرها.

ثم بكرت من الغد إلىٰ باب أبي خالد وهو يومئذٍ وزير المهدي، فإذا الناس وقوف علىٰ داره ينتظرون خروجه، فخرج عليهم راكبًا، فلما رآني سلم علي، وقال: كيف حالك؟ فقلت: يا أبا خالد، ما حال رجل يبيع من منزله بالأمس منديلًا بسبعة عشر درهمًا؟!

فنظر إليَّ نظرًا شديدًا وما أجابني جوابًا، فرجعت إلىٰ أهلي كسير القلب، وأخبرتهم بما اتفق لي مع أبي خالد، فقالوا: بئس والله ما فعلت، توجهت إلىٰ رجل كان يرتضيك لأمر جليل، فكشفت له سرك وأطلعته علىٰ مكنون أمرك، فأزريت عنده بنفسك وصغرت عنده منزلتك بعد أن كنت عنده جليلًا، فما يراك بعد اليوم إلا بهذه العين، فقلت: قد قُضي الأمر الآن بما لا يمكن استدراكه.

فلما كان من الغد بكرت إلىٰ باب الخليفة، فلما بلغت الباب استقبلني رجل، فقال لي: قد ذكرت الساعة بباب أمير المؤمنين، فلم ألتفت لقوله، فاستقبلني آخر، فقال لي كمقالة الأول، ثم استقبلني حاجب أبي خالد، فقال لي: أين تكون، قد أمرني أبو خالد بإجلاسك إلىٰ أن يخرج من عند أمير المؤمنين.

فجلست حتىٰ خرج، فلما رآني دعاني، وأمر لي بمركب، فركبت وسرت معه إلىٰ منزله، فلما نزل قال: علي بفلان وفلان الحناطين، فأحضرا، فقال لهما: ألم تشتريا مني غلات السواد بثمانية عشر ألف ألف درهم. قالا: نعم، قال: ألم أشترط عليكما شركة رجل معكما؟ قالا: بلىٰ، قال: هو هذا الرجل الذي اشترطت شركته لكما، ثم قال لي: قم معهما، فلما خرجنا قالا لي: إنا نريد أن نكلمك في أمر يكون لك فيه الربح الهنيء، إنك تحتاج في هذا الأمر إلىٰ وكلاء وأمناء وكيالين وأعوان ومؤن لم تقدر منها علىٰ شيء، فهل لك أن تبيعنا شركتك بمال نعجله، فتنتفع به ويسقط عنك التعب والكلف؟

فقلت لهما: وكم تبذلان لي؟ فقالا: مائة ألف درهم، فقلت: لا أفعل، فما زالا يزيداني وأنا لا أرضىٰ إلىٰ أن قالا لي: ثلثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا علىٰ هذا. فقلت: حتىٰ أشاور أبا خالد. قالا: ذلك لك.

فرجعت إليه فأخبرته، فدعا بهما، وقال لهما: هل وافقتماه علىٰ ما ذكر؟ قالا: نعم. قال: اذهبا فأقبضاه المال الساعة. ثم قال لي: أصلح أمرك وتهيأ فقد قلدتك العمل.

فأصلحت شأني وقلدني ما وعدني به، فما زلت في زيادة حتىٰ صار أمري إلىٰ ما صار، ثم قال لولده الفضل: يا بني، فما تقول في ابن من فعل بأبيك هذا الفعل، وما جزاؤه؟ قال: حق لعمري وجب عليك له، فقال: والله يا ولدي ما أجد له مكافأة غير أني أعزل نفسي وأوليه، ففعل ذلك.

وحكىٰ العباس صاحب شرطة المأمون قال: دخلت يومًا مجلس أمير المؤمنين ببغداد وبين يديه رجل مكبل بالحديد، فلما رآني قال لي: يا عباس، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: خذ هذا إليك فاستوثق منه، واحتفظ به، وبكِّر به إلي في غد واحترز عليه كل الاحتراز.

قال العباس: فدعوت جماعة، فحملوه ولم يقدر أن يتحرك، فقلت في نفسي: مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي، فأمرتهم، فتركوه في مجلس لي في داري، ثم أخذت أسأله عن قضيته، وعن حاله، ومن أين هو، فقال: أنا من دمشق، فقلت: جزىٰ الله دمشق وأهلها خيرًا، فمن أنت من أهلها؟ قال: وعمن تسأل؟ قلت: أتعرف فلانًا؟ قال: ومن أين تعرف ذلك الرجل؟ فقلت: وقع لي معه قضية.

فقال: ما كنت بالذي أعرفك خبره حتىٰ تعرفني قضيتك معه، فقلت: ويحك، كنت مع بعض الولاة بدمشق، فبغىٰ أهلها وخرجوا علينا حتىٰ إن الوالي تدلىٰ في زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه، وهربت في جملة القوم، فبينما أنا هارب في بعض الدروب، وإذا بجماعة يعدون خلفي، فما زلت أعدو أمامهم حتىٰ فتهم، فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك وهو جالس علىٰ باب داره، فقلت: أغثني أغاثك الله.

قال: لا بأس عليك ادخل الدار، فدخلت، فقالت زوجته: ادخل تلك المقصورة فدخلتها، ووقف الرجل علىٰ باب الدار، فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون: هو والله عندك، فقال: دونكم الدار، ففتشوها حتىٰ لم يبق سوىٰ تلك المقصورة وامرأته فيها، فقالوا: هو هاهنا، فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا،

وخرج الرجل وجلس علىٰ باب داره ساعة وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاي من شدة الخوف، فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك، فجلست، فلم ألبث حتىٰ دخل الرجل، فقال: لا تخف قد صرف الله عنك شرهم، وصرت إلىٰ الأمن والدعة إن شاء الله تعالىٰ. فقلت له: جزاك الله خيرًا.

فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها، وأفرد لي مكانًا في داره ولم يحوجني إلىٰ شيء، ولم يفتر عن تفقد أحوالي، فأقمت عنده أربعة أشهر في أرغد عيش وأهنئه إلىٰ أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها، فقلت له: أتأذن لي في الخروج حتىٰ أتفقد حال غلماني فلعلي أقف منهم علىٰ خبر، فأخذ عليَّ المواثيق بالرجوع إليه.

فخرجت وطلبت غلماني فلم أر لهم أثرًا، فرجعت إليه وأعلمته الخبر، وهو مع هذا كله لا يعرفني ولا يسألني، ولا يعرف اسمي، ولا يخاطبني إلا بالكنية، فقال: علام تعزم؟ فقلت: عزمت علىٰ التوجه إلىٰ بغداد، فقال: القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج، وها أنا قد أعلمتك. فقلت له: إنك تفضلت علي هذه المدة، ولك علي عهد الله أني لا أنسىٰ لك هذا الفضل، ولأوفينك مهما استطعت، قال: فدعا غلامًا له أسود، وقال له: أسرج الفرس الفلاني، ثم جهز آلة السفر، فقلت في نفسي: أظن أنه يريد أن يخرج إلىٰ ضيعة أو ناحية من النواحي، فأقاموا يومهم ذلك في كد وتعب، فلما كان يوم خروج القافلة جاءني السحر، وقال لي: يا فلان، قم فإن القافلة تخرج الساعة، وأكره أن تنفرد عنها، فقلت في نفسي: كيف أصنع، وليس معي ما أتزود به ولا ما أكري به مركوبًا ثم قمت، فإذا هو وامرأته يحملان أفخر الملابس وخفين جديدين وآلة السفر ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي، ثم قدم لي بغلًا، فحمل عليه صندوقين وفوقها فرش، ودفع إليَّ نسخة ما في الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم، وقدَّم إليَّ الفرس الذي كان جهزه، وقال: اركب، وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك.

وأقبل هو وامرأته يعتذران إلي من التقصير في أمري، وركب معي يشيعني، وانصرفت إلىٰ بغداد، وأنا أتوقع خبره لأفي بعهدي له في مُجَازاته ومكافأته، واشتغلت مع أمير المؤمنين، فلم أتفرغ أن أرسل إليه من يكشف خبره، فلهذا أنا أسأل عنه.

فلما سمع الرجل الحديث قال: لقد أمكنك الله تعالىٰ من الوفاء، ومكافأته علىٰ فعله، ومجازاته علىٰ صنيعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك، فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجل، وإنما الضر الذي أنا فيه غير عليك حالي وما كنت تعرفه مني، ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتىٰ أثبت معرفته، فما تمالكت أن قمت وقبَّلت رأسه، ثم قلت له: فما الذي أصارك إلىٰ ما أرىٰ؟

فقال: هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيامك، فنسبت إلي، وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد، وأخذت أنا وضربت إلىٰ أن أشرفت علىٰ الموت، وقيدت وبعث بي إلىٰ أمير المؤمنين وأمري عنده عظيم وخطبي لديه جسيم وهو قاتلي لا محالة، وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية، وقد تبعني من غلماني من ينصرف إلىٰ أهلي بخبري، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره لي حتىٰ أوصيه بما أريد، فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة وقمت لي بوفاء عهدك.

قال العباس: قلت: يصنع الله خيرًا، ثم أحضر حدادًا في الليل فك قيوده، وأزال ما كان فيه من الأنكال وأدخله حمام داره، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه، ثم سير من أحضر إليه غلامه، فلما رآه جعل يبكي ويُوصيه، فاستدعىٰ العباس نائبه، وقال: عليَّ بالفرس الفلاني، والفرس الفلاني والبغل الفلاني، والبغلة الفلانية حتىٰ عد عشرة، ثم عشرة من الصناديق، ومن الكسوة كذا وكذا، ومن الطعام كذا وكذا، وعشرة آلاف درهم، وكيسًا فيه خمسة آلاف دينار، وقال لنائبه في الشرطة: خذ هذا الرجل وشيعه إلىٰ حد الأنبار.

فقلت له: إن ذنبي عند أمير المؤمنين عظيم، وخطبي جسيم، وإن أنت احتججت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كل من علىٰ بابه فأرد وأقتل.

فقال له: انجُ بنفسك ودعني أدبِّر أمري، فقال: والله ما أبرح من بغداد حتىٰ أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلىٰ حضُوري حضرت، فقال العباس لصاحب الشرطة: إن كان الأمر علىٰ ما يقول فليكن في موضع كذا، فإن أنا سلمت في غداة غدًا أعلمته، وإن أنا قتلت فقد وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه، وأنشدك الله ألا يذهب من ماله درهم، وتجتهد في إخراجه من بغداد.

قال الرجل: فأخذني صاحب الشرطة وصيَّرني في مكان أثقُ به، وتفرغ العباس لنفسه، وتحنَّط وجهز له كفنًا. قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا وأرسل المأمون في طلبي رجالًا يقولون: يقول لك أمير المؤمنين: هات الرجل معك وقم.

قال: فتوجهت إلىٰ دار أمير المؤمنين، فإذا هو جالس وعليه ثيابه وهو ينتظرنا، فقال: أين الرجل؟ فسكت، فقال: ويحك أين الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع مني، فقال: لله عليَّ عهدٌ لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك، فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب، ولكن اسمع حديثي وحديثه، ثم شأنك ما تريد أن تفعله في أمري، قال: قل.

فقلت: يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها، وعرَّفْتُه أنني أريد أن أفي له وأكافئه علىٰ ما فعله معي، وقلت: أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين: إما أن يصفح عني، فأكون قد وفيت وكافأت، وإما أن يقتلني فأقيه بنفسي، وقد تحنطت وهاهو كفني يا أمير المؤمنين.

فلما سمع المأمون الحديث قال: ويلك! لا جزاك الله عن نفسك خيرًا، إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة، وتكافئه بعد المعرفة؟ هلا عرَّفتني خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر في وفائك له، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنه هاهنا قد حلف ألا يبرح حتىٰ

يعرف سلامتي، فإن احتجت إلىٰ حضوره حضر.

فقال المأمون: وهذه منه أعظم من الأولىٰ، اذهب الآن إليه، فطيِّب نفسه، وسكِّن روعه، وَأْتِني به حتىٰ أتولىٰ مكافأته.

قال العباس: فأتيت إليه، وقلت له: لِيَزُل خَوفُك؛ إنَّ أمير المؤمنين قال كيت وكيت.

فقال: الحمد الله الذي لا يحمد علىٰ السراء والضراء سواه، ثم قام فصلىٰ ركعتين ثم ركب وجئنا.

فلما مَثُل بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه، وحدثه حتىٰ حضر الغداء وأكل معه وكافأه بالمال، وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفىٰ، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها، وعشرة أبغال بآلاتها، وعشرة آلاف دينار، وعشرة مماليك بدوابهم، وكتب إلىٰ عامله بدمشق بالوصية به وإطلاق خراجه، وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق، فصارت كتبه تصل إلىٰ المأمون، وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لي: يا عباس، هذا كتاب صديقك.

وذكر عن سوار -وهو أحد المشهورين أيام المهدي- قال: انصرفت يومًا من دار الخليفة المهدي، فلما دخلت منزلي دعوت بالطعام فلم تقبله نفسي، فأمرت به فرفع، ثم دعوت جارية كنت أحبها وأحب حديثها وأشتغل بها فلم تطب نفسي، فدخل وقت القائلة فلم يأخذني النوم، فنهضت وأمرت ببغلة فأسرجت وأحضرت فركبتها، فلما خرجت من المنزل استقبلني وكيل لي ومعه مال، فقلت: ما هذا؟ فقال: ألفا درهم جبيتها من مستغلك الجديد، قلت: أمسكها معك واتبعني.

فأطلقت رأس البغلة حتىٰ عبرت الجسر، ثم مضيت في شارع دار الرقيق حتىٰ انتهيت إلىٰ الصحراء، ثم رجعت إلىٰ باب الأنبار، وانتهيت إلىٰ باب دار نظيف عليه شجرة وعلىٰ الباب خادم، فعطشت، فقلت للخادم: أعندك ماء تسقينيه؟ قال: نعم، ثم دخل وأحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها منديل فناولني فشربت، وحضر وقت العصر فدخلت مسجدًا علىٰ الباب فصليت فيه، فلما قضيت صلاتي إذ أنا بأعمىٰ

يلتمس، فقلت: ما تريد يا هذا؟ قال: إياك أريد.

قلت: فما حاجتك؟

فجاء حتىٰ جلس إلىٰ جانبي، وقال: شممت منك رائحة طيبة، فظننت أنك من أهل النعيم فأردت أن أحدثك بشيء، فقلت: قل، قال: ألا ترىٰ إلىٰ باب هذا القصر؟ قلت: نعم، قال: هذا قصرٌ كان لأبي، فباعه وخرج إلىٰ خراسان وخرجت معه فزالت عنا النعم التي كنا فيها، وعميت، فقدمت هذه المدينة، فأتيت صاحب هذه الدار لأسأله شيئًا يصلني به وأتوصل إلىٰ سوار فإنه كان صديقًا لأبي، فقلت: ومن أبوك؟ قال: فلان بن فلان، فعرفته، فإذا هو كان من أصدق الناس إليَّ.

فقلت له: يا هذا، إن الله تعالىٰ قد أتاك بسوار، منعه من الطعام والنوم والقرار حتىٰ جاء به فأقعده بين يديك، ثم دعوت الوكيل، فأخذت الدراهم منه فدفعتها إليه، وقلت له: إذا كان الغد فسر إلىٰ منزلي.

ثم مضيت وقلت: ما أحدث أمير المؤمنين بشيء أظرف من هذا، فأتيته، فاستأذنت عليه فأذن لي، فلما دخلت عليه حدثته بما جرىٰ لي فأعجبه ذلك وأمر لي بألفي دينار، فأحضرت، فقال: ادفعها إلىٰ الأعمىٰ، فنهضت لأقوم، فقال: اجلس، فجلست، فقال: أعليك دين؟ قلت: نعم. قال: كم دينك؟ قلت: خمسون ألفًا، فحادثني ساعة، وقال: امض إلىٰ منزلك، فمضيت إلىٰ منزلي فإذا بخادم معه خمسون ألفًا، وقال: يقول لك أمير المؤمنين: اقض بها دينك.

قال: فقبضت منه ذلك، فلما كان من الغد أبطأ عليَّ الأعمىٰ، وأتاني رسول المهدي يدعوني فجئته، فقال: قد فكرت البارحة في أمرك، فقلت: يقضىٰ دينه، ثم يحتاج إلىٰ القرض أيضًا، وقد أمرت لك بخمسين ألفًا أخرىٰ، قال: فقبضتها وانصرفت، فجاءني الأعمىٰ، فدفعت إليه الألفي دينار، وقلت له: قد رزقك الله تعالىٰ بكرمه، وكافأك علىٰ إحسان أبيك، وكافأني علىٰ إسداء المعروف إليك، ثم أعطيته شيئًا آخر من مالي، فأخذه وانصرف.

بر الوالدين

لقد أوجب الله عَزَّوَجَلَّ البر بالوالدين، وأعظم بهم الوصية؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء:٣٦].

وقال تعالىٰ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾ [الإسراء:٢٣].

وقال تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٤].

وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

قال بعض السلف: «لو علم الله شيئًا في العقوق أقل من (أفٍّ) لحرَّمَه، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة».

وقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**رضا الرب** تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ **في رضا الوالد، وسخط الله** تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ **في سخط الوالد**»(١).

قال عمر بن عبد العزيز لابن مهران: «لا تأتينَّ أبواب السلاطين وإن أمرتهم بمعروف أو نهيتهم عن منكر، ولا تخلونَّ بامرأةٍ وإن علَّمتها سورة من القرآن، ولا تصحبن عاقًّا فإنه لن يقبلك وقد عق والديه».

وقال المأمون: «لم أرَ أحدًا أبر من الفضل بن يحيىٰ بأبيه، بلغ من بره له أن يحيىٰ كان لا يتوضأ إلا بماء سخِّن، فمنعهم السجان من الوقود في ليلة باردة، فلما أخذ يحيىٰ مضجعه قام الفضل إلىٰ قمقم نحاس فملأه ماء وأدناه من المصباح فلم يزل قائمًا وهو في يده إلىٰ الصباح حتىٰ استيقظ يحيىٰ من منامه وطلب بعضهم من ولده أن يسقيه ماء، فلما

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥١٦).

أتاه بالشربة نام أبوه، فما زال الولد واقفًا بالشربة في يده إلىٰ الصباح حتىٰ استيقظ أبوه من منامه».

وقال رجل لعمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: إن لي أمًّا بلغ منها الكبر أنها لا تقضي حاجتها إلا وظهري لها مطية، فهل أديت حقها؟ قال: لا؛ لأنها كانت تصنع بك ذلك وهي تتمنىٰ بقاءك، وأنت تصنعه وتتمنىٰ فراقها.

وقال ابن المنكدر: «بتُّ أكبس رجل أبي، وبات أخي يصلي، ولا يسرني أنَّ ليلته بليلتي».

وكان محمد بن سيرين يكلم أمه كما يكلِّم الأمير الذي لا ينتصف منه.

وقيل لعلي بن الحسين: إنك من أبرِّ الناس، ولا تأكل مع أمك في صحفة، فقال: أخاف أن تسبق يدي يدها ما تسبق عيناها إليه، فأكون قد عققتها.

وأمك كم باتت بثقلك تشتكي ... تواصل مما غمها البأس والغمَّا
وفي الوضع كم عانت وحين فطامها ... مشقًّا يذيب الجلد واللحم والعظمَا
وكم سهرت وجدًا عليك جفونها ... وأكبادها لهفًا بجمر الأسىٰ تحمَىٰ
وكم غسلت عنك الأذىٰ بيمينها ... حنوًّا وإشفاقًا وأكثرت الضمَّا
فضيعتها لما أسنت جهالة ... وضقت بها ذرعًا وذوقتها سمًّا
ونمت قرير العين ريان ناعمًا ... مكبًّا علىٰ اللذات لا تسمع اللومَا
وأمك في جوعٍ شديدٍ وغُربةٍ ... تلين لها مما بها الصخرة الصمَّا
أهذا جزاها بعد طول عنائها ... لأنت لذو جهلٍ وأنت إذن أعمَىٰ

❊ ❊ ❊

في الأولاد وحقوقهم

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني لأُكرِه نفسي علىٰ الجماع، رجاء أن يخرج الله مني نسمة تسبحه وتذكره، فأكثروا من العيال؛ فإنكم لا تدرون بمن ترزقون».

وكان يقال: ابنك ريحانتك سبعًا، ثم صاحبك سبعًا، ثم عدو أو صديق.

وقيل: من حق الولد علىٰ والده أن يوسع عليه حاله كي لا يفسق.

قال شبيب بن شبة: «ذهبت اللذات إلا من ثلاثة: شم الصبيان، وملاقاة الإخوان، والخلوة مع النسوان».

ودخل رجلٌ علىٰ أحد الخلفاء وعنده ابنته، فقال: من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: هذه تفاحة القلب، فقال: انبذها عنك، فإنهن يلدن الأعداء، ويقربن البعداء، ويورثن الضغائن. قال: لا تقل ذلك، فوالله ما مَرَّض المَرضَىٰ، ولا نَدَب الموتىٰ، ولا أعان علىٰ الأحزان إلا هنَّ. فقال الرجل: لقد حببتهن إليَّ يا أمير المؤمنين.

وقيل لرجل: أي ولدك أحب إليك؟ قال: صغيرهم حتىٰ يكبر، ومريضهم حتىٰ يبرأ، وغائبهم حتىٰ يحضر.

وغضب معاوية علىٰ يزيد فهجره، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين، أولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظليلة وأرض ذليلة، وبهم نصول علىٰ كل جليلة، فإن غضبوا فأرضهم، وإن سألوا فأعطهم، وإن لم يسألوا فابتدئهم، ولا تنظر إليهم شزرًا فيملوا حياتك، ويتمنوا وفاتك.

فقال معاوية: يا غلام، إذا رأيت يزيد فأقرئه السلام، واحمل إليه مائتي ألف درهم، ومائتي ثوب.

فقال يزيد: من كان عند أمير المؤمنين؟ فقيل له: الأحنف، فقال يزيد: عليَّ به، فقال: يا أبا بحر، كيف كانت القصة؟ فحكاها له، فشكر صنيعه، وشاطره الصلة.

وحكىٰ الكسائي أنه دخل علىٰ الرشيد يومًا فأمر بإحضار الأمين والمأمون ولديه، قال: فلم يلبث قليلًا أن أقبلا ككوكبي أفق يزينهما هداهما ووقارهما وقد غضا أبصارهما حتىٰ وقفا في مجلسه، فسلما عليه بالخلافة، ودعوا له بأحسن الدعاء، فاستدناهما، وأسند محمدًا عن يمينه وعبد الله عن يساره، ثم أمرني أن ألقي عليهما أبوابًا من النحو، فما سألتهما شيئًا إلا أحسنا الجواب عنه، فسره ذلك سرورًا عظيمًا، وقال: كيف تراهما؟ فقلت:

أرىٰ قمري أفق وفرعين شامة ... يزينهما عرق كريم ومحتِدُ

سليلي أمير المؤمنين وحائزي ... مواريث ما أبقىٰ النبي محمدُ

يسدان أنفاق النفاق بشيمة ... يزينهما حرم وسيف مُهَنَّدُ

ثم قلتُ: ما رأيت -أعز الله أمير المؤمنين- أحدًا من أبناء الخلافة ومعدن الرسالة وأغصان هذه الشجرة الزلالية آدب منهما ألسنًا، ولا أحسن ألفاظًا، ولا أشد اقتدارًا علىٰ الكلام روية وحفظًا منهما، أسأل الله تعالىٰ أن يزيد بهما الإسلام تأييدًا وعزًّا، ويدخل بهما علىٰ أهل الشرك ذلًّا وقمعًا، وأمَّن الرشيد علىٰ دعائه، ثم ضمهما إليه وجمع عليهما يديه، فلم يبسطهما حتىٰ رأيت الدموع تنحدر علىٰ صدره، ثم أمرهما بالخروج وقال: كأني بهما وقد دهم القضاء، ونزلت مقادير السماء، وقد تشتت أمرهما، وافترقت كلمتهما بسفك الدماء، وتهتك الستور.

وسبَّ أعرابيٌّ ولده وذكر له حقه، فقال: يا أبتاه، إن عظيم حقك عليَّ لا يبطل صغير حقي عليك.

وقال بعضهم في ابنته مشفقًا عليها -وقد نسي أنَّ رزق الله واسع وعطاءه لا ينفد-:

أحب بنيتي ووددت أني ... دفنت بنيتي في قاع لَحْدِ

ومــا بــي أن تهــون علــي لكــن مخافــة أن تــذوق الــذل بعــدي
فــإن زوجــتها رجــلًا فقيــرًا أراهــا عــنده والهــم عــندي
وإن زوجــتها رجــلًا غنــيًّا فــيلطم خــدها ويــسب جــدي
ســألت الله يأخــذها قــريبًا ولــو كانــت أحــب الــناس عــندي

وكان الزبير بن العوام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يرقِّص ولده ويقول:

أزهــر مــن آل بنــي عتــيقِ مــبارك مــن ولــد الــصِّـدِّيـقِ
ألــذه كمــا ألــذ ريقــي

وكانت أعرابية ترقِّص ولدها وتقول:

يــا حــبذا ريــح الــولد ريــح الخزامــىٰ فــي الــبلد
أهكــذا كــل ولــد أم لــم يلــد مثلــي أحــد

وكان أعرابي يرقص ولده ويقول:

أحــبه حــب الــشحيح مالَــهُ
قــد ذاق طعــم الفقــر ثــم نالَــهُ
إذا أراد بذلــه بــدا لَــهُ

وكان لأعرابي امرأتان، فولدت إحداهما جارية والأخرىٰ غلامًا، فرقَّصته أمُّه يومًا، وقالت معايرة لضرتها:

الحمــد للَّــه الحمــيد العالــي أنقذنــي العــام مــن الجوالــي
مــن كــل شــوهاء كــشنٍّ بالــي لا تدفــع الــضيم عــن العــيالِ

فسمعتها ضرتها فأقبلت ترقِّص ابنتها وتقول:

ومــا علــيَّ أن تكــون جاريــه تغــسل رأســي وتكــون الفالــيه

وترفع الساقط من خماريه حتىٰ إذا بلغت ثمانيه
أزرتها بنقبة يمانيه أنكحتها مروان أو معاويه
أصهار صدق ومهور غاليه

فسمعها مروان فتزوجها علىٰ مائة ألف مثقال، وقال: إن أمَّها حقيقة ألا يكذب ظنُّها ويخان عهدها، فقال معاوية: لولا مروان سبقنا إليها لأضعفنا لها المهر، ولكن لا نحرم الصلة، فبعث إليها بمائتي ألف درهم.

ومن طرائف العرب: ما جاء في الأولاد قليلي التوفيق، فقد قيل: أنَّ أعرابيًّا نظر إلىٰ ولد له قبيح المنظر، فقال له: يا بني، إنك لست من زينة الحياة الدنيا.

وقال رجل لولده وهو في المكتب: في أي سورة أنت؟ قال: لا أقسم بهذا البلد ووالدي بلا ولد، فقال: لعَمري مَن كنت أنت ولده، فهو بلا ولد.

وأرسل رجل ولده يشتري له رشاء للبئر طوله عشرون ذراعًا، فوصل إلىٰ نصف الطريق، ثم رجع فقال: يا أبت، عشرون في عرض كم؟ قال: في عرض مصيبتي فيك يا بنيَّ.

وكان لرجل من الأعراب ولد اسمه حمزة، فبينما هو يومًا يمشي مع أبيه إذ برجل يصيح بشاب: يا عبد الله، فلم يجبه ذلك الشاب، فقال: ألا تسمع؟ فقال: يا عمُّ كلُّنا عبيد الله، فأي عبد تعني، فالتفت أبو حمزة إليه وقال: يا حمزة، ألا تنظر إلىٰ بلاغة هذا الشاب؟ فلما كان من الغد إذ برجل ينادي شابًّا: يا حمزة، فقال حمزة ابن الأعرابي: كلنا حماميز الله، فأي حمزة تعني؟، فقال له أبوه: ليس يعنيك يا من أخمد الله به ذكر أبيه.

وكان لمحمد بن بشير الشاعر ابنٌ جسيم، فأرسله في حاجته فأبطأ عليه ثم عاد ولم يقضها، فنظر إليه ثم قال:

عقله عقل طائر وهو في خِلقةِ الجملْ

فأجابه:

مـــــشبه بـــــك يـــــا أبـــــي لـــــيس لـــــي عـــــنك منـــــتقلْ

ونهىٰ أعرابي ابنه عن شرب النبيذ، فلم ينته وقال:

أمــن شــربة مــن مــاء كــرم شــربتها غـضبت عليَّ؟ الآن طابت لي الخمرُ

سأشرب فاسخط لا رضيت كلاهما حبـيبٌ إلىٰ قلبـي عقـوقك والـسكرُ

قال نمير بن أوس: «الآداب من الآباء، والصلاح من الله».

وقال رجل لإبراهيم: طوبىٰ لك، أفنيت عمرك في العبادة، وتركت الدنيا والزوجات. فقال: ألك عيال؟ قال: نعم، فقال: لروعة الرجل بعياله -يعني في بعض الأحيان من الفاقة- أفضل من عبادة كذا وكذا سنة.

وعن أحمد بن الهيثم بن عدي قال: جمع قيس بن عاصم ولده حين حضرته الوفاة، وقال: يا بني، إذا متُّ فسوِّدوا كباركم، ولا تسودوا صغاركم فيسفِّه الناس كباركم، وعليكم بإصلاح المال فإنه منبهة للكريم ويُستغنىٰ به عن اللئيم، وإذا مِتُّ فادفنوني في ثيابي التي كنت أصلي فيها وأصوم، وإياكم والمسألة فإنها آخر مكاسب العبد، وإن امرأ لم يسأل إلا ترَك مكسبه.

ثم جمع ثمانين سهمًا فربطها بوتر، ثم قال: اكسروها فلم يستطيعوا، ثم قال: فرِّقوا ففرَّقوا، فقال: اكسروها سهمًا سهمًا، فكسروها، فقال: هكذا أنتم في الاجتماع وفي الفرقة، ثم قال:

إنمـا المجـد مـا بنىٰ والـدُ الـصِّدقِ وأحـــيا فعالـــه المولـــودُ

وتمـامُ الفـضل الـشجاعةُ والحلـمُ إذا زانـــه عفـــافٌ وجـــودُ

وثلاثـــون يـــا بنـــيَّ إذا مـــا جمعـــتهم فـــي النائـــباتِ العهـــودُ

كثلاثـــين مـــن قـــداحٍ إذا مـــا ... شـــدَّها للـــزمان قِـــدحٌ شـــديدُ
لـــم تكـــسَّر وإن تفـــرَّقتِ الأســـهمُ ... أودىٰ بجمعِهـــــا التـــــبديدُ
وذوو الحلـــمِ والأكابـــرُ أولـــىٰ ... أن يُـــرىٰ مـــنكمُ لهـــم تـــسويدُ
وعلـــيكم حفـــظ الأصـــاغر حتـــىٰ ... يـــبلُغَ الحـــنثَ الأصـــغرُ المجهـــودُ

* * *

في ذكر الأنساب والعشيرة

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تعَلَّموا أنسَابَكُم تعرفوا بها أصولكم، فتصلوا بها أرحامكم».

وقد قيل: لو لم يكن من معرفة الأنساب إلا اعتزازها من صولة الأعداء، وتنازع الأكفاء، لكان تعلُّمها من أحزم الرأي، وأفضل الثواب، ألا ترىٰ إلىٰ قول قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث قالوا: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١]، فأبقوا عليه لرهطه.

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تعلَّموا العربية؛ فإنها تزيد في المروءة، وتعلموا النسب؛ فربَّ رحم مجهولة قد وصلت بمعرفة نسبها».

وقيل: إنَّ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ سُئِل: أي الناس أشرف؟ فقبض قبضتين من تراب، وقال: أيُّ هاتين أشرف؟ ثم جمعهما وطرحهما، وقال: الناس كلهم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

وكان أبو كبشة جد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قِبَل أمه، فلما خالف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دين قريش قالوا: نزعة عرق أبي كبشة، حيث خالفهم في عبادة الشِّعرَىٰ.

وسأل خالد بن عبد الله رجلًا عن نسبه فقال: نسبي الإسلام الذي من ضيعه فقد ضيع نسبه، ومن حفظه فقد حفظ نسبه، فقال خالد: وجهُ عبدٍ وكلامُ حر.

ومن كلام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** «أكرم عشيرتك؛ فإنهم جناحك الذي به تطير، وأصلك الذي إليه تصير، ويدك التي بها تصول، ولسانك الذي به تقول، وهم العدة عند الشدة، أكرم كريمهم، وعُد سقيمهم، وأشركهم في أمورك، ويسر عن معسرهم».

وكان يقال: إذا كان لك قريب، فلم تَمشِ إليه برِجْلِك، ولم تُعطه من مالك، فقد قطعته.

ويقال: حق الأقارب: إعظام الأصغر للأكبر، وحنو الأكبر علىٰ الأصغر.

قال بعضهم:

وإذا رُزِقــت مــن الــنوافل ثــروة　　فامــنح عــشيرتك الأدانــي فَــضلَها

واعلــم بأنــك لــم تــسوَّد فــيهمُ　　حتــىٰ تُــرىٰ دمــث الخلائــق سَــهلَها

ومن جميل ما يُذكر: أنَّ هاشم بنَ عبد مناف -جَد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تزوج سلمىٰ بنت زيد من بني النجار من أهل المدينة، ثم خرج إلىٰ الشام -وهي عند أهلها، وقد حملت بعبد المطلب- فمات بغزة، وولدت امرأتُه سلمىٰ عبدَ المطلب، فأقام في أخواله مكرمًا.

وبينما هو يناضل الصبيان ويقول: أنا ابن هاشم، سمعه رجل من قريش، فقال لعمه المطَّلب: إني مررت بالمدينة فرأيت غلامًا يعتزي إلىٰ أخيك، وما ينبغي ترك مثله في الغربة، فرحل إلىٰ المدينة في طلبه، فلما رآه فاضت عيناه وضمَّه إليه، ثمَّ حمله معه إلىٰ مكة.

وكان المطَّلب شريفًا مُطاعًا جوادًا، وكانت قريش تسميه (الفيَّاض) لسَخَائه، ولما مات وثب نوفل بن عبد مناف علىٰ أرض عبد المطلب فغصبه إياها، فسأل عبد المطَّلب رجالًا من قريشٍ النصرة علىٰ عمِّه، فقالوا: لا ندخل بينك وبين عمِّك، فكتب إلىٰ أخواله من بني النجار مستنصرًا بهم علىٰ عمه، فقال:

يــا طــولَ ليلــي لأحزانــي وأشــغالي　　هــل مــن رســولٍ إلىٰ الــنجار أخوالــي؟

بنـــي عـــدِيٍّ وديـــنارٍ ومازِنهـــا　　ومالــكٍ عــصمةِ الحيــران عــن حالــي

قد كنت فيهم وما أخشىٰ ظلامة ذي　　ظلــمٍ عزيــزًا منــيعًا نــاعمَ الــبالِ

حتىٰ ارتحلت إلىٰ قومي وأزعجني　　لـــذاك مطّلـــب عمـــي بترحالـــي

فغاب مطلب في قعر مظلمة ثم انبرىٰ نوفل يعدو علىٰ مالي
لما رأىٰ رجلًا غابت عمومته وغاب أخواله عنه بلا والي
فاستنفروا وامنعوا ضيمَ ابنِ أختِكمُ لا تخذلوه فما أنتم بخُذَّالِ

فلما وقف خالُه أبو سعد بن عدي بن النجار علىٰ كتابه بكىٰ، وسار من المدينة في ثمانين راكبًا حتىٰ قدم مكة فنزل بالأبطح فتلقاه عبد المطلب وقال: المنزل يا خال، فقال: لا والله حتىٰ ألقىٰ نوفَلًا، فقال: تركتُه بالحِجر جالسًا في مشايخ قومه.

فأقبل أبو سعدٍ حتىٰ وقف عليهم، فقام نوفل قائمًا فقال: يا أبا سعد، أنعم صباحًا، فقال: لا أنعَمَ اللهُ لك صباحًا، وسَلَّ سيفه وقال: وربِّ هذا البيت، لَئِن لم تَرُدَّ علىٰ ابنِ أختي أرضه لأمكِّنَنَّ منك هذا السيف، فقال: رددتها عليه.

فأشهد عليه مشايخَ قريشٍ، ثم نزل علىٰ عبد المطلب، فأقام عنده ثلاثًا، ثم اعتمر ورجع إلىٰ المدينة، فقال عبد المطلب:

ويأبىٰ مازنٌ وأبو عديٍّ ودينارُ بنُ تيمِ اللهِ ضيمي
بهم ردَّ الإلهُ عليَّ أرضي وكانوا في انتسابٍ دون قومي

❊ ❊ ❊

العيادة وفضلها

مرض إنسان، فكتب إليه بعض أصدقائه: كشف الله عنك ما بك من السقم، وطهرك بالعلة من الخطايا، ومتعك بأنس العافية، وأعقبك دوام الصحة.

ويستحب تخفيف الجلوس في العيادة، مرض بكر بن عبد الله المزني فعاده أصحابه فأطالوا الجلوس عنده، فقال: المريض يُعاد والصحيح يُزار.

قال الشاعر:

يعـدن مريـضًا هـنَّ هـيجن داءه ... ألا إنمـا بعـض العـوائد دَائِـيَا

ولما مرض معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرضه الذي مات فيه، وفد إليه الناس يعودونه، فقال لأهله: مهِّدوا لي فراشًا وأسندوني، وأوسِعوا رأسي دهانًا، ثم اكحلوا عيني بالإثمد، ثم ائذنوا للناس يدخلوا ويسلموا عليَّ قيامًا، ولا تُجلسوا عندي أحدًا، ففعلوا ذلك.

ثم رفع يديه وقال: اللهم أقل العثرة، واعفُ عن الزلة، وعد بحلمك علىٰ من لم يرج غيرك ولا يثق إلا بك، فإنك واسع المغفرة وليس لذي خطيئة منك مهرب، ومات -رحمه الله تعالىٰ-.

وقال عبد الله بن مصعب:

مـا لـي مرضـت فلـم يعدنـي عائـدٌ ... مـنكم ويمـرض كلـبكم فأَعُـودُ

❊ ❊ ❊

في ذكر الشر والوقاحة والسفاهة

إنَّ بعض الناس قد تمرَّس بالشر حتىٰ عري من حلة التقوىٰ، ومُحِي عنه طابع الهدىٰ، لا تثنيه يد المراقبة، ولا تكفه خيفة المحاسبة، فهو لدعائم دينه مضيع، ولدواعي شيطانه مطيع.

قال لقمان لابنه: «يا بني، كذب من قال: الشر يطفئ الشر، فإن كان صادقًا فليوقد نارين ثم ينظر هل تطفئ إحداهما الأخرىٰ، وإنما يطفئ الشرَّ الخَيرُ كما يُطفئ الماءُ النارَ».

وقال مالك بن دينار: «كفىٰ بالمرء شرًّا ألا يكون صالحًا ويقع في الصالحين».

ولا يزال أهل الشر في ازدياد حتىٰ تقوم الساعة وهم علىٰ ذلك، كما في إخباره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عما يحدث قبل قيام الساعة، حيث قال: «... **فبينا هم كذلك؛ إذ بَعث الله ريحًا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض رُوحَ كل مؤمن وكل مسلم، ويبقىٰ شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة**»[1].

ومن فعل ما شاء لقي ما ساء، ورأس الشر اتباع الهوىٰ وترك الهدىٰ.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «عهدت الناس وهواهم تبع لأديانهم، وإن الناس اليوم أديانهم تبع لأهوائهم».

وما جاء في ذكر الوقاحة والسفاهة: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولىٰ: إذا لم تستَح فاصنع ما شئت**»[2].

---

(١) رواه مسلم (٥٢٢٨).

(٢) رواه البخاري (٣٢٢٤).

وفي ذلك قيل:

إذا لم تَصُن عِرضًا ولم تخش خالقًا ... وتستحي مخلوقًا فما شئتَ فاصنعِ

قال ابن سلام: «العاقل شجاع القلب، والأحمق شجاع الوجه».

وذم رجل قومًا فقال: وجوههم وأيديهم حديد؛ أي: وقاح بخلاء، ووصف رجلٌ وقِحًا فقال: لو دق الحجارة بوجهه لرضَّها، ولو خلا بأستار الكعبة لسرقها.

وقال آخر:

إذا رُزقَ الفتىٰ وجهًا وقَاحًا ... تقلَّب في الأمور كما يَشَاءُ

وقال بعض الحكماء: «أربعة قبائح وهي في أربعة أقبح: البخل في الملوك، والكذب في القضاة، والحسد في العلماء، والوقاحة في النساء».

وقال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الغوغاء إذا اجتمعوا ضَروا، وإذا افترقوا نفعوا، فقيل: قد علمنا مضرة اجتماعهم فما منفعة افتراقهم؟ قال: يرجع أهل المهن إلىٰ مهنهم، فينتفع الناس بهم، كرجوع البنَّاء إلىٰ بنائه، والنساج إلىٰ منسجه، والخباز إلىٰ مخبزه.

وقد مدح بعض السلف وجود السفهاء بين الناس، كما قال الأحنف: ما قلَّ سفهاء قوم إلا ذلوا، وقال بعض السلف: لا تسبوا الغوغاء؛ فإنهم يطفئون الحريق، ويخرجون الغريق.

وقال حكيم: لا يخرجن أحد من بيته إلا وقد أخذ في حجره قيراطين من جهل، فإن الجاهل لا يدفعه إلا الجهل، كما قال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينَا

وقيل: الجاهل من لا جاهل له، أي: من لا سفيه له يدفع عنه.

ومن طرائف الحمقىٰ: أنَّ رجلًا زنىٰ بجارية فأحبَلَها، فقالوا له: يا عدوَّ الله، هلا إذا ابتليت بفاحشة عزَلتَ؟ قال: قد بلغني أن العزل مكروه، قالوا: فما بلغك أن الزنا حرام؟

وكان يزيد بن زياد الحميري شاعرًا كثيرَ الشعر والهجو، وقد أراد عبيد الله بن

زياد قتله لكونه هجا أباه زيادًا، فمنعه معاوية من قتله، وقال: أدبه، فسقاه دواءً مسهلًا وأركبه علىٰ حمار، وطاف به في الأسواق، وهو يسلح علىٰ الحمار، فقال في ذلك:

يغسل الماءُ ما صنعتَ وشِعرِي ... راسخٌ منك في العظام البوالي

قال يزيد بن الوليد: «يا بني أمية، إياكم والغناء؛ فإنه ينقص الحياء، ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل المسكر، فإن كنتم لابد فاعلين فجنبوه النساء؛ فإن الغناء داعية الزنا».

❊ ❊ ❊

في السرقة والسراق

أمر الإسكندر بصلب سارق، فقال: أيها الملك، إني فعلتُ ما فعلتُ، وأنا كاره، فقال: وتصلب أيضًا وأنت كاره.

ومن طرائف السراق: ما ذُكر عن أحدهم أنه سرق قميصًا، فأعطاه لابنه يبيعه، فسُرِق منه، فجاء له، فقال: بكم بعته؟ قال: برأس المال.

وقال أكتل السلمي، وكان لصًّا فاتكًا:

وإني لأستحيي من اللَّه أن أُرىٰ ... أجرجر حبلي ليس فيه بعيرُ
وأن أسأل المرء الدنيء بعيره ... وأجمالُ ربي في البلاد كثيرُ

وقال الفرزدق:

وإن أبا الكرشاء ليس بسارق ... ولكن متىٰ ما يسرق القوم يأكُلِ

وقال أحد السراق الظرفاء:

خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة ... إن الجلوس مع العيال قبيحُ

وقال غيره:

خن من أمنت ولا تركن إلىٰ أحد ... فما نصحتك إلا بعد تجريبي

وكان لعمرو بن دويرة البجلي أخ قد كلف ببنت عم له، فتسور عليها الدار ذات ليلة، فأخذه إخوتها وأتوا به خالد بن عبد الله القسري، وجعلوه سارقًا، فسأله خالد، فصدقهم ليدفع الفضيحة عن الجارية، فهمَّ خالد بمعاقبته، فقال عمرو أخوه:

أخالد قد واللَّه أوطئ عنوة ... وما العاشق المظلوم فينا بسارقِ

أقــر بمــا لــم يأتــه المــرء إنــه رأىٰ القطع خيرًا من فضيحة عاشِقِ

فعفا عنه خالد وزوَّجه الجارية.

* * *

في الذكاء الموصل إلى بلوغ المقاصد

خطب أحد الكرام وفتىٰ من العرب امرأة، وكان شابًّا جميلًا، فأرسلت إليهما أن يحضرا عندها، فحضرا وجلست بحيث تراهما وتسمع كلامهما، فلما رأىٰ الرجل ذلك الشاب وعاين جماله، علم أنها تؤثره عليه، فأقبل علىٰ الفتىٰ وقال: لقد أوتيت جمالًا، فهل عندك غير هذا؟ قال: نعم، فعدد محاسنه ثم سكت، فقال له الرجل: كيف حسابك مع أهلك؟ قال: ما يخفىٰ عليَّ منه شيء، وإني لأستدرك منه أدق من الخردل.

فقال الرجل: لكني أضع الآنية فيها المال في بيتي فينفقها أهلي علىٰ ما يريدون، فلا أعلم بنفادها حتىٰ يسألوني غيرها.

فقالت المرأة: والله لهذا الشيخ الذي لا يحاسبني أحب إلي من هذا الذي يحصي عليَّ مثقال الذرة، فتزوجته.

وبلغ عضد الدولة أن قومًا من الأكراد يقطعون الطريق، ويقيمون في جبال شامخة ولا يُقدر عليهم، فاستدعىٰ بعض التجار ودفع إليه بغلًا عليه صندوقان فيهما حلوىٰ مسمومة كثيرة الطيب في ظروف فاخرة، ودنانير وافرة، وأمره أن يسير مع القافلة ويظهر أن هذه هدية لأحد نساء الأمراء، ففعل التاجر ذلك وسار أمام القافلة، فنزل القوم فأخذوا الأمتعة والأموال، وانفرد أحدهم بالبغل وصعد به الجبل، فوجد به الحلوىٰ، فقبح علىٰ نفسه أن ينفرد بها دون أصحابه فاستدعاهم، فأكلوا علىٰ مجاعة، فماتوا عن آخرهم، وأخذ أرباب الأموال أموالهم.

وأُتي لبعض الولاة برجلين قد اتهما بسرقة فأقامهما بين يديه، ثم دعا بشربة ماء، فجيء له بكوب فرماه بين يديه فارتاع أحدهما وثبت الآخر، فقال للذي ارتاع: اذهب إلىٰ حال سبيلك، وقال للآخر: أنت أخذت المال وتلذذت به، وتَهدَّده فأقر، فسئل

عن ذلك، فقال: إن اللص قوي القلب، والبريء يجزع ولو تحرك عصفور لفزع منه.

وقصد رجل الحج فاستودع إنسانًا مالًا، فلما عاد طلبه منه فجحده المستودع، فأخبر بذلك القاضي إياسًا، فقال: أَعَلِم بأنك جئتني؟ قال: لا، قال: فعُد إليَّ بعد يومين، ثم إن القاضي إياسًا بعث إلىٰ ذلك الرجل فأحضره، ثم قال له: إنه قد تحصلت عندي أموال كثيرة لأيتام وغيرهم وودائع للناس، وإني مسافر سفرًا بعيدًا وأريد أن أودعها عندك لما بلغني من دينك وتحصين منزلك، فقال: حبًّا وكرامة، قال: فاذهب وهيئ موضعًا للمال وقومًا يحملونه.

فذهب الرجل وجاء صاحب الوديعة؛ فقال له القاضي إياس: امض إلىٰ صاحبك، وقل له: ادفع إليَّ مالي وإلا شكوتك للقاضي إياس، فلما جاء وقال له ذلك دفع إليه ماله واعتذر إليه، فأخذه وأتىٰ إلىٰ القاضي إياس وأخبره.

ثم بعد ذلك أتىٰ الرجل ومعه الحمالون لطلب الأموال التي ذكرها له القاضي، فقال له القاضي بعد أن أخذ الرجل ماله منه: بدا لي ترك السفر، امض لشأنك لا أكثر الله في الناس مثلك.

وقال المغيرة بن شعبة: لم يخدعني غير غلام من بني الحارث بن كعب، فإني ذكرت امرأة منهم لأتزوجها، فقال: أيها الأمير، لا خير لك فيها، فقلت: ولم؟ قال: رأيت رجلًا يقبِّلها، فأعرضتُ عنها، فتزوجها الفتىٰ فلمته وقلت: ألم تخبرني أنك رأيت رجلًا يقبِّلها. قال: نعم، رأيت أباها يقبلها.

وأتىٰ رجل إلىٰ الأحنف فلطمه، فقال: ما حملك علىٰ هذا؟ فقال: جُعِل لي جعلٌ علىٰ أن ألطم سيد بني تميم، فقال: لست بسيدهم، عليك بحارثة بن قدامة، فإنه سيدهم، فمضىٰ إليه فلطمه فقطع يده.

وقال الشعبي: وجهني عبد الملك إلىٰ ملك الروم، فقال لي: من أهل بيت الخلافة أنت؟ قلت: لا، ولكني رجل من العرب، فكتب إلىٰ عبد الملك رقعة ودفعها

إليَّ، فلما قرأها عبد الملك قال لي: أتدري ما فيها؟ قلت: لا، قال فيها: العجب لقوم فيهم مثل هذا كيف يولون أمرهم غيره، قال: أتدري ما أراد بهذا؟ قلت: لا، قال: حسدني عليك، فأراد أن أقتلك، فقلت: إنما كبرت عنده يا أمير المؤمنين لأنني لم أترك شيئًا سألني عنه إلا وقد أجبته، فبلغ ملك الروم ما قاله عبد الملك للشعبي، فقال: لله أبوه ما عدا ما في نفسي.

ولما ولىٰ عبد الملك بن مروان أخاه بشرًا الكوفة، وكان شابًّا ظريفًا غزلًا، بعث معه روح بن زنباع وكان شيخًا متورعًا، فثقل علىٰ بشر مرافقته، فذكر ذلك لندمائه، فتوصل بعض ندمائه إلىٰ أن دخل بيت روح بن زنباع ليلًا في خفية، فكتب علىٰ حائط قريب في مجلسه هذه الأبيات:

يا روح من لبنيات وأرملة … إذا نعاك لأهل المغرب الناعي

إن ابن مروان قد حانت منيته … فاحتل بنفسك يا روح بن زنباعِ

فتخوف من ذلك وخرج من الكوفة، فلما وصل إلىٰ عبد الملك أخبره بذلك، فاستلقىٰ علىٰ قفاه من شدة الضحك، قال: ثقلت علىٰ بشر وأصحابه، فاحتالوا لك.

وأما ما جاء في التيقظ والتبصر في الأمور: فقد قالت الحكماء: من أيقظ نفسه وألبسها لباس التحفظ، أيس عدوه من كيده له، وقطع عنه أطماع الماكرين به. وقالوا: اليقظة حارس لا ينام، وحافظ لا يسأم، وحاكم لا يرتشي، فمن تدرع بها أمن من الاختلال والغدر والجور والكيد والمكر.

وقيل: إن كسرىٰ أنوشروان كان أشد الناس تطلعًا في خفايا الأمور، وأعظم خلق الله تعالىٰ في زمانه تفحصًا وبحثًا عن أسرار الصدور، وكان يبث العيون علىٰ الرعايا والجواسيس في البلاد ليقف علىٰ حقائق الأحوال، ويطلع علىٰ غوامض القضايا، فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب، والمصلح فيجازيه بالإحسان، ويقول: متىٰ غفل الملك عن تعرف ذلك، فليس له من الملك إلا اسمه، وسقطت من القلوب هيبته.

وجاء عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه خرج ذات ليلة يطوف يتفقد أحوال المسلمين، فرأىٰ بيتًا من الشعر مضروبًا لم يكن قد رآه بالأمس، فدنا منه فسمع فيه أنين امرأة، ورأىٰ رجلا قاعدًا فدنا منه وقال له: من الرجل؟ فقال له: رجل من البادية قدمت إلىٰ أمير المؤمنين لأصيب من فضله، قال: فما هذا الأنين، قال: امرأة تتمخض قد أخذها الطلق، قال: فهل عندها أحد؟ قال: لا.

فانطلق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -والرجل لا يعرفه- فجاء إلىٰ منزله، فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب: هل لك في أجر قد ساقه الله تعالىٰ لك؟ قالت: وما هو؟ قال: امرأة تتمخض ليس عندها أحد، قالت: إن شئت، قال: فخذي معك ما يصلح للمرأة من الخرق والدهن، وائتني بقدر وشحم وحبوب.

فجاءت به، فحمل القدر ومشت خلفه حتىٰ أتىٰ البيت، فقال: ادخلي إلىٰ المرأة، ثم قال للرجل: أوقد لي نارًا، ففعل، فجعل عمر ينفخ النار ويضرمها والدخان يخرج من خلال لحيته حتىٰ أنضجها، وولدت المرأة، فقالت أم كلثوم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: بشر صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام، فلما سمعها الرجل تقول يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل، وقال: وا خجلتاه منك يا أمير المؤمنين! أهكذا تفعل بنفسك؟ قال: يا أخا العرب، من ولي شيئًا من أمور المسلمين ينبغي له أن يتطلع علىٰ صغير أمورهم وكبيره، فإنه عنها مسئول، ومتىٰ غفل عنها خسر الدنيا والآخرة.

ثم قام عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأخذ القدر من علىٰ النار وحملها إلىٰ باب البيت، وأخذتها أم كلثوم وأطعمت المرأة، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم، فقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للرجل: قم إلىٰ بيتك وكل ما في البرمة، وفي غد ائت إلينا، فلما أصبح جاءه، فجهزه بما أغناه به وانصرف.

وكان معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قد سلك طريق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في ذلك، وكان زياد بن أبيه يسلك مسلك معاوية في ذلك حتىٰ نقل عنه أن

رجلًا كلمه في حاجة له وجعل يتعرف إليه ويظن أن زيادًا لا يعرفه، فقال: أنا فلان بن فلان، فتبسم زياد وقال له: أتتعرف إليَّ وأنا أعرف بك منك بنفسك؟ والله إني لأعرفك وأعرف أباك وأعرف أمك، وأعرف جدك وجدتك، وأعرف هذه البردة التي عليك وهي لفلان، وقد أعارك إياها، فبهت الرجل وارتعد، حتىٰ كاد يغشىٰ عليه.

ثم جاء بعدهم من اقتدىٰ بهم، ومن أولئك عبد الملك بن مروان والحجاج، ثم اقتفىٰ آثار ذلك الفريقِ المنصورُ ثاني خلفاء بني العباس، ولي الخلافة بعد أخيه السفاح وهي في غاية الاضطراب، فنصب العيون، وأقام المتطلعين، وبث في البلاد والنواحي من يكشف له حقائق الأمور والرعايا، فاستقامت له الأمور ودانت له الجهات.

ولقد ابتلي في خلافته بأقوام نازَعُوه وأرادوا خلعه وتمردوا عليه وتكاثروا، فلولا أن الله تعالىٰ أعانه بتيقظه وتبصره ما ثبت له في الخلافة قدم، ولا رفع له مع قصد أولئك القاصدين علم، لكنه بث العيون فعرف من انطوىٰ علىٰ خلافه فعالجه بإتلافه، واطلع علىٰ عزائم المعاندين فقطع رؤوس عنادهم بأسيافه، وكان بكمال يقظته يتلقىٰ المحذور بدفعه دون رفعه، ويعاجل المخوف بتفريق شمله قبل جمعه، فذلت له الرقاب، ولانت لخلافته الصعاب، وقرر قواعدها وأحكمها بأوثق الأسباب.

ومن آثار يقظته وفطنته: ما نقله عنه عقبة الأزدي قال: دخلت مع الجند علىٰ المنصور فارتابني، فلما خرج الجند أدناني وقال لي: من أنت؟ فقلت: رجل من الأزد، وأنا من جند أمير المؤمنين قدمت الآن مع عمر بن حفص، فقال: إني لأرىٰ لك هيبة وفيك نجابة، وإني أريدك لأمر وأنا به معني، فإن كفيتنيه رفعتك، فقلت: إني لأرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين، فقال: أخفِ نفسك واحضر في يوم كذا. قال: فغبت عنه إلىٰ ذلك اليوم وحضرت، فلم يترك عنده أحدًا، ثم قال لي: اعلم أن بني عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيد ملكنا واغتياله، ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم وألطاف بلادهم، فخذ معك عينًا من عندي وألطافًا

وكتبًا، واذهب حتىٰ تأتي عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فاقدم عليه متخشعًا، وخذ معك هذه الكتب علىٰ ألسنة أهل تلك القرية والألطاف من عندهم إليه، فإذا رآك فإنه سيردك ويقول: لا أعرف هؤلاء القوم، فاصبر عليه وعاوده وقل له: قد سيروني سرًّا، وسيروا معي ألطافًا وعينًا، وكلما جبهك وأنكر اصبر عليه وعاوده، واكشف باطن أمره.

قال عقبة: فأخذت كتبه والعين والألطاف، وتوجهت إلىٰ جهة الحجاز حتىٰ قدمت علىٰ عبد الله بن الحسن، فلقيته بالكتب، فأنكرها ونهرني وقال: ما أعرف هؤلاء القوم، فلم أنصرف وعاودته القول، وذكرت له اسم القرية وأسماء أولئك القوم، وأن معي ألطافًا وعينًا، فأنس بي وأخذ الكتب وما كان معي.

فتركته ذلك اليوم، ثم سألته الجواب، فقال: أما كتاب فلا أكتب إلىٰ أحد، ولكن أنت كتابي إليهم، فأقرئهم السلام وأخبرهم أن ابني محمدًا وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقت كذا وكذا، فخرجت من عنده وسرت حتىٰ قدمت علىٰ المنصور فأخبرته بذلك، فقال لي المنصور: إني أريد الحج، فإذا صرت بمكان كذا وكذا وتلقاني بنو الحسن وفيهم عبد الله، فإني أعظمه وأكرمه وأرفعه وأحضر الطعام، فإذا فرغ من أكله ونظرت إليه فتمثل بين يدي وقِفْ أمامه، فإنه سيصرف وجهه عنك، فدر حتىٰ تقف من ورائه واغمز ظهره بإبهام رجلك حتىٰ يملأ عينيه منك، ثم انصرف عنه وإياك أن يراك وهو يأكل.

ثم خرج المنصور يريد الحج حتىٰ إذا قارب البلاد تلقاه بنو الحسن، فأجلس عبد الله إلىٰ جانبه وحادثه، فطلب الطعام للغداء فأكلوا معه، فلما فرغوا أمر برفعه، فرفع، ثم أقبل علىٰ عبد الله بن الحسن وقال: يا أبا محمد، قد علمت أن مما أعطيتني من العهود والمواثيق أنك لا تريدني بسوء ولا تكيد لي سلطانًا، قال: فأنا علىٰ ذلك يا أمير المؤمنين.

قال عقبة: فلحظني المنصور بعينه، فقمت حتىٰ وقفت بين يدي عبد الله بن الحسن، فأعرض عني، فدرت من خلفه وغمزت ظهره بإبهام رجلي، فرفع رأسه وملأ عينيه

مني، ثم وثب حتىٰ جثىٰ بين يدي المنصور، وقال: أقلني يا أمير المؤمنين أقالك الله.

فقال له المنصور: لا أقالني الله إن لم أقتلك، وأمر بحبسه وجعل يتطلب ولديه محمدًا وإبراهيم ويستعلم أخبارهما.

وقال علي الهاشمي: دعاني المنصور يومًا فإذا بين يديه جارية صفراء، وقد دعا لها بأنواع العذاب وهو يقول لها: ويلك اصدقيني، فوالله ما أريد إلا الألفة، ولئن صدقتيني لأصلن رحمه ولأتبعن البر إليه، وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهي تقول: لا أعرف له مكانًا، فأمر بتعذيبها، فلما بلغ العذاب منها أغمي عليها، فقال: كفوا عنها.

فلما رأىٰ أن نفسها كادت تتلف قال: ما دواء مثلها؟ قالوا: شم الطيب وصب الماء البارد علىٰ وجهها وأن تُسقىٰ السويق، ففعلوا بها ذلك وعالج المنصور بعضه بيده، فلما أفاقت سألها عنه، فقالت: لا أعلم، فلما رأىٰ إصرارها علىٰ الجحود قال لها: أتعرفين فلانة الحجامة، فلما سمعت منه ذلك تغير وجهها وقالت: نعم يا أمير المؤمنين تلك من بني سليم، قال: صدقت، هي والله أمتي ابتعتها بمالي، ورزقي يجري عليها في كل شهر، وكسوة شتائها وصيفها من عندي، سيرتها وأمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتتعرف أحوالكم وأخباركم.

ثم قال لها: أتعرفين فلانًا البقال؟ قالت: نعم يا أمير المؤمنين هو في بني فلان، قال: صدقتِ، هو والله غلامي دفعت إليه مالًا، وأمرته أن يبتاع به ما يحتاج إليه من الأمتعة، وأخبرني أن أمة لكم يوم كذا وكذا جاءت إليه بعد صلاة المغرب تسأله حناء، وحوائج، فقال لها: ما تصنعين بهذا؟ قالت: كان محمد بن عبد الله بن الحسن في بعض الضياع بناحية البقيع، وهو يدخل الليلة، وأردنا هذا ليتخذ النساء ما يحتجن إليه عند دخول أزواجهن من المغيب.

ودخل كُثَيِّرُ عزَّةَ يومًا علىٰ عبد الملك بن مروان وهو يتجهز للخروج إلىٰ مصعب بن الزبير فقال: ويحك يا كثير، ذكرتك الآن بشعرك، فإن أصبتَه أعطيتك حكمَك، فقال: يا أمير المؤمنين، كأنك لما ودعت عاتكة بنت يزيد بكت لفراقك، فبكىٰ لبكائها حشمها فذكرت قولي:

إذا ما أراد الغزو لم تثنِ عزمَه ... حَصانٌ عليها نظمُ درٍّ يزينُها

نهته فلما لم ترَ النهي عاقه ... بكت فبكىٰ مما عراها قطينُها

قال: أصبت فاحتكم، قال: مائة ناقة من نوقك المختارة، قال: هي لك.

فلما سار عبد الملك إلىٰ العراق نظر يومًا إلىٰ كُثَيِّر عزة وهو مفكر في أمره، فقال: عليَّ به، فلما جيءَ به قال له: أرأيت إن أخبرتك بما كنت تفكر به تعطيني حكمي؟ قال: نعم، قال: والله؟ قال: والله، فقال له عبد الملك: إنك تقول في نفسك: هذا رجل ليس هو علىٰ مذهبي، وهو ذاهب إلىٰ قتال رجل آخر ليس هو علىٰ مذهبي، فإن أصابني سَهم غَرب من بينهما خسرت الدنيا والآخرة. فقال: إي والله يا أمير المؤمنين، فاحتكم.

قال: حكمي أن أردك إلىٰ أهلك وأحسن جائزتك، فأعطاه مالًا وأذن له في الانصراف.

وأتي عبد الملك برجل كان مع بعض من خرج عليه، فقال: اضربوا عنقه، فقال: يا أمير المؤمنين، ما كان هذا جزائي منك! فقال: وما جزاؤك؟ فقال: والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر لك، وذلك أني رجل مشئوم ما كنت مع رجل قط إلا غلب وهزم، وقد بان لك صحة ما ادعيت، وكنت عليك خيرًا من مائة ألف معك، فضحك وخلىٰ سبيله.

وقال الرشيد مرة للمفضل الضبي: ما أحسن ما قيل في الذئب، ولك هذا الخاتم، وشراؤه ألف وستمائة دينار؟ فأنشد قول الشاعر:

ينام بإحدىٰ مقلتيه ويتقي ... بأخرىٰ الرزايا فهو يقظان هاجعُ

فقال: ما قلت هذا إلا لتسلبنا الخاتم، ثم ألقاه إليه، فبعثت زبيدة فاشترته منه بألف وستمائة دينار، وبعثت به إلىٰ الرشيد، وقالت: إني رأيتك معجبًا به، فردَّه إلىٰ المفضل والدنانير، وقال: ما كنا لنهب شيئًا ونرجع فيه.

ولما عبر سيف الدولة بن حمدان الفرات ليملك الشام، تسامع به الولاة، فتلقوه من الفرات، وكان فيهم والي حلب من قبل الإخشيد أبو الفتح عثمان بن سعيد، فأكرمه سيف الدولة وأركبه معه وسايره، فجعل سيف الدولة كلما مرَّ بقرية سأله عنها فيجيبه، حتىٰ مر بقرية، فقال: ما اسم هذه القرية؟ فقال: إبرم، فسكت سيف الدولة وظن أنه أراد أنه أبرمه وأضجره بكثرة السؤال، فلم يسأله سيف الدولة بعد ذلك عن شيء حتىٰ مرَّ بعدة قرىٰ، فقال له أبو الفتح: يا سيدي، واللهِ إن اسم تلك القرية إبرم، فاسأل من شئت عنها، فضحك سيف الدولة وأعجبته فطنته.

❊ ❊ ❊

فضل العفاف والافتخار به

قال أعرابي: العشق خفي أن يُرىٰ، وجلي أن يخفىٰ، فهو كامن ككمون النار في الحجر، إن قدحته أورىٰ، وإن تركته تواريٰ، وقد قيل: أول العشق النظر، وأول الحريق الشرر.

وقال المجنون:

قالوا جننتَ بمن تهوىٰ فقلت لهم ... الحب أعظم مما بالمجانينِ
الحب ليس يفيق الدهر صاحبه ... وإنما يصرع المجنون في الحينِ

ونزل رجل علىٰ صديق له مستترًا خائفًا من عدو له، فأنزله في منزله وتركه فيه، وذهب لبعض حوائجه، وقال لامرأته: أوصيك بضيفي هذا خيرًا، فلما عاد بعد مدة طويلة، قال لها: كيف ضيفنا؟، قالت: ما أشغله بالعمىٰ عن كل شيء، وكان الضيف قد أطبق عينيه، فلم ينظر إلىٰ امرأة صاحبه ولا إلىٰ منزله إلىٰ أن عاد من حاجته.

ودخلت بثينة علىٰ عبد الملك بن مروان، فقال لها: يا بثينة، ما أرىٰ فيك شيئًا مما كان يقوله جميل، فقالت: يا أمير المؤمنين، إنه كان يرنو إليَّ بعينين ليستا في رأسك، قال: فكيف رأيتيه في عشقه؟ قالت: كان كما قال الشاعر:

لا والذي تسجد الجباه له ... ما لي بما تحت ذيلها خَبرُ
ولا بفيها ولا هممت بها ... ما كان إلا الحديث والنظَرُ

ومر عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في ليلة في بعض سكك المدينة، فسمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل واخضل جانبه ... وأرقني ألا خليل ألاعبُهْ

فـــواللَّه لـــولا اللَّـــه لا رب غيـــره   لحـــرك مـــن هـــذا الـــسرير جوانـــبُهْ
مخافـــة ربـــي والحـــياء يـــصدني   وأكـــرم بعلـــي أن تُـــنال مـــراكبُهْ

فسأل عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عنها، فقيل له: إنها امرأة فلان، وله في الغزاة ثمانية أشهر، فأمر عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ألا يغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر.

وبينما عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يطوف ذات ليلة في سكك المدينة إذ سمع امرأة تقول:

هـــل مـــن ســـبيل إلـــىٰ خمـــر فأشـــربها   أم مـــن ســـبيل إلـــىٰ نـــصر بـــن حَجَّـــاجِ

فقال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لا أرىٰ معي بالمدينة رجلًا تهتف به العواتق في خدورهن، عليَّ بنَصْر بن حجاج، فلما أصبح أتي بنصر بن حجاج فإذا هو من أحسن الناس وجهًا وأحسنهم شعرًا، فقال عمر: عزيمة من أمير المؤمنين لنأخذن من شعرك، فأخذ من شعره، فخرج من عنده وله وجنتان كأنهما شقتا قمر، فقال له عمر: والله لا تساكنني في بلدة أنا فيها، فقال: يا أمير المؤمنين، ما ذنبي؟ قال: هو ما أقول لك، ثم سيره إلىٰ البصرة، وخشيت المرأة التي سمع منها عمر ما سمع أن يبدر إليها من عمر شيء فدست إليه أبياتًا فقالت:

قـــل للإمـــام الـــذي تخـــشىٰ بـــوادره   مـــا لـــي وللخمـــر أو نـــصر بـــن حجـــاجِ
لا تجعـــل الظـــن حقًّـــا أن تبينـــه   إن الـــسبيل ســـبيل الخائـــف الراجـــي
إن الهـــوىٰ زم بالـــتقوىٰ فنحبـــسه   حتـــىٰ يقـــر بإلجـــام وإســـراجِ

فبكىٰ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وقال: الحمد لله الذي زم الهوىٰ بالتقوىٰ.

وقد قيل علىٰ سبيل المفاخرة في حفظ العرض:

يهـــون علينـــا أن تـــصاب جـــسومنا   وتـــسلم أعـــراضٌ لـــنا وعقُـــولُ

وحُكي أن بعض الملوك طلع يومًا إلىٰ أعلىٰ قصره يتفرج، فلاحت منه التفاتة،

فرأىٰ امرأة علىٰ سطح دار إلىٰ جانب قصره لم ير الراءون أحسن منها، فالتفت إلىٰ بعض جواريه، فقال لها: لمن هذه؟ فقالت: يا مولاي، هذه زوجة غلامك فيروز، فنزل الملك وقد خامره حبها وشغف بها، فاستدعىٰ بفيروز، وقال له: يا فيروز، قال: لبيك يا مولاي، قال: خذ هذا الكتاب وامض به إلىٰ البلد الفلانية، وَأْتِنِي بالجواب، فأخذ فيروز الكتاب وتوجه إلىٰ منزله، فوضع الكتاب تحت رأسه وجهَّز أمرَه وبات ليلته، فلما أصبح ودَّع أهله وسار طالبًا لحاجة الملك، ولم يعلم بما قد دبره الملك، وأما الملكُ فإنه لما توجه فيروز، قام مسرعًا وتوجه متخفيًا إلىٰ دار فيروز.

فقرع الباب قرعًا خفيفًا، فقالت امرأة فيروز: من بالباب؟ قال: أنا الملكُ سيد زوجك، ففتحت له، فدخل وجلس، فقالت له: أرىٰ مولانا اليوم عندنا، فقال: زائر، فقالت: أعوذ بالله من هذه الزيارة، وما أظن فيها خيرًا، فقال لها: ويحك إنني الملك سيد زوجك، وما أظنك عرفتِني، فقالت: بل عرفتك يا مولاي، ولقد علمت أنك الملك، ولكن سبقتك الأوائل في قولهم:

سأترك ماءكم من غير ورد ... وذاك لكثرة الوراد فيهِ

إذا سقط الذباب علىٰ طعام ... رفعت يدي ونفسي تشتهيهِ

وتجتنب الأسود ورود ماء ... إذا كان الكلاب ولغن فيهِ

ويرتجع الكريم خميص بطن ... ولا يرضىٰ مساهمة السفيهِ

وما أحسن يا مولاي قول الشاعر:

قل للذي شفه الغرام بنا ... وصاحب الغدر غير مصحوبِ

والله لا قال قائل أبدًا ... قد أكل الليث فضلة الذيبِ

ثم قالت: أيها الملك، تأتي إلىٰ موضعِ شُربِ كلبِك تشربُ منه، فاستحيا الملكُ من كلامها وخرج وتركها، فنسي نَعلَه في الدار، هذا ما كان من الملك، وأما ما كان من

فيروز فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب فلم يجده معه، فتذكر أنه نسيه تحت فراشه، فرجع إلىٰ داره، فوافق وصولَه عقب خروج الملك من داره، فوجد نعل الملك في الدار فطاش عقله، وعلم أن الملك لم يرسله في هذه السفرة إلا لأمر يفعله، فسكت ولم يبد كلامًا، وأخذ الكتاب وسار إلىٰ حاجة الملك، فقضاها ثم عاد إليه، فأنعم عليه بمائة دينار، فمضىٰ فيروز إلىٰ السوق، واشترىٰ ما يليق بالنساء، وهيأ هدية حسنة، وأتىٰ إلىٰ زوجته فسلم عليها، وقال لها: قومي إلىٰ زيارة بيت أبيك، قالت: وما ذاك؟ قال: إن الملك أنعم علينا وأريد أن تظهري لأهلك ذلك، قالت: حبًّا وكرامة.

ثم قامت من ساعتها، وتوجهت إلىٰ بيت أبيها، ففرحوا بها، وبما جاءت به معها، فأقامت عند أهلها شهرًا، فلم يذكرها زوجها ولا ألمَّ بها، فأتىٰ إليه أخوها، وقال له: يا فيروز، إما أن تخبرنا بسبب غضبك، وإما أن تحاكمنا إلىٰ الملك، فقال: إن شئتم الحكم، فافعلوا، فما تَرَكتُ لها عليَّ حقًّا، فطلبوه إلىٰ الحكم فأتىٰ معهم، وكان القاضي إذ ذاك عند الملك جالسًا إلىٰ جانبه.

فقال أخو الصَّبِية: أيَّد الله مولانا القاضي، إني أَجَّرتُ هذا الغلام بستانًا سالم الحيطان ببئر ماء معين عامرة، وأشجار مثمرة، فأكل ثمره، وهدم حيطانه، وأخرب بئره، فالتفت القاضي إلىٰ فيروز، وقال له: ما تقول يا غلام؟ فقال فيروز: أيها القاضي، قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان، فقال القاضي: هل سلَّم إليك البستان كما كان؟ قال: نعم، ولكن أريد منه السبب لرده؟ قال القاضي: ما قولك؟ قال: والله يا مولاي ما رددت البستان كراهة فيه، وإنما جئت يومًا من الأيام، فوجدت فيه أثر الأسد، فخفت أن يغتالني، فحرمتُ دخولَ البستان إكرامًا للأسد.

قال: وكان الملك متكئًا فاستوىٰ جالسًا، وقال: يا فيروز، ارجع إلىٰ بستانك آمنًا مطمئنًّا، فوالله إنَّ الأسد دخل البستان ولم يُؤَثِّر فيه أثرًا، ولا التمس منه ورقًا ولا ثمرًا ولا شيئًا، ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة، وخرج من غير بأس، ووالله ما رأيتُ مثلَ بستانك، ولا أشدَّ احترازًا من حيطانه علىٰ شجره، قال: فرجع فيروز إلىٰ دارِه، وردَّ

زوجته، ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك.

وقالت جارية للحجاج بن يوسف في جرير: إنك تدخل هذا علينا، فقال: إنه ما علمت إلا عفيفًا.

قالت: أما إنك لو أخليتني وإياه سترىٰ ما يصنع.

فأمر بإخلائها مع جرير في مكان يراهما ولا يشعر جريرٌ بشيء من ذلك، فقالت له: يا جرير، فأطرق رأسه وقال: هأنذا، فقالت: أنشدني من قولك كذا وكذا -لشعرٍ فيه رقة وتحنن- فقال: لست أحفظه، ولكن أحفظ كذا وكذا، ويعرض عن ذاك وينشدها شعرًا في مدح الحجاج، فقالت: لست أسألك عن هذا، إنما أريد كذا وكذا، فيعرض عن ذلك وينشدها في مدح الحجاج حتىٰ انقضىٰ المجلس، فقال الحجاج: لله درك!، أبَيتَ إلا كرمًا وتكرمًا.

وكان توبة بن الحميِّر -وهو الذي يقال له: مجنون ليلىٰ- يشن الغارات علىٰ بني الحارث بن كعب، فرأىٰ ليلىٰ فهواها وهام بها محبة وعشقًا، وقال فيها الأشعار الكثيرة القوية التي لم يُسبق إليها، ولم يلحق فيها لكثرة ما فيها من المعاني والحكم، قيل له مرة: هل كان بينك وبين ليلىٰ ريبة قط؟ فقال: برئت من شفاعة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن كنت قط حللت سراويلي علىٰ محرم.

ودخلت ليلىٰ علىٰ عبد الملك بن مروان تشكو ظلامة، فقال لها: ماذا رأىٰ منك توبة حتىٰ عشقك هذا العشق كله؟

فقالت: والله يا أمير المؤمنين، لم يكن بيني وبينه قط ريبة ولا خنا، وإنما العرب تعشق وتعف، وتقول الأشعار فيمن تهوىٰ وتحب، مع العفة والصيانة لأنفسها عن الدناءات، فأزال ظلامتها وأجازها.

قال الثوري: «لأن أترك عشرة آلاف دينار يحاسبني الله عليها أحب إلي من أن أحتاج إلىٰ الناس».

وقال إبراهيم بن أدهم: «قلة الحرص والطمع تورث الصدق والورع، وكثرة الحرص والطمع تورث الغم والجزع».

ودخل عباس بن سهل الساعدي علىٰ جميل وهو يموت، فقال له جميل: ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قط، ولم يزن قط، ولم يسرق، ولم يقتل النفس، وهو يشهد أن لا إله إلا الله؟ قال عباس: أظنه قد نجا، وأرجو له الجنة، فمن هذا؟

قال جميل: أنا، فقال: ما أظنك سلمت وأنت تشبب منذ عشرين سنة ببثينة، فقال: لا نالتني شفاعة محمد ﷺ وإني لفي أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا إن كنت وضعت يدي عليها بريبة، قال: فما برحنا حتىٰ مات.

وقيل: إنَّ جميلًا قال لرجلٍ كان عنده: هل أنت مبلغ عني رسالة إلىٰ حي بثينة ولك ما عندي؟ قال: نعم، قال: إذا أنا مت فاركب ناقتي، والبس حلتي هذه، وقل:

قومي بثينة فاندبي بعويلِ　　　وابك خليلًا دون كُلِّ خَليلِ

فلما انتهىٰ إلىٰ حيِّهم أنشد الأبيات، فخرجت بثينة كأنها بدر بدا في ظلمة، وهي تتثنىٰ في كسائها، فقالت له: ويحك إن كنت صادقًا فقد قتلتني، وإن كنت كاذبًا فقد فضحتني، فقال: بلىٰ، والله صادق، وهذه حلته وناقته.

فلما تحققت ذلك صاحت بأعلىٰ صوتها وصكَّت وجهها، واجتمع نساء الحي إليها يبكين معها، ثم صعقت مغشيًّا عليها، ثم أفاقت وهي تقول:

وإنَّ سُلوِّي عن جميل لساعة　　　من الدهر ما حانت ولا حان حينُها

سواء علينا يا جميل بن معمر　　　إذا متَّ بأساء الحياة ولينُها

قال الرجل: فما رأيت أكثر باكيًا ولا باكية من يومئذٍ.

ومن عجائب ما وقع من الحوادث: أن امرأة تقدمت إلىٰ قاضي الري، فادعت علىٰ زوجها بصداقها خمسمائة دينار فأنكره الزوج، فجاءت ببينة تشهد لها به، فقالوا: نريد أن تسفر لنا عن وجهها حتىٰ نعلم أنها الزوجة أم لا، فلما صمموا علىٰ ذلك، قال الزوج:

لا تفعلوا هي صادقة فيما تدعيه، فأقرَّ بما ادعت ليصون زوجته عن النظر إلىٰ وجهها، فقالت المرأة: وإذ قد أراد ذلك فهو في حلٍّ من صداقي عليه في الدنيا والآخرة.

ولما احتضر أبو بكر بن عياش بكىٰ عليه ابنه، فقال: يا بني، علام تبكي؟ والله ما أتىٰ أبوك فاحشة قط.

ولما احتضر حفص بن غياث القاضي بكىٰ بعض أصحابه، فقال له: لا تبك، والله ما حللت سراويلي علىٰ حرام قط، ولا جلس بين يدي خصمان فباليت علىٰ من وقع الحكم منهما.

ولما دخل عبد الله بن علي دمشق، وسلب الملك من بني أمية تطلَّب الأوزاعي، فتغيب عنه ثلاثة أيام، ثم أُحضر بين يديه وكان في تلك الأيام الثلاثة صائمًا طاويًا، فلمَّا بلغ الأميرَ ذلك عرض عليه الإفطار عنده، فأبىٰ أن يفطر عنده.

قال الأوزاعي: دخلت عليه وهو علىٰ سرير وفي يده خيزرانة، والمسودة عن يمينه وشماله، معهم السيوف مصلتة والعمد الحديد، فسلمت فلم يرد، ونكت بتلك الخيزرانة التي في يده، ثم قال: يا أوزاعي، ما ترىٰ فيما صنعنا من إزالة أيدي أولئك الظلمة، أرباط هو؟ قال: فقلت: أيها الأمير، سمعت يحيىٰ بن سعيد الأنصاري يقول: سمعت محمد بن إبراهيم التيمي يقول: سمعت علقمة بن وقاص يقول: سمعت عمر ابن الخطاب يقول: سمعت رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ، فمَن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله، فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه**».

قال: فنكت بالخيزرانة أشد مما كان ينكت، وجعل من حوله يعضون أيديهم، ثم قال: يا أوزاعي، ما تقول في دماء بني أمية؟ فقلت: قال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يحل دمُ امرئ مسلم إلا بإحدىٰ ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك**

لدينه المفارق للجماعة»، فنكت أشدَّ من ذلك، ثم قال: ما تقول في أموالهم؟ فقلت: إن كانت في أيديهم حرامًا فهي حرام عليك أيضًا، وإن كانت لهم حلالًا فلا تحل لك إلا بطريق شرعي، فنكت أشدَّ مما كان ينكت قبل ذلك.

ثم قال: ألا نوليك القضاء؟ فقلت: إن أسلافك لم يكونوا يشقون عليَّ في ذلك، وإني أحب أن يتم ما ابتدءوني به من الإحسان.

فقال: كأنك تحب الانصراف؟ فقلت: إنَّ ورائي حرمًا، وهم محتاجون إلىٰ القيام عليهم وسترهم.

قال: وانتظرت رأسي أن يسقط بين يدي، فأمرني بالانصراف، فلما خرجت إذا رسوله من ورائي، وإذا معه مائتا دينار، فقال: يقول لك الأمير: أنفق هذه.

قال: فتصدقت بها.

❊ ❊ ❊

الترغيب في النكاح وصفات النساء المحمودة

الزواج من أعظم النعم التي أنعم الله بها علىٰ عباده؛ لما فيه من هدوء الأنفس وإطفاء نار الغرائز، واستمرار النسل الذي تتكاثر به الأمة، قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ [النساء:٣].

وقال رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وِجاء**»(١).

والقاعدة التي ينطلق منها مريد الزواج -من الرجال والنساء-: أن يبحث عن الدين والأخلاق، قال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تُنكَح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**»(٢).

وقال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**»(٣).

حُكي أن نوح بن مريم قاضي مرو أراد أن يزوج ابنته، فاستشار جارًا له مجوسيًّا، فقال: سبحان الله!، يستفتونك وأنت تستفتيني؟! قال: لا بُدَّ أن تشير عليَّ، قال: إن رئيسنا كسرىٰ كان يختار المال، ورئيس الروم قيصر كان يختار الحسب والنسب،

---

(١) رواه البخاري (١٧٧٢)، ومسلم (٢٤٨٥).

(٢) رواه البخاري (٤٧٠٠)، ومسلم (٢٦٦١).

(٣) رواه الترمذي، وحسَّنه الألباني في «إرواء الغليل» (١٨٦٨).

ورئيسكم محمد كان يختار الدين، فانظر أنت بأيهم تقتدي؟

وقال رجل للحسن: إن لي ابنة فمن ترىٰ أن أزوجها له؟ قال: زَوِّجها ممن يتقي الله عَزَّوَجَلَّ، فإن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها.

وقيل لرجل من الحكماء: فلان يخطب فلانة. قال: أموسر من عقل ودين؟ فقالوا: نعم. قال: فزوجوه إياها.

وعلىٰ المرء أن يتزوج من النساء من تناسب حاله، بكرًا كانت أو ثيبًا.

وقد استحب قومٌ زواج البكر؛ لقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**عليكم بالأبكار؛ فإنهن أعذب أفواهًا، وأنتق أرحامًا، وأرضىٰ باليسير**»(١).

وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**هلا تزوجت بكرًا تلاعبها وتلاعبك**»(٢).

وقد قالوا: «أشهىٰ المطي ما لم يركب، وأحب اللآلئ ما لم يثقب».

وأنشد بعضهم:

قالوا نكحت صغيرة فأجبتهم ... أشهىٰ المطي إلي ما لم يُركَبِ

كم بين حبة لؤلؤ مثقوبة ... نظمت وحبة لؤلؤ لم تُثقَبِ

فأجابته امرأة:

إن المطية لا يلذ ركوبها ... حتىٰ تذلل بالزمام وتُركبَا

والدر ليس بنافع أربابه ... حتىٰ يؤلف بالنظام ويُثقَبَا

وجاء عن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: هلك أبي وترك سبع بنات أو تسع بنات، فتزوجت امرأة ثيبًا، فقال لي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**تزوجت يا جابر؟** فقلت: نعم. فقال: **بكرًا أم ثيبًا؟** قلت: بل ثيبًا. قال: **فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك**

---

(١) رواه ابن ماجه، وحسَّنه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٦٢٣).

(٢) رواه البخاري (٢٧٤٥)، ومسلم (٢٦٦٧).

وتضاحكها وتضاحكك؟ قلت: إن عبد الله هلك وترك بنات، وإني كرهت أن أجيئهن بمثلهن، فتزوجتُ امرأةً تقوم عليهن وتصلحهن. فقال: **بارك الله لك**»[(١)].

واستشار رجل صاحبه في الزواج، فقال له: سل ابني الصغير وأخبرني بجوابه، فصادفه وهو يلعب مع الصبيان راكبًا قصبة، فسأله فقال: عليك بالذهب الأحمر، أو الفضة البيضاء، واحذر الفرس لا يضربك.

فلم يفهم الرجل ذلك، فقال له والد الصبي: الذهب الأحمر البكر، والفضة البيضاء الثيب الشابة، ومَن وراءهما كالفرس الجموح.

وعلىٰ المرء أن يجتهد في اختيار قرينة عمره؛ فقد قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تخَيَّروا لنُطَفِكم**»[(٢)].

وقد قيل:

إذا تــزوجت فكــن حاذقًــا ... واســأل عــن الغــصن وعــن منبــته

وقال بعضهم:

وأول خــبث المــاء خــبث تــرابه ... وأول خــبث القــوم خــبث المَــنَاكِحِ

هذا وإنَّ العيش الرغد كله مقصور علىٰ الحليلة الصالحة، والبلاء كله موكل بالقرينة السوء التي لا تسكن النفس إلىٰ عشرتها، ولا تقر العيون برؤيتها.

قيل: إنَّ سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: المرأة العاقلة تعمر بيت زوجها، والمرأة السفيهة تهدمه.

وروي أنه لما حضر أبو طالب نكاح رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ خديجة بنت خويلد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، ومعه بنو هاشم ورؤساء مضر، خطب فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه،

(١) رواه البخاري (٤٩٤٨)، ومسلم (٢٦٦٧).
(٢) رواه ابن ماجه، وحسَّنه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٠٦٧).

وجعل لنا بيتًا محجوجًا وحرمًا آمنًا، وجعلنا الحكام علىٰ الناس.

ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخي من لا يوزن به رجل من قريش إلا رجح به برًّا وفضلا وكرمًا ومجدًا ونبلًا، فإن كان في المال قلة، فالمال ظل زائل ورزق حائل، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما عاجله وآجله من مالي كذا وكذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل.

وقال الشعبي: لقيني شريح فقال لي: يا شعبي، عليك بنساء بني تميم، فإني رأيت لهن عقولًا، فقلت: وما رأيتَ من عقولهن؟ قال: أقبلت من جنازة ظهرًا، فمررت بدورهن وإذا أنا بعجوز علىٰ باب دار وإلىٰ جانبها جارية كأحسن ما رأيت من الجواري، فعدلت إليها واستسقيت، فقالت لي: أي الشراب أحب إليك؟ قلت: ما تيسر، قالت: ويحك يا جارية ائتيه بلبن، فإني أظن الرجل غريبًا، فقلت للعجوز: ومن تكون هذه الجارية منك؟ قالت: هي زينب بنت جرير إحدىٰ نساء بني حنظلة. قلت: هي فارغة أم مشغولة؟ قالت: بل فارغة. قلت أتزوجينيها؟ قالت: إن كنت كُفْئًا.

فتركتها ومضيت إلىٰ منزلي لأقيل فيه، فامتنعت مني القائلة، فلما صليت الظهر أخذت بيد إخواني من العرب الأشراف، ومضيت أريد عمها، فاستقبلنا وقال: ما شأنك أبا أمية؟ قلت: زينب ابنة أخيك، قال: ما بها عنك رغبة، فزوجنيها، فلما صارت في حبالي ندمت وقلت: أي شيء صنعت بنساء بني تميم، وذكرت غلظ قلوبهن، فقلت: أطلقها، ثم قلت: لا، ولكن أدخل بها، فإن رأيت ما أحب وإلا كان ذلك، فلو شهدتني يا شعبي وقد أقبلت نساؤها يهدينها حتىٰ أدخلت علي. فقلت: إن من السنة إذا دخلت المرأة علىٰ زوجها أن يقوم ويصلي ركعتين، ويسأل الله تعالىٰ من خيرها ويتعوذ من شرها؛ فتوضأت فإذا هي تتوضأ بوضوئي، وصليت فإذا هي تصلي بصلاتي.

فلما قضيت صلاتي أتتني جواريها فأخذن ثيابي ولبست ملحفة قد صبغت بالزعفران، فلما خلا البيت دنوت منها، فمددت يدي إلىٰ ناصيتها، فقالت: علىٰ

رسلك أبا أمية، ثم قالت: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلي علىٰ محمد وآله، أما بعد، فإني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك، فبين لي ما تحب فآتيه، وما تكره فأجتنبه، فإنه قد كان لك منكح في قومك ولي في قومي مثل ذلك، ولكن إذا قضىٰ الله أمرًا كان مفعولًا، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله تعالىٰ به، إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولك ولجميع المسلمين.

قال: فأحوجتني والله يا شعبي إلىٰ الخطبة في ذلك الموضع، فقلت: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلي علىٰ محمد وآله، أما بعد، فإنك قلت كلامًا إن ثبتِّ عليه يكن ذلك حظًّا لي، وإن تدعيه يكن حجة عليك، أحب كذا وأكره كذا، وما رأيت من حسنة فأبثيها، وما رأيت من سيئة فاستريها.

فقالت: كيف محبتك لزيارة الأهل؟ قلت: ما أحب أن يملني أصهاري.

قالت: فمن تحب من جيرانك يدخل دارك آذن له، ومن تكرهه أكرهه؟ قلت: بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء.

قال: فبت معها يا شعبي بأنعم ليلة، ومكثت معي حولًا لا أرىٰ منها إلا ما أحب، فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء، وإذا أنا بعجوز في الدار تأمر وتنهىٰ. قلت: من هذه؟ قالوا: فلانة أم حليلتك، قلت: مرحبًا وأهلًا وسهلًا.

فلما جلست أقبلت العجوز، فقالت: السلام عليك يا أبا أمية، فقلت: وعليك السلام ومرحبًا بك وأهلًا، قالت: كيف رأيت زوجتك؟ قلت: خير زوجة وأوفق قرينة، لقد أدبت فأحسنت الأدب، وريَّضت فأحسنت الرياضة، فجزاك الله خيرًا، فقالت: أبا أمية، إن المرأة لا يرىٰ أسوأ حالًا منها في حالتين، إذا ولدت غلامًا أو حظيت عند زوجها، فإن رابك مريب فعليك بالسوط، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم أشر من الروعاء المدللة.

قالت: كيف تحب أن يزورك أصهارك؟ قلت: ما شاءوا، فكانت تأتيني في رأس كل حول فتوصيني بتلك الوصية، فمكثت معي يا شعبي عشرين سنة لم أعب عليها

شيئًا، وكان لي جار من كندة يفزع امرأته ويضربها، فقلت في ذلك:

رأيت رجالًا يضربون نساءهم ... فشُلَّت يميني يوم أضرب زَينبَا

أأضربها في غير جرم أتت به ... إليَّ فما عذري إذا كُنتُ مُذنِبَا

وحُكي عن الحارث بن عوف بن أبي حارثة أنه قال لخارجة بن سنان: أترىٰ أخطب إلىٰ أحد فيردني؟ قال: نعم، قال: ومن هو؟ قال: أوس بن حارثة الطائي، قال: اركب بنا إليه، فركبنا إليه حتىٰ أتينا أوس بن حارثة في بلاده، فوجدناه في فناء منزله، فلما رأىٰ الحارث بن عوف قال: مرحبًا بك يا حارث، ثم قال: ما جاء بك؟ قال: جئت خاطبًا، قال: لست هناك، فانصرف ولم يكلمه، فدخل أوس علىٰ امرأته مغضبًا، فقالت له: من الرجل الذي سلم عليك، فلم تطل معه الوقوف ولم تكلمه؟ فقال: ذلك سيد العرب الحارث بن عوف، فقالت: فما لك لا تستنزله؟ قال: إنه استهجنني، قالت: وكيف؟ قال: لأنه جاءني خاطبًا.

قالت: ألست تزعم أنه سيد العرب، قال: نعم. قالت: إذا لم تزوج سيد العرب في زمانه، فمن تزوج؟ قال: قد كان ذلك، قالت: فتدارك ما كان منك، قال: فبماذا؟ قالت: بأن تلحقه فترده، قال: وكيف، وقد فرط مني إليه ما فرط، قالت: تقول له: إنك لقيتني وأنا مغضب لأمر، فلك المعذرة فيما فرط مني، فارجع ولك عندي كل ما طلبت، فركب في أثرهما.

قال خارجة بن سنان: فوالله إنا لنسير إذ حانت مني التفاتة فرأيته، فقلت للحارث وهو لا يكلمني: هذا أوس في أثرنا، فقال: ما أصنع به، فلما رآنا لا نقف قال: يا حارث أربع عليَّ، فوقفنا له وكلمه بذلك الكلام فرجع مسرورًا، فلمَّا دخل أوسٌ منزله، قال لزوجته: ادعي لي فلانة أكبر بناته، فأتته، فقال لها: أي بنية، هذا الحارث ابن عوف سيد من سادات العرب جاءني خاطبًا، وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين؟ قالت: لا تفعل، قال: ولم؟ قالت: لأن في خلقي رداءة وفي لساني حدة ولست

بابنة عمه، فيراعي رحمي، ولا هو بجارك في البلد فيستحي منك، ولا آمن أن يرىٰ مني ما يكره فيطلقني، فيكون عليَّ بذلك مسبة، قال لها: قومي بارك الله فيك.

ثم دعا ابنته الأخرىٰ، فقال لها مثل قوله لأختها، فأجابته بمثل جوابها، فقال لها: قومي بارك الله فيك، ثم دعا بالثالثة وكانت أصغرهن سنًّا، فقال لها مثل ما قال لأختيها، فقالت له: أنت وذاك؛ فقال لها: إني عرضت ذلك علىٰ أختيك فأبتاه ولم يذكر لها مقالتهما، فقالت: والله إني الجميلة وجهًا، الرفيعة خلقًا، الحسنة رأيًا، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه، فقال لها: بارك الله فيك، ثم خرج إليه، فقال: زوجتك يا حارث بابنتي هئيسة، قال: قد قبلتُ نكاحها، وأمر أمها أن تهيئها له، وتصلح شأنها، ثم أمر ببيت فضرب له وأنزله إياه ثم بعثها إليه، فلما دخلت عليه لبث هنيهة ثم خرج إليَّ، فقلت له: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله، قلت له: وكيف ذلك؟ قال: لما مددت يدي إليها قالت: مه أعند أبي وإخوتي؟ هذا والله لا يكون.

ثم أمر بالرحلة فارتحلنا بها معًا وسرنا ما شاء الله، قال لي: تقدم، فتقدمت، فعدل عن الطريق فما لبث أن لحقني، فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله، قلت: ولم؟ قال: قالت: تفعل بي كما يفعل بالأمة السبية الأخيذة؟ لا والله حتىٰ تنحر الجزر والغنم، وتدعو العرب وتعمل ما يعمل مثلك لمثلي، فقلت: والله إني لأرىٰ همة وعقلًا، فقال: صدقت. قال: أرجو الله أن تكون المرأة النجيبة، فوردنا إلىٰ بلادنا، فأحضر الإبل والغنم ونحر وأَولَم.

ثم دخل عليها وخرج إليَّ، فقلت: أفرغت من شأنك، قال؟ لا والله، قلت: ولم ذاك؟ قال: دخلت عليها أريدها، فقلت لها: أحضرتُ من المال ما تريدين، قالت: واللهِ لقد ذُكِرت من الشرف بما ليس فيك، قلت: ولم ذاك؟ قالت: أتستفرغ لنكاح النساءِ والعربُ يقتل بعضها بعضًا، وكان ذلك في أيام حرب قيس وذبيان.

قلت: فماذا تقولين؟ قالت: اخرج إلىٰ القوم، فأصلح بينهم، ثم ارجع إلىٰ أهلك

فلن يفوتك ما تريد، فقلت: والله إني لأرىٰ عقلًا ورأيًا سديدًا، قال: فاخرج بنا، فخرجنا حتىٰ أتينا القوم، فمشينا بينهم بالصلح، فاصطلحوا علىٰ أن يحسبوا القتلىٰ ثم تؤخذ الدية، فحملنا عنهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير، فانصرفنا بأجمل ذكر، ثم دخل عليها، فقالت له: أما الآن، فنعم، فأقامت عنده في ألذ عيش وأطيبه، وولدت له بنين وبنات، وكان من أمرهما ما كان.

وذُكر أن رجلًا من بني سعد مرت به جارية لأمية بن خالد بن عبد الله بن أسد ذات ظرف وجمال، وكان شجاعًا فارسًا، فلما رآها قال: طوبىٰ لمن كان له امرأة مثلك، ثم أَتبعَها رسولًا يسأل ألها زوج؟ ويذكره لها وقد كان جميلًا، فقالت للرسول: وما حرفتُه، فأبلغه الرسول ذلك، فقال: ارجع إليها وقل لها:

وسائلة ما حرفتي قلت حرفتي ... مقارعة الأبطال في كل شَارِقِ
إذا عرضت خيل لخيل رأيتني ... أمام رعيل الخيل أحمي حقائقي
أصبر نفسي حين لم أر صابرًا ... علىٰ ألم البيض الرقاق البَوارِقِ

فلحقها الرسول، فأنشدها ما قال، فقالت له: ارجع إليه وقل له: أنت أسد فاطلب لك لبؤة، فلست من نسائك، وأنشدته تقول:

ألا إنما أبغي جوادًا بماله ... كريمًا محياه كثير الصَّدَائِقِ
فتىٰ همه مذ كان خودٌ خريدة ... يعانقها في الليل فوق النَّمَارِقِ

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تزوج رجل امرأة جديدة علىٰ امرأة قديمة، فكانت الجارية الجديدة تمر علىٰ بيت القديمة فتقول:

وما يستوي الرِّجلان رِجلٌ صحيحة ... وأخرىٰ رمىٰ فيها الزمان فشُلَّتِ

ثم تعود، وتقول:

وما يستوي الثوبان ثوب به البلىٰ ... وثوب بأيدي البائعين جَديدُ

فمرت الجارية القديمة علىٰ باب الجديدة يومًا وقالت:

نقل فؤادك ما استطعت من الهوىٰ ... ما الحب إلا للحبيب الأولِ

كم منزل في الأرض يألفه الفتىٰ ... وحنينه أبدًا لأول منزلِ

وقال عمرو بن العلاء، وكان أعلم الناس بالنساء:

فإن تسألوني بالنساء فإنني ... بصير بأدواء النساء طبيبُ

إذا شاب رأس المرء أو قَلَّ ماله ... فليس له في ودهن نصيبُ

وسُئل المغيرة بن شعبة عن صفة النساء فقال: بنات العم أحسن مواساة، والغرائب أنجب.

وقال الأصمعي: أتاني رجل من قريش يستشيرني في امرأة يتزوجها، فقلت: يا ابن أخي، أقصيرة النسب أم طويلته؟ فلم يفهم علي، فقلت: يا ابن أخي، أما القصيرة النسب فالتي إذا ذكرت أيامًا اكتفت به، والطويلة النسب فهي التي لا تُعرف حتىٰ تطيل في نسبها، فإياك أن تقع مع قوم قد أصابوا كثيرًا من الدنيا مع دناءة فيهم، فتضيع نسبك فيهم.

وكتب الحجاج إلىٰ الحكم بن أيوب أن اخطب لعبد الملك بن مروان امرأة جميلة من بعيد، مليحة من قريب، شريفة في قومها، ذليلة في نفسها، مؤاتية لبعلها، فكتب إليه: قد أصبتها.

وقال حكيم: عليكم بمن تربت في النعيم ثم أصابتها فاقة، فأثر فيها الغنىٰ وأدبها الفقر.

وقال رجل لخاطب: ابغ لي امرأة لا تؤنس جارًا، ولا توطن دارًا، يعني: لا تدخل علىٰ الجيران، ولا تدخل الجيران عليها، وفي مثل هذه قال الشاعر:

هيفاء فيها إذا استقبلتها صلف ... عيطاء غامضة الكعبين معطارُ

خود من الخفرات البيض لم يرها ... بساحة الدار لا بعل ولا جارُ

وكانت امرأة عمران بن حطان من أجمل الناس وجهًا، وكان هو من أقبح الناس وجهًا، فقالت له يومًا: أنا وإياك في الجنة -إن شاء الله تعالىٰ-. فقال لها: وكيف ذلك؟ فقالت: لأني أُعطيتُ مثلك فصبرت، وأُعطيتَ مثلي فشكرت، والصابر والشاكر في الجنة.

وقال بعضهم: رأيت في طريق مكة أعرابية ما رأيت أحسن منها وجهًا، فقعدت أنظر إليها، وأتعجب من جمالها، فجاء شيخ قصير، فأخذ بردائها وسار بها ومضىٰ، فلقيتها مرة أخرىٰ فقلت لها: من هذا الشيخ؟ قالت: زوجي، قلت: كيف يرضىٰ مثلك بمثله؟ فأنشدت:

أيا عجبًا للخود يجري وشاحها ... تزف إلىٰ شيخ بأقبح تمثالِ

دعاني إليه أنه ذو قرابة ... يعز علينا من بني العم والخالِ

ولما خطب ملكُ كندة الحارثُ بن عمرو ابنةَ عوف بن محلم الشيباني لما بلغه من كمالها وعظيم جمالها وقوة عقلها، أرسل إلىٰ أبيها فزوجها إياه، وبعث بصداقها فجُهِّزت، فلما أرادوا أن يحملوها إلىٰ زوجها، قالت لها أمها: أي بنية، إن الوصية لو تركت لفضل أدب تُرِكت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل.

ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنىٰ أبويها وشدة حاجتهما إليها كنتِ أغنىٰ الناس عنه، ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال.

أي بنية، إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلَّفت العش الذي فيه درجت، إلىٰ وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا، فكوني له أمة يكن لك عبدًا وشيكًا.

يا بنية، احملي عني عشر خصال، تكن لك ذخرًا وذكرًا: الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عينه منك علىٰ قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحسن، والماء أطيب الطيب

المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهدوء عنه عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة، والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء علىٰ نفسه وحشمه وعياله؛ فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقرير، والإرعاء علىٰ العيال والحشم جميل حسن التدبير.

ولا تفشي له سرًّا، ولا تعصي له أمرًا، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره، ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان ترحًا، والاكتئاب عنده إن كان فرحًا، فإن الخصلة الأولىٰ من التقصير والثانية من التكدير.

وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا يكن أشد ما يكون لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافقة، يكون أطول ما تكونين له مرافقة، واعلمي أنك لا تصِلين إلىٰ ما تحبين حتىٰ تؤثري رضاه علىٰ رضاك، وهواه علىٰ هواك فيما أحببت وكرهت، والله يخيِّر لك.

فحُمِلت فسُلِّمت إلىٰ زوجها فعَظُم موقعُها منه، وولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا بعده اليمن.

وتغضبت عائشة بنت طلحة مرةً علىٰ مصعب بن الزبير فترضاها بأربعمائة ألف درهم، فأطلقتها هي للمرأة التي أصلحت بينهما.

❊ ❊ ❊

في صفة المرأة السوء

المرأة السوء غُلٌّ يجعله الله تعالىٰ في عنق من يشاء من عباده، وقد قيل: إنَّ داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: إنَّ المرأة السوء مثل شَرَك الصياد، لا ينجو منها إلا من رضي الله تعالىٰ عنه.

وقيل لأعرابي: صف لنا شر النساء، فقال: شرهن النحيفة الجسم، القليلة اللحم، سريعة الوثبة، كأنَّ لسانها حربة، تضحك من غير عجب، وتبكي من غير سبب، وتدعو علىٰ زوجها بالجرب، عرقوبها حديد، منتفخة الوريد، كلامها وعيد، وصوتها شديد، تدفن الحسنات، وتفشي السيئات، تعين الزمان علىٰ بعلها، ولا تعين بعلها علىٰ الزمان، ليس في قلبها عليه رأفة، ولا عليها منه مخافة، إن دخل خرجت، وإن خرج دخلت، وإن ضحك بكت، وإن بكىٰ ضحكت، كثيرة الدعاء، قليلة الإرعاء، تأكل لَمًّا، وتوسع ذمًّا، ضيقة الباع، مهتوكة القناع، صبيها مهزول، وبيتها مزبول، إذا حدثت تشير بالأصابع، وتبكي في المجامع، بادية من حجابها، نباحة عند بابها، تبكي وهي ظالمة، وتشهد وهي غائبة، قد دُلِّيَ لسانها بالزور، وسال دمعها بالفجور، ابتلاها الله بالويل والثبور وعظائم الأمور.

ويقال: إن المرأة إذا كانت مبغضة لزوجها، فإن علامة ذلك أن تكون عند قربها منه مرتدة الطرف عنه كأنها تنظر إلىٰ إنسان غيره من ورائه، وإن كانت محبة له لا تقلع عن النظر إليه.

قال بعضهم:

لقد كنت محتاجًا إلىٰ موت زوجتي ... ولكِنْ قرين السوء باقٍ مُعمَّرُ

فيا ليتها صارت إلىٰ القبر عاجلًا وعذبها فيه نكير ومُنكَرُ

وقيل: إنَّ داود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: المرأة السوء علىٰ بعلها كالحمل الثقيل علىٰ الشيخ الكبير، والمرأة الصالحة كالتاج المرصع بالذهب؛ كلما رآها قرت عينه برؤيتها.

ونصح الخطاب بن المُعَلىٰ ابنه فقال: يا بني، إن زوجة الرجل سَكَنه، ولا عيش له مع خلافها، فإذا هممت بنكاح امرأة فسل عن أهلها، فإن العرق نزَّاع، والعروق الطيبة تنبت الثمار الحلوة.

واعلم أن النساء أشد اختلافًا من أصابع الكف، فتوقَّ منهن كل ذات بَذا، مجبولة علىٰ الأذىٰ.

فمنهن: المُعجَبة بنفسها، المُزرِية ببعلها، إن أكرمها رأته لفضلها عليه، لا تشكر علىٰ جميل، ولا ترضىٰ منه بقليل، لسانها عليه سيف صقيل، قد كشفت الوقاحةُ ستر الحياء عن وجهها، فلا تستحي من إعوارها، ولا تستحي من جارها، كلبة هرَّارة، مُهارشة عَقَّارة، فوجه زوجها مكلوم، وعرضه مشتوم، لا ترعىٰ عليه لدين ولا لدنيا، ولا تحفظه لصحبة ولا لكثرة بنين، حجابه مهتوك، وستره منشور، وخيره مدفون، يصبح كئيبًا، ويمسي عاتبًا، شرابه مرٌّ، وطعامه غيظ، وولده ضياع، وبيته مستهلَك، وثوبه وسخ، ورأسه شعث، إن ضحك فواهِن، وإن تكلم فمتكاره، نهاره ليل، وليله ويل، تلدغه مثل الحيةِ العقارة، وتلسَعُه مثل العقرب الجرارة.

ومنهن: سلفع، ذات سم منقع، تهب مع الرياح، وتطير مع كل ذي جناح، إن قال: لا، قالت: نعم، وإن قال: نعم، قالت: لا، مُولِّدة لمخازيه، محتقرة لما في يديه، تضرب له الأمثال، وتقصر به دون الرجال، وتنقله من حال إلىٰ حال، حتىٰ أبغض بيتَه، ومَلَّ ولده، وغثَّ عيشه، وهانت عليه نفسه، وحتىٰ أنكره إخوانُه ورحمُه وجيرانُه.

ومنهن: الورهاء الحمقاء، ذات الدَّلِّ في غير موضعه، الماضغة للسانها، الآخذة في

غير شأنها، قد قنعت بحبه، ورضيت بكسبه، تأكل كالحمار الراتع، تنتشر الشمس فلا يُسمع لها صوت، ولا يكنس لها بيت، طعامها بائت، وإناؤها وضِر، وعجينها حامض، وماؤها فاتر، ومتاعها مزروع، وماعونها ممنوع، وخادمها مضروب، وجارها محروب.

ومنهن: العطوف الودود، المباركة الولود، المأمونة علىٰ غيبها، المحبوبة في جيرانها، المحمودة في سرِّها وإعلانها، الكريمة التبعل، الكثيرة التفضل، الخافضة صوتًا، النظيفة بيتًا، خادمُها مسمَّن، وابنها مزيَّن، وخيرها دائم، وزوجها ناعم، مومومقة مألوفة، وبالعفاف والخيرات موصوفة.

وخرج الرشيد يومًا من عند زبيدة وهو يضحك، فقيل له: مم تضحك يا أمير المؤمنين؟ فقال: دخلت إلي هذه المرأة -يعني: زوجته زبيدة- فأكلتُ عندها، ونمت، فما استيقظت إلا بصوت ذهب يصب، فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذه ثلثمائة ألف دينار قدمت من مصر، فقالت: هبها لي يا ابن عم، فقلت: هي لك، ثمَّ ما خرَجتُ حتىٰ غضَبِت مني، وقالت: أي خير رأيتُ منك؟!

❊ ❊ ❊

في مكر النساء وغدرهن

قال بعض الحكماء: «وجدت في الرجال واحدًا في ألف، ولم أجد واحدة في جميع النساء».

وقال حكيم: النساء شرٌّ كلُّهن، وشرُّ ما فيهن قلة الاستغناء عنهن.

وقد قيل: لا تثق بامرأة، ولا تغتر بمال وإن كثر.

وقيل: النساء حبائل الشيطان، ومن أطاع عرسه فقد أضاع نفسه.

وقال النخعي: «من اقتراب الساعة طاعة النساء».

قال بعض الحكماء: لم تنه المرأة عن شيء قط إلا فعلته، وقد قيل:

إن النساء متىٰ يُنهَين عن خُلُق ... فإنه واقع لا بُدَّ مَفعُولُ

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إيَّاك ومُشَاورة النساء، فإن رأيهن إلىٰ أَفَن، وعزمهن إلىٰ وهن، اكفف أبصارهن بالحجاب، فإن شدة الحجاب خير لهن من الارتياب، وليس خروجهن بأضر من دخول من لا يوثق به عليهن، فإن استطعت ألا يعرفهن غيرك فافعل».

قال السمعاني:

لا تأمنن علىٰ النساء ولو أخًا ... ما في الرجال علىٰ النساء أمينُ

إن الأمين وإن تحفظ جهده ... لابد أن بنظرة سيخونُ

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تطلعوا النساء علىٰ حال، ولا تأمنوهن علىٰ مال، ولا تذروهن إلا لتدبير العيال، إن تركن وما يردن أوردن المهالك، وأفسدن الممالك، ينسين الخير، ويحفظن الشر يتهافتن في البهتان، ويتمادين في الطغيان».

وقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ذَلَّ من أسند أمره إلىٰ امرأة».

وقيل: إن صيادًا أتىٰ برويز بسمكة، فأعجبه حسنها وسمتها، فأمر له بأربعة آلاف درهم، فخطأته سيرين زوجته، فقال لها: ماذا أفعل؟ فقالت له: إذا جاءك فقل له: أذَكَرًا كانت أم أنثىٰ؟ فإن قال لك ذكر، فاطلب منه الأنثىٰ، وإن قال لك أنثىٰ فاطلب منه الذكر، فلما أتاه سأله، فقال: كانت أنثىٰ، فقال ائتني بذكرها، فقال: عمَّر الله الملك؛ كانت بكرًا لم تتزوج، فأعجبه قوله، وأمر له بثمانية آلاف درهم، وقال: اكتبوا في الحكمة: الغدر ومطاوعة النساء يؤديان إلىٰ الغرم الثقيل.

وقال حكيم: «اعص النساء وهواك، وافعل ما شئت».

قال بعض الحكماء: «استعيذوا بالله من شرار النساء، وكونوا من خيارهن علىٰ حذر».

اجتازت عزةُ مرةً بكُثَيِّر وهو لا يعرفها، فتنكرت عليه، وأرادت أن تختبر ما عنده، فتعرض لها، فقالت له: فأين حبك عزة؟ فقال: أنا لك الفداء، لو أنَّ عزة أمة لي لوهبتها لك، فقالت: ويحك لا تفعل، ألست القائل:

إذا وصلتنا خلة كي تزيلنا ... أبينا وقلنا الحاجبية أولُ

فقال: بأبي أنت وأمي، أقصري عن ذكرها واسمعي ما أقول، ثم قال:

هل وصل عزة إلا وصل غانية ... في وصل غانية من وصلها بدلُ

قالت: فهل لك في المجالسة؟ قال: ومن لي بذلك؟ قالت: فكيف بما قلت في عزة؟ فقال: أقلبه فيتحول لك، قال: فسفرت عن وجهها وقالت: أغدرًا وتنكاثًا يا فاسق؟!؛ فبُهت وأبلس ولم ينطق، وتحير وخَجَل، ثم قالت: قاتل الله جميلًا حيث يقول:

لحا الله من لا ينفع الود عنده ... ومن حبله إن مُدَّ غير متينِ

ومن هو ذو وجهين ليس بدائم ... علىٰ العهد حلاف بكل يمينِ

ثم شرع كثيِّر يعتذر ويتنصل مما وقع منه، ويقول في ذلك الأشعار ذاكرًا وآثرًا.

وقد قيل: إنَّ عبد الملك بن مروان أراد أن يزوج كثيِّرًا من عزة فأبت عليه، وقالت: يا أمير المؤمنين، أبعدما فضحني بين الناس وشهرني في العرب؟!

وامتنعت من ذلك كل الامتناع.

❊ ❊ ❊

في الطلاق وما جاء فيه

قال عمرُ لرجلٍ هَمَّ بطلاق امرأته: لِمَ تطلِّقها؟ قال: لا أحبُّها، فقال عمر: أوَكُلُّ البيوت بُنِيت علىٰ الحب؟ فأين الرعاية والتذمم!

وقال الأصمعي للرشيد في بعض حديثه: يا أمير المؤمنين، بلغني أن رجلًا من العرب طلق في يوم واحد خمس نسوة، قال: وكيف ذلك؟ وإنما لا يجوز للرجل غير أربعة، قال: يا أمير المؤمين، كان متزوجًا بأربعة فدخل عليهن يومًا، فوجدهن متنازعات وكان شريرًا، فقال: إلىٰ متىٰ هذا النزاع؟ ما أظن هذا إلا من قِبلك يا فلانة لامرأة منهن؛ اذهبي فأنت طالق.

فقالت له صاحبتها: عجلت عليها بالطلاق، ولو أدبتها بغير ذلك لكان أصلح. فقال لها: وأنت أيضًا طالق، فقالت له الثالثة: قبحك الله، فوالله لقد كانتا إليك محسنتين، فقال لها: وأنت أيتها المعددة أياديهما طالق، فقالت الرابعة: ضاق صدرك إلا أن تؤدب نساءك بالطلاق؟ فقال لها: وأنت طالق أيضًا، فسمعته جارة له، فأشرفت عليه وقالت له: والله ما شهدت العرب عليك ولا علىٰ قومك بالضعف إلا لما بلوه منكم ووجدوه فيكم، أبيت إلا طلاق نسائك في ساعة واحدة؟! فقال لها: وأنت أيتها المتكلمة فيما لا يعنيك طالق إن أجازني بعلك، فأجابه زوجها: قد أجزت لك ذلك، فعجب الرشيد من ذلك.

وطلق رجلٌ امرأته، فلما أرادت الارتحال قال لها: اسمعي وليسمع من حضر، إني والله اعتمدتك برغبة، وعاشرتك بمحبة، ولم أجد منك زلة، ولم يدخلني عنك مَلَّة، ولكن القضاء كان غالبًا، فقالت المرأة: جزيت من صاحب ومصحوب خيرًا، فما استقللت خيرك، ولا شكوت ضيرك، ولا تمنيت غيرك، ولا أجد لك في الرجال

شبيهًا، وليس لقضاء الله مدفع، ولا من حكمه علينا مُمتنع.

ومن العجائب: أن بعض الناس قد طلَّق امرأته فتبعتها نفسه، ولا يزال متعلقًا بها قلبه، **ومما ذكر في هذا الباب**: أن الوليد بن يزيد طلق زوجته سُعدَىٰ، فلما تزوجت اشتد ذلك عليه، وندم علىٰ ما كان منه، فدخل عليه أشعب فقال له: هل لك أن تبلغ سعدىٰ عني رسالة ولك عشرة آلاف درهم، قال: أقبضنيها، فأمر له بها، فلما قبضها قال له: هات رسالتك، قال: ائتها فأنشدها:

أَسُعدَىٰ هل إليك لنا سبيل ... ولا حتىٰ القيامة من تَلاقِ

بلىٰ ولعل دهرًا أن يؤاتي ... بموت من خليلك أو فراقِ

قال: فأتاها أشعب فاستأذن عليها، فأذنت له فدخل، فقالت له: ما بدا لك في زيارتنا يا أشعب؟ فقال: يا سيدتي أرسلني إليك برسالة ثم أنشدها الشعر، فقالت لجواريها: عليكن بهذا الخبيث، فقال: يا سيدتي إنه دفع إلي عشرة آلاف درهم، فهي لك وأعتقيني لوجه الله، فقالت: والله لا أعتقك أو تبلغ إليه ما أقول لك، قال: يا سيدتي فاجعلي لي جعلًا، قالت: لك بساطي هذا، قال: قومي عنه، فقامت: فأخذه، وألقاه علىٰ ظهره، وقال: هاتي رسالتك، فقالت:

أتبكي علىٰ سُعدىٰ وأنت تركتها ... فقد ذهبت سُعدىٰ فما أنت صانعُ

فلما بلَّغه الرسالة ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأخذته كظمة، فقال لأشعب: اختر مني إحدىٰ ثلاث: إما أن أقتلك، وإما أن أطرحك من هذا القصر، وإما أن ألقيك إلىٰ هذه السباع فتفترسك، فتحير أشعب وأطرق مليًّا، ثم قال: يا سيدي ما كنت لتعذب عينًا نظرت إلىٰ سُعدىٰ، فتبسم وخلَّىٰ سبيله.

وممن طلق امرأته فتبعتها نفسه: الفرزدق الشاعر، طلق النَّوار ثم ندم علىٰ طلاقها، وقال:

ندمت ندامة الكُسَعِيِّ لمَّا ... غدت منىٰ مطلقة نوارُ

فأصبحت الغداة ألوم نفسي بأمر ليس لي فيه اختيارُ

ومِمن طلق امرأته فتبعتها نفسه فندم: قيس بن ذريح، وكان أبوه قد أمره بطلاقها، فطلقها وندم علىٰ ذلك فأنشأ يقول:

فنىٰ صبري وعاودني صداعي وكان فراق لبنىٰ كالخداعِ
تكنفني الوشاة فأزعجوني فيا للناس للواشي المطاعِ
فأصبحت الغداة ألوم نفسي علىٰ أمر وليس بمستطاعِ
كمغبون يعض علىٰ يديه تبين غبنه عند البياعِ

وجاء رجل بامرأة كأنها برج من فضة إلىٰ أحد القضاة، فقال: إن امرأتي هذه شجَّتني، فسألها القاضي، فقالت: نعم يا مولاي غير متعمدة لذلك، كنت أعالج طيبًا فوقع الفهر من يدي علىٰ رأسه، وليس عندي علم ولا يقوىٰ بدني علىٰ القصاص، فقال للرجل: علام تمسكها، وقد فعلت بك ما أرىٰ؟ فقال: يا مولاي، إن صداقها عليَّ أربعة آلاف درهم ولا تطيب نفسي بفراقها، قال: فإن أعطيتك الأربعة آلاف درهم تفارقها، قال: نعم، قال: هي لك، قال: فهي إذن طالق، فقال لها القاضي: احبسي علينا نفسك، وأنشأ يقول:

يا شيخُ يا شيخُ من دلاك بالغزل قد كنت يا شيخ عن هذا بمعتزلِ
رضت الصعاب فلم تحسن رياضتها فاعمد لنفسك نحو القرح الذللِ

* * *

ذم الخمر وتحريمها

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يدخل الجنة مدمن خمر**»(١).

وممن ترك الخمر في الجاهلية: عبد الله بن جُدعَان، وكان جوادًا من سادات قريش، وذلك أنه شرب مع أمية بن أبي الصلت الثقفي فضربه علىٰ عينه، فأصبحت عين أمية مخضرة فخاف عليها الذهاب، فقال له عبد الله: ما بال عينك؟ فسكت، فألحَّ عليه، فقال: ألست ضاربها بالأمس؟ فقال: أَوَبَلغ مني الشراب ما أبلغ معه إلىٰ هذا؟ لا أشربها بعد اليوم، ثم دفع له عشرة آلاف درهم، وقال: الخمر عليَّ حرام، لا أذوقها بعد اليوم أبدًا.

وممن حرمها في الجاهلية أيضًا: قيس بن عاصم، وذلك أنه سكر ذات ليلة، فقام لابنته أو لأخته، فهربت منه، فلما أصبح سأل عنها فقيل له: أَوَمَا علمت ما صنعتَ البارحة؟ فأخبر بالقصة، فحرم الخمر علىٰ نفسه.

وقيل: إنَّ قيسًا شرب ذات ليلة، فجعل يتناول القمر ويقول: والله لا أبرح حتىٰ أنزله، ثم يثب الوثبة بعد الوثبة ويقع علىٰ وجهه، فلما أصبح وأفاق قال: ما لي هكذا؟ فأخبروه بالقصة، فقال: والله لا أشربها أبدًا.

وممن حرَّمها علىٰ نفسه في الجاهلية: العباس بن مرداس، فقد قيل له: لم تركت الشراب؟ فقال: أكره أن أصبح سيد قومي وأمسي سفيههم.

ودخل نصيب علىٰ عبد الملك بن مروان فأنشده، فأعجبه إنشاده وشعره ووصله ثم

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه»، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٣٦٢).

دعا بالطعام فطعم منه، فقال له عبد الملك: يا نصيب هل تشرب الخمر؟ قال: يا أمير المؤمنين، جلدي أسود، وخلقي مشوه، ووجهي قبيح، ولم يوصلني إلىٰ ذلك إلا عقلي، وأنا أكره أن يدخل عليه ما ينقصه، فأعجبه كلامه ووصله.

وقيل لأعرابي: لم لا تشرب النبيذ؟ فقال: لا أشرب ما يُذهب عقلي.

وقال الضحاك بن مزاحم لرجل: ما تصنع بشرب النبيذ؟ قال: يهضم طعامي، قال: أما إنه يهضم من دينك وعقلك أكثر.

قال ابن أبي أوفىٰ لقومه حين نُهوا عن الخمر:

ألا يا لقومي ليس في الخمر رفعة ... فلا تقربوا منها فلست بفاعلِ

فإني رأيت الخمر شيئًا ولم يزلْ ... أخو الخمر دخالًا لشر المنازلِ

وقال الحسن بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لو كان العقل يُشترىٰ لتغالىٰ الناس في ثمنه، فالعجب ممن يشتري بماله ما يفسده».

وقال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة، والنساء حبائل الشيطان، والخمر داعية إلىٰ كل شرٍّ».

وقال بعضهم:

بلوت نبيذ الخمر في كل بلدة ... فليس لإخوان النبيذ حِفاظُ

إذا دارت الأرطال أرضوك بالمنىٰ ... وإن فقدوها فالوجوه غِلاظُ

وقال حكيم: «إياك وإخوان النبيذ، فبينما أنت متوج عندهم، مخدوم مكرم معظم، إذ زلت بك القدم، فجروك علىٰ شوك السأم».

ومن أجمل ما قيل في التحذير من شرب الخمر، قول القائل:

وكل أناس يحفظون حريمهم ... وليس لأصحاب النبيذ حريمُ

فإن قلت هذا لم أقل عن جهالة ... ولكنني بالفاسقين عليمُ

ومن الطرائف في هذا الباب: ما حكي أن سكرانًا استلقىٰ علىٰ طريق، فجاء كلب فلحس شفتيه، فقال: خدمك بنوك ولا عدموك، فبال علىٰ وجهه، فقال: وماء حارٌّ أيضًا، بارك الله فيك.

وقيل: حالة السكارىٰ ثلاثة: قرد حرك رأسه فرقص، وكلب هارش فنبح، وحية زويت فنامت.

دخل محمد بن حازم علىٰ أحد الأمراء فدعاه إلىٰ شيءٍ من اللهو، فامتنع وقال:

أبعـد خمـسين أصـبو ... والـشيبُ للجهـل حـربُ
سـنٌّ وشـيب وجهـلٌ ... أمـرٌ لَعمـرك صـعبُ
يـا ابـنَ الإمـام فهـلا ... أيـامَ عـوديَ رطـبُ
وشـيبُ رأسـي قلـيلٌ ... ومـنهلُ الحـب عـذبُ
الآن حـين رأىٰ بـي ... عواذلـي مـا أحـبُّوا
آلـيتُ أشـرب كأسًـا ... مـا حـج للَّـه ركـبُ

فأعطاه الأمير عطاءً ووصله.

قال الأصمعي: مررت بسعدون المجنون وهو جالس عند رأس شيخ سكران يذب عنه، فقلت: ما لي أراك عند رأس هذا الشيخ؟ فقال: إنه مجنون.

فقلت: أنت المجنون أو هو؟ قال: لا، بل هو، لأني صليت الظهر والعصر جماعة، وهو لم يصل جماعة ولا فرادىٰ.

قلت: فهل قلت في هذا شيئًا؟ قال: نعم، ثم أنشأ يقول:

تـركت النبـيذ لأهـل النبـيذ ... وأصـبحت أشـرب مـاءً قـراحَا
لأن النبـيذ يـذل العزيـز ... ويكـسو بـذاك الوجـوه الـصباحَا

فــإن كــان ذا جائــزًا للــشباب ... فمــا العــذر مــنه إذا الــشيب لاحَــا

قال الأصمعي: فقلت له: صدقت، وانصرفت.

* * *

في المزاح

جاء عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: «ما مزح أحد مزحة إلا مَجَّ الله من عقله مجة».

وقال: «إياك أن تذكر من الكلام ما يكون مضحكًا، وإن حكيت ذلك عن غيرك».

وكتب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **إلىٰ عماله**: «امنعوا الناس من المزاح؛ فإنه يذهب المروءة، ويوغر الصدور».

وقال بعض الحكماء: «تجنب سوء المزاح ونكد الهزل؛ فإنهما بابان إذا فُتحا لم يغلقا إلا بعد غم، ولكل شيء بذر، وبذر العداوة المزاح».

وعن محمد بن المنكدر قال: «قالت لي أمي: لا تمازح الصبيان تهن عندهم».

وخرج أعرابي بالليل فإذا بجارية جميلة، فراودها فقالت: أما لك زاجر من عقلك إذا لم يكن لك واعظ من دينك؟ فقال: والله ما يرانا إلا الكواكب، فقالت له: يا هذا، وأين مكوكبها؟ فأخجله كلامها، فقال لها: إنما كنت مازحًا، فقالت:

فإيَّاك إياكَ المزاح فإنه ... يجري عليك الطفل والرجل النَّذلَا

ويذهب ماء الوجه بعد بهائه ... ويورث بعد العز صاحبه ذُلَّا

وقال الأحنف: «كثرة الضحك تذهب الهيبة، وكثرة المزاح تذهب المروءة، ومن لزم شيئًا عرف به».

ومما روي عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أنهم كانوا يتحادثون ويتناشدون الأشعار، فإذا جاء ذكر الله انقلبت حماليقهم كأنهم لم يعرفوا أحدًا.

ولا بأس بالمزاح مع لزوم آدابه وعدم الإكثار منه، حتىٰ لا تسقط هيبة صاحبه، فقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمازح ولا يقول إلا حقًّا.

فمِن مزاحه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنه جاء إليه رجل، فقال: يا رسول الله، احملني، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني حاملك علىٰ ولد الناقة**. فقال: ما أصنع بولد الناقة؟ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **وهل تلد الإبل إلا النوق**، فقال: يا رسول الله، إنه لا يطيقني. فقال له الناس: ويحك!، وهل الجمل إلا ولد الناقة؟!»(١).

وأتته عجوز فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال: «**يا أم فلان، إنَّ الجنة لا تدخلها عجوز**، فولَّت تبكي، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالىٰ يقول**: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة:٣٥-٣٧]»(٢).

وقالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: سابقت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسَبَقته، فلما كثر لحمي سابقته فسبقني، فضرب بكتفي وقال: «**هذه بتلك**»(٣).

وسُئل النخعي: هل كان أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي.

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **لجارية**: خلقني خالق الخير وخلقك خالق الشر، فبكت الجارية، فقال عمر: لا بأس عليك، فإن الله خالق الخير والشر.

وقال عطاء بن السائب: «كان سعيد بن جبير يقص علينا حتىٰ يبكينا، وربما لم يقم حتىٰ يضحكنا».

قال الشاعر:

إن الصديق يريد بسطك مازحًا ... فإذا رأىٰ منك الملالة يقصرُ
وترىٰ العدو إذا تيقن أنه ... يؤذيك بالمزح العنيف يكثِّرُ

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «المشكاة» (٤٨٨٦).

(٢) رواه الترمذي في «الشمائل»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٩٨٧).

(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «غاية المرام» (٣٧٧).

ودخل عبد الله بن جعفر علىٰ عبد الملك بن مروان، فوجده يتأوه، فقال: يا أمير المؤمنين، لو أدخلت عليك من يؤنسك بأحاديث العرب ويباسطك استرحت، فقال: لست بصاحب لهو، فقال: ما الذي تشكوه يا أمير المؤمنين؟ قال: هاج بي عرق النسا في ليلتي هذه، فبلغ مني ما ترىٰ، فقال: إن بديحًا مولاي أرقىٰ الخلق منه، فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه قال عبد الملك: يا بديح، ارْقِ رجلي، فقال: يا مولاي، أنا أرقىٰ الناس لها، ثم وضع يده عليها، وجعل يقول ما لا يُسمَع.

فقال عبد الملك: قد وجدتُ راحة بهذه الرقية، أين فلانة ائتوني بها تكتبها لئلَّا يهيج بي الوجع بالليل، فقال له بديح: الطلاق يلزمني ما أكتبها إلا بتعجيل جائزتي، فأمر له بأربعة آلاف درهم، فقال: يا أمير المؤمنين، الطلاق يلزمني ما أكتبها حتىٰ تحمل جائزتي إلىٰ بيتي، قال: تُحمل، فحملت، فقال: يا أمير المؤمنين، الطلاق يلزمني، ما رقيت رجلك إلا مُبَاسطة بقول نصيب حيث قال:

ألا إن ليلىٰ العامرية أصبحت ... علىٰ البعد مني ذنبَ غيريَ تنقمُ

فقال: ويلك ما تقول؟ فقال: الطلاق يلزمني ما رقيتك إلا بها، فقال: اكتمها عليَّ، فقال: كيف وقد سارت بها الركبان إلىٰ أخيك بمصر، فضحك حتىٰ فحص برجليه، وأعجبه هذا البسط.

ودخل جريرٌ يومًا علىٰ بشر بن مروان وعنده الأخطل، فقال بشر لجرير: أتعرف هذا؟ قال: لا، ومن هذا أيها الأمير؟ فقال: هذا الأخطل، فقال الأخطل: أنا الذي شتمت عرضك، وأسهرت ليلك، وآذيت قومك، فقال جرير: أما قولك: شتمت عرضك، فما ضر البحر أن يشتمه من غرق فيه، وأما قولك: وأسهرت ليلك، فلو تركتني أنام لكان خيرًا لك، وأما قولك: وآذيت قومك، فكيف تؤذي قومًا أنت تؤدي الجزية إليهم؟! وكان الأخطل من نصارىٰ العرب.

وكان الشاعر أبو دلامة أحد الظرفاء، وقد حظي عند أبي جعفر المنصور؛ لأنه

كان يضحكه، وينشده ويمدحه، حضر يومًا جنازة امرأةِ المنصور وابنةِ عمه حَمَّادة بنت عيسىٰ، وكان المنصور قد وجد عليها، فلما شهد القبر نظر إليه المنصور، ثم قال لأبي دلامة: ويحك يا أبا دلامة! ما أعددت لهذا؟ فقال: ابنةَ عمِّ أمير المؤمنين، فضحك المنصور حتىٰ استلقىٰ، ثم قال: ويحك! فضحتنا بين الناس.

ودخل أبو دلامة يومًا علىٰ المهدي يهنئه بقدومه من سفره وأنشده:

إنـي حلفـت لـئن رأيـتك سـالمًا ... بقُـرىٰ العـراق وأنـت ذو وفـرِ

لتـصلين علـىٰ النبـيِّ محمـدٍ ... ولـتملأنَّ دراهمًـا حِجـرِي

فقال المهدي: أما الأول فنعم، وأما الثاني فلا.

فقال: هما كلمتان فلا يفرق بينهما، فملأ حجره دراهم، ثم قال له: قم، فقال: إذن ينخرق قميصي، فأُفرِغت في أكياسها، ثم قام وأخذها.

ولما توفي بشر المريسي، صلىٰ عليه رجل من المحدثين يقال له: عبيد الشونيزي، فلامه بعض المحدثين، فقال لهم: ألا تسمعون كيف دعوت له في صلاتي؟ قلت: اللهم إن عبدك هذا كان ينكر عذاب القبر، اللهم فأذقه من عذاب القبر، وكان ينكر شفاعة نبيك صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فلا تجعله من أهلها، وكان ينكر رؤيتك في الدار الآخرة فاحجب وجهك الكريم عنه.

ولما مات إبراهيم الموصلي قيل لأبي الأسد -وكان صديقه-: ألا ترثيه؟

فقال يرثيه:

تولَّـىٰ الموصـليُّ فقـد تـولَّت ... بـشاشاتُ المزاهـر والقيـانِ

وأيُّ ملاحـة بقـيت فتبقَـىٰ ... حـياةُ الموصـليِّ علـىٰ الـزمانِ

سـتبكيه المزاهـر والملاهـي ... ويـسعدُهُنَّ عاتقـةُ الـدِّنانِ

وتبكــــيهِ الغــــويَّةُ إذ تولَّـــىٰ ولا تبكـــيه تالـــية القـــرانِ

فقيل له: ويحك فضحتَه، وقد كان صديقَك، فقال: هذه فضيحةٌ عند مَن لا يعقل، أما مَن يعقل فلا، وبأي شيءٍ كنت أذكره وأرثيه به؟ أبالفقه أم بالزهد أم بالقراءة؟ وهل يرثىٰ إلا بهذا وشبهه.

❊ ❊ ❊

في السلطان وما يجب على من صحبه والتحذير من صحبته

جاء في الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**ما بعث الله من نبيٍّ ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالمنكر وتحضه عليه والمعصوم من عصمه الله**»[1].

ومن جميل ما ذُكر عن المُلك والسلطان: ما نُقل عن كسرىٰ أنه قال لسيرين: ما أحسن هذا الملك لو دام، فقال: لو دام لأحدٍ ما انتقل إلينا.

وجلس الإسكندر يومًا فما رفع إليه حاجة، فقال: «لا أعد هذا اليوم من أيام ملكي!».

وقال الحجاج: «سلطان تخافه الرعية خير من سلطان يخافها».

وعن إسماعيل الفهري قال: «سمعت المنصور علىٰ منبر عرفة يوم عرفة يقول: أيها الناس، إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه ورشده، وخازنه علىٰ ماله، أقسمه بإرادته، وأعطيه بإذنه، وقد جعلني الله عليه قُفلًا، إذا شاء أن يفتحني لإعطائكم وقسم أرزاقكم فتحني، وإذا شاء أن يقفلني عليه أقفلني، فارغبوا إلىٰ الله أيها الناس، وسَلُوه في هذا اليوم الشريف أن يوفقني للصواب، ويسددني للرشاد، ويلهمني الرأفة بكم، والإحسان إليكم، ويفتحني لإعطائكم، وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم، فإنه سميع مجيب».

وكان المنصور في أول النهار يتصدىٰ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

---

(١) رواه البخاري (٦٦٥٩).

والولايات والعزل، والنظر في المصالح العامة، فإذا صلىٰ الظهر دخل منزله واستراح من بعد ذلك إلىٰ العصر، فإذا صلاها جلس لأهل بيته ومصالحهم الخاصة، فإذا صلىٰ العشاء نظر في الكتب والرسائل الواردة من الآفاق، وجلس عنده من يسامره إلىٰ ثلث الليل، ثم يقوم إلىٰ أهله فينام في فراشه إلىٰ الثلث الآخر، فيقوم إلىٰ وضوئه وصلاته حتىٰ يتفجر الصباح، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في إيوانه.

وقد ولَّىٰ بعض العمال علىٰ بلد، فبلغه أنه قد تصدىٰ للصيد وأعدَّ لذلك الكلاب والبزاة، فكتب إليه المنصور: ثكلتك أمُّك وعدمتك عشيرتك، ويحك! إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحوش، فسلِّم ما كنت تلي من عملنا إلىٰ فلان، والحَق بأهلك ملومًا مدحورًا.

وقال بعض الحكماء لابنه: يا بني، الملك والدين أخوان لا غنىٰ لأحدهما عن الآخر، فالدين أس والملك حارس، وما لم يكن له أس فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع.

ومصاحبة السلطان قد جاء الأمر بالحذر منها؛ فقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتىٰ أبواب السلطان افتتن، وما ازداد أحد من السلطان قربًا إلا ازداد من الله بُعدًا**»(١).

كما يجب علىٰ العاقل أن يلزم الحذر عند الابتلاء بها؛ فقد **قال ابن عباس** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «قال لي أبي: يا بني، إني أرىٰ أمير المؤمنين يستخليك ويستشيرك ويقدمك علىٰ الأكابر من أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإني أوصيك بخلال ثلاث: لا تفشين له سرًّا، ولا تجرين عليه كذبًا، ولا تغتابن عنده أحدًا»، قال الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلت لابن عباس: كل واحدة منهن خير من ألف، فقال: إي والله، ومن عشرة آلاف.

---

(١) رواه أحمد، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٧٢).

وقال بعض الحكماء: إذا زادك السلطان تأنيسًا فزده إجلالًا، وإذا جعلك أخًا فاجعله أبًا، وإذا زادك إحسانًا فزده فعل العبد مع سيده، وإذا ابتليت بالدخول علىٰ السلطان مع الناس فأخذوا في الثناء عليه، فعليك بالدعاء له، ولا تكثر في الدعاء له عند كل كلمة؛ فإن ذلك شبيه بالوحشة والغربة.

وقال مسلم بن عمر لبعض خدم السلطان: «لا تغتر بالسلطان إذا أدناك، ولا تتغير منه إذا أقصاك».

وروي أن بعض الملوك استصحب حكيمًا، فقال له: أصحبك علىٰ ثلاث خصال، قال: وما هن؟ قال: لا تهتك لي سترًا، ولا تشتم لي عرضًا، ولا تقبل فِيَّ قول قائل حتىٰ تستشيرني، قال: هذا لك، فماذا لي عليك؟ قال: لا أفشي لك سرًّا، ولا أدخر عنك نصيحة، ولا أوثر عليك أحدًا، قال: نعم الصاحب للمستصحب أنت.

وقال بعض الحكماء: إذا خدمت ملكًا من الملوك فلا تُطعه في معصية خالقك؛ فإن إحسانه إليك فوق إحسان الملك، وإيقاعه بك أغلظ من إيقاعه.

وقالوا: اصحب الملوك بالهيبة لهم والوقار؛ لأنهم إنما احتجبوا عن الناس لقيام الهيبة، وإن طال أنسك بهم تزدد غمًّا.

وقالوا: عَلِّم السلطان وكأنك تتعلم منه، وأشر عليه وكأنك تستشيره، وإذا أحلك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك ويثق بك، فإياك والدخول بينه وبين بطانته، فإنك لا تدري متىٰ يتغير فيكونون عونًا عليك، وإياك أن تعادي من إذا شاء أن يطرح ثيابه ويدخل مع الملك في ثيابه فعل.

وقال يحيىٰ بن خالد: «إذا صحبت السلطان فداره مداراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج الأحمق».

والواجب علىٰ العاقل: أن يجتنب مصاحبة السلطان؛ فقد اتفقت حكماء العرب والعجم علىٰ النهي عن صحبة السلطان، وقد قيل: ثلاثة لا يسلم عليها إلا القليل:

صحبة السلطان، وائتمان النساء علىٰ الأسرار، وشرب السم علىٰ التجربة.

وكان يقال: قد خاطر بنفسه من ركب البحر، وأعظم منه خطرًا من صحب السلطان.

وقيل للعتابي: لم لا تصحب السلطان علىٰ ما فيك من الأدب؟ قال: لأني رأيته يعطي عشرة آلاف في غير شيء، ويرمي من السور في غير شيء، ولا أدري أي الرجلين أكون؟

وقال معاوية لرجل من قريش: «إياك والسلطان؛ فإنه يغضب غضب الصبي، ويبطش بطش الأسد».

وقال ميمون بن مهران: «قال لي عمر بن عبد العزيز: يا ميمون، احفظ عني أربعًا: لا تصحبن السلطان وإن أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر، ولا تخلون بامرأة وإن أقرأتها القرآن، ولا تصل من قطع رحمه فإنه لك أقطع، ولا تتكلم بكلامٍ اليوم تعتذر منه غدًا».

وكم صحب السلطان من أهل الفضل والعقل والعلم والدين ليُصلحه ففسد هو به، فمثل من صحب السلطان ليصلحه مثل من ذهب ليقيم حائطًا مائلًا، فاعتمد عليه ليقيمه، فخر الحائط عليه فأهلكه، فكان كما قيل:

عدوىٰ البليد إلىٰ الجليد سريعة ... والجمر يوضع في الرماد فيخمدُ

ولا يَسعد من ابتلي بصحبة الملوك؛ فإنهم لا عهد لهم ولا وفاء، ولا قريب ولا حميم، ولا يرغبون فيك إلا أن يطمعوا فيما عندك فيقربوك عند ذلك، فإذا قضوا حاجتهم منك تركوك ورفضوك، ولا ود للسلطان ولا إخاء، والذنب عنده لا يغفر، وصاحب السلطان كراكب الأسد يخافه الناس وهو لمركوبه أخوف.

قال محمد بن واسع: «واللهِ لسف التراب ولقضم العظم خير من الدنو من أبواب السلاطين».

وقال أبو علي الصغاني: «إياك والملوك؛ فإن من والاهم أخذوا ماله، ومن عاداهم أخذوا رأسه».

وقيل: كتب علىٰ باب بعض القرىٰ: أبواب الملوك تحتاج إلىٰ ثلاثة: عقل، وصبر، ومال؛ فكُتب تحتها: كذب عدو الله، من كان له واحد منها لم يقرب باب السلطان.

وقال حسان بن ربيع الحميري: «لا تثقن بالملك فإنه ملول، ولا بالمرأة فإنها خَئُون، ولا بالدابة فإنها شرود».

وقال عبيد بن عمير: «ما ازداد رجل من السلطان قربًا إلا ازداد من الله بعدًا، ولا كثرت أتباعه إلا كثرت شياطينه، ولا كثر ماله إلا كثر حسابه».

وقيل: شر الملوك من أمنه الجريء وخافه البريء.

ومن جميل ما يذكر: ما جاء عن أنوشروان أنه لما أراد أن يولي ولي عهده استشار أولياءه في ذلك، فكلٌّ ذكر عيبًا لا يستحق به المُلك، فمن قائل: لا يصلح للملك لأنه قصير، وذلك مما يذهب بهاء الملك، فقال أنوشروان محتجًّا: لا يكاد يُرىٰ إلَّا راكبًا أو جالسًا علىٰ سريره فلا يظهر عليه ذلك.

ومن قائل: إنه ابن أمة، والملك إذا كان ابن أمة نقصه ذلك في أعين الناس، فقال أنوشروان محتجًّا: إنَّ الأبناء ينسبون إلىٰ آبائهم، ولا ينسبون إلىٰ الأمهات، فلا يضره.

فقال المرزبان: إنَّ فيه عيبًا وهو أنه مُبَغَّض للناس، فقال أنوشروان عند ذلك: هذا هو العيب الذي لا مدح معه ولا عذر عنه، والداء الذي لا برء له، فقد قيل: من كان لا يحب الخير للناس ويرتضيه، فلا خير فيه.

وفي سنة إحدىٰ وسبعين كان مقتل مصعب بن الزبير، وذلك أن عبد الملك بن مروان سار في جنود هائلة من الشام قاصدًا مصعب بن الزبير بالعراق، فالتقيا في هذه السنة وقد كانا قبلها يركب كلُّ واحد لملتقىٰ الآخر فيحول بينهما الشتاء والبرد والوحل، فيرجع كلُّ واحد منهما إلىٰ بلده.

فلما كان في هذا العام سار إليه عبد الملك، وبعث بين يديه السرايا، ودخل

بعض من أرسله إلىٰ البصرة فدعا أهلها إلىٰ عبد الملك في السر، فاستجاب له بعضهم، وقد كان مصعب سار إلىٰ الحجاز، فجاء ودخل البصرة علىٰ إثر ذلك، فأنَّب الكبراء من الناس، وشتمهم ولامهم علىٰ دخول أولئك إليهم، وإقرارهم لهم علىٰ ذلك، وهدم دور بعضهم، ثم شخص إلىٰ الكوفة، ثم بلغه قصد عبد الملك له بجنود الشام فخرج إليه.

ووصل عبد الملك إلىٰ مسكن وكتب إلىٰ الذين استجابوا لمن بعثه إليهم فأجابوه، واشترطوا عليه أن يوليهم بعض الأقاليم، فقال: نعم، وخرج مصعب بن الزبير، وقد اختلف عليه أهل العراق وخذلوه، وجعل يتأمل من معه فلا يجدهم يقاومون أعداءه، فاستقتل وطمن نفسه علىٰ ذلك، وقال: لي بالحسين بن علي أسوة حين امتنع من الذلة لعبيد الله بن زياد، وكيف قتل كريمًا، ولم يلق بيده، ولم يجد من أهل العراق وفاء، وكذلك أبوه وأخوه، ونحن ما وجدنا لهم وفاء، ثمَّ جعل ينشد مسليًا نفسه:

وإن الألىٰ بالطف من آل هاشم تأسَّوا فسنوا للكرام التأسِّيَا

وكان عبد الملك قد أشار عليه بعض أمرائه أن يقيم بالشام، وأن يبعث إلىٰ مصعب جيشًا فأبىٰ وقال: لعلي أبعث رجلًا شجاعًا لا رأي له، أو مَن له رأي ولا شجاعة له، وإني أجد من نفسي بصرًا بالحرب وشجاعة، وإنَّ مصعبًا في بيت شجاعة، أبوه أشجعُ قريش، وأخوه لا تُجهل شجاعته، وهو شجاعٌ لا علم له بالحرب، وهو يحب الدعة والخفض، ومعه من يخالفه، ومعي من ينصح لي.

فسار بنفسه، فلما تقارب الجيشان بعث عبد الملك إلىٰ أمراء مصعب بكتبٍ يدعوهم إلىٰ نفسه ويعدهم الولايات، فجاء إبراهيم بن الأشتر إلىٰ مصعب فألقىٰ إليه كتابًا مختومًا وقال: هذا جاءني من عبد الملك، ففتحه فإذا هو يدعوه إلىٰ الإتيان إليه وله نيابة العراق، وقال لمصعب: أيها الأمير، إنه لم يبق أحد من أمرائك إلا وقد جاءه كتاب مثل هذا، فإن أطعتني ضربت أعناقهم، فقال له مصعب: إني لو فعلت ذلك

لم تنصحنا عشائرهم بعدهم، فقال: فأوقرهم في الحديد واسجنهم، ووكِّل بهم من إن غُلبتَ ضرَب أعناقهم، وإن غَلَبت مننتَ بهم علىٰ عشائرهم، فقال له: يا أبا النعمان، إني لفي شغل عن هذا، ثم قال مصعب: رحم الله أبا بحر -يعني: الأحنف بن قيس- إن كان ليحذرني غدر أهل العراق، وكأنه كان ينظر إلىٰ ما نحن فيه الآن.

ثم تواجه الجيشان، فحمل إبراهيم بن الأشتر علىٰ محمد بن مروان فأزاله عن موضعه، فأردفه عبد الملك بن مروان بعبد الله بن يزيد بن معاوية، فحملوا علىٰ إبراهيم بن الأشتر ومن معه فطحنوهم، وقُتِل إبراهيم بن الأشتر، وقُتِل معه جماعة من الأمراء، وجعل مصعب بن الزبير يحث الشجعان والأبطال أن يتقدموا إلىٰ أمام القوم فلا يتحرك أحد، وتفاقم الأمر، واشتد القتال وتخاذلت الرجال، وضاق الحال، وكثر النزال.

فأرسل عبد الملك أخاه محمد بن مروان إلىٰ مصعب يعطيه الأمان، وقد كان عبد الملك يحب مصعبًا حبًّا شديدًا، وكان خليلًا له قبل الخلافة، فقال لأخيه محمد: اذهب إليه فآمنه، فجاءه، فقال له: يا مصعب، قد آمنك ابن عمك علىٰ نفسك وولدك ومالك وأهلك، فاذهب حيث شئت من البلاد، ولو أراد بك غير ذلك لكان، فقال مصعب: قضي الأمر، إنَّ مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالبًا أو مغلوبًا.

فنادىٰ محمدُ بن مروان عيسىٰ بنَ مصعب: يا ابنَ أخي، لا تقتل نفسك، لك الأمان، فقال له مصعب: قد آمنك عمك فامضِ إليه، فقال: لا تتحدث نساء قريش أني أسلمتك للقتل، فقال له: يا بني، فاركب خيل السبق فالحق بعمك، فأخبره بما صنع أهل العراق فإني مقتول هاهنا، فقال: والله إني لا أخبر عنك أحدًا أبدًا، ولا أخبر نساء قريش بمصرعك أبدًا، ولا أقتل إلا معك، ولكن إن شئت ركبت خيلك، وسرنا إلىٰ البصرة، فإنهم علىٰ الجماعة، فإنك قد ضعفت جدًّا.

فقال مصعب: لا والله، ما الفرار لي بعادة ولكن أقاتل، فإن قتلت فما السيف لي بعار، والله لا تتحدث قريش عني أني فررت من القتال، ثم قال لابنه: تقدم بين يدي

حتىٰ أحتسبك، فتقدم ابنه، فقاتل حتىٰ قُتل، وأُثخن مصعب بالرمي، فنظر إليه رجلٌ وهو كذلك فحمل عليه فطعنه وهو يقول: يا ثارات المختار، فصرعه، ونزل إليه رجل يقال له: عبيد الله بن زياد بن ظبيان التميمي فقتله وحزَّ رأسه، وأتىٰ به عبد الملك بن مروان، فسجد عبد الملك، وأطلق له ألف دينار.

ولما وُضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك قال:

لقد أردىٰ الفوارسُ يوم عبس ... غلامًا غير مناعِ المتاعِ
ولا فرحٍ لخير إن أتاه ... ولا هلعٍ من الحدثان لاعِ
ولا وقافةٍ والخيلُ تعدو ... ولا خالٍ كأنبوب اليراعِ

فقال الرجل الذي جاء برأسه: والله يا أمير المؤمنين لو رأيته والرمحُ في يده تارة والسيف تارة، يفري بهذا ويطعن بهذا، لرأيتَ رجلًا يملأ القلبَ والعينَ شجاعة وإقدامًا، ولكنه لما تفرقت رجاله، وكثُر مَن قصدَه، وبقي وحدَه، ما زال ينشد:

وإني علىٰ المكروه عند حضوره ... أكذب نفسي والجفون له تغضي
وما ذاك من ذلٍّ ولكن حفيظة ... أذب بها عند المكارم عن عرضي
وإني لأهل الشر بالشر مرصدٌ ... وإنِّي لذي سلم أذل من الأرضِ

فقال عبد الملك: كان والله كما وصف به نفسه وصدق، ثمَّ بكىٰ وقال: لقد كان بيني وبين مصعب صحبة قديمة، واللهِ لقد كان من أحب الناس إليَّ، وأشدهم لي إلفًا ومودة، حتىٰ ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حبي له، ولكن هذا الملك عقيم، متىٰ تلد النساء مثل مصعب؟ ثم أمر بمواراته.

وقال الفضيل بن عياض: «لو أنَّ لي دعوة مستجابة لدعوت بها لإمام عامة؛ فإنه إذا صلح أمنت البلاد والعباد».

وسأل رجلٌ من عبد الملك أن يخلو به، فأمر مَن عنده بالانصراف، فلما تهيأ

الرجل ليتكلم، قال له عبد الملك: إياك أن تمدحني؛ فإني أعلم بنفسي منك، أو تكذبني؛ فإنه لا رأي لكذوب، أو تسعىٰ إليَّ بأحد، وإن شئت أقلتُك، فقال الرجل: أقلني، فأقاله.

وكذا كان يقول للرسول إذا قدم عليه من الآفاق: اعفني من أربع وقل ما شئت: لا تمدحني، ولا تجبني فيما لا أسألك عنه، ولا تكذبني، ولا تحملني علىٰ الرعية؛ فإنهم إلىٰ رأفتي ومعدَلتي أحوج.

وقال الخليفة المتوكل يومًا لبعضهم: «إنَّ الخلفاء كانت تتصعب علىٰ الرعية لتطيعها، وإني ألين لهم ليحبوني ويطيعوني».

ولا غنية عن السلطان مهما كان حاله، فلما ظهر الحجاجُ علىٰ ابن الأشعث أمر مناديه أن ينادي في الناس: من رجع فهو آمن، ومن لحق بقتيبة بن مسلم بالري فهو آمن، فلحق به خلق كثير ممن كان مع ابن الأشعث، فأمَّنهم الحجاج، ومن لم يلحق به شرع الحجاج في تتبعهم، فقتل منهم خلقًا كثيرًا.

ولما قدمت الأسارىٰ علىٰ الحجاج قتل أكثرهم وعفا عن بعضهم، وكان عامر الشعبي من جملة من صار إلىٰ قتيبة بن مسلم، فذكره الحجاج يومًا، فقيل له: إنه سار إلىٰ قتيبة، فكتب إليه: أن ابعث إليَّ بالشعبي.

قال الشعبي: فلما دخلت عليه سلمت عليه بالإمرة، ثم قلت: أيها الأمير، إنَّ الناس قد أمروني أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق، وايم الله لا أقول في هذا المقام إلا الحق، قد واللهِ تمردنا عليك وحرَّضنا وجهدنا كل الجهد، فما كنا بالأقوياء الفجرة، ولا بالأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا، فإن سطوتَ فبذنوبنا، وما جرَّت إليك أيدينا، وإن عفوت عنا فبحلمك، وبعد فالحجة لك علينا.

فقال الحجاج: أنت واللهِ يا شعبي أحب إلي ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا، ثم يقول: ما فعلتُ ولا شهدت، قد أمنتَ عندنا يا شعبي.

قال: فانصرفت، فلما مشيت قليلًا قال: هلمَّ يا شعبي، قال: فوجل لذلك قلبي، ثم ذكرت قوله: قد أمنتَ يا شعبي، فاطمأنت نفسي.

فقال: كيف وجدتَ الناس بعدنا يا شعبي؟

قال -وكان لي مكرمًا-: فقلت: أصلح الله الأمير، قد اكتحلت بعدك السهر، واستوعرت السهولة، واستوخمت الجناب، واستحلست الخوف، واستحليت الهم، وفقدت صالح الإخوان، ولم أجد من الأمير خلفًا.

قال: انصرف يا شعبي، فانصرفت.

❊ ❊ ❊

في ذكر الوزراء وصفاتهم

الوزير بوابة يولج من خلالها إلىٰ السلطان، فإن أراد الله بالسلطان خيرًا رزقه وزراء صدق، يحضونه علىٰ الخير ويفتحون له أبوابه، ويحذّرونه من الشر ويمنعونه من اقتحام أسبابه.

قال الله تعالىٰ -حاكيًا عن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه:٢٩]، فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولذا ذكر حكمة الوزارة؛ فقال: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه:٣١-٣٢]، فدلت هذه الآية علىٰ أن الوزارة تشد قواعد المملكة.

وكما يحتاج أشجع الناس إلىٰ السلاح، وأفره الخيل إلىٰ السوط، وأحد الشفار إلىٰ المِسنِّ، كذلك يحتاج أجلُّ الملوك وأعظمهم وأعلمهم إلىٰ الوزير.

وقد صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**ما بعث الله من نبيٍّ ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله**»(١).

وأولىٰ ما يظهر نبل السلطان: قوة تمييزه وجودة عقله في انتخاب الوزراء، واستنقاء الجلساء، ومحادثة العقلاء، فهذه ثلاث خلال تدل علىٰ كماله، وبهذه الخلال يجمل في الخلق ذِكره، وترسخ في النفوس عظمته، والمرء موسوم بقرينه، وكان يقال: حلية الملوك وزينتهم وزراؤهم، ولا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان.

قال شريح بن عبيد: لم يكن في بني إسرائيل ملك إلا ومعه رجل حكيم إذا رآه

---

(١) رواه البخاري (٦٦٥٩).

غضبان كتب إليه صحائف، وفي كل صحيفة: ارحم المسكين، واخش الموت، واذكر الآخرة، فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتىٰ يسكن غضبه.

ومثل الملك الخير والوزير السوء الذي يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه، كالماء الصافي الذي فيه التماسيح، لا يستطيع المرء دخوله وإن كان إلىٰ الماء محتاجًا، ومثل السلطان كمثل الطبيب، ومثل الرعية كمثل المرضىٰ، ومثل الوزير كمثل السفير بين المرضىٰ والأطباء، فإذا كذب السفير بطل التدبير.

وكما أن السفير إذا أراد أن يقتل أحدًا من المرضىٰ وصف للطبيب نقيض دائه، فإذا سقاه الطبيب علىٰ صفة السفير هلك العليل، كذلك الوزير ينقل إلىٰ الملك ما ليس في الرجل فيقتله الملك.

فمن هاهنا شرط في الوزير أن يكون صدوقًا في لسانه، عدلًا في دينه، مأمونًا في أخلاقه، بصيرًا بأمور الرعية، وتكون بطانة الوزير أيضًا من أهل الأمانة والبصيرة.

وليحذر الملك أن يولي الوزارة لئيمًا؛ فاللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه، واستخف بالأشراف، وتكبر علىٰ ذوي الفضل.

ودخل بعضُ الوزراء علىٰ بعض الخلفاء -وكان الوزير من أهل العقل والأدب- فوجد عنده رجلًا ذميًّا كان الخليفة يميل إليه ويقربه، فقال الوزير منشدًا:

يا ملكًا طاعته لازمه ... وحبه مفترَضٌ واجبُ

إن الذي شُرِّفت من أجله ... يزعم هذا أنه كاذبُ

وأشار إلىٰ الذمي وقال: اسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك، فسأله، فلم يجد بدًّا من أن يقول هو صادق، فاعترف بالإسلام.

وكان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع، وقال لوزيره: إذا رأيتني غضبان، فادفع إليَّ رقعة بعد رقعة، وكان في الأولىٰ: إنَّك لست بإله وإنك ستموت، وتعود إلىٰ التراب فيأكل بعضك بعضًا، وفي الثانية: ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء، وفي الثالثة:

اقض بين الناس بحكم الله، فإنهم لا يصلحهم إلا ذلك.

ولما كانت أمور المملكة عائدة إلىٰ الوزراء، وأزمَّة الملوك في أكفِّهم سبق فيهم من العقلاء المثل السائر؛ فقالوا: لا تغتر بمودة الأمير إذا غشك الوزير، وإذا أحبك الوزير فنم ولا تخش الأمير، ومثل السلطان كالدار والوزير بابها، فمن أتىٰ الدار من بابها ولج، ومن أتاها من غير بابها انزعج.

وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرآة من البصر، فكما أن من لم ينظر في المرآة لا يرىٰ محاسن وجهه وعيوبه، كذلك السلطان إذا لم يكن له وزيرٌ، فلن يعلم محاسن دولته وعيوبها.

وليس للوزير أن يكتم عن السلطان نصيحة وإن استقلها، فموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس، وكما أن المرآة لا تريك وجهك إلا بصفاء جوهرها وجودة صقلها ونقائها من الصدأ، كذلك السلطان لا يكمل أمره إلا بجودة عقل الوزير، وصحة فهمه، ونقاء قلبه.

ومن شروط الوزير: أن يكون كثير الرحمة للخلق، رؤوفًا بهم.

ومن توفيق الله للسلطان: أن يكون وزيره صالحًا، قال رجاء بن حيوة -وقد كان وزير صدق لبني أمية-: استشارني سليمان بن عبد الملك وهو مريض أن يولي ابنًا له صغيرًا لم يبلغ الحلم، فقلت: إن مما يحفظ الخليفة في قبره أن يولي علىٰ المسلمين من بعده الرجلَ الصالح، ثم شاورني في ولاية ابنه داود، فقلت له: إنه غائب عنك بالقسطنطينية ولا تدري أحي هو أم ميت؟ فقال: فمن ترىٰ؟ فقلت: رأيك يا أمير المؤمنين، قال: كيف ترىٰ في عمر بن عبد العزيز؟ فقلت: أعلمه والله خيرًا فاضلًا مسلمًا، فقال: هو والله علىٰ ذلك، ولكن أتخوف إخوتي لا يرضون بذلك، فأشار رجاء أن يجعل يزيد بن عبد الملك وليَّ العهد من بعد عمر بن عبد العزيز ليُرضي بذلك بني مروان، فكتب:

هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إني قد وليتك الخلافة من بعدي، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولا تختلفوا فيُطمع فيكم.

وختم الكتاب وأرسل إلىٰ كعب بن حامد العبسي صاحب الشرطة، فقال له: اجمع أهل بيتي، فمرهم فليبايعوا علىٰ ما في هذا الكتاب مغلقًا، فمن أبىٰ منهم فاضرب عنقه، فاجتمعوا ودخل رجال منهم فسلموا علىٰ أمير المؤمنين، فقال لهم: هذا الكتاب عهدي إليكم فاسمعوا له وأطيعوا وبايعوا من ولَّيت فيه، فبايَعوا رجلًا رجلًا.

قال رجاء: فلما تفرقوا جاءني عمر بن عبد العزيز فقال: أنشدك الله وحرمتي ومودتي إلا أعلمتني إن كان كتب لي ذلك حتىٰ أستعفيه الآن قبل أن يأتي حال لا أقدر فيها علىٰ ما أقدر عليه الساعة!

فقلت: والله لا أخبرك حرفًا واحدًا.

ولقيني هشام بن عبد الملك فقال: يا رجاء، إنَّ لي بك حرمة ومودة قديمة، فأخبرني هذا الأمر، فإن كان إليَّ علمت، وإن كان إلىٰ غيري تكلمت، فما مثلي قصر به، فقلت: والله لا أخبرك حرفًا واحدًا مما أسر إلي.

قال رجاء: ودخلت علىٰ سليمان، فإذا هو يموت، فجعلت إذا أخذته السكرة من سكرات الموت أحرفه إلىٰ القبلة، فإذا أفاق يقول: لم يأن لذلك بعد يا رجاء؟ ففعلت ذلك مرتين، فلما كانت الثالثة قال: من الآن يا رجاء إن كنت تريد شيئًا، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

فحرفته إلىٰ القبلة ومات، فغطيته بقطيفة خضراء وأغلقت الباب عليه، وأرسلت إلىٰ كعب بن حامد فجمع الناس في مسجد دابق، فقلت: بايعوا لمن في هذا الكتاب، فقالوا: قد بايعنا، فقلت: بايعوا ثانية، ففعلوا، ثم قلت: قوموا إلىٰ صاحبكم فقد مات.

وقرأت الكتاب عليهم، فلما انتهيت إلىٰ ذكر عمر بن عبد العزيز، تغيَّرت وجوه بني مروان، فلما قرأت: وإنَّ يزيد بن عبد الملك من بعده، تراجعوا بعض الشيء، ونادىٰ هشام: لا نبايعه أبدًا.

فقلت: أضرب واللهِ عنقك، قم فبايع.

ونهض الناس إلىٰ عمر بن عبد العزيز وهو في مؤخر المسجد، فلما تحقق ذلك، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولم تحمله رجلاه حتىٰ أخذوا بضبعيه، فأصعدوه علىٰ المنبر، فسكت حينًا، فقلت: ألا تقومون إلىٰ أمير المؤمنين فتبايعوه؟

فنهض القوم فبايعوه، ثم قام إليه هشام فصعد المنبر ليبايع، وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال عمر: نعم، إنا لله وإنا إليه راجعون، الذي صرت أنا وأنت نتنازع هذا الأمر.

ثم قام فخطب الناس خطبة بليغة وبايعوه، فكان مما قال في خطبته: أيها الناس، لست بمبتدع ولكني متبع، وإنَّ من حولكم من الأمصار والمدن إن هم أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم، وإن هم أبوا فلستُ لكم بوالٍ.

ثم نزل فشرعوا في جهاز سليمان، فلم يفرغوا منه حتىٰ دخل وقت المغرب، فصلىٰ عمر بالناس صلاة المغرب ثم صَلَّىٰ علىٰ سليمان، ودُفِن بعد المغرب، فلما انصرف عمر أتي بمراكب الخلافة فلم يركبها وركب دابته، ثم سار مع الناس حتىٰ أتوا دمشق فمالوا به نحو دار الخلافة فقال: لا أنزل إلا في منزلي حتىٰ تفرغ دار أمير المؤمنين سليمان، فاستحسن ذلك منه، ثم استدعىٰ بالكاتب فجعل يملي عليه نسخة الكتاب الذي يبايع عليه الأمصار، قال رجاء: فما رأيت أفصح منه.

❊ ❊ ❊

حجاب الوالي عن الرعية وما فيه من الضرر

لا شيء أضيع للدولة وأهلك للرعية من شدة الحِجاب، **فقد قيل**: إذا سهل الحجاب أحجمت الرعية عن الظلم، وإذا عظم الحجاب هجمت على الظلم.

ودخل عمرو بن مرة الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على معاوية فقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من ولَّاه الله شيئًا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم؛ احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة**»(١)؛ فجعل معاوية رجلًا على حوائج المسلمين.

وكان خالد بن عبد الله القسري يقول لحاجبه: إذا أخذتُ مجلسي فلا تحجبن عني أحدًا؛ فإنَّ الوالي لا يحتجب إلا لثلاث: عيب يكره أن يُطلَع عليه أحد، أو ريبة يخاف منها أن تظهر، أو بخل يكره معه أن يسأل شيئًا.

وكانت العجم تقول: لا شيء أضيع للمملكة من شدة حجاب الملك، ولا شيء أهيب للرعية وأكف لهم عن الظلم من سهولته.

وقيل لبعض الحكماء: ما الجرح الذي لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم، ثم يرده بغير قضائها، قيل: فما الذي هو أشد منه؟ قال: وقوف الشريف بباب الدنيء ثم لا يؤذن له.

ووقف عبد الله بن العباس العلوي على باب المأمون يومًا، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق، فقال عبد الله لقوم معه: إنه لو أُذن لنا لدخلنا، ولو صُرفنا لانصرفنا، ولو

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٢٠٨).

اعتذر إلينا لقبلنا، وأما النظرة بعد النظرة والتوقف بعد التعرف فلا أفهم معناه، ثم تمثل بهذا البيت:

وما عن رضا كان الحمار مطيتي ... ولكنَّ من يمشي سيرضىٰ بما ركبْ

ثم انصرف، فبلغ ذلك المأمون، فضرب الحاجب ضربًا شديدًا، وأمر لعبد الله بصلة جزيلة وعشر دواب.

وفي ذلك يقول القائل:

ماذا علىٰ بواب دارِكمُ الذي ... لم يعطنا إذنًا ولا يستأذنُ

لو ردنا ردًّا جميلًا عنكم ... أو كان يدفع بالتي هي أحسنُ

ووقف رجل بباب أبي دلف العجلي -وكان من الأجواد- حينًا فلم يؤذن له، فكتب رقعة وتلطف في وصولها إليه وفيها:

إذا كان الكريم له حجابٌ ... فما فضل الكريم علىٰ اللئيمِ

فأجابه أبو دلف بقوله:

إذا كان الكريم قليل مال ... ولم يعذر تعلل بالحجَابِ

وأبواب الملوك محجبات ... فلا تستنكرن حجاب بابي

❊ ❊ ❊

خطر الولاية

إنَّ تولي الولايات من أعظم الابتلاء الذي يبتلىٰ فيه العبد، وفيه من الخطر والضرر ما لا يعلمه إلا الله سبحانه، والمُوَفَّق من وفقه الله سبحانه، وأخذ بيده إلىٰ حيث النجاة.

وقد قال الله تعالىٰ لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦].

ومن اتباع الهوىٰ أن يحضر الخصمان بين يدي الحاكم فيود أن يكون الحق للذي له في قلبه محبة خاصة.

وجاء عن عبد الرحمن بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وُكِلت إليها**»(١).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصيحة، إلا لم يجد رائحة الجنة**»(٢).

وقال طاوس لسليمان بن عبد الملك: هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذابًا يوم القيامة؟ قال سليمان: قل، فقال طاوس: أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل أشركه الله في ملكه فجار في حكمه، فاستلقىٰ سليمان علىٰ سريره وهو يبكي، فما

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٢)، ومسلم (٣١٢٠).

(٢) رواه البخاري (٦٦١٨)، ومسلم (٢٠٣).

زال يبكي حتىٰ قام عنه جلساؤه.

وقال ابن سيرين: جاء صبيان إلىٰ عبيدة السلماني يتخيرون إليه في ألواحهم، فلم ينظر إليها، وقال: هذا حكمٌ، لا أتولىٰ حكمًا أبدًا.

وقال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أبا ذر، إني أحب لك ما أحب لنفسي، وإني أراك ضعيفًا، فلا تتأمرنَّ علىٰ اثنين، ولا تلين مال يتيم**»[١].

وحُكي أن ملكًا من ملوك الفرس يقال له أردشير، كان ذا مملكة متسعة وجند كثير وكان ذا بأس شديد، قد وصف له بنت ملك بحر الأردن بالجمال البارع، وأن هذه البنت بكر ذات خدر، فسير أردشير من يخطبها من أبيها، فامتنع من إجابته ولم يرض بذلك، فعظم ذلك علىٰ أردشير، وأقسم بالأيمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت، وليقتلنه هو وابنته شر قتلة، وليمثلن بهما أخبث مثلة.

فسار إليه أردشير في جيوشه، فقاتله، فقتله أردشير وقتل سائر خواصه، ثم سأل عن ابنته المخطوبة، فبرزت إليه جارية من القصر من أجمل النساء وأكمل البنات حسنًا وجمالًا وقدرًا واعتدالًا، فبهت أردشير من رؤيته إياها، فقالت له: أيها الملك، إنني ابنة الملك الفلاني ملك المدينة الفلانية، وإن الملك الذي قتلته أنت قد غزا بلدنا وقتل أبي وقتل سائر أصحابه قبل أن تقتله أنت، وإنه أسرني في جملة الأسارىٰ وأتىٰ بي في هذا القصر، فلما رأتني ابنته التي أرسلت تخطبها أحبتني، وسألت أباها أن يتركني عندها لتأنس بي فتركني لها، فكنت أنا وهي كأننا روحان في جسد واحد، فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فأرسلها إلىٰ بعض الجزائر في بحر الملح عند بعض أقاربه من الملوك، فقال أردشير: وددت لو أني ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة.

ثم إنه تأمل الجارية فرآها فائقة في الجمال، فمالت نفسه إليها، فأخذها للتسري،

---

(١) رواه مسلم (٣٤٠٥).

وقال: هذه أجنبية من الملك ولا أحنث في يميني بأخذها، ثم إنه واقعها، فحملت منه، فلما ظهر عليها الحمل، اتفق أنها تحدثت معه يومًا، وقد رأته منشرح الصدر، فقالت له: أنت غلبت أبي وأنا غلبتك، فقال لها: ومن أبوك؟ فقالت له: هو ملك بحر الأردن، وأنا ابنته التي خطبتها منه، وإنني سمعت أنك أقسمت لتقتلني فتحيلت عليك بما سمعت، والآن هذا ولدك في بطني، فلا يتهيأ لك قتلي، فعظم ذلك علىٰ أردشير إذ قهرته امرأة وتحيلت عليه حتىٰ تخلصت من يديه، فانتهرها، وخرج من عندها مغضبًا، وعوَّل علىٰ قتلها، ثم ذكر لوزيره ما اتفق له معها.

فلما رأىٰ الوزير عزمه قويًّا علىٰ قتلها خشي أن تتحدث الملوك عنه بمثل هذا، وأنه لا يقبل فيها شفاعة شافع، فقال: أيها الملك، إن الرأي هو الذي خطر لك، والمصلحة هي التي رأيتها أنت، وقَتل هذه الجارية في هذا الوقت أولىٰ وهو عين الصواب، لأنه أحق من أن يقال: إنَّ امرأة قهرت رأي الملك وحنثته في يمينه لأجل شهوة النفس، ثم قال: أيها الملك، إن صورتها مرحومة وحمل الملك معها، وهي أولىٰ بالستر، ولا أرىٰ في قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق، فقال له الملك: نِعم ما رأيت، خذها فأغرقها.

فأخذها الوزير ثم خرج بها ليلًا إلىٰ بحر الأردن ومعه ضوء ورجال وأعوان، فتحيل إلىٰ أن طرح شيئًا في البحر أوهم من كان معه أنها الجارية، ثم إنه أخفاها عنده، فلما أصبح جاء إلىٰ الملك، فأخبره أنه أغرقها، فشكره علىٰ ما فعل.

ثم مضت أشهر الجارية، فوضعت ولدًا ذكرًا جميلًا حسن الخلقة مثل فلقة القمر، فلاحظ الوزير جانب الأدب في تسميته، فرأىٰ أنه إن اخترع له اسمًا وسماه به، وظهر لوالده بعد ذلك، فيكون قد أساء الأدب، وإن هو تركه بلا اسم لم يتهيأ له ذلك، فسماه شاه بور، ومعنىٰ (شاه بور) بالفارسية: ابن ملك، فإن شاه ملك، وبور ابن، ولغتهم مبنية علىٰ تأخير المتقدم وتقديم المتأخر، وهذه تسمية ليس فيها مؤاخذة.

ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلىٰ أن بلغ الولد حد التعليم، فعلمه كل

ما يصلح لأولاد الملوك من الخط والحكمة والفروسية، وهو يوهم أنه مملوك له اسمه شاه بور، إلىٰ أن راهق البلوغ، هذا كله وأردشير ليس له ولد، وقد طعن في السن وأقعده الهرم، فمرض وأشرف علىٰ الموت، فقال للوزير: أيها الوزير، قد هرم جسمي وضعفت قوتي وإني أرىٰ أني ميت لا محالة، وهذا الملك يأخذه من بعدي من قضي له به، فقال الوزير: لو شاء الله أن يكون للملك ولد، وكان قد ولي بعده الملك، ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الأردن وبحملها، فقال الملك: لقد ندمت علىٰ تغريقها، ولوكنت أبقيتها حتىٰ تضع، فلعل حملها يكون ذكرًا، فلما شاهد الوزير من الملك الرضا، قال: أيها الملك، إنها عندي حية، ولقد ولدت ولدًا ذكرًا من أحسن الغلمان خَلقًا وخُلُقًا، فقال الملك: أحقٌّ ما تقول؟

فأقسم الوزير أن نعم، ثم قال: أيها الملك، إن في الولد روحانية تشهد بأبوة الأب، وفي الوالد روحانية تشهد ببنوة الابن، لا يكاد ذلك ينخرم أبدًا، وإنني آتي بهذا الغلام بين عشرين غلامًا في سنه وهيئته ولباسه، وكلهم ذوو آباء معروفين خلا هو، وإني أعطي كل واحد منهم صولجانًا وكرة وآمرهم أن يلعبوا بين يديك في مجلسك هذا، ويتأمل الملك صورهم، وخلقتهم وشمائلهم، فكل من مالت إليه نفسه وروحانيته فهو هو. فقال الملك: نعم التدبير الذي قلت.

فأحضرهم الوزير علىٰ هذه الصورة ولعبوا بين يدي الملك، فكان الصبي منهم إذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيبة أن يتقدم ليأخذها إلا شاه بور، فإنه كان إذا ضربها، وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم فأخذها ولا تأخذه الهيبة منه، فلاحظ أردشير ذلك منه مرارًا، فقال: أيها الغلام، ما اسمك؟ قال: شاه بور، فقال له: صدقت أنت ابني حقًّا، ثم ضمه إليه وقبله بين عينيه، فقال له الوزير: هذا هو ابنك أيها الملك، ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبي منهم والدًا بحضرة الملك، فتحقق الصدق في ذلك، ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها وجمالها، فقبلت يد الملك، فرضي عنها.

وقد دهش الملك وبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس في الخدمة، وشدة مناصحته، فزاد سروره وتضاعف فرحه لصيانة الجارية، وإثبات نسب الولد ولحوقه به، ثم إن الملك عوفي من مرضه الذي كان به وصحَّ جسمه، ولم يزل يتقلب في نعمه وهو مسرور بابنه إلىٰ أن حضرته الوفاة، ورجع المُلك إلىٰ ابنه شاه بور بعد موت أبيه، وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أردشير، وشاه بور يحفظ مقامه ويرعىٰ منزلته حتىٰ توفاه الله تعالىٰ.

❊ ❊ ❊

ذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم

قال أبو حنيفة: «القاضي كالغريق في البحر، إلىٰ متىٰ يسبح وإن كان سابحًا؟».

وأراد عمر بن هبيرة أن يولي أبا حنيفة القضاء، فأبىٰ، فحلف ليضربنه بالسياط وليسجننه، فضربه حتىٰ انتفخ وجه أبي حنيفة ورأسه من الضرب، فقال: الضرب بالسياط في الدنيا أهون علي من الضرب بمقامع الحديد في الآخرة.

وقال رجل من أهل اليمن: أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكشف عن باب مغلق فظنناه كنزًا، فكتبنا إلىٰ أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكتب إلينا: لا تحركوه حتىٰ يقدم إليكم كتابي، ثم فتح فإذا برجل علىٰ سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب وفي يده اليمنىٰ لوح مكتوب فيه هذان البيتان:

إذا خان الأمير وكاتباه ... وقاضي الأرض داهن في القضاءِ

فويل ثم ويل ثم ويل ... لقاضي الأرض من قاضي السماءِ

وإذا عند رأسه سيف أشد خضرة من البقل، مكتوب عليه: هذا سيف عاد بن إرم.

وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأله عن مسائل القضاء: لعلك تريد أن تكون قاضيًا، لأن يدخل الرجل أصبعه في عينيه فيقلعهما ويرمي بهما خير له من أن يكون قاضيًا.

وذكر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد أنه أحضر يومًا رجلًا ليوليه القضاء، فقال له الرجل: إني لا أحسن القضاء لأني غير فقيه، فقال له الرشيد: فيك ثلاث خصال تؤهلك للقضاء: لك شرف؛ والشرف يمنع صاحبه من الدناءة، ولك حلم؛ والحلم

يمنعك من العجلة ومن لم يتعجل فهو قليل الخطأ، وأنت رجل تشاور الناس في أمورك؛ ومن شاور كثر صوابه، وأما الفقه فنضم إليك من تستعين به.

فتولىٰ الرجلُ القضاء زمنًا طويلًا لم يُعرَف عنه فيه تقصير في عمله أو خلل في أقضيته.

وبعث عمر بن عبد العزيز عديَّ بن أرطاة إلىٰ البصرة نائبًا، وأمرَه أن يجمع بين إياس والقاسم بن ربيعة الجوشني، فأيهما كان أفقه فليوله القضاء.

فقال إياس -وهو يريد ألا يتولىٰ-: أيها الرجل، سل فقيهي البصرة الحسن وابن سيرين، وكان إياس لا يأتيهما، فعرف القاسم أنه إن سألهما أشاراه، فقال القاسم لعدي: والله الذي لا إله إلا هو إنَّ إياسًا أفضل وأفقه مني وأعلم بالقضاء، فإن كنت صادقًا فولِّه، وإن كنتُ كاذبًا فما ينبغي أن ألي القضاء.

فقال إياس: هذا رجل أوقف علىٰ شفير جهنم، فافتدىٰ منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها.

فقال عدي: أما إذ فطنت إلىٰ هذا فقد وليتك القضاء، فمكث سنة يفصل بين الناس ويصلح بينهم، وإذا تبين له الحق حكم به، ثم هرب إلىٰ عمر بن عبد العزيز إلىٰ دمشق، فاستعفىٰ من القضاء، فولىٰ عديٌّ بعده الحسن البصري.

وكان إسماعيل بن علية من أئمة العلماء والمحدثين الرفعاء وكان ثقة نبيلًا جليلًا كبير القدر، قليل التبسم، وكان يبر أصحابه من العلماء، وقد ولاه الرشيد القضاء، فلما بلغ عبد الله بن المبارك أنه ولي القضاء بعث إليه يعتب عليه ويلومه نظمًا ونثرًا، فاستعفىٰ ابنُ عليَّة الرشيد من القضاء فأعفاه.

وكان يوسف بن يعقوب من أكابر القضاة وأعيان العلماء، وقد كان ثقة نزهًا عفيفًا شديد الحرمة، جاءه يومًا بعض خدم الخليفة المعتضد فرفع في المجلس، فأمره حاجب القاضي أن يساوي خصمه، فامتنع اعتزازًا بجاهه، فنهره القاضي،

وقال: ائتوني بدلال النخس حتىٰ أبيع هذا العبد وأبعث بثمنه إلىٰ الخليفة، فجاء حاجب القاضي فأخذه بيده وأجلسه مع خصمه، فلما انقضت الحكومة رجع الخادم إلىٰ المعتضد فبكىٰ بين يديه وأخبره بما قال القاضي، فقال: واللهِ لو باعك لأجَزت بيعه ولما استرجعتك أبدًا، فليس خصوصيتك عندي تزيل مرتبة الحكم؛ فإنه عمود السلطان وقوام الأديان.

❊ ❊ ❊

في سياسة الرعية وسيرة العمال

قال جعفر بن يحيىٰ: الخراج عماد الملوك، وما استعزُّوا بمثل العدل، وما استُنذروا بمثل الظلم، وأسرع الأمور في خراب البلاد تعطيل الأرضين وهلاك الرعية وانكسار الخراج من الجور.

ومَثل السلطان إذا أجحف بأهل الخراج حتىٰ يضعُفوا عن عمارة الأرضين مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع، فهو إن شبع من ناحية فقد ضعف من ناحية أخرىٰ، وما أدخل علىٰ نفسه من الضعف والوجع أعظم مما دفع عن نفسه من ألم الجوع، ومثل من كلف الرعية فوق طاقتهم كالذي يطيِّن سطحه بتراب أساس بيته، وإذا ضعُف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين فيتركونها فتخرب الأرض ويهرب المزارعون فتضعف العمارة ويضعف الخراج، وينتج من ذلك ضعف الأجناد، وإذا ضعف الجند طمع الأعداء في السلطان.

قال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «استعمل فرعون هامان علىٰ حفر خليج سردوس، فأخذ في حفره وتدبيره، فجعل أهلُ القرىٰ يسألونه أن يجري لهم الخليج تحت قراهم ويعطوه مالًا، فكان يذهب به من قرية إلىٰ قرية من المشرق إلىٰ المغرب ومن الشمال إلىٰ القبلة ويسوقه كيف أراد وإلىٰ حيث قصد، فليس خليجٌ بمصر أكثر عطوفًا منه، فاجتمع له من ذلك أموال عظيمة جزيلة فحملها إلىٰ فرعون وأخبره بالخبر، فقال له فرعون: إنه ينبغي للسيد أن يعطف علىٰ عبده ويفيض عليه من خزائنه وذخائره ولا يرغب فيما بأيديهم، رُدَّ علىٰ أهل القرىٰ أموالهم، فردَّ عليهم ما أخذه منهم.

فإذا كانت هذه سيرة من لا يعرفُ اللهَ ولا يرجو لقاءه ولا يخاف عذابَه ولا يؤمن بيوم الحساب، فكيف تكون سيرةُ من يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

ويوقن بالحساب والثواب والعقاب.

وروي أن بني ثعلبة دخلوا علىٰ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنَّا قومٌ من العرب فافرِض لنا. قال: نصارىٰ؟ قالوا: نصارىٰ. قال: ادعوا إليَّ حَجَّامًا، ففعلوا، فجزَّ نواصيهم وشقَّ من أرديتهم حِزَمًا يحتزمون بها، وأمرَهم ألَّا يركبوا بالسروج، وأن يركبوا علىٰ الأُكُف من شق واحد.

وجاء عن أمير المؤمنين الخليفة جعفر المتوكل أنه أقصىٰ اليهود والنصارىٰ ولم يستعملهم، وأذلهم وأبعدهم وخالف بين زيهم وزي المسلمين، وقرَّب منه أهل الحق وأبعد عنه أهل الباطل، فأحيا الله به الحق وأمات به الباطل، فهو يُذكر بذلك، ويُترحم عليه ما دامت الدنيا.

وكان عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **يقول:** «لا تستعملوا اليهود والنصارىٰ؛ فإنهم أهل رِشا في دينهم، ولا يحل في دين الله الرشا».

ولما استقدم عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أبا موسىٰ الأشعري من البصرة -وكان عاملًا بها للحساب- دخل علىٰ عمر وهو في المسجد فاستأذن لكاتبه -وكان نصرانيًّا-؛ فقال له عمر: قاتلك الله وضرب بيده علىٰ فخذه، ولَّيت ذميًّا علىٰ المسلمين، أما سمعت الله تعالىٰ يقول: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [المائدة:٥١]. هلا اتخذت حنيفيًّا؟

فقال: يا أمير المؤمنين، لي كتابته وله دينه، فقال: لا أُكرمُهم إذ أهانهم الله، ولا أُعزهم إذ أذلهم الله، ولا أُدنيهم إذ أقصاهم الله.

وكتب بعض العمال إلىٰ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن العدوَّ قد كَثُر، وأن الجزية قد كثرت، أفنستعين بالأعاجم؟ فكتب إليه: إنهم أعداء الله وإنهم لنا غششة، فأنزلوهم حيث أنزلهم الله.

وكتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ عماله ألا تُوَلُّوا علىٰ أعمالنا إلا أهل القرآن، فكتبوا إليه إنا قد وجدنا فيهم خيانة، فكتب إليهم: إن لم يكن في أهل القرآن

خير، فأجدر ألا يكون في غيرهم.

ولمَّا بلغَ المنصور أنَّ والي خراسان عبد الجبار بن عبد الرحمن قد قتل خلقًا من شيعة الخليفة، عزله وولَّىٰ ابنَه محمدًا المهدي وليَّ عهده من بعده بلاد خراسان، واستشار المنصور أبا أيوب الخوزي كاتب الرسائل فيما يصنع معه، فقال: يا أمير المؤمنين، اكتب إليه ليبعث جيشًا من خراسان لغزو الروم، فإذا خرجوا من عنده بعثتَ إليه مَن شئت فأخرجوه منها ذليلًا ليس عنده كثير أحد.

فكتب إليه المنصور بذلك، فردَّ الجواب بأنَّ بلاد خراسان قد عاثت بها الأتراك، ومتىٰ خرج منها جيش فسد أمرها، فقال المنصور لأبي أيوب: ماذا ترىٰ؟ قال: فاكتب إليه بأنَّ بلاد خراسان أحق بالمدد من غيرها، وقد جهزت إليك بالجنود، فأجاب بأن بلاد خراسان في هذا العام مضيقة أقواتها، ومتىٰ دخلها جيش أفسدها، فقال الخليفة لأبي أيوب: ما تقول؟ فقال: يا أمير المؤمنين، هذا رجل قد أبدىٰ صفحته وخلع، فلا تناظره.

فحينئذٍ بعث المنصور ابنه محمدًا المهدي ليُقيم بالري، وبعث المهدي خازمَ بن خزيمة مقدمة بين يديه إلىٰ عبد الجبار، فما زالوا عليه حتىٰ هزموا من معه، وأخذوه فأركبوه بعيرًا محولًا وجهه إلىٰ ناحية ذنب البعير، وسيَّروه كذلك في البلاد حتىٰ أقدموه علىٰ المنصور، ومعه ابنه وجماعة من أهله، فضرب المنصور عنقه.

ومن شعر أبي جعفر لما عزم علىٰ قتل أبي مسلم الخراساني:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمةٍ ... فإنَّ فسادَ الرأي أن تتردَّدَا

ولا تمهل الأعداء يومًا بقدرةٍ ... وبادرهمُ أن يملكوا مثلها غدَا

وأوصىٰ المنصور ابنه فقال: يا بنيَّ، ليس العاقل من يحتال للأمر الذي وقع فيه حتىٰ يخرج منه، ولكنه الذي يحتال للأمر الذي غشيه حتىٰ لا يقع فيه.

وقال يومًا لابنه المهدي: يا بنيَّ، لا تجلس مجلسًا إلا وعندك من أهل العلم من

يحدثك؛ فإنَّ الزهري قال: علم الحديث لا يحبه إلا ذكران الرجال، ولا يكرهه إلا مؤنثوهم، وصدق أخو زهرة.

والواجب علىٰ السلطان أن يكون معظِّمًا لأمر الله، فقد كتب المهدي إلىٰ الآفاق ألا تبقىٰ مقصورة في مسجد جماعة، وأن تقصر المنابر إلىٰ مقدار ما كان منبر رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففعل ذلك في المدائن كلها.

وقال أمير المؤمنين الهادي العباسي: «ما أصلح الملك بمثل تعجيل العقوبة للجاني، والعفو عن الزلات القريبة، ليقل الطمع عن الملك».

وغضب يومًا من رجل، فاسترضي عنه فرضي، فشرع الرجل يعتذر، فقال الهادي: إن الرضا قد كفاك مؤنة الاعتذار.

ومن سياسة الملك: أن يكون الوالي حازمًا، فقد كان رتبيل ملك الترك يصالح المسلمين تارة، ويتمرد أخرىٰ، فكتب الحجاج إلىٰ عبيد الله بن أبي بكرة أن قاتله بمن معك من المسلمين حتىٰ تستبيح أرضه، وتهدم قلاعه، وتقتل مقاتلته.

فخرج في جمع من الجنود من بلاده وخلق من أهل البصرة والكوفة، ثم التقىٰ مع ملك الترك فكسره وهدم أركانه، وجاس ابن أبي بكرة وجنده خلال ديارهم، واستحوذ علىٰ كثير من أقاليمه ومدنه وأمصاره، وتبَّر ما هنالك تتبيرًا.

ثم إن رتبيل تراجع منه منشمرًا، وما زال يتبعه حتىٰ اقترب من مدينته العظمىٰ، وكانوا منها علىٰ مسافة قريبة، وخافت الأتراك منهم خوفا شديدًا، ثم إن الترك أخذت عليهم الطرق والشعاب، وضيقوا عليهم المسالك، حتىٰ ظن كلٌّ من المسلمين أنه لا محالة هالك، فعند ذلك طلب عبيد الله أن يصالح رتبيل علىٰ أن يدفع إليه سبعمائة ألف، ويفتحوا للمسلمين طريقًا يخرجون منه، ويرجعون عنهم إلىٰ بلادهم.

فانتدب شريح بن هانئ -وكان صحابيًّا، وكان من أكبر أصحاب علي، وهو المقدم علىٰ أهل الكوفة- فندب الناس إلىٰ القتال والمصابرة، والنزال والجلاد

بالسيوف والرماح والنبال، فنهاه عبيد الله بن أبي بكرة فلم ينته، وأجابه جماعة من الناس من الشجعان، فحمل عليهم وهو يرتجز، ويقول:

أصبحت ذا بث أقاسي الكِبَرا ... قد عشت بين المشركين أعصرا
ثُمَّت أدركت النبي المنذرا ... وبعده صديقه وعمَرا
ويوم مهران ويوم تسترا ... والجمع في صِفِّينهم والنهرا
هيهات ما أطول هذا عُمُرا

ثم قاتل حتىٰ قُتل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقُتل معه خلق من أصحابه، حتىٰ فني أكثر المسلمين، ثم خرج من خرج من الناس بصحبة عبيد الله بن أبي بكرة من أرض رتبيل، وبلغ ذلك الحجاج، فكتب إلىٰ عبد الملك يعلمه بذلك ويستشيره في بعث جيش كثيف إلىٰ بلاد رتبيل، لينتقموا منه بسبب ما حَلَّ بالمسلمين في بلاده، فحين وصل البريد إلىٰ عبد الملك كتب إلىٰ الحجاج بالموافقة علىٰ ما رأىٰ من المصلحة في ذلك، وأن يعجل ذلك سريعًا، فحين وصل البريد إلىٰ الحجاج بذلك أخذ في جمع الجيوش، وجهز لذلك جيشًا كثيفًا بلغ أربعين ألفًا، من البصرة والكوفة وغيرهما لقتال رتبيل ملك الترك، ليقتصوا منه لما كان من قتل جيش عبيد الله بن أبي بكرة.

وأخذ الحجاج في استعراض هذه الجيوش وبذل فيهم العطاء، وأمَّر عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فأتىٰ عمُّه إسماعيل بن الأشعث، فقال للحجاج: إني أخاف أن تؤمره فلا يرىٰ لك طاعة إذا جاوز جسر الفرات. فقال: ليس هو هنالك، هو لي أهيب، ومني أرهب أن يخالف أمري أو يخرج عن طاعتي.

فسار ابن الأشعث بالجيوش نحو أرض رتبيل، فلما بلغ رتبيل مجيء ابن الأشعث بالجنود إليه كتب إليه يعتذر مما أصاب المسلمين في بلاده في السنة الماضية، وأنه كان لذلك كارهًا، وأنهم ألجئوه إلىٰ قتالهم، وسأل من ابن الأشعث أن يصالحه وأن يبذل

للمسلمين الخراج، فلم يجبه ابن الأشعث إلىٰ ذلك وصمَّم علىٰ دخول بلاده، وجمع رتبيل جنوده وتهيأ له ولحربه.

وجعل ابن الأشعث كلما دخل بلدًا أو مدينة أو أخذ قلعة من بلاد رتبيل استعمل عليها نائبًا من جهته، وجعل معه من يحفظها، وجعل المراقبة علىٰ كل أرض ومكان مخوف، فاستحوذ علىٰ بلاد ومدن كثيرة من بلاد رتبيل، وغنم أموالًا كثيرة جزيلة، وسبىٰ خلقًا كثيرة.

ثم حبس الناس عن التوغل في بلاد رتبيل حتىٰ يصلحوا ما بأيديهم من البلاد، ويتقووا بما فيها من المغلات والحواصل، ثم يتقدموا في العام المقبل إلىٰ أعدائهم، فلا يزالون يجوزون الأراضي والأقاليم حتىٰ يحاصروهم في مدينتهم علىٰ الكنوز والأموال والذراري حتىٰ يغنموها، ثم يقتلون مقاتلتهم، وعزموا علىٰ ذلك، وكان هذا هو الرأي.

فكتب ابنُ الأشعث إلىٰ الحجاج ما رأىٰ لأصحابه أن يقيموا حتىٰ يتقووا إلىٰ العام المقبل، فكتب إليه الحجاج يستهجن رأيه في ذلك، ويستضعف عقله، ويقرعه بالجبن والنكول عن الحرب، ويأمره حتمًا بدخول بلاد رتبيل، ثم أردف ذلك بكتاب ثانٍ ثم ثالث، وقد كان الحجاج يبغض ابن الأشعث، وكان هو يفهم ذلك ويضمر له السوء وزوال الملك عنه، فلما تواردت كتب الحجاج إليه يحثه علىٰ التوغل في بلاد رتبيل، جمع من معه وقام فيهم، فأعلمهم بما رأىٰ من الرأي في ذلك، وبما كتب إليه الحجاج من الأمر بمعاجلة رتبيل، فثار إليه الناس، وقالوا: لا، بل نأبىٰ علىٰ عدو الله الحجاج، ولا نسمع له ولا نطيع، ووثبوا إلىٰ عبد الرحمن بن الأشعث فبايعوه عوضًا عن الحجاج، ولم يذكروا خلع عبد الملك بن مروان.

وبعث ابن الأشعث إلىٰ رتبيل، فصالحه علىٰ أنه إن ظفر بالحجاج فلا خراج علىٰ رتبيل أبدًا، ثم سار ابنُ الأشعث بالجنود الذين معه مقبلًا علىٰ الحجاج، ليقاتله

ويأخذ منه العراق، ثم لما توسطوا الطريق قالوا: إنَّ خلْعَنا للحجاج خلعٌ لابن مروان، فخلعوهما جميعًا، وجددوا البيعةَ لابن الأشعث، فبايعَهم علىٰ كتاب الله وسنة رسوله، وخلعِ أئمة الضلالة.

فلما بلغ الحجاج ما صنعوا من خلعه وخلع ابن مروان، كتب إلىٰ عبد الملك يعلمه بذلك، ويستعجله في بعثه الجنود إليه، وجاء الحجاج حتىٰ نزل البصرة، وبلغ المهلب خبر ابن الأشعث، وكتب إليه يدعوه إلىٰ ذلك فأبىٰ عليه، وبعث بكتابه إلىٰ الحجاج.

وكتب المهلب إلىٰ ابن الأشعث يقول له: إنك يا ابن الأشعث قد وضعت رجلك في ركاب طويل، أبقِ علىٰ أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الله الله، انظر لنفسك فلا تهلكها، ودماء المسلمين فلا تسفكها، والجماعة فلا تفرقها، والبيعة فلا تنكثها، فإن قلت: أخاف الناس علىٰ نفسي، فالله أحق أن تخافه من الناس، فلا تعرضها لسفك الدماء، أو استحلال محرم، والسلام عليك.

وكتب المهلب إلىٰ الحجاج: أما بعد، فإنَّ أهل العراق قد أقبلوا إليك مثل السيل المنحدر من عَل، ليس شيء يرده حتىٰ ينتهي إلىٰ قراره، وإن لأهل العراق شرة في أول مخرجهم وصبابة إلىٰ أبنائهم ونسائهم، فليس شيء يردهم حتىٰ يصلوا إلىٰ أهليهم، ويشموا أولادهم، ثم واقعهم عندها، فإن الله ناصرك عليهم -إن شاء الله-.

وفي آخر المحرم من سنة ثنتين وثمانين كانت وقعة الزاوية بين ابن الأشعث والحجاج، فحمل سفيان بن الأبرد -أحدُ أمراء أهل الشام- علىٰ ميمنة ابن الأشعث فهزمها، وقتل خلقًا كثيرًا من أصحاب ابن الأشعث، وفرَّ بقيتهم، فخرَّ الحجاج لله ساجدًا بعدما كان جثا علىٰ ركبتيه، وسل شيئًا من سيفه، وجعل يترحم علىٰ مصعب بن الزبير ويقول: ما كان أكرمه حين صبر نفسه للقتل.

ولما فرَّ أصحاب ابن الأشعث رجع ابن الأشعث بمن بقي معه ومن اتبعه من

أهل البصرة، فسار حتىٰ دخل الكوفة، فعمد أهل البصرة إلىٰ عبد الرحمن بن عباس ابن ربيعة فبايعوه، فقاتل الحجاج خمس ليالٍ أشد القتال، ثم انصرف فلحق بابن الأشعث وتبعه طائفة من أهل البصرة، فاستناب الحجاج علىٰ البصرة أيوب بن الحكم بن أبي عقيل، ودخل ابن الأشعث الكوفة، فبايعه أهلها علىٰ خلع الحجاج وعبد الملك بن مروان وتفاقم الأمر، وكثر متابعو ابن الأشعث علىٰ ذلك، واشتد الحال، وتفرقت الكلمة جدًّا، وعظم الخطب، واتسع الخرق.

ثم كانت وقعة دير الجماجم في شعبان من هذه السنة، وذلك أن ابن الأشعث لما قصد الكوفة خرج إليه أهلها فتلقوه وحفوا به ودخلوا بين يديه، غير أن جماعة قليلة أرادت أن تقاتله دون مطر بن ناجية نائب الحجاج، فلم يمكنهم من ذلك، فعدلوا إلىٰ القصر.

فلما وصل ابن الأشعث إلىٰ الكوفة أمر بالسلاليم فنصبت علىٰ قصر الإمارة فأخذه واستنزل مطر بن ناجية وأراد قتله، فقال له: استبْقِني، فإني خير من فرسانك، فحبسه، ثم استدعاه فأطلقه وبايعه، واستوثق لابن الأشعث أمر الكوفة، وانضم إليه من جاء من أهل البصرة، وكان ممن قدم عليه عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن عبد المطلب، وأمر بالمراقبة من كل جانب، وحفظت الثغور والطرق والمسالك.

ثم إنَّ الحجاج ركب فيمن معه من الجيوش الشامية، حتىٰ مرَّ بين القادسية والعذيب، وبعث إليه ابنُ الأشعث عبدَ الرحمن بن العباس في خيل عظيمة من المصرين، فمنعوا الحجاج من نزول القادسية، فسار الحجاج حتىٰ نزل دير قرة، وجاء ابن الأشعث بمن معه من الجيوش البصرية والكوفية حتىٰ نزل دير الجماجم، ومعه جنود كثيرة وخلق كثير، وكان جملة من اجتمع مع ابن الأشعث مائة ألف مقاتل.

وكان الحجاج بعد ذلك يقول: قاتل الله ابن الأشعث، أما كان يزجر الطير حيث رآني قد نزلت دير قرة، ونزل هو بدير الجماجم.

وقدم علىٰ الحجاج في أثناء ذلك أمداد كثيرة من الشام، وخندقَ كلٌّ من الطائفتين علىٰ نفسه، غير أن الناس كان يبرز بعضهم لبعض في كل يوم فيقتتلون قتالًا شديدًا في كل يوم، حتىٰ أصيب من رؤوس الناس خلق كثير، واستمر هذا الحال مدة طويلة.

واجتمع الأمراء من أهل المشورة عند عبد الملك بن مروان، فقالوا له: إن كان أهل العراق يرضيهم منك أن تعزل عنهم الحجاج فهو أيسر من قتالهم وسفك دمائهم، فاستحضر عبد الملك عند ذلك أخاه محمد بن مروان، وابنه عبد الله بن عبد الملك بن مروان، ومعهما جنود كثيرة جدًّا، وكتب معهما كتابًا إلىٰ أهل العراق يقول لهم: إن كان يرضيكم مني عزل الحجاج عنكم عزلته، وأبقيت عليكم أعطياتكم مثل أهل الشام، وليختر ابن الأشعث أيَّ بلد شاء يكون عليه أميرًا ما عاش وعشت، وتكون إمرة العراق لمحمد بن مروان، فإن لم تجيبوا إلىٰ ذلك فالحجاج علىٰ ما هو عليه، وإليه إمرةُ الحرب، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعته وتحت أمره، لا يخرجون عن رأيه في الحرب وغيره.

ولما بلغ الحجاج ما كتب به عبد الملك إلىٰ أهل العراق من عزله إن رضوا به، شقَّ عليه ذلك مشقةً عظيمة جدًّا، وعظم شأن هذا الرأي عنده، وكتب إلىٰ عبد الملك: يا أمير المؤمنين، واللهِ لئن أعطيت أهل العراق نزعي عنهم لا يلبثون إلا قليلًا حتىٰ يخالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك، ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر النخعي علىٰ ابن عفان فلما سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نزْع سعيد بن العاص، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتىٰ ساروا إليه فقتلوه؟ وإن الحديد بالحديد يفل، كان الله لك فيما ارتأيت، والسلام عليك.

فأبىٰ عبد الملك إلا عرض هذه الخصال علىٰ أهل العراق كما أمر، فتقدم عبد الله ومحمد، فنادىٰ عبد الله: يا معشر أهل العراق، أنا عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد الملك بن

مروان وإنه يعرض عليكم كيت وكيت، فذكر ما كتب به أبوه معه إليهم من هذه الخصال، وقال محمد بن مروان: وأنا رسول أخي أمير المؤمنين إليكم بذلك.

فقالوا: ننظر في أمرنا غدًا، ونرد عليكم الخبر عشية، ثم انصرفوا، فاجتمع جميع الأمراء إلىٰ ابن الأشعث، فقام فيهم خطيبًا، وندبهم إلىٰ قبول ما عرض عليهم من عزل الحجاج عنهم، وبيعة عبد الملك، وإبقاء الأعطيات، وإمرة محمد بن مروان علىٰ العراق بدل الحجاج.

فنفر الناس من كل جانب، وقالوا: لا والله لا نقبل ذلك، نحن أكثر عَدَدًا وعُدَدًا، وهم في ضيق من الحال، وقد حكمنا عليهم وذلُّوا لنا، والله لا نجيب إلىٰ ذلك أبدًا، ثم جددوا خلع عبد الملك بن مروان ثانية، واتفقوا علىٰ ذلك كلهم.

فلما بلغ عبد الله بن عبد الملك وعمه محمد بن مروان الخبر قالا للحجاج: شأنك بهم إذن، فنحن في طاعتك كما أمرنا أمير المؤمنين، وتولىٰ الحجاج أمر الحرب وتدبيرها كما كان قبل ذلك، فعند ذلك برز كل من الفريقين للقتال والحرب، وجعلوا يقتتلون في كل يوم، وأهل العراق تأتيهم الميرة من الأقاليم، من العلف والطعام وغيره، وأهل الشام الذين مع الحجاج في ضيق من العيش، وقلة من الطعام، وطالت مدة الحرب وهم علىٰ حالهم وقتالهم في كل يوم، أو يوم بعد يوم، والدائرة لأهل العراق علىٰ أهل الشام في أكثر الأيام.

وعند ذلك كتب الحجاج إلىٰ رتبيل ملك الترك الذي لجأ ابن الأشعث إليه يقول له: والله الذي لا إله إلا هو لئن لم تبعث إليَّ بابن الأشعث لأبعثن إلىٰ بلادك ألف ألف مقاتل، ولأخربنها.

فلما تحقق الوعيد من الحجاج استشار في ذلك بعض الأمراء فأشار عليه بتسليم ابن الأشعث إليه قبل أن يخرب الحجاج دياره، ويأخذ عامة أمصاره، فأرسل إلىٰ الحجاج يشترط عليه ألا يقاتل عشر سنين، وألا يؤدي في كل سنة منها إلا مائة ألف من الخراج،

فأجابه الحجاج إلىٰ ذلك، وعند ذلك غدر رتبيل بابن الأشعث، فقبض عليه وعلىٰ ثلاثين من أقربائه فقيدهم في الأصفاد، وبعث بهم مع رسل الحجاج إليه.

فلما كانوا ببعض الطريق صعد ابن الأشعث وهو مقيدٌ بالحديد إلىٰ سطح قصر، ومعه رجل موكَّل به لئلَّا يفر، وألقىٰ نفسه من ذلك القصر، وسقط معه الموكَّل به فماتا جميعًا، فعمد الرسول إلىٰ رأس ابن الأشعث فاحتزَّه، وقتل مَن معه من أصحاب ابن الأشعث، وبعث برؤوسهم إلىٰ الحجاج، فأمر فطيف برأسه في العراق، ثم بعثه إلىٰ أمير المؤمنين عبد الملك فطيف برأسه في الشام، ثم بعث به إلىٰ أخيه عبد العزيز بمصر فطيف برأسه هنالك، ثم دفنوا رأسه بمصر.

ومن الحزم: ما ذُكر عن عبد الملك بن مروان أنه لما احتضر دخل عليه ابنه الوليد فبكىٰ، فقال له عبد الملك: ما هذا؟ أتحن حنين الجارية والأمة؟ إذا أنا مت فشمر واتزر والبس جلد النمر، وضع الأمور عند أقرانها، واحذر قريشًا، ثم قال له: يا وليد، اتق الله فيما أستخلفك فيه، واحفظ وصيتي، وانظر إلىٰ أخي معاوية فصل رحمه، واحفظني فيه، وانظر إلىٰ أخي محمد فأقرَّه علىٰ الجزيرة، ولا تعزله عنها، وانظر ابن عمنا علي بن عبد الله بن عباس فإنه قد انقطع إلينا بمودته ونصيحته، وله نسب وحق، فصل رحمه واعرف حقه، وانظر الحجاج بن يوسف فأكرمه، فإنه هو الذي مهد لكم البلاد، وقهر الأعداء، وأخلص لكم الملك، وشتت الخوارج، وأنهاك وإخوتك عن الفرقة، وكونوا أولاد أمٍّ واحدة، وكونوا في الحرب أحرارًا، وللمعروف منارًا، فإنَّ الحرب لم تُدنِ منية قبل وقتها، وإنَّ المعروف يشيد ذكر صاحبه، ويميل القلوب بالمحبة، ويذلل الألسنة بالذكر الجميل.

وسمع سليمان بن عبد الملك ليلة صوت غناء في معسكره، فأمر بهم فأُحضروا، فقال: إن الفرس ليصهل فتستودق له الرمكة، وإن الجمل ليهدر فتضبع له الناقة، وإن التيس لينب فتستميل له العنز، وإن الرجل ليُغني فتشتاق له المرأة، ثم أمر بهم

ليخصوهم، فقال عمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، إنها مثلة، فتركهم.

وكان عمر بن عبد العزيز يوسِّع علىٰ عماله في النفقة، يعطي الرجل منهم في الشهر مائة دينار، ومائتي دينار، وكان يتأول أنهم إذا كانوا في كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين، فقالوا له: لو أنفقت علىٰ عيالك كما تنفق علىٰ عمالك؟ فقال: لا أمنعهم حقًّا لهم، ولا أعطيهم حق غيرهم.

وكان عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعطي من انقطع إلىٰ المسجد الجامع للفقه ونشر العلم وتلاوة القرآن في كل عام من بيت المال مائة دينار، وكان يكتب إلىٰ عماله أن يأخذوا الناس بالسُنَّة، ويقول: إن لم تصلحهم السُنَّة فلا أصلحهم الله.

وكان يكتب إلىٰ عماله: اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلوات؛ فإن من أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشد تضييعًا.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ سائر البلاد: ألا يركب ذمي من اليهود والنصارىٰ وغيرهم علىٰ سرج، ولا يلبس قباء ولا طيلسانًا ولا السراويل، ولا يمشين أحد منهم إلا بزنار من جلد، ومن وجد منهم في منزله سلاح أخذ منه، وكتب أيضًا ألا يستعمل علىٰ الأعمال إلا أهل القرآن، فإن لم يكن عندهم خير فغيرهم أولىٰ ألا يكون عنده خير.

وفي سنة خمس وثلاثين ومائتين أمر الخليفة المتوكل أهلَ الذمة أن يتميزوا عن المسلمين في لباسهم وعمائمهم وثيابهم، وأن يتطيلسوا بالمصبوغ بالعسلي، وأن يكون علىٰ غلمانهم رقاع مخالفة للون ثيابهم من خلفهم ومن بين أيديهم، وأن يُلزَموا بالزنانير الخاصرة لثيابهم كزنانير الفلاحين، وأن يحملوا في رقابهم كرات من خشب كثيرة، وألا يركبوا خيلًا، ولتكن ركبهم من خشب إلىٰ غير ذلك من الأمور المذلة لهم المهينة لنفوسهم، وألا يُستعملوا في شيء من الدواوين التي يكون لهم فيها حكمٌ علىٰ مسلم، وأمر بتخريب كنائسهم المحدثة، وبتضييق منازلهم المتسعة، فيؤخذ منها العشر، وأمر بتسوية قبورهم بالأرض، وكتب بذلك إلىٰ سائر الأقاليم والآفاق وإلىٰ كل بلد.

في العدل والإحسان

مما لا شك فيه أنَّ العدل مطلوب، بل وإنَّ من طباع النفوس أنها تطلب الإحسان وهو منزلة فوق العدل، ولذلك فقد أمر الله تعالىٰ بالعدل وحضَّ عليه فقال سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل:٩٠].

والعدل ميزان الله تعالىٰ في الأرض الذي يؤخذ به للضعيف من القوي والمحق من المبطل؛ ولذا فقد كان عدل الملوك مما يوجب محبتهم، وجورهم مما يوجب الافتراق عنهم، وأفضل الأزمنة ثوابًا أيام العدل.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاثةٌ لا تردُّ دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتىٰ يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء ويقول الرب عَزَّوَجَلَّ: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين**»(١).

وسأل الإسكندر حكماء أهل بابل: أيها أبلغ عندكم؟ الشجاعة أو العدل؟ قالوا: إذا استعملنا العدل استغنينا به عن الشجاعة.

ويقال: عدل السلطان أنفع من خصب الزمان، وإذا رغب السلطان عن العدل رغبت الرعية عن طاعته.

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز يشكو إليه من خراب مدينته، ويسأله مالًا يرمها به، فكتب إليه عمر: قد فهمت كتابك، فإذا قرأت كتابي، فحصِّن مدينتك بالعدل، ونقِّ طرقها من الظلم، فإنه مرمُّها، والسلام.

ويقال: إن الحاصل من خراج سواد العراق في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

---

(١) رواه الترمذي، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٧٠).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مائةً وسبعةً وثلاثين ألف ألف، فلم يزل يتناقص حتىٰ صار في زمن الحجاج ثمانية عشر ألف ألف، فلما ولي عمر بن عبد العزيز ارتفع في السنة الأولىٰ إلىٰ ثلاثين ألف ألف، وفي الثانية إلىٰ ستين ألف ألف، وقال: إن عشت لأبلغنه إلىٰ ما كان في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فمات في تلك السنة.

ومن كلام كسرىٰ: لا ملك إلا بالجند، ولا جند إلا بالمال، ولا مال إلا بالبلاد، ولا بلاد إلا بالرعايا، ولا رعايا إلا بالعدل.

ولما مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون للناس ولأمير المؤمنين المنصور، فكتب المنصور لعامله: استوف لأمير المؤمنين حقه، وفرق ما بقي بين الغرماء، فلم يلتفت إلىٰ كتابه، وضرب للمنصور بسهم من المال كما ضرب لأحد الغرماء، ثم كتب للمنصور: إني رأيت أمير المؤمنين كأحد الغرماء، فكتب إليه المنصور: ملئت الأرض بك عدلًا.

وكان أحمد بن طولون والي مصر متحليًا بالعدل، وكان يجلس للمظالم وينصف المظلوم من الظالم، وقد حكي أن ولده استدعىٰ بمغنية وهو يصطبح يومًا، فلقيها بعض صالحي مصر ومعها غلام يحمل عودها فكسره، فدخل العباس إليه وأخبره بذلك، فأمر بإحضار ذلك الرجل الصالح، فلما أحضر إليه قال: أنت الذي كسرت العود، قال: نعم. قال: أَفَعلمت لمن هو؟ قال: نعم هو لابنك العباس، قال: أفما أكرمته لي، قال: أكرمه لك بمعصية الله عَزَّ وَجَلَّ والله تعالىٰ يقول: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة:٧١]، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»؟ فأطرق أحمد بن طولون عند ذلك، ثم قال: كل منكر رأيته فغيره وأنا من ورائك.

وذُكر أن رجلًا من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيعة له، فأتىٰ إلىٰ المنصور، فقال له: أصلحك الله يا أمير المؤمنين، أأذكر لك حاجتي أم أضرب لك قبلها مثلًا؟ فقال: بل

اضرب المثل. فقال: إن الطفل الصغير إذا نابه أمر يكرهه فإنما يفزع إلىٰ أمه إذ لا يعرف غيرها، وظنًّا منه أن لا ناصر له غيرها، فإذا ترعرع واشتد كان فراره إلىٰ أبيه، فإذا بلغ وصار رجلًا وحدث به أمر شكاه إلىٰ الوالي لعلمه أنه أقوىٰ من أبيه، فإذا زاد عقله شكاه إلىٰ السلطان لعلمه أنه أقوىٰ ممن سواه، فإن لم ينصفه السلطان شكاه إلىٰ الله تعالىٰ لعلمه أنه أقوىٰ من السلطان، وقد نزلت بي نازلة، وليس أحدٌ فوقك أقوىٰ منك إلا الله تعالىٰ، فإن أنصفتني وإلا رفعتُ أمري إلىٰ الله تعالىٰ في الموسم، فإني متوجه إلىٰ بيته وحرمه. فقال المنصور: بل ننصفك، وأمر أن يُكتَب إلىٰ واليه بردِّ ضيعته إليه.

وتظلم أهل الكوفة من واليهم، فشكوه إلىٰ المأمون، فقال: ما علمتُ في عمالي أعدل ولا أقوم بأمر الرعية وأعود بالرفق عليهم منه، فقال رجل منهم: يا أمير المؤمنين، ما أحدٌ أولىٰ بالعدل والإنصاف منك، فإن كان بهذه الصفة فعلىٰ أمير المؤمنين أن يوليه بلدًا بلدًا حتىٰ يلحق كلَّ بلد من عدله مثل الذي لحقنا، ويأخذَ بقسطه منه كما أخذنا، وإذا فعل ذلك لم يصبنا منه أكثر من ثلاث سنين، فضحك المأمون من قوله وعزله عنهم.

ولما ولي عمر بن عبد العزيز أخذ في ردِّ المظالم، فابتدأ بأهل بيته، فاجتمعوا إلىٰ عمة له كان يكرمها وسألوها أن تكلمه، فقال لها: إن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سلك طريقًا، فلما قبض سلك أصحابه ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وايم الله لئن مُدَّ في عمري لأردنَّه إلىٰ ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ.

فقالت له: يا ابن أخي، إني أخاف عليك منهم يومًا عصيبًا، فقال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة، فلا أمَّنَنِيه الله.

وجاء عن المأمون أنه جلس يومًا للفصل في شئون الأمة، فحضرت في آخر الجلسة امرأة وأنشدت بين يديه:

يـا خيـر مُنتـصف يهـدىٰ لـه الرشـد ويـا إمامًـا بــه قــد أشــرق الــبلدُ
تـشكو إلـيك عمـيدَ القــوم أرملـة عـدا علـيها فلـم يُتـرَك لهـا سـبدُ
وابتــزَّ منــي ضــياعي بعــد منعــتها ظلمًــا ففُــرِّق عنــي الأهــل والــولدُ

فأطرق المأمون حينًا، ثم رفع رأسه إليها وهو ينشد:

فـي دون مـا قلـت زال الـصبر والجلـدُ عنــي وفُــزِّع منــي القلــب والكــبدُ
هــذا أذان صــلاة العــصر فانــصرفي وأَحضِري الخصم في اليوم الذي أَعِدُ
المجلس السبت إن يُقضَ الجلوسُ لنا نُنـصِفك مـنه وإلا المجلـس الأحـدُ

فلما كان يوم الأحد جلس، فكان المبتدئ بالدخول إليه تلك المرأة، فقال لها: أين الخصم السوء؟ فأومأت إلىٰ العباس ابنه، قال: قم فاجلس معها مجلس الخصوم، فجلس، وأخذا يتخاصمان، وكان كلامها يعلو كلام العباس، فقال لها أحد الحاضرين: اخفضي زئيرك.

فقال المأمون: دعها، فإنَّ الحق أنطقها وأخرسه، فبقيت تئن بشكايتها أمام الملأ، حتىٰ انتشر نبؤها في الجلسة، فنصرها علىٰ العباس.

وقال وهب بن منبه: «إذا هم الوالي بالجور أو عمل به أدخل الله النقص في أهل مملكته في الأسواق والزروع والضروع وكل شيء، وإذا هم بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك».

قال الوليد بن هشام: «إن الرعية لتَصلُح بصلاح الوالي وتفسد بفساده».

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن ملكًا من الملوك خرج يسير في مملكته متنكرًا، فنزل علىٰ رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات، فتعجب الملك من ذلك وحدثته نفسه بأخذها، فلما كان من الغد حلبت له النصف مما حلبت بالأمس، فقال له الملك: ما بال حلبها نقص، أرعت في غير مرعاها بالأمس؟ فقال: لا، ولكن أظن أن مَلِكَنا رآها أو وصله خبرها فهمَّ بأخذها، فنقص لبنها، فإن الملك إذا ظلم أو همَّ

بالظلم ذهبت البركة. فتاب الملك وعاهد ربه في نفسه ألا يأخذها ولا يحسد أحدًا من الرعية، فلما كان من الغد حلبت عادتها.

وقيل: إنَّ الناس كانوا في زمان الحجاج إذا أصبحوا يتساءلون إذا تلاقوا: مَن قُتِل البارحة؟ ومَن صلب؟ ومن جلد؟ ومن قطع؟ وما أشبه ذلك.

وكان الوليد صاحب ضياع واتخاذ مصانع، فكان الناس يتساءلون في زمانه عن البنيان والمصانع والضياع، وشق الأنهار وغرس الأشجار.

ولما ولي سليمان بن عبد الملك وكان صاحب طعام ونكاح، كان الناس يتحدثون ويتساءلون في الأطعمة الرفيعة، ويتغالون في المناكح والسراري، ويعمرون مجالستهم بذكر ذلك.

ولما ولي عمر بن عبد العزيز، كان الناس يتساءلون: كم تحفظ من القرآن؟ وكم وردك كل ليلة؟ وكم يحفظ فلان وكم يختم وكم يصوم من الشهر؟ وما أشبه ذلك.

فينبغي للإمام أن يكون علىٰ طريقة الصحابة والسلف رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ويقتدي بهم في الأقوال والأفعال، فمن خالف ذلك فهو لا محالة هالك، وليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبي مرسل أو ملك مقرب، وقد قيل: إن مثله كمثل الرياح التي يرسلها الله تعالىٰ بشرًا بين يدي رحمته، فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحًا للثمرات وروحًا للعباد.

قال عوانة بن الحكم: لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد إليه الشعراء فمكثوا ببابه أيامًا لا يؤذن لهم ولا يُلتفَت إليهم، فساءهم ذلك وهمُّوا بالرجوع إلىٰ بلادهم، فمر بهم رجاء بن حيوة، فقال له جرير:

يا أيها الرجل المُرخي عمامَته ... هذا زمانك فاستأذن لنا عُمَرا

فدخل ولم يذكر من أمرهم شيئًا.

ثمَّ مر بهم عدي بن أرطاة، فقال له جرير منشدًا:

يا أيها الراكب المزجي مطيته هذا زمانك إني قد مضىٰ زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه أني لدىٰ الباب كالمصفود في قرنِ
لا تنس حاجتنا لاقيت مغفرة قد طال مكثيَ عن أهلي وعن وطني

فدخل عدي علىٰ عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين، الشعراء ببابك، وسهامهم مسمومة، وأقوالهم نافذة، فقال: ويحك يا عدي، ما لي وللشعراء. فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قد كان يسمع الشعر ويجزي عليه، وقد أنشده العباس بن مرداس مدحة، فأعطاه حلة.

فقال له عمر: أتروي منها شيئًا؟

قال: نعم، فأنشده:

رأيتك يا خير البرية كلها نشرت كتابًا جاء بالحق مَعلمَا
شرعت لنا دين الهدىٰ بعد جورنا عن الحق لما أصبح الحق مُظلِمَا
ونورت بالبرهان أمرًا مدلسًا وأطفأت بالقرآن نارًا تَضَرَّمَا
فمن مبلغ عني النبيَّ محمدًا وكل امرئ يُجزَىٰ بما كان قَدَّمَا
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه وكان قديمًا ركنه قد تَهَدَّمَا
تعالىٰ علوًّا فوق عرشٍ إلهنا وكان مكانُ الله أعلىٰ وأعظَمَا

فقال عمر: ويحك يا عدي!، مَن بالباب منهم؟ فقال: عمر بن أبي ربيعة، فقال: أليس هو الذي يقول:

ثم نبهتها فهبَّت كعابًا طفلة ما تبين رجع الكلامِ
ساعة ثم إنها بعدُ قالت ويلتا قد عجلت يا ابن الكرامِ
أعلىٰ غير موعد جئت تسري تتخطىٰ إلىٰ رؤوس النيامِ

ما تجشمت ما تريد من الأمـ ... ـر ولا جئت طارقًا لخصامِ

فلو كان عدوُّ الله إذ فجر كتم وستر على نفسه، لا يدخل عليَّ والله أبدًا، فمَن بالباب سواه؟ قال: الفرزدق، فقال عمر: أوَليس هو الذي يقول:

هما دلتاني من ثمانين قامة ... كما انقض باز أقتم الريش كاسرُه

فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا ... أحيٌّ يرجَّىٰ أم قتيلٌ نحاذِرُه

لا يطأُ والله بساطي وهو كاذب، فمن سواه بالباب؟ قال: الأخطل، قال: أوَليس هو الذي يقول:

ولست بصائمٍ رمضان طوعًا ... ولست بآكل لحم الأضاحي

ولست بزاجر عنسًا بكورًا ... إلىٰ بطحاء مكة للنجاحِ

ولست بزائر بيتًا بعيدًا ... بمكة أبتغي فيه صلاحي

ولست بقائم كالعير أدعو ... قبيل الصبح حيَّ علىٰ الفلاحِ

ولكني سأشربها شمولًا ... وأسجد عند منبلج الصباحِ

والله لا يدخل علي وهو كافر أبدًا، فهل بالباب سوىٰ من ذكرت؟ قال: نعم، الأحوص، قال: أليس هو الذي يقول:

الله بيني وبين سيدها ... يفر مني بها وأتبعُه

فما هو دون من ذكَرت، فمَن هاهنا غيره؟ قال: جميل بن معمر، قال: الذي يقول:

ألا ليتنا نحيا جميعًا وإن نمت ... يوافق في الموتىٰ ضريحي ضريحُها

فما أنا في طول الحياة براغب ... إذا قيل قد سوي عليها صفيحُها

فلو كان عدو الله تمنىٰ لقاءها في الدنيا ليعمل بذلك صالحًا، واللهِ لا يدخل عليَّ أبدًا، فهل بالباب أحدٌ سوىٰ ذلك؟ قال: نعم جرير، قال: أما إنه الذي يقول:

طـرَقَتك صـائدة القلـوب ولـيس ذا حـين الـزيارة فارجعـي بـسلامِ

فإن كان لا بُد فأذن لجرير، فأذِن له، فدخل وهو يقول:

إن الـذي بعـث النبـي محمـدًا جعـل الخلافـة للإمـام العـادلِ

وسـع الخلائـق عدلـه ووفـاؤه حتـىٰ ارعـوىٰ وأقـام مـيل المائـلِ

إنـي لأرجـو مـنك خيـرًا عـاجلًا والـنفس مـولعة بحـب العاجـلِ

فقال له عمر: ويحك يا جرير!، اتق الله فيما تقول.

ثم إن جريرًا استأذن عمر في الإنشاد، فلم يأذن له ولم ينهه، فأنشده قصيدة طويلة يمدحه بها، فقال له: ويحك يا جرير، لا أرىٰ لك فيما هاهنا حقًّا، فقال: إني مسكين وابن سبيل، فقال: إنا ولينا هذا الأمر ونحن لا نملك إلا ثلثمائة درهم، أخذت أم عبد الله مائة، وابنها مائة، وقد بقيت مائة، فأمر له بها، ثم خرج علىٰ الشعراء، فقالوا: ما وراءك يا جرير؟ فقال: ما يسوؤكم، خرجت من عند أمير المؤمنين، وهو يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء وإني عنه لراضٍ، ثم أنشأ يقول:

رأيـت رُقَـىٰ الـشيطان لا تـستفزه وقـد كـان شـيطاني مـن الجـن راقـيًا

وقالت فاطمة زوجة عمر بن عبد العزيز: دخلت علىٰ عمر يومًا وهو جالس في مصلاه، واضعًا خده علىٰ يده، ودموعه تسيل علىٰ خديه، فقلت: ما لك؟ فقال: ويحك يا فاطمة، إني قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، واليتيم المكسور، والأرملة الوحيدة، والمظلوم المقهور، والغريب، والأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربي عَزَّوَجَلَّ سيسألني عنهم يوم القيامة، وأن خصمي دونهم محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فخشيت ألا يثبت لي حجة عند خصومته، فرحمت نفسي فبكيت.

وقال ميمون بن مهران: «ولَّاني عمر بن عبد العزيز عملًا، ثم قال لي: إذا جاءك كتاب مني علىٰ غير الحق فاضرب به الأرض».

❊ ❊ ❊

الظلم وشؤمه وسوء عواقبه

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [إبراهيم:٤٢]، قيل: إنَّ هذا تسلية للمظلوم ووعيد للظالم.

وجاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو شيء، فليتحلل منه اليوم من قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه**»(١).

وقال أيضًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة**، فقال له رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: **ولو كان قضيبًا من أراك**»(٢).

وسمع مسلم بن بشار رجلًا يدعو علىٰ من ظلمه فقال له: كِلِ الظالم إلىٰ ظُلمه؛ فهو أسرع فيه من دعائك.

ويقال: من طال عدوانه زال سلطانه.

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «يوم المظلوم علىٰ الظالم أشد من يوم الظالم علىٰ المظلوم».

وكان معاوية يقول: «إني لأستحي أن أظلم من لا يجد عليَّ ناصرًا إلا الله».

وقال أبو العيناء: كان لي خصوم ظلمة فشكوتهم إلىٰ أحد الولاة، وقلت: قد

(١) رواه البخاري (٢٢٦٩).

(٢) رواه مسلم (١٩٦).

تضافروا عليَّ وصاروا يدًا واحدة، فقال: يدُ الله فوق أيديهم، فقلت له: إنَّ لهم مكرًا، فقال: ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، قلت: هم فئة كثيرة، فقال: كم مِن فئةٍ قليلةٍ غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

وقال بعض الحكماء: «اذكر عند الظلم عدلَ الله فيك، وعند القدرة قدرةَ الله عليك، ولا يعجبك رحب الذراعين سَفَّاك الدماء، فإنَّ له قاتلًا لا يموت».

وقال سحنون بن سعيد: «كان يزيد بن حاتم يقول: ما هبتُ شيئًا قط هيبتي مِن رجل ظلمتُه وأنا أعلم أن لا ناصرَ له إلا الله، فيقول: حسبك الله، الله بيني وبينك».

وقال بلال بن مسعود: «اتق الله فيمن لا ناصر له إلا الله».

وبكىٰ عليُّ بن الفضل يومًا، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي علىٰ من ظلمني إذا وقف غدًا بين يدي الله تعالىٰ ولم تكن له حجة.

ونادىٰ رجل سليمان بن عبد الملك -وهو علىٰ المنبر- يا سليمان اذكر يوم الأذان، فنزل سليمان مِن علىٰ المنبر، ودعا بالرجل وقال له: ما يوم الأذان؟ قال: قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٤]، قال: فما ظلامتك؟ قال: أرض لي بمكان كذا وكذا، أخذها وكيلُك، فكتب إلىٰ وكيله: ادفع إليه أرضه وأرضًا مع أرضه.

وجاء عن كسرىٰ أنه كان له معلمٌ حسنُ التأديب يعلِّمُه حتىٰ فاق في العلوم، فضربه المعلم يومًا من غير ذنب وأوجعه، فحقد أنوشروان عليه، فلما ولي المُلك قال للمعلم: ما حملك علىٰ ضربي يوم كذا وكذا ظلمًا؟ فقال له: لما رأيتك ترغب في العلم رجوت لك الملك بعد أبيك، فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلَّا تظلم، فقال أنوشروان: زه زه.

وروي أن بعض الملوك رقم علىٰ بساطه:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا ... فالظلم ترجع عقباه إلىٰ النَّدَمِ

تـــنام عيـــناك والمظلـــوم منتـــبه يدعـــو علـــيك وعـــين الله لـــم تَـــنَمِ

قال أبو الدرداء: «إياك ودمعةَ اليتيم ودعوةَ المظلوم؛ فإنها تسري بالليل والناس نيام».

وجاء عن هارون بن محمد الزيات قال: جلس أبي للمظالم يومًا، فلما انقضىٰ المجلس رأىٰ رجلًا جالسًا، فقال له: ألك حاجة؟ قال: نعم، أدنني إليك؛ فإني مظلوم وقد أعوزني العدل والإنصاف، قال: ومن ظلمك؟ قال: أنت، ولستُ أصل إليك فأذكر حاجتي، قال: وما يحجبك وقد ترىٰ مجلسي مبذولًا؟ قال: يحجبني عنك هيبتُك وطولُ لسانك وفصاحتُك.

قال: ففيم ظلمتك؟ قال: في ضيعتي الفلانية، أخذها وكيلُك غصبًا مني بغير ثمن، فإذا وجب عليها خراج أديته باسمي، فوكيلك يأخذ غلتها وأنا أؤدي خراجها وهذا لم يسمع بمثله في المظالم، فقال له محمد: هذا قول تحتاج معه إلىٰ بينة وشهود وأشياء.

فقال له الرجل: أيؤمنني الوزير من غضبه حتىٰ أجيب؟ قال: نعم، قد أمَّنتُك، قال: البينة هم الشهود، وإذا شهدوا فليس يحتاج معهم إلىٰ شيء آخر، فما معنىٰ قولك: بينة وشهود وأشياء، وأي شيء هذه الأشياء إلا أن تكون هي الجور وعدولك عن العدل؟

فضحك محمد وقال: صدقت، والبلاءُ موكَّل بالمنطق، وإني لأرىٰ فيك مصطنعًا، ثم دفع له مائة دينار يستعين بها علىٰ عمارة ضيعته وصيَّره من أصحابه، فكان قبل أن يتوصل إلىٰ الإنصاف وإعادة ضيعته له يقال له: يا فلان، كيف الناس؟ فيقول: بشرٍّ، بين مظلوم لا يُنصَر وظالمٍ لا يَنصُر.

فلما صار من أصحاب محمد بن عبد الملك وردَّ عليه ضيعته وأنصفه، قال له ليلة: كيف الناس الآن؟ قال: بخير، اعتمَدتَ معهم الإنصاف، ورفعتَ عنهم

الإجحاف، ورددتَ عليهم الغصوب، وكشفتَ عنهم الكروب، وأنا أرجو لهم ببقائك نيلَ كلِّ مرغوب والفوزَ بكل مطلوب.

وحُكي أن الحجاج حبس رجلًا ظلمًا، فكتب إليه رقعة فيها: قد مضىٰ من بؤسنا أيامٌ ومن نعيمك أيامٌ، والموعدُ القيامة، والسجنُ جهنَّم، والحاكمُ لا يحتاج إلىٰ بينة، وكتب في آخرها:

ستعلم يا ظلومُ إذا التقينا ... غدًا عند الإله مَن الظلومُ

أما والله إن الظلم لؤم ... وما زال الظلوم هو الملومُ

سينقطع التلذذ عن أناس ... أداموه وينقطع النعيمُ

إلىٰ ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصومُ

وحكىٰ الحسين بن محمد الصالحي قال: كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم نصف النهار، فنام بعد أن أكل فانتبه منزعجًا وقال: يا خدم، فأسرعنا الجواب، فقال: ويلكم أعينوني والحقوا بالشط، فأول ملاح ترونه منحدرًا في سفينة فارغة فاقبضوا عليه وائتوني به، ووكلوا بالسفينة من يحفظها.

فأسرعنا فوجدنا ملاحًا في سفينة منحدرة وهي فارغة، فقبضنا عليه ووكلنا بها من يحفظها، وصعدنا به إلىٰ المعتضد، فلما رآه الملاح كاد يتلف، فصاح عليه المعتضد صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها، وقال: اصدقني يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التي قتلتها اليوم وإلا ضربت عنقك، فتلعثم وقال: نعم، كنت سَحَرًا في المشرعة الفلانية فنزلت امرأة لم أر مثلها، عليها ثياب فاخرة وحليٌّ كثيرة وجواهر، فطمعت فيها واحتلت عليها حتىٰ سددت فمها وغرقتها وأخذت جميع ما كان عليها، ثم طرحتها في الماء ولم أجسرعلىٰ حمل سَلَبها إلىٰ داري لئلَّا يفشو الخبر علي، فعولت علىٰ الهروب والانحدار إلىٰ واسط، فصبرت إلىٰ أن خلا الشط في هذه الساعة من الملاحين وأخذت في الانحدار فتعلق بي هؤلاء القوم فحملوني

إليك، فقال: وأين الحلي والسلَب؟ قال: في صدر السفينة تحت البواري.

قال المعتضد: عليَّ به الساعة، فحضروا به، فأمر بتغريق الملاح، ثم أمر أن يُنادىٰ ببغداد: مَن خرجت له امرأة إلىٰ المشرعة الفلانية سَحرًا وعليها ثيابٌ فاخرة وحليٌّ فليحضر، فحضر في اليوم الثاني ثلاثةٌ من أهلها وأَعطَوا صفتها وصفة ما كان عليها فسلَّم ذلك إليهم، قال: فقلت: يا مولاي، من أين علمت؟ أَوَأُوحىٰ إليك بهذه الحالة وأمرِ هذه الصبية؟

فقال: بل رأيتُ في منامي رجلًا شيخًا أبيضَ الرأس واللحيةِ والثيابِ وهو ينادي: يا أحمد، أوَّلُ ملاحٍ ينحدر الساعةَ فاقبض عليه وقرِّره علىٰ المرأة التي قتَلَها اليوم ظلمًا، وسلَبَها ثيابها، وأقم عليه الحدَّ ولا يَفُتْك، فكان ما شاهدتم.

فيتعين علىٰ كلِّ وليِّ أمرٍ أن يعدل في الأحكام، وأن يتبصر في رعيته، وعلىٰ كل غافل أن يكف يده عن الظلم، ويسلكَ سنن العدل، ويعاملَ بالإنصاف، ويراقبَ اللهَ في السرِّ والعلانية، ويعلمَ أن الله يجازي علىٰ الخير والشر، ويعاقبُ الظالم علىٰ ظلمه، وينتصرُ للمظلوم ويأخذُ له حقَّه ممن ظلمه، وأنه إذا أخذ الظالم لم يُفلته.

وحُكي أن رجلًا لم يولد له ولدٌ، فكان يأخذ أولاد الناس فيقتلهم، فنهته زوجته عن ذلك وقالت: يؤاخذك الله بذلك، فقال: لو يؤاخذني لفعل في يوم كذا، وصار يعدد أفعاله لها، فقالت له: إن صاعك لم يمتلئ، ولو امتلأ أخذك.

قال: فخرج ذات يومٍ، وإذا بغلامين يلعبان ومعهما جرو، فأخذهما، ودخل البيت فقتلهما وطرد الجرو، فطلبهما أبوهما فلم يجدهما، فانطلق إلىٰ أحد الحكماء فأخبره بذلك فقال: ألهما لعبة كانا يلعبان بها؟ قال: جرو كلب. قال: تتبَّع الكلب، فأيُّ بيتٍ دخله فعليك به، فجعل الجرو في كلِّ يوم يجوب الدروب والحارات حتىٰ يقف علىٰ بيت القاتل، فمشىٰ الناس خلفه وإذا بالغلامين متعفران بدمهما، وهو قائم يحفر لهما مكانًا يدفنهما فيه، فأمسكوه وأَتَوا به، فأُمِر بصلبه، فلما رأته زوجته علىٰ الخشبة قالت: ألم أحذرك من هذا اليوم فتقول ما تقول، الآن امتلأ صاعك.

ولما سُجن يحيىٰ بن خالد البرمكي، قال بعضُ بنيه وهم في السجن والقيود: يا أبت، بعدَ الأمر والنهي والنعمة صرنا إلىٰ هذا الحال؟ فقال: يا بني، دعوة مظلوم سرت بليل ونحن عنها غافلون، ولم يغفل الله عنها، ثم أنشأ يقول:

رب قوم قد غدوا في نعمة زمنًا والدهر ريان غَدَقْ
سكت الدهر زمانًا عنهمُ ثم أبكاهم دمًا حين نَطَقْ

ودخل الحجاج علىٰ ابن عمر وهو مريض، فغمض عينيه، فكلمه فلم يجبه.

وقال محمد بن الزبير: كتب أنس بن مالك إلىٰ عبد الملك بن مروان يشكو الحجاج، فقال: لو أنَّ رجلًا خدم عيسىٰ ليلة واحدة أو رآه فعرفته النصارىٰ لعزَّ عندهم ولعرفوا له ذلك، ولو أنَّ رجلًا خدم موسىٰ أو رآه فعرفته اليهود لفعلوا مثلهم، وإني خادمُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبُه، وإنَّ الحجاج قد أضر بي وفعل وفعل.

قال محمد: فأخبرني من شهد عبد الملك يقرأ الكتاب وهو يبكي، وبلغ به الغضب ما شاء الله، ثم كتب إلىٰ الحجاج بكتاب غليظ، فجاء حامل الكتاب إلىٰ الحجاج، فقرأ الكتاب فتغير وجهه، ثم قال: انطلق بنا إليه نترضاه.

ورأىٰ المنتصر في منامه كأنه يصعد سلمًا، فبلغ إلىٰ آخر خمس وعشرين درجة، فقصها علىٰ بعض المعبرين، فقال له: هذه خمس وعشرون سنة تلي فيها الخلافة، وإذا هي مدة عمره، قد استكملها في هذه السنة.

قال بعضهم: دخلنا عليه يومًا فإذا هو يبكي وينتحب شديدًا، فسأله بعض أصحابه عن بكائه، فقال: رأيت أبي المتوكل في منامي، وهو يقول: ويلك يا محمد قتلتني وظلمتني وغصبتني خلافتي، واللهِ لا مُتعت بها بعدي إلا أيامًا يسيرة ثم مصيرك إلىٰ النار، قال: فما أملك عيني ولا جزعي.

فقال له بعض أصحابه من الذين يغرون الناس ويفتنونهم: هذه رؤيا وهي تصدق وتكذب، وقد بقي منكسر الهمة، وما زال كذلك مكسورًا حتىٰ مات.

ومن جيد كلام الخليفة المنتصر قوله: «واللهِ ما عزَّ ذو باطل قط، ولو طلع القمر من جبينه، ولا ذلَّ ذو حقٍّ قط، ولو أصفق العالم عليه».

وأوصىٰ قيس بن عاصم بنيه، فقال: «إياكم والبغي؛ فما بغىٰ قوم قط إلا قلوا وذلوا».

❊ ❊ ❊

في الرشوة والدَّيْن

جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لعن الله الراشي والمرتشي**»(١).

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تُوَلُّوا اليهود ولا النصارىٰ؛ فإنهم يقبلون الرشا، ولا يحل في دين الله الرشا».

قال بعضُ الحكماء: وأصحابنا اليوم أقبل للرشا منهم.

وفي نوابغ الحكم: أن البراطيل تنصر الأباطيل.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: «مَن شفع شفاعة ليرد بها حقًّا أو يدفع بها ظلمًا فأُهدي له فقبل، فذلك السحت».

وأما الدَّين فنعوذ بالله منه، وقد استعاذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غلبة الدَّين كما صح ذلك عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يدعو بهؤلاء الكلمات: «**اللهُمَّ إني أعوذُ بك من غلَبَة الدَّين، وغلبة العدوِّ، وشماتة الأعداء**»(٢).

وجاء عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أُتي له بجنازة لم يسأل عن شيء من عمل الرجل ويسأل عن دَينِه، فإن قيل: عليه دين كفَّ عن الصلاة عليه، وإن قيل: ليس عليه دَين صلىٰ عليه، فأُتي بجنازة، فلما قام ليكبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**هل علىٰ صَاحِبِكُم من دَين؟** فقالوا: ديناران يا رسول الله، فعدل

---

(١) رواه ابن ماجه، وحسَّنه الألباني في «إرواء الغليل» (٢٦٢١).

(٢) رواه النَّسائي، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٤١).

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه، وقال: **صَلُّوا علىٰ صاحبكم**»[١].

فالدَّين همٌّ بالليل وذلٌّ بالنهار، وهو غُلٌّ جعله المَرء في عنقه، وإذا أراد الله أن يذل عبدًا جعل الدَّين طوقًا في رقبته.

قال الزهري: لم يكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلي علىٰ أحد عليه دَيْن، ثم قال بعدُ: «**أنا أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، من مات وعليه دين فعليَّ قضاؤه**»، ثم صلىٰ عليهم[٢].

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: «لا همَّ إلا همُّ الدَّين، ولا وجع إلا وجع العَين».

وقال حبيب بن ثابت: «ما احتجت إلىٰ شيء أستقرضه إلا استقرضته من نفسي».

أراد أنه يصبر إلىٰ أن تتمكن الميسرة، ونظيره قول القائل:

وإذا ما غَلا شيءٌ عليَّ تركتُه ... فيكون أرخص مَا يكون إذا غَلَا

واستقرض من الأصمعي خليلٌ له، فقال: حبًّا وكرامة، ولكن سكِّن قلبي برهنٍ يساوي ضعف ما تطلبه، فقال: يا أبا سعيد، أما تثق بي؟ قال: بلىٰ، وإنَّ خليل الله كان واثقًا بربه، وقد قال: ولكن ليطمئن قلبي.

هذا وليحذر العاقل من قضاء الدَّين بدينٍ مثله، وقد قيل:

إذا ما قضيت الدَّين بالدَّين لم يكن ... قضاءً ولكن ذاك غرم علىٰ غُرمِ

* * *

(١) رواه البخاري (٢١٢٧).

(٢) رواه البخاري (٢١٣٣)، ومسلم (٣٠٤٠).

في العمل والكسب

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يَقعُدَنَّ أحدُكُم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني؛ فقد علمتم أن السماء لا تُمطر ذهبًا ولا فضة».

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني لأرىٰ الرجلَ فيعجبني، فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا: لا، سقط من عيني».

قال بعضُهم في السعي:

خاطر بنفسك كي تصيب غُنَيمةً ... إن الجلوسَ مع العيال قبيحُ

وقيل: احذر مُجَالسة العاجز؛ فإنَّ من سكن إلىٰ عاجز أعداه من عجزه، وأمدَّه من جزعه، وعوَّده قلة الصبر، ونسَّاه ما في العواقب، وليس للعجز ضد إلا الحزم.

وقال بعض الحكماء: من الخذلان مُسَامرة الأماني، ومن التوفيق بغض التواني.

قال الإمام الشافعي: «احرص علىٰ ما ينفعك، ودع كلام الناس؛ فإنه لا سبيل إلىٰ السلامة من ألسنة الناس».

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «التواني مفتاح البؤس، وبالعجز والكسل تولدت الفاقة، ونتجت الهلكة، ومن لم يطلب لم يجد وأفضىٰ ذلك إلىٰ الفساد».

وقال بعض الحكماء: «الحركة بركة، والتواني هلكة، والكسل شؤمٌ، وكلبٌ طائفٌ خيرٌ من أسد رابض، ومَن لم يحترف لم يعتلف».

وسأل معاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **سعيدَ بن العاص عن المروءة، فقال**: «العفة والحرفة».

وكان أيوب السختياني يقول: «يا فتيان احترفوا؛ فإني لا آمن عليكم أن تحتاجوا إلىٰ القوم -يعني: الأمراء-».

وقال رجل للحسن: إني أنشر مصحفي فأقرؤه بالنهار كله، فقال: اقرأه بالغداة والعشي، ويكون يومك في صنعتك وما لا بدَّ منه.

ومرَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بإسكاف، فقال**: «يا هذا، اعمل وكُل؛ فإن الله يحب من يعمل ويأكل، ولا يحب من يأكل ولا يعمل».

وقال أعرابي: «العاجز هو الشاب القليل الحيلة الملازم للأماني المستحيلة».

وقال لقمان لابنه: «يا بني، إياك والكسل والضجر؛ فإنك إذا كسلت لم تُؤَدِّ حقًّا، وإذا ضجرت لم تصبر علىٰ حق».

كما أنَّ في الكسل تضييعَ الحزم، وعدمَ القيام علىٰ مصالح النفس، وتركَ التسببِ والاحترافِ، والإحالةَ علىٰ المقادير، وهذا من أقبح الأفعال.

❊ ❊ ❊

حسن الظن

إن الواجب علىٰ المسلم: أن يحسن الظن بإخوانه ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلًا، وأن يجعل حسن الظن بالآخرين بوابةً يلج من خلالها إلىٰ التعامل معهم، وعنوانًا له في معايشته مع المجتمع؛ لأن ذلك يؤدي به بالتالي إلىٰ الراحة النفسية والهدوء والسكينة القلبية حين يُفرِّغ قلبُه من التشويش الذي يدفعه إليه مراقبة الناس، والتعامل معهم بالظنون الكاذبة.

إن حسن الظن بالآخرين نعمة عظيمة يُنعِم الله بها علىٰ من شاء من عباده، وهي من الخصال الجميلة التي يَنعَم بها السعداء لأنها تنأىٰ بهم عن المنغصات، وما ذاك إلا لأن الذي يعامل الناس بسوء الظن تجتمع إليه الأحقاد والضغائن التي تَذهَب برونق حياته، فتشَوِّش قلبه وتُنغِّص سعادته، لذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسَّسوا ولا تجسَّسوا، ولا تنافسوا ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»[1].

فمن تأمل هذا الحديث العظيم اتضح له جليًّا أن سوء الظن والتجسس والتحاسد ونحو ذلك، من منغِّصات الأخوة، ومن القوادح العظيمة في روابطها، ولذلك ختم النبي ﷺ بقوله: «**وكونُوا عباد الله إخوانًا**».

وقد حذر الله عَزَّوَجَلَّ من سُوء الظن؛ لأنه من المهلكات المُردِيات، ومن القوادح في الدين، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات:١٢]؛ فسوء الظن يقود إلىٰ الإثم لما يترتب عليه من النتائج الفادحة التي

(١) رواه البخاري (٤٧٤٧)، ومسلم (٤٦٤٦).

تنقل المرء من حيز الظن والوهم النظري إلىٰ التطبيق العملي، فيجعل ظنه الكاذب بمنزلة الحقيقة فيتعامل مع الناس علىٰ وفق ما ظنه بهم وإن كانوا برءاء مما تصوره وظنه بهم.

فكم هو جميل أن نجعل حسن الظن أساس التعامل مع الآخرين؛ ولذا فقد كان السلف أحرص الناس علىٰ هذا الفهم، نظرًا لما تمتعوا به من حسن الديانة وما تميزوا به من البصيرة الثاقبة التي جلَّت لهم الحقائق وأبعدت عنهم كل وهم، قال عبد الوهاب بن الورد: «إن استطعت ألَّا يدخل أحدٌ من هذا الباب إلا أحسنت الظن به فافعل».

وقال عمر بن عبد العزيز: «قال أبي: يا بني، إذا سمعت كلمةً من امرئٍ مسلم فلا تحملها علىٰ شيء من الشر ما وجدت لها محملًا من الخير، ولذا فقد كان عمر بن عبد العزيز يقول: أحسن بصاحبك الظن ما لم يغلبك».

فالمسلم يُحسن الظن ما وجد إلىٰ ذلك سبيلًا، ويتلمس الأعذار لإخوانه تصديقًا لما أبدوا من ظاهر أحوالهم، وإراحة لنفسه من حمل الهم والضغائن التي تذهب أنسه وسعادته.

فالمرء خلال فترات حياته لا بُدَّ وأن يتعرض لمواقف مختلفة من الشدة والرخاء والسراء والضراء، فلا بُد أن يأخذ لكل جزء منها بنصيب أوفر من حسن التعامل، وأن يغضَّ طرفه عن كثير من الأخطاء التي تحصل في حقه؛ لأن الذي يريد أن يستقصي حقه كاملًا في كل شيءٍ لن تستقيم له حال، ولن يحصل علىٰ كل ما أراد، فلا بُد أن يجعل قلبه مرتاحًا من الظنون التي تقوده إلىٰ الهم، فقد يخطئ أحد الناس في حقك فلا تحمل ما فعله علىٰ أسوأ المحامل؛ لأن هذا لن يضره بقدر ما يضرك مما يحصل لك من تشويش عقلك وتفرق هَمِّك.

وإن أخطأ أحدٌ في حقك وجاء يعتذر فاقبل منه حرصًا منك علىٰ راحة قلبك،

وأن تجعل لصاحبك بابًا إلىٰ الرجوع إلىٰ جادة الحق.

فلماذا تجد بعضَنا إن أخطأ أحدٌ في حقه حمله علىٰ أسوأ المحامل وظن به أسوأ الظن، وفي كثير من الأحيان يكون الخطأ صغيرًا تافهًا لا يستحق كل هذا العنت والعناء، بل وفي أحيان أخرىٰ قد يقع منا في حق الآخرين أعظم من هذا الخطأ وأشد من هذا التقصير.

أليس لو حصل منا ذلك لتمنىٰ أحدُنا أن يجد له أخوه عذرًا فيما أخطأ به، فكذلك ينبغي للمسلم أن يجعل إخوانه في مثل مكانه فيعاملهم علىٰ نحو ذلك.

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تلم أخاك علىٰ ما وددتَ أن يكون لك العذر في مثله».

وقيل للإمام أحمد: «إن هارون بن عبد الله ذهب إلىٰ رجل شتمه ليعتذر إليه، فلم يخرج إليه وأغلق الباب في وجهه، فقال: سبحان الله، أما إنه قد بُغي عليه، وسيُنصر عليه، رجل نقل قدمه وجاء يعتذر ولا يخرج إليه؟».

هذا وإن مِن أعظم سوء الظن: السعي إلىٰ تخوين الآخرين وتتبع عوراتهم؛ فإن هذا من أعظم أخلاق السوء، وسبيل إلىٰ فتح باب الرذائل وتفكك المجتمعات، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم**»(١).

مثال ذلك: ما يفعله بعض الناس من أنه يسأل ابنه عن ذهابه ورجوعه، فإذا قال له شيئًا كذَّبه رغم أنه كان صادقًا فيما قال، وهذا من أعظم الأخطاء وسيقود ذلك الابن بالتالي إلىٰ استمراء الكذب وألا يَصدُق في شيء مع والده، فإذا كان الوالد لا يصدِّقُه علىٰ أية حال فكيف يَصدُق بعد ذلك؟!

وهذا هو المقصود بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفسدتهم أو كدت تفسدهم**».

ومن ذلك: أن يتخوَّن الرجل امرأته ويتتبع عوراتها، كأن يأتي البيت فجأة، أو أن يدخل عليهم قادمًا من سفر دون أن يخبرها بقدومه، وهذا كلُّه من تلمس العثرات،

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٣٤٢).

ويُخاف علىٰ صاحبه أن تقع عينُه علىٰ شيء من السوء.

وهناك فرقٌ شديد بين حسن التربية والخوف علىٰ الزوجة والأبناء، ومسألة تخوين الأسرة، حتىٰ يقودهم إلىٰ الانحراف وينبههم إلىٰ مساوئ الأخلاق؛ فإن بعض الناس إن رأىٰ في نفسه أنه لا يُوثَق به وأنه مطعون في صدقه وسلامته قاده ذلك إلىٰ العناد.

هذا وإن زيادة الحرص -إذا كانت علىٰ غير الهدي الرباني- قد تنبه المرأة والأبناء إلىٰ الخيانة، فعلىٰ المرء في مثل هذه الأحوال أن يحسن الظن بأهل بيته، وأن يعاملهم بسلامة الصدر نحوهم، مع التوجيه والمراقبة والتحذير مما يكون في المجتمعات من الأخلاق المنحرفة، مع اليقين التام أن عمل المرء إنما هو من باب بذل الأسباب وأن مرد الأمر بعد ذلك إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، كمن يبذر بذرًا في أرضٍ، فإن شاء الله تعالىٰ أن تُنبِت أنبتت، وإن شاء لم تنبت، فالمرء يعمل بالأسباب ومرد الأمور إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وليعلم المسلم أن سوء الظن الذي ينتج عنه مثل هذه الأعمال الدنيئة، مما يُلحق الأذىٰ بالمسلمين، وهذا من أعظم الإثم والبهتان.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

والمسلم الحق لا يرضىٰ أن يؤذي إخوانه بسوء الظن بهم، فكيف بمن كانوا تحت رعايته ويده، فهذا من باب أولىٰ وأحرىٰ.

إنَّ الواجب علىٰ المسلم أن يظن بإخوانه المسلمين خيرًا ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلًا؛ فإن هذا من حق المسلم علىٰ أخيه، كما أن فيه السعادةَ البالغةَ، وإراحة الذهن من الكدِّ والتفكير.

لما خاض الناس في حادثة الإفك واتهموا أمَّنا عائشة بالفاحشة، وقد تولىٰ كِبر ذلك رأسُ المنافقين عبد الله بن أبيّ ابن سلول، جاءت أمُّ أيوب لأبي أيوب الأنصاري رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ

فقالت: يا أبا أيوب، أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أمَّ أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك، فأنزل الله بأبي أيوب وصاحبته مادحًا لهم: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور:١٢].

وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾، فإنه أنزل المسلم منزلة النفس فلم يقل: (بإخوانهم)، بل قال: (بأنفسهم)؛ أي: كما أنك ترىٰ أن هذا الفعل والظن لا يليق بك، فالواجب عليك أن تقيم إخوانك مقام نفسك فلا تظن بهم إلا خيرًا.

كما أن الواجب علىٰ المسلم أن يجتنب الحكم علىٰ قلوب الناس بأنهم ما فعلوا كذا وكذا إلا من أجل كذا وكذا، كمن يتهم غيرَه أنه ما تصدَّق إلا رياء، أو أنه ما أصلح بين الناس إلا لأنه يريد العلو في الأرض، وما أكرم إلا ليُمدح وهكذا، فإن هذا من سوء الطباع، وسيئ الأخلاق، وضعف الدين؛ لأن مرد النيات إلىٰ عالِمها سبحانه، ولا يجوز الحكم علىٰ قلوب الناس بإبطال أعمالهم أو اتهامهم بسوءٍ عملًا بالظن الكاذب دون بينة ولا برهان، والعاقل من اشتغل بعيوب نفسه عن تلمس عورات الناس وتتبُّعِ عثراتهم، واجتهد بإصلاح حاله.

علىٰ أنه لربما يؤخذ بالظن في بعض الأحوال إن دلَّت القرائن علىٰ سوء عمل صاحبه، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢]، وهذا يعني أن بعض الظن ليس إثمًا، وهو ما دلت عليه قرائن الأحوال، كأن تعرف أن هذا المرء كذاب، أو أنه يريد الإيقاع بين المسلمين وظهر لك جليًّا ما يدل علىٰ حاله، فالواجب أن تحذَر منه، وتخافه علىٰ إخوانك.

مثال ذلك: لو أن رجلًا عُرِف عنه أنه يستدين ولا يوفِّي ما عليه لغرمائه، فلو ظننت به ظن السوء فهذا قد قادك إليه قرينة حاله فلا إثم عليك، وهكذا كل من عُلِم من حاله الشر، قال سفيان الثوري: «من العجب أن يُظنَّ بأهل الشر الخير».

وعلىٰ أن المسلم مُطالَب بإحسان الظن فلا يعني ذلك أن يكون غافلًا حتىٰ يتلاعب به اللئام، قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لست بخبٍّ، ولا الخبُّ يخدعني»؛ أي: لست بالمخادع المفسد، ولا يخدعني من كان هذا وصفه.

نسأل الله أن يرزقنا سلامة الصدور، وأن يعيذنا من المهالك والشرور.

❊ ❊ ❊

حسن الجوار

إنَّ من محاسن الإسلام العظيمة: وصيته بالجار، والحث علىٰ أداء حقوقه والإحسانِ إليه، وقد تضافرت الأدلةُ من الكتاب والسنة مبينةً هذا الأمر أتمَّ بيانٍ وأوضحَه.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ﴾ [النساء:٣٦]، الجار ذو القربىٰ؛ أي: ذو القرابة، والجار الجنب؛ أي: الجار الأجنبي منك.

واقتران الوصية بالجار بأعظم المأمورات -وهو التوحيد ونبذ الشرك-، لأكبرُ دليلٍ علىٰ عظيمِ منزلةِ الجار وكبير حقِّه.

وقد عظمت الوصية بالجار حتىٰ قال النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتىٰ ظننت أنه سيورثه**»(١)؛ أي: حتىٰ ظننت أن الوحي سينزل بتوريثه.

وما كان النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليظنَّ هذا الظن إلا لكثرة ما كان يؤمر به من الوصية بالجار، فتأملوا هذا -رحِمَكُم الله-.

ويحصل امتثال الوصية بحسن الجوار بإيصال أصناف الإحسان للجار حسب الوسع والطاقة، من بذلِ السلام له، وطلاقةِ الوجه والبشرِ عند لقائه، وتفقُّدِ أحواله والسؤالِ عنه، وتقديمِ الهدية له، ومعاونتِه فيما يحتاج إليه، والنصحِ له، وتعليمِه ما يجهله.

(١) رواه البخاري (٥٥٥٥)، ومسلم (٤٧٥٧).

وما جاءت الشريعة بالأمر بالإحسان إلىٰ الجار إلا لما يكون بين الجيران من المُلاصَقةِ الطويلة، والاتصالِ الدائم، وبطبيعةِ الحال لن يستقرَّ الإنسانُ ولن يهنأَ له بالٌ إلا بتلقيه الإحسان من غيره وبذله للغير.

وقد جاءت السنة النبوية بما يرقِّقُ القلوب وينشرُ السعادة بين الجيران، ويفتحُ لهم أبوابَ الإحسان حتىٰ يكونوا كالأُسرةِ في البيت الواحد، ومن ذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك**»(١).

فهذا من أعظم الإحسانِ، حيث إنه يدل علىٰ تحسُّسِ المرءِ لأحوال جيرانه ومحبةِ إشراكِه لهم في طعامه، وهذا فيه ما فيه من ردة الفعل النفسية الجميلة من الجار تجاه جيرانه حين تذكروه في طعامهم وأشركوه معهم، وليس بالضرورة أن يكون الجارُ مُحتاجًا لما يرسلونه له من الطعام، ولكنه يَنظُر لها من جانب آخر وهو أن جارَه لم ينسَه في هذا المقام، فيؤنسه ذلك ويُسَرُّ به، فهل فكرنا في أن نرسلَ من طعامنا لجيراننا، حتىٰ تدومَ الألفةُ والمحبةُ بيننا؟

كما أنَّ إكرامَ الجار من علاماتِ الإيمان، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره**»(٢).

وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا ذبح الشاة أرسل لجارٍ له يهودي.

وإكرامُ الجار ليس له حدٌّ محدود، فليجتهد المسلمُ بتحقيق ذلك علىٰ حسب ما تيسَّر له، وليعلم أنه بفعله ذلك قد تقرَّب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بعمل يحبه سبحانه ويرضاه، وليعلم أن المرء لازال بخيرٍ ما دام محبوبًا إلىٰ جيرانِه محسنًا إليهم، فالجارُ أعظمُ شاهدٍ علىٰ سلوكِ جاره وأخلاقه.

---

(١) رواه مسلم (٤٧٥٨).

(٢) رواه البخاري (٥٥٦٠)، ومسلم (٦٧).

جاء رجل إلىٰ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسُولَ الله، كيف لي أن أعلمَ إذا أحسنتُ أني قد أحسنت، وإذا أسأتُ أني قد أسأت، فقال رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا قال جيرانُك قد أحسنت فقد أحسنت، وإذا قالوا إنك قد أسأت فقد أسأت**»(١).

قال أبو قلابة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خيرُ الناس خيرُهُم في أهله، وخيرُهم في جيرانه، فهم أعلم به».

وسُئِل الإمام أحمد بن حنبل عن رجلٍ، فقال: هذا يُسأل عنه جيرانه، فإذا أثنوا عليه قُبِل منهم.

وقد ضرب السلفُ أروعَ الأمثلة بحسنِ الجوار، حتىٰ أصبح هذا الوصفُ قرينًا لأسمائهم، وضُرب بهم المثل في ذلك.

باع أبو جهمٍ العدوي داره بمائة ألف درهم، ثم قال: «فبكم تشترون جوارَ سعيد بن العاص؟ قالوا: وهل يُشترىٰ جوارٌ قط؟ قال: رُدُّوا عليَّ داري ثم خذوا مالكم، لا أدع جِوارَ رجلٍ إن قعدت سأل عنِّي، وإن رآني رحَّبَ بي، وإن غبتُ حفظني، وإن شهدتُ قرَّبني، وإن سألتُه قضىٰ حاجتي، وإن لم أسأله بدأني، وإن نابتني جائحة فرَّج عني، فبلغ ذلك سعيدًا فبعث إليه بمائة ألف درهم».

وكان للإمام عبد الله بن المبارك جارٌ يهودي، فأراد أن يبيعَ داره، فقيل له: بكم تبيع ؟ قال بألفين، فقيل له: إنها لا تساوي إلا ألفًا، قال: صدقتم، ولكن ألفٌ للدار، وألفٌ لجوار عبد الله بن المبارك، فأُخبر ابنُ المبارك بذلك، فدعاهُ فأعطاه ثمن داره وقال: لا تبعها.

وكان كعبُ بنُ أمامة يُضرب به المثلُ في حسنِ جواره، فيقال: جارٌ كجارِ أبي دؤاد، وكان أبو دؤاد -يعني: كعبًا- إن مات لجاره بعيرٌ أو شاةٌ أخلفها عليه، وإذا مات الجارُ أعطىٰ أهلَه مقدارَ ديتِه من ماله.

---

(١) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٢٧).

ومن ظريف ما يذكر: أن الإمامَ أبا حنيفةَ كان له جارٌ بالكوفه إسكاف، يعمل نهارَه أجمع، حتىٰ إذا جنَّهُ الليلُ رجع إلىٰ منزله وقد حمل لحمًا فطبخه أو سمكة فيشويها، ثم لا يزال يشرب، حتىٰ إذا دبَّ الشراب فيه وسكر غنىٰ بصوت عالٍ:

أضاعوني وأيُّ فتىٰ أضَاعوا ... ليوم كريهةٍ وسدادِ ثغرِ

فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتىٰ يأخذه النوم، وكان أبو حنيفة يسمعُ صوتَه كلَّ ليلة وهو قائم يصلي الليل، ففقد أبو حنيفة صوته، فسأل عنه، فقيل له: أخذه العسس منذ ليالٍ فحبسوه.

فصلىٰ أبو حنيفة صلاة الفجر من غدٍ، وركب بغلته، واستأذن علىٰ الأمير، فقال الأمير: ائذنوا له، واقبَلُوا به راكبًا، لا تَدَعُوه ينزل عن بغلته، فلما دخل علىٰ الأمير وسَّع له في محله، وقال: ما حاجتك؟

فقال: لي جار إسكاف أخذه العسس منذ ليالٍ، يأمر الأمير بالإفراج عنه.

قال: نعم.

فأمر بتخليته، فركب أبو حنيفة، والإسكافُ يمشي وراءه، فلما نزل أبو حنيفة مضىٰ إليه، وقال: يا فتىٰ أضعناك؟

فقال: لا. بل حفظتَ ورعيتَ، جزاك الله عن حرمة الجوار ورعاية الحق، وتاب الرجلُ ولم يعد إلىٰ ما كان عليه.

إن الديارَ لا تقاس علىٰ الحقيقة بجميلِ بنيانها، وإنما تغلو وترخص بجيرانها، فعلىٰ المسلم إن أراد أن يسكن بيتًا أن يجتهدَ وسعه في اختيار جيرانه، فإنَّ بهم صلاحَ السكنىٰ وفسادَها.

وقد قيل:

اطلب لنفسك جيرانًا تجاورهم ... لا تصلح الدارُ حتىٰ يصلحَ الجارُ

وإذا ابتُليتَ بجارٍ مؤذٍ، فاصبر علىٰ ما بُليت به حتىٰ يقضي الله أمرًا كان مفعولًا،

فإنَّ من حسن الجوار الصبر علىٰ أذىٰ الجار، حتىٰ قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس حسنُ الجوار كف الأذىٰ، حسن الجوار الصبر علىٰ الأذىٰ»، وقال: «إلىٰ جنبِ كلِّ مؤمنٍ منافقٌ يُؤذيه».

فلا تقابل الإساءةَ بالإساءة، بل اصبر علىٰ ذلك؛ فإن الله ناصرُك، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واعلم أن النصر مع الصبر**»(١).

إن من أعظمِ التوفيق وأسبابِ السعادة أن يُحسِن المرء إلىٰ جيرانه ويُحسِنُوا إليه، وأن يبذلَ جهده في ذلك، وأن يبسطَ إليهم معروفه ويحفظَ جوارهم غاية الحفظ وبما استطاع إلىٰ ذلك سبيلًا؛ فإن حفظَ الجوار من كمال الإيمان، والموفق من وفقه الله تعالىٰ.

ومِن أعظم حُقوق الجار: كفُّ الأذىٰ عنه سواء كان بالقول أو الفعل، وقد حذَّر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك أشد التحذير، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**. قيل: مَن يا رسولَ الله؟ قال: **الذي لا يأمن جارُه بوائقه**»(٢)؛ أي: الذي لا يأمن جارُه ظلمه وغدره وخيانته وعدوانه، وهذا دليلٌ علىٰ تحريم العدوان علىٰ الجار بأي صورة كانت، وأنَّ ذلك من كبائر الذنوب، فليحذر المسلم أشدَّ الحذر أن يكون متصفًا بشيءٍ من هذه الأوصاف.

وقد استعاذ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جار السوء فقال: «**اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة، فإن جار البادية يتحول**»(٣).

وما استعاذ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جار السوء إلا لعظم ضرره؛ حيث إنه مطلعٌ علىٰ أسرار جاره، قريبٌ من الأحداث التي تمرُّ به، ولذلك فإنه يبلغ في أذاه ما لم يبلغه غيره.

(١) رواه ابن أبي عاصم في «السنة»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٨٢).

(٢) رواه البخاري (٥٥٥٧)، ومسلم (٦٦).

(٣) رواه ابن حبان، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٥٥٦).

فالواجب علىٰ المسلم كف أذاه عن جاره؛ فلا يؤذيه بقوله أو فعله، كاطلاعه علىٰ محارمه، أو إفشاء أسراره، أو تتبع عوراته، أو أنه لا يكف أبناءه عن أذية جاره، كمن يرىٰ تعدي أولاده علىٰ بيت جاره بالأذىٰ ولا يأخذ بأيديهم؛ فإنَّ هذا من سوء الجوار المخالف للآداب الإسلامية والأخلاقِ المَمدُوحة.

قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «من حق الجار أن تبسط إليه معروفك، وتكف عنه أذاك».

وكان لأبي الأسود الدؤلي بالبصرة دار، وله جارٌ يتأذىٰ منه في كل وقت، فباع داره، فقيل له: بعتَ دارَك؟، قال: بل بعت جاري، فأرسلها مثلًا.

وباع رجلٌ منزله بثمن رخيص فعوتب علىٰ ذلك فقال:

يلومونني إذ بعت بالرخص منزلي … وما علموا جارًا هناك ينغِّصُ

فقلت لهم كُفُّوا الملامَ فإنها … بجيرانها تغلو الديار وترخصُ

وقد كان أهل الجاهلية يفتخرون بإحسانهم إلىٰ الجار وكفِّ الأذىٰ عنه، قال عنتر ابن شداد:

وأغضُّ طرفي إن بدت لي جارتي … حتىٰ يواري جارتي مأواهَا

وقال غيره:

وإن جارتي ألوت رياح ببيتِها … تغافلت حتىٰ يستر البيت جانبُه

فإذا كانت هذه أخلاق أهل الجاهلية، أفلا يحسن بالمسلم الذي كرمه الله بالإسلام أن يكون متصفًا بها من باب أولىٰ؟

إن إلحاق الأذىٰ بالجار بأي نوع من الأنواع خلقٌ دنيءٌ لا يليق بمسلم يتخلق بأخلاق الإسلام أن يتصف به، كما أنه باب من أبواب الإثم، وسبيل إلىٰ دعاء الناس علىٰ هذا المؤذي، وليس بخيرٍ من دعا عليه الناسُ.

جاء رجل إلىٰ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يشكو جاره؛ فقال: «**اذهب فاصبر**، فأتاه مرتين أو ثلاثًا، فقال: **اذهب فاطرح متاعك في الطريق**، فطرح متاعه في الطريق،

فجعل الناسُ يسألونه فيخبرهم خَبره، فجعل الناس يلعنونه: فعل الله به وفعل وفعل، فجاء إليه جاره فقال له: ارجع لا ترىٰ مني شيئًا تكرهه»[(١)].

فهل يريد ذلك المُؤذِي أن يدعو عليه جارُه حين يرىٰ تفاقمَ ظلمه وعدوانه؟ وكما أن حفظ الجوار من علامات كمال الإيمان؛ فإنَّ أذية الجار من منقصات الإيمان، فالواجب علىٰ العاقل الحذر منها، قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره**»؛ فقد جعل النبي ﷺ كفَّ الأذىٰ عن الجار دليلًا علىٰ كمال الإيمان.

ويعظم المصاب إذا وقع الأذىٰ علىٰ الجار في دار إقامته في مثل هذه البيوت المتلاصقة التي لا سبيل للانتقال عنها، فإذا كان هو في بيت إقامتِه وجارُه لا يكف عنه أذاه وأذىٰ أبنائه فكيف السبيل إلىٰ الخلاص؟

ومن أجل ذلك فقد قال النبي ﷺ: «**تعوذوا بالله من جار السوء في دار المقام؛ فإنَّ جار البادية يتحَوَّل عنك**»[(٢)]، فليتق اللهَ المسلمُ بكف أذاه عن جيرانه، وليأخذ علىٰ يد زوجته وأبنائه، وليكن كفُّ الأذىٰ قولًا وفعلًا، ولا يستغلُّ حياءَ بعض جيرانه أو ضعفهم، وليحذر أن يسلِّط اللهُ عليه من لا يرحمُه، جزاءً وفاقًا بعمله السيئ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

❊ ❊ ❊

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٥٥٩).

(٢) رواه النسائي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٤٤٣).

ذم الحرص والطمع وطول الأمل

قال الله تعالىٰ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:١-٢].

وعن عبد الله بن الشخير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: أتيت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت**»(١).

وقيل لبعض الحكماء: ما سرور الدنيا؟ قال: الرضا بما رُزقت منها، قيل: فما غمها؟ قال: الحرص عليها.

وقال الحسن: «لو رأيت الأجل ومروره، لنسيت الأمل وغروره».

وقال: «إياكم وهذه الأماني؛ فإنه لم يُعطَ أحد بالأمنية خيرًا قط في الدنيا ولا في الآخرة».

ومن جرىٰ في عنان أمله كان عاثرًا بأجله، لو ظهرت الآجال لافتضحت الآمال، ومن كلام الحكماء: إياكم وطول الأمل، فإن من ألهاه أمله أخزاه عمله.

قال قس بن ساعدة:

وما قد تولَّىٰ فهو لا شَكَّ فائت ... فهل ينفعنِّي ليتني ولعَلَّني

وقال غيره:

تعالىٰ اللَّه يا سلم بن عمرو ... أذل الحرص أعناق الرِّجالِ
هب الدنيا تقاد إليك عفوًا ... أليس مصير ذلك للزوالِ

---

(١) رواه مسلم (٥٢٥٨).

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع».

وقال: «ما الخمر صرفًا بأذهب لعقول الرجال من الطمع».

وقال بعضهم: من أراد أن يعيش حرًّا أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع.

وقال ابن مسعود: «إن من أملك شباب قريش لنفسه عن الدنيا ابن عمر».

وقال جابر: «ما منا أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها، إلا ابن عمر، وما أصاب أحد من الدنيا شيئًا إلا نقص من درجاته عند الله، وإن كان عليه كريمًا».

وقال سعيد بن المسيب: «مات ابن عمر يوم مات وما من الدنيا أحد أحب أن ألقىٰ الله بمثل عمله منه».

وأكل ابراهيم بن أدهم يومًا علىٰ حافة الشريعة كسيرات مبلولة، وضعها بين يديه أبو يوسف الغسولي، ثم قام فشرب من الشريعة، ثم جاء فاستلقىٰ علىٰ قفاه، وقال: يا أبا يوسف، لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا بالسيوف، علىٰ ما نحن فيه من لذيذ العيش.

فقال أبو يوسف: طلب القوم الراحة والنعيم فأخطأوا الطريق المستقيم، فتبسم إبراهيم وقال: من أين لك هذا الكلام؟

وقال سويد بن قيس: بعثني عبد العزيز بن مروان بألف دينار إلىٰ ابن عمر، فجئته فدفعت إليه الكتاب، فقال: أين المال؟ فقلت: لا أستطيعه الليلة حتىٰ أصبح، قال: لا والله، لا يبيت ابن عمر الليلة وله ألف دينار، قال: فدفع إليَّ الكتاب حتىٰ جئته بها، ففرقها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكان عبد الملك بن مروان قبل الخلافة من العبَّاد الزهاد الفقهاء، الملازمين للمسجد، التالين للقرآن، قال نافع: لقد رأيت المدينة وما فيها شاب أشد تشميرًا، ولا أفقه، ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان.

قال أبو الزناد: «كان فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان قبل أن يدخل في الإمارة».

وقال الشعبي: «ما جالست أحدًا إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان؛ فإني ما ذاكرته حديثًا ولا شعرًا إلا زادني».

وكان عبد الله بن محيريز صموتًا معتزلًا للفتن، لا يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يذكر شيئًا من خصاله المحمودة، ورأىٰ علىٰ بعض الأمراء حلة من حرير، فأنكر عليه فقال: إنما ألبسها من أجل هؤلاء وأشار إلىٰ عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين، فقال له ابن محيريز: لا تعدل بخوفك من الله خوف أحد من الناس.

وقال الفتح بن خاقان: دخلت يومًا علىٰ المتوكل فإذا هو مطرق مفكر، فقلت: يا أمير المؤمنين، ما لك مفكرًا؟ فوالله ما علىٰ الأرض أطيبَ منك عيشًا، ولا أنعم منك بالًا.

فقال: أطيب مني عيشًا رجلٌ له دارٌ واسعة، وزوجةٌ صالحة، ومعيشةٌ حاضرة، لا يعرفنا فنؤذيه، ولا يحتاج إلينا فنزدريه.

❊ ❊ ❊

مدح العزلة

قال أعرابي: رُبَّ وحدة أنفع من جليس، ووحشة أنفع من أنيس.

وكان أبو معاوية الضرير يقول: «فِيَّ خصلتان ما يسرني بها رد بصري: قلةُ الإعجاب بنفسي، وخلو قلبي من اجتماع الناس إليَّ».

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خذوا حظكم من العزلة».

ولما بنىٰ سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منزله بالعقيق، قيل له: تركت منازل إخوانك وأسواق الناس ونزلت بالعقيق، فقال: رأيت أسواقهم لاغية ومجالسهم لاهية، فوجدت الاعتزال فيما هنالك عافية.

وقيل لأحد الصالحين: ألا تحدثنا ببعض ما عندك من العلم؟ فقال: أكره أن يميل قلبي باجتماعكم إلىٰ حب الرياسة، فأخسر الدارين.

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «طوبىٰ لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وطوبىٰ لمن لزم بيته، وأكل قوته، واشتغل بطاعته، وبكىٰ علىٰ خطيئته، فكان من نفسه في شغل، والناس منه في راحة».

وقال سفيان: «الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس».

وكان إبراهيم بن أدهم يقول: «فروا من الناس كفراركم من الأسد الضاري، ولا تَخلَّفوا عن الجمعة والجماعة».

❊ ❊ ❊

ذهاب الشباب

قال النخعي: «كان يقال: إذا بلغ الرجل أربعين سنة علىٰ خُلُق، لم يتغير عنه حتىٰ يموت».

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: «قال ملك الموت لنوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: يا أطول النبيين عمرًا، كيف وجدت الدنيا ولذتها؟ قال: كرجل دخل في بيتٍ له بابان، فقام وسط البيت ساعة ثم خرج من الباب الثاني».

وقال عبد العزيز بن مروان: «من لم يتعظ بثلاث لم ينته بشيء: الإسلام، والقرآن، والشيب».

وقال الشعبي: «الشيب علة لا يعاد منها، ومصيبة لا يعزىٰ عليها».

وقال ابن نباتة:

تبسُّم الشيب بوجه الفتىٰ ... يوجب سحَّ الدمع من جفنهِ
وكيف لا يبكي علىٰ نفسه ... من ضحك الشيب علىٰ ذقنهِ

وقال ابن المعتز:

فما أقبح التفريط في زمن الصبا ... فكيف به والشيب في الرأس شاملُ

وقال آخر:

عريت من الشباب وكنت غضًّا ... كما يعرىٰ من الورق القضيبُ
ونُحْتُ علىٰ الشباب بدمع عيني ... فما نفع البكاء ولا النحيبُ
فيا ليت الشباب يعود يومًا ... فأخبره بما فعل المشيبُ

وقال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما شبهت الشباب إلا كشيءٍ كان في كُمِّي فسقط».

قال الشاعر:

شيئان لو بكت الدماء عليهما ... عيناك حتىٰ يؤذنا بذهابِ
لم يبلغا المعشار من حقيهما ... فقد الشباب وفرقة الأحبابِ

وقال غيره:

أترجو أن تكون وأنت شيخ ... كما قد كنت في زمن الشبابِ
لقد كذَبَتك نفسُك ليس ثوبٌ ... دريسٌ كالجديد من الثيابِ

لما ماتت عزة بمصر في أيام عبد العزيز بن مروان، زار كثيِّر قبرها ورثاها، وتغير شعرُه بعدها، فقال له قائل: ما بال شعرك تغيَّر، وقد قصرت فيه؟ فقال: ماتت عزة فلا أطرب، وذهب الشباب فلا أعجب، ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب، وإنما الشعر عن هذه الخلال.

وقال أبو بكر الصنوبري:

هدم الشيب ما بناه الشبابُ ... والغواني وما عضبن غضَابُ
وضلال في الرأي أن يُشنأ البا ... زي علىٰ حسنه ويُهوىٰ الغرابُ

وقال محمد بن حازم في مديح الشباب وذم الشيب:

لا حين صبرٍ فخلِّ الدَّمع ينهملُ ... فقدُ الشباب بيوم المرء متصلُ
سقيًا ورعيًا لأيام الشباب وإن ... لم يَبقَ منه له رسمٌ ولا طللُ
جر الزَّمان ذيولًا في مفارقهِ ... ولِلزمان علىٰ إحسانه عللُ
وربما جر أذيالَ الصبا مرحًا ... وبين برديه غصنٌ ناعمٌ خضلُ

يُصبي الغواني ويزهاه بشرَّتهِ ... شرخُ الشباب وثوب حالك رجِلُ
لا تكذبنَّ فما الدنيا بأجمعها ... من الشباب بيوم واحدٍ بدلُ
كفاك بالشَّيب عيبًا عند غانيةٍ ... وبالشباب شفيعًا أيها الرجلُ
بان الشباب وولَّىٰ عنك باطلُهُ ... فليس يحسن منك اللَّهو والغزلُ
أما الغواني فقد أعرضن عنك قلًىٰ ... وكان إعراضهُنَّ الدلُّ والخجلُ
أعرنَكَ الهجرَ ما لاحت مطوَّقةٌ ... فلا وصالٌ ولا عهد ولا رسلُ
ليت المنايا أصابتني بأَسهمها ... فكنَّ يبكين عهدي قبل أكتهلُ
عهدَ الشَّباب لقد أبقيتَ لي حَزنًا ... ما جدَّ ذكرُك إلا جدَّ لي ثكلُ
إنَّ الشَّباب إذا ما حلَّ رائدُه ... في منهلٍ راد يقفو إثره أجلُ

وقال أبو الشبل في الشيب:

عذيري من جواري الحـ ... ـيِّ إذ يرغبن عن وصلي
رأَين الشيب قد ألبـ ... ـسني أُبَّهة الكهلِ
فأعرضنَ وقد كُنَّ ... إذا قيل: أبو الشبلِ
تساعين فرقَّعن الـ ... ـكوىٰ بالأعيُن النُّجلِ

وقال العتبي:

رأين الغواني الشيب لاح بمَفرقي ... فأعرضنَ عنيِّ بالخدود النواضرِ
وكُنَّ إذا أبصرنَني أو سمِعنني ... سعينَ فرقَّعن الكُوىٰ بالمحاجرِ

* * *

في الصبر وتسلية أهل المصائب

إنَّ هذه الدنيا دارُ ابتلاء وكَرب، لا يُرجىٰ منها راحةٌ مهما طال العمر، ومهما اجتمع للإنسان فيها من أسباب الراحة والغنىٰ.

ولو أن الإنسان عرف قدر الدنيا وما طبعت عليه من الكدر والأنكاد والمصائب والأحزان، وعرف أن ما فيها خداعٌ و سرابٌ بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئًا، لهانت عليه المصائب وخفَّ وقعها، لأن هذا هو حال الدنيا.

طُبِعت علىٰ كدرٍ وأنت تريدها صفوًا من الأحزان والأكدارِ؟

فنسأل الله عَزَّوَجَلَّ ألَّا يبتلينا ببلاءٍ يعجَز عنه صبرُنا، وأن يرحم ضعفنَا وإخوانَنا المُسلِمين.

وما أجمل بالمسلم أن يعتبر بما حولَه من الأحداث، ويعلمَ أنَّ لله في ذلك الحكمة البالغة.

هذا وإن الواجب علىٰ من أصيب بمصيبة أن يُعالجها بأعظم علاج وأنجَحِه وهو الصبر، قال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

وقد مدح الله تعالىٰ الصبر في كتابه العزيز في مواضع كثيرة، وأمر به وجعل أكثر الخيرات مضافًا إليه وأثنىٰ علىٰ فاعله، وكتب لمن اتصف به الريادة والسبق إلىٰ معالي الصفات، قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ ﴾ [السجدة:٢٤].

وقال سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ۖ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الصبر في كتابه العزيز في أكثر من سبعين موضعًا، وأمر نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به؛ فقال تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾ [الأحقاف:٣٥].

والصبر سبَبٌ لتكفير الخطايا والسيئات، وقد كان الصالحون يفرحون بالشدة؛ لأن فيها كفارة السيئات ورفع الدرجات، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**ما يصيب المسلم من نَصب ولا وصب، ولا همٍّ ولا حزن، ولا أذىٰ ولا غمٍّ حتىٰ الشوكة يشاكها، إلا حط الله بها من خطاياه**»(١).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه حتىٰ يوافيه به يوم القيامة**»(٢).

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرِّضا، ومن سخط فله السخط**»(٣).

وجاء عن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **أنه قال:** «لا يخافن أحدكم إلا ذنبه، ولا يرجونَّ إلا ربه، ولا يستحي أحد منكم إذا سئل عن شيءٍ وهو لا يعلم أن يقول لا أعلم، واعلموا أن الصبر من الأمور بمنزلة الرأس من الجسد، إذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد، وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور».

---

(١) رواه البخاري (٥٢١٠)، ومسلم (٤٦٦٨).

(٢) رواه الترمذي، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٢٠).

(٣) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «المشكاة» (١٥٦٦).

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر الناس اتصافًا بالصبر، لعلمه بما جعل الله له من عظيم المنزلة؛ فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي عند الكعبة، وأبو جهل وأصحابه جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلىٰ سلا الجزور فيلقيه علىٰ كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقىٰ القوم فأخذه وأتىٰ به، فلما سجد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضع بين كتفيه السلا والفرث والدم، فضحكوا ساعة وأنا قائم أنظر، فقلت: لو كان لي منعة لطرحته عن ظهر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساجد ما يرفع رأسه، حتىٰ انطلق إنسان فأخبر فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فجاءت فطرحته عن ظهره، ثم أقبلت عليهم فسبتهم، فلما قضىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلاة رفع يديه فدعا عليهم فقال: «**اللهم عليك بقريش** - ثلاث مرات-، فلما سمع القوم صوته ودعاءه ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته، فقال: **اللهم عليك بأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وربيعة، والوليد، وأمية بن خلف**، قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والذي بعث محمدًا بالحق رأيت الذين سماهم صرعىٰ يوم بدر».

ودخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه فقبَّله وشمَّه، وجعلت عيناه تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأنت يا رسول الله! فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا ابن عوف، إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرىٰ وقال: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[(١)].

وقيل: إن امرأة أيوب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالت: لو دعوت الله تعالىٰ أن يشفيك، فقال لها: ويحك كنا في النعماء سبعين عامًا، أفلا نصبر علىٰ الضراء مثلها، فلم يلبث إلا يسيرًا أن عوفِي.

وقيل: الصبر مفتاح الظفر، والتوكل علىٰ الله تعالىٰ رسول النجاح.

(١) رواه البخاري (١٢٢٠)، ومسلم (٤٢٧٩).

وقيل: مَن لم يلقَ نوائب الدهر بالصبر طال عتبه عليه.

وقيل: إن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج يومًا ومعه عبد العزيز بن زرارة الكلبي -وكان ذا منصب وشرف وعقل وأدب-؛ فقال له معاوية: يا عبد العزيز، أتاني نعيُ سيِّد شباب العرب، فقال له: ابني أو ابنك؟ قال: لا، ابنك، قال: للموت تلد الوالدة.

ومما قيل: اصبر لحكم من لا تجد معولًا إلا عليه، ولا مفزعًا إلا إليه.

فالواجب علىٰ العبد: أن يصبر علىٰ ما يصيبه من الشدة، ويحمد الله ويعلم أن النصر قرين الصبر كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**النصر مع الصبر**»[1]، وأن مع العسر يسرًا، وأن المصائب والرزايا إذا توالت أعقبها الفرج والفرح عاجلًا.

ومن أحسن ما قيل في ذلك:

وإذا مسَّك الزمان بضرٍّ ... عظمت دونه الخطوب وجَلَّتْ

وأتت بعده نوائب أخرىٰ ... سئمت نفسك الحياة ومَلَّتْ

فاصطبر وانتظر بلوغ الأماني ... فالرزايا إذا توالت تَوَلَّتْ

ولزهير بن أبي سُلمَىٰ:

ثلاث يعز الصبر عند حلولها ... ويذهل عنها عقل كل لبيبِ

خروج اضطرار من بلاد يحبها ... وفرقة إخوان وفقد حبيبِ

وقد اتصف قوم بالصبر علىٰ ما ابتلوا به حتىٰ أصبح الصبر خُلُقًا لهم، وما دفعهم لذلك إلا نظرُ صديقٍ أو مخافةُ شماتة عدو، قيل: إن رجلًا كان يضرب بالسياط، ويجلد جلدًا بليغًا، فيصبر ولا يتكلم ولا يتأوه، فقيل له: أما يؤلمك هذا الضرب الشديد؟ قال: بلىٰ. قيل: ولِمَ لا تصيح؟ فقال: إن في هذا القوم الذين وقفوا عليَّ صديقًا لي يعتقد فيَّ الشجاعة والجلادة وهو يرقبني بعينه، فأخشىٰ إن ضجيت يذهب

(١) رواه ابن أبي عاصم في «السنة»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٨٢).

ماء وجهي عنده ويسوء ظنه بي، فأنا أصبر علىٰ شدة الضرب وأحتمله لأجل ذلك.

وإنَّ امرأً قد جرب الدهر لم يخف ... تقلب عصريه لغير لبيبِ

وما الدهر والأيام إلا كما ترىٰ ... رزية مال أو فراق حبيبِ

وإنَّ مما يسلي عن المصيبة ويهوِّنها، ويجلبُ الصبرَ بإذن الله: العلم بأنَّ تشديد البلاءِ يخص الأخيار، ولذلك قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلىٰ الناس علىٰ قدر دينهم، فمن وُجِد في دينه صلابة زيد في بلائه، ومَن وُجِد في دينه رقة خفف عنه**»(١).

ومما يعالج به المرءُ المصائب: الرضا بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره، والاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ فيما أصابه من المصائب بدعائه والتضرع إليه بأن يثبت قلبه وأن يقوِّيَ يقينه؛ لأن قُوةَ الإيمان بالله وقضائه وقدره تثمر الطمأنينة بما قضىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومما يخفِّف عن المُصاب: أن يعلم أن المصيبة ثابتة لا قدرة له بتغييرها، وأن يقدِّر وجودَ ما هو أكثر منها.

ومما يسلي المرءَ ويهوِّن عليه: أن ينظر في حال من ابتُلِيَ بمثل بلائه؛ فإن التأسي بالآخرين راحةٌ عظيمة تخفف الحزن، ولذلك قيل:

ولولا الأسىٰ ما عشت في الناس ... ولكن متىٰ ناديت جاوبني مثلي

وقيل:

وهوَّن حزني عن خليلي بأنني ... إذا شئت لاقيت الذي مات صاحبُه

وعلىٰ المسلم أن يعلم أن مما يخفف مصيبتَه أن يتفكر ويعتَبر فيمن هو أعظمُ مصيبةً منه؛ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انظروا إلىٰ من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلىٰ من**

---

(١) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «المشكاة» (١٥٦٢).

هَو فوقكم؛ فهو أجدرُ ألا تزدروا نعمة الله عليكم»[١].

وعلىٰ المسلم إن فقد فقيدًا له أن يرجوَ من الله الخَلَف فيما فقده من أمٍّ حنون، أو زوجة مصون، أو أبناء بررة، أو قريب شفيق، أو طفلٍ كان مؤنسًا لوحشته، كما ينبغي له أن يتأمَّل في حال من ذهبت نفسه بسبب حوادث الزمان، فإن كان علىٰ صلاح حال فليحمد الله أن كان فقيده مصليًا صائمًا طائعًا لربه، وإن كان مسرفًا علىٰ نفسه بالذنوب والمعاصي فليأخذ المرء من ذلك عبرة وعظةً، ويجتهد علىٰ إصلاح حاله وشئونه.

مشىٰ الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جنازة، وبجانبه شابٌ فقال له: أرأيت صاحب هذا النعش لو عاد إلىٰ الدنيا هل يعود إلىٰ معصية، قال: لا، قال: فكن أنت.

فجميل أن يعتبر المرء بأحوال من ذهب، وليست المسألة أن يبكي لسويعات أو أيام ثم يعود إلىٰ إسرافه وتعديه لحدود الله، فالباكي يبكي علىٰ نفسه.

وذُكر عن أبي جعفرٍ المنصور أنه كان في زمن شبيبته قد ورد الموصل وهو فقير لا شيء له ولا معه، فأجَّر نفسه من بعض الملاحين حتىٰ اكتسب شيئًا تزوج به امرأة، ثم جعل يعدها ويمنيها أنه من بيتٍ سيصير إليهم الملك سريعًا، فاتفق حبلها منه، ثم تطلَّبه بنو أمية فهرب عنها وتركها حاملًا ووضع عندها رقعة فيها نسبه أنه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وأمرها إذا بلغها أمره أن تأتيه، وإذا ولدت غلامًا أن تسميه جعفرًا، فولدت غلامًا فسمته جعفرًا، ونشأ الغلام فتعلم الكتابة، وغوىٰ العربية والأدب وأتقن ذلك إتقانًا جيدًا.

ثم آل الأمر إلىٰ بني العباس، فسألت عن السفاح، فإذا هو ليس صاحبها، ثم قام المنصور وسافر الولد إلىٰ بغداد فاختلط بكتَّاب الرسائل، فأعجب به أبو أيوب المورياني صاحب ديوان الإنشاء للمنصور، وحظي عنده وقدَّمه علىٰ غيره، فاتفق

---

(١) رواه مسلم (٥٢٦٤).

حضوره معه بين يدي الخليفة، فجعل الخليفة يلاحظه، ثم بعث يومًا الخادم ليأتيه بكاتب، فدخل ومعه ذلك الغلام، فكتب بين يدي الخليفة كتابًا، وجعل الخليفة ينظر إليه ويتأمله، ثم سأله عن اسمه فأخبره أنه جعفر، فقال: ابن من؟ فسكت الغلام، فقال: ما لك لا تتكلم؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ من خبري كيت وكيت، فتغيَّر وجهُ الخليفة، ثم سأله عن أمه فأخبره، وسأله عن أحوال بلد الموصل، فجعل يخبره والغلام يتعجب، ثم قام إليه الخليفة فاحتضنه، وقال: أنت ابني، ثمَّ بعثه بعقد ثمين ومال جزيل وكتاب إلىٰ أمه يعلمها بحقيقة حال الزوج.

وخرج الغلام ومعه ذلك من باب سرِّ الخليفة، فأحرز ذلك، ثم جاء إلىٰ أبي أيوب، فقال: ما أبطأ بك عند الخليفة؟ فقال: إنه استكتبني في رسائل كثيرة. ثم تقاولا، ثم فارقه الغلام مغضبًا ونهض من فوره، فاستأجر إلىٰ الموصل ليعلم أمه ويحملها وأهلها إلىٰ مكان في بغداد أمر به الخليفة، فسار مراحل ثم سأل عنه أبو أيوب، فقيل: سافر، فظن أبو أيوب أنَّ هذا قد أفشىٰ شيئًا من أسراره إلىٰ الخليفة وفرَّ منه، فبعث في طلبه رسولًا وقال: حيث وجدته فرده عليَّ، فسار الرسول في طلبه فوجده في بعض المنازل فخنقه وألقاه في بئر وأخذ ما كان معه، فرجع به إلىٰ أبي أيوب.

فلما وقف أبو أيوب علىٰ الكتاب أُسقط في يده وندم علىٰ بعثه خلفه، وانتظر الخليفة عَود ولده إليه واستبطأه، فبعث من كشف خبره، فإذا رسول أبي أيوب قد لحقه وقتله، فحينئذٍ استحضر الخليفةُ أبا أيوب وألزمه بأموال عظيمة، وما زال تحت العقوبة حتىٰ استصفىٰ جميع أمواله ثم قتله، وقال: هذا قتل حبيبي، وكان المنصور كلما ذكر ولده حزن عليه حزنًا شديدًا.

وكان صلة بن أشيم في غزاة ومعه ابنه، فقال له: أي بني، تقدَّم فقاتل حتىٰ أحتسبك، فحمل فقاتل حتىٰ قُتل، ثم تقدم صلة فقاتل حتىٰ قُتل.

ومات لرجل ولدٌ مسرف علىٰ نفسه، فجزع عليه من أجل إسرافه، فقال له علي بن الحسين: إن من وراء ابنك خلالًا ثلاثًا: شهادة أن لا إله إلا الله، وشفاعة رسول الله، ورحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

❊ ❊ ❊

في التأسي عند الشدة

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليودن أهل العافية يوم القيامة أن جلودهم قرضت بالمقاريض مما يرون من ثواب أهل البلاء**»(١).

والهموم التي تعرض للقلوب -إن احتسبها المرء- كفارات للذنوب.

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم يَفقَه عندنا من لم يعد البلاء نعمة، والرخاء مصيبة».

وسمع حكيم رجلًا يقول لآخر: لا أراك الله مكروهًا، فقال: كأنك دعوت عليه بالموت؛ فإن صاحب الدنيا لا بُدَّ أن يرىٰ مكروهًا.

وقال ابن عُيَينة: «الدنيا كلها غموم، فما كان فيها من سرور فهو ربح».

وقال مطرف: «ما نزل بي مكروه قط فاستعظمته إلا ذكرت ذنوبي فاستصغرته».

ومن جميل ما يُذكر: أنَّ عروة بن الزبير كان صبورًا حين ابتلي، حُكي أنه خرج إلىٰ الوليد بن يزيد فوطئ عظمًا، فما بلغ إلىٰ دمشق حتىٰ بلغ به كل مذهب، فجمع له الوليد الأطباء فأجمع رأيهم علىٰ قطع رجله، فقالوا له: اشرب مُرَقِّدًا، فقال: ما أحب أن أغفل عن ذكر الله تعالىٰ، فأحمي له المنشار وقطعت رجله، فقال: ضعوها بين يدي ولم يتوجع، ثم قال: لئن كنت ابتُليتُ في عضو فقد عوفيتُ في أعضاء، فبينما هو كذلك إذ أتاه خبر ولده أنه اطلع من سطح علىٰ دواب الوليد فسقط بينها فمات، فقال: الحمد لله علىٰ كل حال، لئن أَخَذتَ واحدًا لقد أبقيتَ جماعة.

وقدِم علىٰ الوليد وفدٌ من عبس فيهم شيخ ضرير، فسأله عن حاله وسبب ذهاب

---

(١) رواه الترمذي، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٠٦).

بصره، فقال: خرجت مع رفقة مسافرين ومعي مالي وعيالي ولا أعلم عبسيًّا يزيد ماله علىٰ مالي، فاسترحنا في بطن وادٍ فطرَقَنا سيل، فذهب ما كان لي من أهل ومال وولد غيرَ صبيٍّ صغيرٍ وبعير، فشرد البعير، فوضعت الصغير علىٰ الأرض ومضيت لآخذ البعير، فسمعت صيحة الصغير، فرجعت إليه فإذا رأس الذئب في بطنه وهو يأكل فيه، فرجعت إلىٰ البعير فحطم وجهي برجليه، فذهبت عيناي فأصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل، فقال الوليد: اذهبوا إلىٰ عروة ليعلم أن في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه.

قال علي بن الجهم لما حبسه المتوكل:

قالوا حبست فقلت ليس بضائري ... حبسي وأيُّ مهندٍ لا يغمدُ
والشمس لولا أنها محجوبة ... عن ناظريك لما أضاء الفرقدُ
والنار في أحجارها مخبوءة ... لا تصطلي إن لم تثرها الأزندُ
والحبس ما لم تغشه لدنية ... شنعاء نعم المنزل المتوددُ
بيت يجدد للكريم كرامة ... ويزار فيه ولا يزور ويحمدُ
لو لم يكن في الحبس إلا أنه ... لا تستذلك بالحجاب الأعبدُ
غر الليالي باديات عُوَّدُ ... والمال عارية يعار وينفدُ
كم من عليل قد تخطاه الردىٰ ... فنجا ومات طبيبه والعوَّدُ
صبرًا فإن اليوم يعقبه غد ... ويد الخلافة لا تطاولها يدُ

وسئل أحدهم عن حاله في نكبته، فقال: عوَّلت علىٰ أربعة أشياء: أولها أني قلت: القضاء والقدر لا بُد من جريانهما، الثاني: أني قلت: إن لم أصبر فما أصنع، الثالث: أني قلت: قد كان يجوز أن يكون أعظم من هذا، الرابع: أني قلت: لعل الفرج قريب.

ومهما مسَّ المرء من الضنك فإنه سيعقب ذلك العسرَ يسرٌ وفرج، قال تعالىٰ:

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧].

وقد أحسن من قال:

إذا اشتملت علىٰ اليأس القلوبُ ... وضاق بما به الصدر الرحيبُ

وأوطنت المكاره واطمأنت ... وأرست في مكامنها الخطوبُ

ولم نر لانكشاف الضر وجهًا ... ولا أغنىٰ بحيلته الأريبُ

أتاك علىٰ قنوط منك غوث ... يمن به اللطيف المستجيبُ

وقال آخر:

عسىٰ الهم الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريبُ

فيأمن خائف ويغاث عانٍ ... ويأتي أهلَه النائي الغريبُ

وقال آخر:

تصبر أيها العبد اللبيب ... لعلك بعد صبرك ما تخيبُ

وكل الحادثات إذا تناهت ... يكون وراءها فرج قريبُ

وقال الآخر:

ولرب نازلة يضيق بها الفتىٰ ... ذرعًا وعند الله منها المخرجُ

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فُرِجت وكان يظنها لا تُفرَجُ

ولما جاء الخبر إلىٰ يحيىٰ بن خالد بقتل هارون لابنه جعفرًا قال: قتل الله ابنه، ولمَّا قيل له: قد خربت دارك، قال: خرب الله دوره.

ويقال: إنه لما نظر إلىٰ داره وقد هتكت ستورها، واستبيحت قصورها، وانتهب ما فيها، قال: هكذا تقوم الساعة.

وقد كتب إليه بعض أصحابه يعزيه فيما وقع، فكتب جواب التعزية: أنا بقضاء الله راضٍ، وبالخِيار عالم، ولا يؤاخذ الله العباد إلا بذنوبهم، وما الله بظلام للعبيد، وما

يغفر الله أكثر، ولله الحمد.

ولما زال ملك البرامكة أكثر الشعراء من المراثي بهم، فمن ذلك قول بعضهم:

الآن استرحنا واستراحت ركابنا ... وأمسك من يجدي ومن كان يجتدي

فقل للمطايا قد أمِنت من السرى ... وطيِّ الفيافي فدفدًا بعد فدفدِ

وقل للمنايا قد ظفرت بجعفرٍ ... ولن تظفري من بعده بمسوَّدِ

وقل للعطايا بعد فضلٍ تعطلي ... وقل للرزايا كل يوم تجددي

ودونك سيفًا برمكيًّا مهندًا ... أصيب بسيف هاشمي مهندِ

وقال مصعب الزبيري: لما قُتل جعفر بن يحيىٰ وقفت امرأة علىٰ حمار فاره، فقالت بلسان فصيح: والله لئن صرت اليوم آية، فلقد كنت في المكارم غاية، ثم أنشأت تقول:

ولما رأيت السيف خالط جعفرًا ... ونادىٰ منادٍ للخليفة في يحيىٰ

بكيت علىٰ الدنيا وأيقنت أنما ... قصارىٰ الفتىٰ يومًا مفارقة الدنيا

وما هي إلا دولة بعد دولة ... تخوِّل ذا نعمىٰ وتعقب ذا بلوىٰ

إذا أنزلت هذا منازل رفعة ... من الملك حطت ذا إلىٰ الغاية القصوىٰ

ثم حركت حمارها، فذهبت فكأنها كانت ريحًا لا أثر لها، ولا يعرف أين ذهبت.

ومات صديق لسليمان بن عبد الملك فقال يتسلىٰ عنه:

وهوَّن وجدي في شراحيل أنني ... متىٰ شئتُ لاقيت امرأً مات صاحبُه

ورثىٰ أبو العباس عبد الله بن المعتز العباسي ابن عمه المعتضد بمرثاة حسنة يقول فيها:

يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحدًا ... وأنت والد سوء تأكل الولدَا

أستغفر اللَّه بل ذا كله قدر ... رضيت باللَّه ربًّا واحدًا صمدَا

يا ساكن القبر في غبراء مظلمة ... بالظاهرية مُقصَىٰ الدار منفردَا
أين الجيوش التي قد كنت تسحبها ... أين الكنوز التي أحصيتها عددَا
أين السرير الذي قد كنت تملؤه ... مهابة من رأته عينه ارتعدَا
أين الأعادي الألىٰ ذللت صعبهمُ ... أين الليوث التي صيرتها نقدَا
أين الوفود علىٰ الأبواب عاكفة ... ورد القطا صفو ماء جال واطردَا
أين الرجال قيامًا في مراتبهم ... من راح منهم ولم يطمر فقد سعدَا
أين الجياد التي حجلتها بدم ... وكن يحملن منك الضيغم الأسدَا
أين الرماح التي غذيتها مهجًا ... مذ مت ما وردت قلبًا ولا كبدَا
أين السيوفُ وأين النبل مرسلة ... يصبن من شئت من قرن وإن بعدَا
أين المجانيق أمثال الفيول إذا ... رمين حائط حصن قائم قعدَا
أين القصور التي شيدتها فعلت ... ولاح فيها سنا الإبريز فاتقدَا
أين الجنانُ التي تجري جداولها ... وتستجيب إليها الطائر الغردَا
أين الوصائف كالغزلان رائحة ... يسحبن من حلل موشية جددَا
أين الملاهي وأين الراح تحسبها ... ياقوتة كسيت من فضة زردَا
أين الوثوب إلىٰ الأعداء مبتغيًا ... صلاح ملكِ بني العباس إذ فسدَا
ما زلت تقسر منهم كل قسورة ... وتحطم العاتيَ الجبارَ معتمدَا
ثم انقضيت فلا عين ولا أثر ... حتىٰ كأنك يومًا لم تكن أحدَا
لا شيء يبقىٰ سوىٰ خير تقدمه ... ما دام مُلكٌ لإنسان ولا خلدَا

❊ ❊ ❊

في التعازي عند المصائب

التعزية هي التصبير وذكر ما يسلي صاحب البلاء ويخفف حزنه ويهون مصيبته، وهي مستحبة لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من عزَّىٰ أخاه المؤمن في مصيبته كساه الله حلة خضراء يحبرُ بها يوم القيامة**. قيل: يا رسول الله، ما يحبر؟ قال: **يغبط**»(١).

وبلغ الشافعي أن عبد الرحمن بن مهدي مات له ابنٌ فجزع عليه جزعًا شديدًا، فبعث إليه الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: يا أخي، عزِّ نفسك بما تُعَزِّي به غيرك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، واعلم أن أشدَّ المصائب فقد سرور وحرمان أجر، فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وزر؟ ألهمك الله عند المصائب صبرًا، وأجزل لنا ولك بالصبر أجرًا.

وروي عن ابن المبارك قال: مات لي ابنٌ، فمرَّ بي مجوسي وقال: ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام.

وروي أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **كان إذا عزىٰ مرزأً قال:** ليس مع العزاء مصيبة، ولا مع الجزع فائدة، والموت أشد مما قبله، وأهون مما بعده، فاذكر مصيبتك برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تهُن عليك مصيبتك.

وكتب بعضهم إلىٰ صديق له يعزيه بأخيه ويسليه: ما تصنع يا أخي والقضاء نازل والموت حكم شامل، وإن لم تَلُذ بالصبر فقد اعترضت علىٰ مالك الأمر، وأنت تعلم أن نوائب الدهر لا تُدفع إلا بعزائم الصبر، فاجعل بين هذه اللوعة الغالبة والدمعة الساكبة حاجبًا من فضلك، وحاجزًا من عقلك، ودافعًا من دينك، ومانعًا من يقينك؛ فإن المحن إذا لم تعالج بالصبر كانت كالمنح إذا لم تقابل بالشكر، فصبرًا صبرًا،

(١) أخرجه الخطيب، وحسَّنه الألباني في «أحكام الجنائز» (ص١٦٣).

ففحول الرجال لا تستفزها الأيام بخطوبها، كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها، وقدر الله هو المقدر، وأجل الله إذا جاء لا يؤخر، وكل ما كان من الرزء أوجع كان الأجر عليه أوسع، جعل الله مولاي من الصابرين علىٰ المصيبة، وأعظم أجره وجعل الجنة نصيبه.

وقال سليمان بن عبد الملك عند موت ابنه لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة: إن في كبدي جمرة لا يطفئها إلا عبرة، فقال عمر: اذكر الله يا أمير المؤمنين، وعليك بالصبر، فنظر إلىٰ رجاء كالمستريح بمشورته فقال رجاء: أَفِضْها يا أمير المؤمنين، فما بذلك من بأس، لقد دمعت عينا رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ ابنه إبراهيم، وقال: «**إن العين لتَدمَع، وإن القلب ليَحزن، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمَحزُونون**»؛ فأرسل سليمان عينيه حتىٰ قضىٰ أربه ثم أقبل عليهم، قال: لولا نزفت هذه العبرة لانصدع كبدي، ثم إنه لم يَبكِ بعدها.

ودخل عبد الملك بن صالح علىٰ الرشيد وقد مات له ولد، ووُلِد له في تلك الليلة ولد، فقال: سرَّك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرك، وجمع لك بين أجر الصابر وثواب الشاكر.

ومن جميل ما قيل في التأسي:

ومما يؤديني إلىٰ الصَّبر والعزا ... تردد فكري في عموم المصَائبِ

وقول الآخر:

تصبَّر فلو أن البكا رد هالكًا ... علىٰ أحد فاجهَد بُكاك علىٰ عُمَرْ

❋ ❋ ❋

التعزية والمواساة

لمَّا جِيء برأس إبراهيم بن عبد الله إلىٰ المنصور، نظر إلىٰ الرأس ثم بكىٰ حتىٰ جعلت دموعه تسقط علىٰ الرأس، وقال: والله لقد كنتُ لهذا كارهًا، ولكنك ابتُليت بي وابتُليت بك، ثم أمر بالرأس فنصب للناس بالسوق، وجلس المنصور مجلسًا عامًّا، وجعل الناس يدخلون عليه فيهنئونه وينالون من إبراهيم ويقبحون الكلام فيه ابتغاء مرضاة المنصور، والمنصور واجمٌ متغيرُ اللون لا يتكلم، حتىٰ دخل جعفرُ بن حنظلة البهراني، فوقف فسلم، ثم قال: أعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمك، وغفر له ما فرط من حقك.

فاصفر لون المنصور وأقبل عليه، وقال: أبا خالد، مرحبًا وأهلًا، هاهنا، فعلم الناس أنَّ ذلك قد وقع منه، فجعل كلُّ مَن جاء يقول كما قال جعفر بن حنظلة.

ومن جميل التعازي: أنَّ الهادي عزَّىٰ رجلًا في ولدٍ له تُوفِّي، فقال له: أسرَّك وهو عدو وفتنة، وأحزنك وهو صلاة ورحمة؟

وقال علي بن القاسم: كنت مع المعتصم لما غزا الروم، فجاء بعض سراياه بخبر عمه، فركب من حينه وسار أجدَّ سير وأنا أسايره، فسمع منشدًا يتمثل في عسكره:

إنَّ الأمــور إذا انــسدت مــسالكها فالـصبر يفـتح مـنها كـلَّ مـا ارتـتجَا

لا تيأســـنَّ وإن طالـــت مُطَالـــبةٌ إذا اســتعنت بــصبر أن تــرىٰ فَــرجَا

فسُرَّ بذلك وطابت نفسه، ثم التفت إليَّ وقال لي: يا علي، أتروي هذا الشعر؟ قلت: نعم، قال: من يقوله؟ قلت: محمد بن يسير، فتفاءل باسمه ونسبه، وقال: أمر محمودٌ وسيرٌ سريع يعقب هذا الأمر، ثم قال: أنشدني الأبيات، فأنشدته قوله:

مــاذا يكلفــك الــروحات والــدلجَا البـرَّ طـورًا وطـورًا تـركب اللجـجَـا
كـم مـن فتىً قصرت في الرزق خطوته ألفيــته بــسهام الــرزق قــد فَلَجَــا
إن الأمــور إذا انــسدت مــسالكها فالـصبر يفـتق مـنها كـل مـا ارتـتجَا
لا تيأســـن وإن طالـــت مطالـــبة إذا اسـتعنت بـصبر أن تـرىٰ فـرجَا
أخلق بذي الصبر أن يحظىٰ بحاجته ومــدمن القــرع للأبــواب أن يلجَــا
قَـدِّر لِـرجلك قبل الخطـو موضعها فمــن عــلا زلقًــا عــن غــرة زلجَــا
ولا يغــرنك صــفو أنــت شَــاربه فـــربما كـــان بالتكديـــر ممتـــزجَا

وقال عبد السلام ديك الجن:

أســاكِنَ حفــرةٍ وقــرارِ لحــدِ مُفــارِقَ خُلــةٍ مــن بعــد عهــدِ
أجِبنِــي إن قــدرت علــىٰ جوابــي بحــق الــودِّ كــيف ظللــت بعــدي
وأيــن حللــت بعــد حلــول قلبــي وأحـــشائي وأضـــلاعي وكـــبدي
أمــا والله لـــو عايـــنت وجـــدي إذا اسـتعبرتُ فـي الظلمـات وحـدي
وجـــدَّ تنفـــسي وعـــلا زفيـــري وفاضـت عبرتـي فـي صـحن خـدِّي
إذن لعلمـــتَ أنِّـــي عـــن قـــريبٍ ســتحفَرُ حُفرتــي ويُــشَقُّ لحــدِي
ويعذلنـــي الـــسفيه علـــىٰ بكائـــي كـأنِّــي مبتلــىٰ بالحــزن وحــدي

❊ ❊ ❊

في الشكوى وتقلبات الأيام

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شرٌّ منه حتىٰ تلقوا ربكم**»(١).

وكان معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يقول**: «معروفُ زمانِنا منكرُ زمانٍ قد مضىٰ، ومنكرُه معروفُ زمانٍ لم يأت».

وكانت ناقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القصواء لا تُسبَق، فجاء أعرابي فسبقها، فشق ذلك علىٰ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن حقًّا علىٰ الله ألَّا يرفع شيئًا من هذه الدنيا إلا وضعه**»(٢).

وحكىٰ شيخٌ من العرب قال: بعثني أهلي في الجاهلية إلىٰ ذي الكلاع الحميري بهدايا، فمكثتُ شهرًا لا أصل إليه، ثم بعد ذلك أشرف إشرافة من كُوَّة، فخرَّ له مَن حول القصر سُجَّدًا، ثم رأيته من بعد ذلك وقد هاجر إلىٰ حمص واشترىٰ بدرهم لحمًا، وسمطه خلف دابته، وهو القائل هذه الأبيات:

أفٍّ للدنيا إذا كانت كذا ... أنا منها في بلاء وأذىٰ
إن صفا عيشُ امرئٍ في صبحها ... جرعته ممسيًا كأس القذىٰ
ولقد كنتُ إذا ما قيل مَن ... أنعم العالم عيشًا قيل ذَا

وقال يونس بن ميسرة: «لا يأتي علينا زمان إلا بكينا منه، ولا يتولَّىٰ عنا زمان إلا بكينا عليه».

---

(١) رواه البخاري (٦٥٤١).

(٢) رواه البخاري (٦٠٢٠).

وهذا كقول القائل:

ربَّ يـــوم بكـــيت مـــنه فلمـــا صـرت فـي غيـره بكـيت علـيه

وقول الآخر:

ومـا مـرَّ يـومٌ أرتجـي فـيه راحـة فأَخْبَـرُه إلا بكـيت علـىٰ أمـسي

وقول بعضهم:

عتـبت علـىٰ عَمـرٍو فلمـا تـركته وجـربت أقـوامًا بكـيت علـىٰ عَمـرِو

ولما قَتَل عامرُ بن إسماعيل مروانَ بن محمد ونزل في داره وقعد علىٰ فرشه، دخلت عليه عبدةُ بنت مروان فقالت: يا عامر، إن دهرًا أنزل مروان عن فرشه وأقعدك عليه لقد أبلغ في عظتك.

وقال عبدُ الملك بن عمير: دخلتُ القصر بالكوفة فإذا رأسُ الحسين بن عليٍّ علىٰ خشبة منصوبة بين يدَي عبيد الله بن زياد، وعبيدُ الله علىٰ السرير، ثم دخلت القصر بعد ذلك بحين فرأيتُ رأسَ عبيد الله بن زياد علىٰ خشبة بين يدي المختار والمختارُ علىٰ السرير، ثم دخلت القصر بعد ذلك بحين فرأيتُ رأسَ المختار علىٰ خشبة بين يدَي مصعب بن الزبير ومصعبٌ علىٰ السرير، ثم دخلتُ القصر بعد حين فرأيتُ رأسَ مصعبِ ابن الزبير علىٰ خشبة بين يدي عبد الملك وعبدُ الملك علىٰ السرير، قال سفيان، فقلت له: كم كان بين أول الرؤوس وآخرها؟ قال: اثنتا عشرة سنة.

ودخل مسلمةُ بن زيد بن وهب علىٰ عبد الملك بن مروان فقال له: أي الزمان أدركته أفضل، وأي الملوك أكمَل؟ فقال: أما المُلوك فلم أرَ إلا حامدًا وذامًّا، وأما الزمان فيُرفَع فيه أقوامٌ ويوضع آخرون، وكلُّهم يَذكُر أنه يُبلَىٰ جديدُهم ويُفَرَّق عديدُهم، ويهرم صغيرُهم ويهلِك كبيرُهم.

وقال حبيب بن أوس:

لم أبك من زمن لم أرض خلته إلا بكيت عليه حين ينصَرِمُ

وقال بعضهم:

ذهب الرجال المقتدىٰ بفعالهم والمُنكِرُون لكل أمر مُنكَرِ

وبقيت في خلف يزين بعضُه بعضًا ليدفع معورٌ عن معورِ

حلف الزمان ليَأتينَّ بمثلهم حنثت يمينك يا زمانُ فكَفِّرِ

وكان يقال: زمام العافية بيد البلاء، ورأس السلامة تحت جناح العطب.

وقيل: إذا أدبر الأمر أتىٰ الشر من حيث يأتي الخير، وبتقلب الدهر تُعرَف جواهر الرجال.

قال محمد بن هلال: بعث إليَّ المعمَّر برسالة يطلب مني بغلة مسرجة، ولم تكن له عندي منزلة مرعية، فرددت الرسالة ولم أجبه عنها، ثم إنه بعثها إليَّ وكتب علىٰ ظهرها:

عسىٰ سائل ذو حاجة إن منعته من اليوم سؤلًا أن يكون له غدُ

فإنك لا تدري إذا جاء سائل أأنت بما تعطيه أو هو أسعدُ

فأعدتُها إليه من غير جواب كما فعلت أولًا، ثم إنَّ الزمان قد دار فصُرِف عني ما كنت فيه من العُلا ووُزِّر المعمَّر، وكنت إذ ذاك متوليًا شئونًا شتىٰ، فأُرسلتُ إلىٰ شيراز في مهَمَّة، فوردت عليه وأنا لا أشك في قتلي لما تقدم من سوء فعلي معه، فقرَّبني وأكرمني أيامًا وأنا من شأنه متعجب.

فلما كان بعد أيام قمت من مجلسه منصرفًا فاتبعني الحاجب وقال: الوزير يريد أن يخلو بك، فلما خلا مجلسه استدعاني، وأسرَّ إلىٰ بعض خدمه شيئًا، فمضىٰ وعاد ومعه الرسالة بعينها، فلما أتىٰ قرأت بحيث يسمع: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا

مَنسِيًّا ﴾ [مريم:٢٣]، فقال لي: لا تُرَع، أوقَفتك علىٰ سوء فعلك حتىٰ لا تستصغر بعدها أمراً، ولا تطرح مراعاة العواقب فيصير الدهر لك غير صاحب، وليكن هذا الفعل لأخلاقك مهذِّبًا، ثم أعطاني عطاء ووَصَلني وردَّني إلىٰ منصبي.

وما أجمل قول القائل:

لا تحقرنَّ امْرأً قد كان ذا ضعة ... فكم وضيع من الأقوام قد رأَسَا

فرُبَّ قومٍ جفوناهم فلم نرهم ... أهلًا لخدمتنا صاروا لنا رؤَسَا

وقال بعضهم: «نحن في زمن لا يزداد الخيرُ فيه إلا إدبارًا، والشرُّ إلا إقبالًا، والشيطانُ في هلاك الناس إلا طمعًا، فاضرب بطرفك حيث شئت هل تنظر إلا فقيرًا يكابد فقرًا، أو غنيًّا بدَّل نعمة الله كفرًا، أو بخيلًا اتخذ بحقِّ الله وفرًا، أو متمردًا كأنَّ بسمعه عن سماع المَوَاعظ وقرًا».

وقال آخر: «نحن في زمان إذا ذكرنا الموتىٰ حييت القلوب، وإذا ذكرنا الأحياء ماتت القلوب».

قال بعضهم:

وقائلة ما بال وجهك قد نضت ... محاسنه والجسم بان شحوبُهُ

فقلت لها هاتي من الناس واحدًا ... صفا وقته والنائبات تنوبُهُ

وقال الأمير ابن منقذ:

أما والذي لا يملك الأمر غيره ... ومن هو بالسر المكتم أعلمُ

لئن كان كتمان المصائب مؤلمًا ... لإعلانها عندي أشد وأعظمُ

وبي كل ما يبكي العيون أقله ... وإن كنت منه دائمًا أتبسمُ

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وايم الله ما كان قوم قط في خفض عيش فزال عنهم إلا بذنوب اقترفوها؛ لأن الله تعالىٰ ليس بظلام للعبيد، ولو أنَّ الناس حين

ينزل بهم الفقر ويزول عنهم الغِنىٰ فزعوا إلىٰ ربهم بصدق نياتهم، لرَدَّ عليهم كلَّ شارد، وأصلح لهم كل فاسد».

قال الشاعر:

وقد تسلب الأيام حالات أهلها ... وتعدو علىٰ أسد الرجال الثعالبُ

وقال غيره:

ومن عاش في الدنيا فلابد أن يرىٰ ... من العيش ما يصفو وما يتكدَّرُ

وقال آخر:

ولو دامت الدولات دامت لغيرنا ... رعايا ولكن ما لهن دوَامُ

وقال غيره:

وأعذر ما يُدمي العيون من البكا ... كريم يرىٰ الدنيا بكف لَئِيمِ

وقيل: أيام الدهر ثلاثة: يوم مضىٰ لا يعود إليك، ويوم أنت فيه لا يدوم عليك، ويوم مستقبل لا تدري ما حاله ولا تعرف من أهله.

فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نُسَاء ويوم نُسَر

وكتب يزيد بن عبد الملك إلىٰ أخيه هشام: أما بعد، فإنَّ أمير المؤمنين قد بلغه أنك استبطأت حياته، وتمنيت وفاته، ورمت الخلافة، ثم أنشد:

تمنىٰ رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحدِ

وقد علموا لو ينفع العلم عندهم ... متىٰ مت ما الباغي علي بمخلدِ

منيته تجري لوقت وحتفه ... يصادفه يومًا علىٰ غير مَوعدِ

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضىٰ ... تهيأ لأخرىٰ مثلها فكأن قَدِ

فكتب إليه هشام: جعل الله يومي قبل يومك، وولدي قبل ولدك، فلا خير في العيش بعدك.

ولما سقطت دولة بني أمية، جلس مروان يومًا وقد أحيط به وعلىٰ رأسه خادم له قائم، فقال مروان يومًا لبعض من يخاطبه: ألا ترىٰ ما نحن فيه؟ لهفي علىٰ أيدٍ ما ذُكِرت، ونِعَمٍ ما شُكرت، ودولة ما نُصرت.

فقال له الخادم: يا أمير المؤمنين، من ترك القليل حتىٰ يكثر، والصغير حتىٰ يكبر، والخفيَّ حتىٰ يظهر، وأخَّر فعل اليوم لغد، حلَّ به أكثر من هذا.

فقال مروان: هذا القول أشد عليَّ من فقد الخلافة.

ومما يدلُّ علىٰ تغير أحوال الدنيا: أنَّ بغداد لم يكن لها في الدنيا نظير في جلالة قدرها، وفخامة أمرها، وكثرة علمائها وأعلامها، وتميز خواصها وعوامها، وعظم أقطارها، وكثرة دورها ومنازلها، ودروبها وشوارعها، ومحالها وأسواقها، وسككها وأزقتها، ومساجدها، وحماماتها، وخاناتها، وطيب هوائها، وعذوبة مائها، وبرد ظلالها وأفيائها، واعتدال صيفها وشتائها، وصحة ربيعها وخريفها، وكانت من أعظم البلدان أمنًا، ولهذا الأمن والرخص كثر ساكنوها، وعظم أهلوها، حتىٰ كان المار فيها لا يكاد يجتاز في الأسواق لكثرة أهلها، وأكثر ما كانت عمارةً وأهلًا في أيام الرشيد.

ثم ذُكِر تناقصُ أحوالها بعد ذلك، ولاسيما في أيام هولاكو الذي وضع معالمها، وقتل خليفتها وعالمها، وخرَّب دورها، وهدم قصورها، وأباد الخواص والعوام من أهلها في ذلك العام، وأخذ الأموال والحواصل، ونهب الذراري والأصائل، وأورث بها حزنًا يُعدَّد به في البكرات والأصائل، وصيرها مُثلة في الأقاليم، وعبرةً لكل معتبر عليم، وتذكرةً لكل ذي عقل مستقيم.

وبُدِّلت بعد تلاوة القرآن بالنغمات والألحان، وبعد سماع الأحاديث النبوية بدرس الفلسفة اليونانية، والمناهج الكلامية، والتأويلات القرمطية، وبعد العلماء بالحكماء، وبعد الخليفة العباسي بشرِّ الولاة من الأناسي، وبعد الرياسة والنباهة بالخساسة والسفاهة، وبعد العباد بالأنكاد، وبعد الطلبة المشتغلين، بالظَلَمة والعيارين، وبعد

الاشتغال بفنون العلم من التفسير والفقه والحديث بالزجل والموشح، وما أصابهم ذلك إلا ببعض ذنوبهم، وما ربك بظلام للعبيد.

وكانت أم جعفر والفضل البرمكي أمَّ هارون من الرضاعة، فحصل لهم من الرفعة في الدنيا وكثرة المال بسبب ذلك شيءٌ كثير لم يحصل لمن قبلهم من الوزراء ولا لمن بعدهم من الأكابر والرؤساء.

وفي سنة سبع وثمانين ومائة كان قتلُ هارون الرشيد للبرامكة، ودمارُ ديارهم واندثارُ آثارهم، وذهابُ صغارهم وكبارهم، قيل: إن الرشيد كان قد سلم يحيىٰ بن عبد الله بن حسن إلىٰ جعفر البرمكي فسجنه عنده، فما زال يحيىٰ يترقق له حتىٰ أطلقه جعفر، فنم الفضل بن الربيع علىٰ جعفر في ذلك، فقال له الرشيد: ويلك لا تدخل بيني وبين جعفر فلعله أطلقه عن أمري وأنا لا أشعر، ثم سأل الرشيد جعفرًا عن ذلك فصدَقه الحال، فتغيظ عليه الرشيد وحلف ليقتلنه، وكره البرامكة ومقتهم وبغضهم بعدما كانوا أحظىٰ الناس عنده وأحبهم إليه.

وقيل: إنَّ الرشيد سئل عن السبب الذي من أجله أهلك البرامكة، فقال: لو أعلم أن قميصي يعلم ذلك لأحرقته.

وفي ليلة السبت أول المحرم من سنة سبع وثمانين ومائة أرسل هارونُ مسرورًا الخادم في جماعة من الجند، فأطافوا بجعفر بن يحيىٰ ليلًا، فدخل عليه مسرور الخادم، وعنده رجلٌ يغنيه:

فلا تبعد فكل فتىٰ سيأتي ... عليه الموت يطرق أو يغادي

فقال الخادم له: يا أبا الفضل، هذا الموت قد طرقك أجب أمير المؤمنين، فقام إليه وسأله أن يدخل إلىٰ أهله فيوصي إليهم، فقال: أما الدخول فلا سبيل إليه، فأوصىٰ جعفر وأعتق جماعة من مماليكه، وجاءت رسل الرشيد تستحث الخادم، فأخرجه إخراجًا عنيفًا يقوده حتىٰ أتىٰ المنزل الذي كان فيه الرشيد فحبسه، وأعلم

الرشيد بما كان فعل فأمره بضرب عنقه، فجاء إلىٰ جعفر فقال: إن أمير المؤمنين قد أمرني أن آتيه برأسك، فقال: يا أبا هاشم، لعل أمير المؤمنين غضبان، فإذا صحا عاتبك علىٰ ذلك، فعاوِده.

فرجع إليه فقال: يا أمير المؤمنين، لعلك مشغول، فقال: ويحك ائتني برأسه، فكرر عليه جعفر المعاودة، فقال له: برئت من المهدي لئن لم تأتني برأسه لأبعثن من يأتيني برأسك ورأسه.

فرجع إلىٰ جعفر فحزَّ رأسه وجاء به إلىٰ الرشيد فألقاه بين يديه، وأرسل الرشيد من ليلته البُرُد في الاحتياط علىٰ البرامكة جميعهم ببغداد وغيرها، فأُخذوا كلهم عن آخرهم فلم يفلت منهم أحد، وحبس يحيىٰ بن خالد في منزله، وحبس الفضل بن يحيىٰ في منزل آخر، وأخذ جميع ما كانوا يملكونه من الأموال، والموالي، والحشم، والخدم، واحتيط علىٰ أملاكهم، وبعث الرشيد برأس جعفر وجُثته فنصب الرأس عند الجسر الأعلىٰ، ونودي في بغداد: أن لا أمان للبرامكة ولا لمن آواهم، إلا محمد ابن يحيىٰ بن خالد، فإنه استثناه من بين البرامكة لنصحه للخليفة.

ولما سجن الفضل بن يحيىٰ البرمكي، قال في سجنه:

إلىٰ الله فيما نالنا نرفع الشكوىٰ ... ففي يده كشف المضرة والبَلوَىٰ
خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فلا نحن في الأموات فيها ولا الأحيَا
إذا جاءنا السجان يومًا لحاجة ... عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيَا

وفي سنة خمس وتسعين انتزع طاهر بن الحسين بغداد وأرض العراق بكمالها من يد الأمين بن الرشيد، فتفرق علىٰ الأمين شمله وحار في أمره، واشتد الحال علىٰ أهل البلد، وأخذت الدعَّار والشطار أهل الصلاح، وخربت الديار، وثارت الفتنة بين الناس حتىٰ قاتل الأخُ أخاه، والابنُ أباه، وقتل طاهر بن الحسين واستوثق الأمر للمأمون.

وقد دخل طاهر يومًا علىٰ المأمون فسأله حاجة فقضاها له، ثم نظر إليه المأمون واغرورقت عيناه، فقال له طاهر: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ فلم يخبره، فأعطىٰ طاهرٌ حسينًا الخادم مائتي ألف درهم حتىٰ استعلم له ما كان خبر بكائه، فقال له: لا تخبر به أحدًا أقتلك، ذكرت مقتل أخي وما ناله من الإهانة علىٰ يدي طاهر، فوالله لا تفوته مني.

فلما تحقق طاهر ذلك سعىٰ في النقلة من بين يدي المأمون، ولم يزل حتىٰ ولَّاه خراسان وأطلق له خادمًا من خدامه، وعهد إلىٰ الخادم إن رأىٰ منه ما يريبه أن يسمَّه، فلما خطب طاهر يوم الجمعة ولم يدعُ للمأمون، سمه الخادم فمات من ليلته.

ومن أعظم عبر الزمان: أنَّ تفرُّق الأمة يؤدي إلىٰ الضعف؛ ففي سنة سبعين من الهجرة ثارت الروم واستجاشوا علىٰ مَن بالشام واستضعفوهم؛ لما يرون من الاختلاف الواقع بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير، فصالح عبدُ الملك ابن مروان ملكَ الروم وهادنه علىٰ أن يدفع إليه عبد الملك في كل جمعة ألف دينار خوفًا منه علىٰ الشام.

ومن أعظم العظات مقتل أحمد بن نصر الخزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فقد كان أحمد من أهل العلم والديانة والعمل الصالح والاجتهاد في الخير، ومن أئمة المسلمين وأهل السنة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وكان ممن يدعو إلىٰ القول بأن القرآن كلام الله منزَّل غير مخلوق.

وكان هارون الواثق من أشد الناس في القول بخلق القرآن، يدعو إليه ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، اعتمادًا علىٰ ما كان أبوه المعتصم وعمه المأمون عليه في ذلك من غير دليل ولا برهان، ولا حجة ولا بيان، ولا سنة ولا قرآن.

فقام أحمد بن نصر يدعو إلىٰ الله، وإلىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقول بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، فاجتمع عليه جماعة من أهل بغداد، والتف عليه الألوف من الناس.

وفي سنة إحدىٰ وثلاثين ومائتين انتظمت البيعة لأحمد بن نصر الخزاعي في السر

علىٰ القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فانكشف الأمر، وأُخذ رجلان ممن بايعوه علىٰ ذلك، فعاقبهما نائب السلطنة، فأقرا علىٰ أحمد بن نصر في الحال فطلبه، وأخذ خادمًا له فاستقرَّه فأقر بما أقر به الرجلان، فجمع جماعةً من رؤوس أصحاب أحمد ابن نصر معه، وأرسل بهم إلىٰ الخليفة بسامراء، فأُحضر له جماعة من الأعيان، وحضر القاضي أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي ولم يظهر منه علىٰ أحمد بن نصر عتب.

فلما أوقف أحمد بن نصر بين يدي الخليفة الواثق لم يعاتبه علىٰ شيء مما كان منه في أمر مبايعة العامة له علىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأعرض عن ذلك كله، وقال له: ما تقول في القرآن؟ فقال: هو كلام الله، قال: أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله.

وكان أحمد بن نصر قد استقتل، وحضر وقد تحنط، فقال له الواثق: فما تقول في ربك، أتراه يوم القيامة؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قد جاء القرآن والأخبار بذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته**» فنحن علىٰ الخبر، قال الواثق: ويحك، أيرىٰ كما يرىٰ المحدود المتجسم؟ ويحويه مكان ويحصره الناظر؟ أنا أكفر بربٍّ هذه صفته.

فقال أحمد بن نصر الخزاعي للواثق: حدثني سفيان بحديث يرفعه: «**إن قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الله يقلبه**»، وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك**»، فقال له إسحاق بن إبراهيم: ويلك، انظر ما تقول، فقال: أنت أمرتني بذلك، فأشفق إسحاق من ذلك، وقال: أنا أمرتك بذلك؟ قال: نعم، أنت أمرتني أن أنصح له، فقال الواثق لمن حوله: ما تقولون في هذا؟ فأكثروا القول فيه، فقال عبد الرحمن بن إسحاق وكان قاضيًا علىٰ الجانب الغربي فعزل -وكان موادًّا لأحمد بن نصر قبل ذلك-: يا أمير المؤمنين، هو حلال الدم.

وقال أبو عبد الله الأرمني صاحب أحمد بن أبي دؤاد: اسقني دمه يا أمير المؤمنين.

فقال الواثق: يأتي علىٰ ما تريد.

وقال القاضي أحمد بن أبي دؤاد: يا أمير المؤمنين، هو كافر يستتاب، لعل به عاهة أو نقص عقل.

فقال الواثق: إذا رأيتموني قمت إليه فلا يقومنَّ أحدٌ معي، فإني أحتسب خُطاي.

ثم نهض إليه بالسيف، فلما انتهىٰ إليه ضربه بها علىٰ عاتقه، وهو مربوط بحبل، ثم ضربه أخرىٰ علىٰ رأسه ثم طعنه بالسيف في بطنه فسقط رَحِمَهُ ٱللَّهُ صريعًا علىٰ النطع ميتًا؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم انتضىٰ سيما الدمشقي سيفه فضرب عنقه، وحز رأسه، وحُمل معترضًا حتىٰ صلب، وفي رجليه زوج قيود، وعليه سراويل وقميص، وحمل رأسه إلىٰ بغداد فنصب في الجانب الشرقي أيامًا، وفي الجانب الغربي أيامًا، وعنده الحرس في الليل والنهار، وفي أذنه رقعة مكتوب فيها: هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر، ممن قتل علىٰ يدي أمير المؤمنين الإمام الواثق بالله بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن، ونفي التشبيه، وعرض عليه التوبة، ومكنه من الرجوع إلىٰ الحق فأبىٰ إلا المعاندة والتصريح، فالحمد لله الذي عجله إلىٰ ناره وأليم عقابه بالكفر، فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه.

ثم أمر الخليفة الواثق بتتبع رؤوس أصحابه، فأخذ منهم نحوًا من سبعة وعشرين رجلًا، فأودعوا في السجون وسُمُّوا الظلمة، ومُنعوا أن يزورهم أحد، وقُيِّدوا بالحديد، ولم يَجْر عليهم شيءٌ من الأرزاق التي كانت تجري علىٰ المحبوسين، وهذا ظلم عظيم.

وفي سنة مائتين واثنتين وخمسين خلع المعتز أخاه إبراهيم الملقب بالمؤيد من ولاية العهد وحبسه، بعدما ضربه أربعين مقرعة، وخطب بخلعه، وأمره أن يكتب كتابًا علىٰ نفسه بذلك.

وكانت وفاته بعد ذلك بخمسة عشر يومًا، قيل: إنه أدرج في لحاف، وأُمسك طرفاه حتىٰ مات غمًا، وقيل: إنه ضرب بحجارة من ثلج حتىٰ مات بردًا، وبعد ذلك كله أخرج من السجن ولا أثر به، فأحضر القضاة والأعيان فأُشهدوا علىٰ موته من غير سبب وليس به أثر، ثم حمل علىٰ حمار ومعه كفنه، فأرسل به إلىٰ أمه فدفنته.

وفي زمن الخليفة المهتدي عزم بعض الناس علىٰ خلعه، فقال بعضهم: أتقتلون رجلًا صوامًا قوامًا لا يشرب النبيذ ولا يأتي الفواحش؟ واللهِ إنَّ هذا ليس كغيره من الخلفاء، ولا يطاوعكم الناس عليه.

فلما بلغ ذلك الخليفة، خرج إلىٰ الناس وهو متقلد سيفًا، فجلس علىٰ السرير واستدعىٰ بأولئك النفر، وقال: قد بلغني ما تمالأتم عليه من أمري، وإني واللهِ ما خرجت إليكم إلا وأنا متحنط، وقد أوصيت إلىٰ أخي بولدي، وهذا سيفي واللهِ لأضربن به ما استمسك قائمُه بيدي، والله لئن سقط من شعري شعرة ليهلكن بها أكثركم، أمَا دين؟ أما حياء؟ أما ورع؟!

كم يكون هذا الخلاف علىٰ الخلفاء والإقدام والجرأة علىٰ الله؟! سواء عندكم من قصَد الإبقاء عليكم، ومن كان إذا بلغه هذا عنكم دعا بأرطال الشراب فشربها، سرورًا بمكروهكم.

اذهبوا فانظروا في منزلي، وفي منازل إخوتي، ومن يتصل بي؟ هل فيها من آلات الخلافة أو فرشها شيء غير ما يكون في بيوت آحاد الناس؟ فكأنهم لانوا لذلك قليلًا.

❊ ❊ ❊

ما جاء في الوداع وحب الوطن والحنين إليه

إن مما جبلت عليه النفوس محبتها لأوطانها، وحنينها لأرضها، فتجد المرءَ يشتاق إلىٰ أرضه التي نشأ فيها وترعرع، ويحدوه الحنين إليها كلما ابتعد عنها، ولذا فقد قالت الحكماء: الإبل تحن إلىٰ أوطانها وإن كان عهدها بعيدًا، والطير يحن إلىٰ وكره وإن كان موضعه مجدبًا، والإنسان يحن إلىٰ وطنه وإن كان غيره أكثر له نفعًا.

وقالت العرب: إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر كيف تحننه إلىٰ أوطانه، وتشوقه إلىٰ إخوانه، وبكاؤه علىٰ ما مضىٰ من زمانه.

وقيل: من علامة الرشد أن تكون النفس إلىٰ بلدها تواقة، وإلىٰ مسقط رأسها مشتاقة.

فمحبة الوطن مستولية علىٰ الطباع، مستدعية أشد الشوق إليه.

قال إبراهيم بن أدهم: «عالجت العباد فما وجدت شيئًا أشد عليَّ من نزاع النفس إلىٰ الوطن».

وما أحسن ما قال بعضهم:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوىٰ ... ما الحب إلا للحبيب الأولِ

كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتىٰ ... وحنينُه أبدًا لأول منزلِ

وأعجب من ذلك أن ترىٰ المرءَ يحب بلده وإن كانت ديار فقر ولأواء ومشقة، علىٰ حدِّ قول القائل:

بلاد ألفناها علىٰ كل حالةٍ ... وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسنْ

وتُستعذبُ الأرض التي لا هوىٰ لها ولا ماؤها عــذبٌ ولكــنها وطــنْ

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عمَّر الله البلدان بحب الأوطان، ولولا حبُّ الوطن لخرب البلد السوء».

وقيل لأعرابي: ما الغِبطَة؟ قال: الكفايةُ مع لزوم الأوطان.

ومرَّ إياس بن معاوية بمكان، فقال: أسمع صوت كلب غريب، فقيل له: بِمَ عرفت ذلك؟ قال: بخضوع صوته، وشدة نباح غيره.

ومما جاء في السفر قول المأمون: لا شيء ألذ من السفر في كفاية وعافية؛ لأنك تحل كل يوم في محلة لم تحل فيها، وتعاشر قومًا لم تعرفهم.

وقال حكيم: السفر يسفر عن أخلاق الرجال، وكان بعضهم يريد السفر فيمنعه والده إشفاقًا عليه، فقال يومًا:

ألا خلنــي أمــضي لـشاني ولا أكــن علــىٰ الأهــل كــلًّا إن ذا لــشديدُ
تهيبنــي ريــب المــنون ولــم أكــن لأهــرب عمــا لــيس مــنه محــيدُ
فلــو كــنت ذا مــال لقُــرِّب مجلــسي وقــيل إذا أخطــأت أنــت رشــيدُ
فدعنــي أجــول الأرض عمــري لعلــه يُــسَر صــديق أو يغــاظ حَــسُودُ

وأراد أعرابي السفر، فقال لامرأته:

عــدي الــسنين لغيبتــي وتــصبري وذري الــشهور فــإنهن قِــصَارُ

فأجابته:

فاذكُــر صــبَابَتَنا إلــيك وشــوقَنا وارحــم بــناتك إنهــن صِــغَارُ

فأقام وترك السفر.

ولا ينبغي للمرء أن يقيم بدار الهوان متىٰ استطاع أن يتحول عنها.

ومما قيل في ترك الإقامة بدار الهوان:

لا يسكن المرء في أرض يُهَان بها إلا من العجز أو من قلة الحِيَلِ

وقال الفرزدق:

وفي الأرض عن دار القَلَىٰ متحول وكل بلادٍ أوطنتك بلادُ

وقال آخر:

وإذا البلاد تغيرت عن حالها فدع المقام وبادر التحويلَا

ليس المقام عليك فرضًا واجبًا في بلدة تدع العزيز ذليلَا

ومما قيل في الوداع والفراق والشوق والبكاء قول جرير:

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الرحيل فعلت ما لم أفعلِ

وقيل لعمارة بن عقيل: ما كان جدك صانعًا في قوله فعلت ما لم أفعل؟ قال: كان يقلع عينيه حتىٰ لا يرىٰ مظعن أحبابه.

وقال عبد العزيز الماجشون -وهو من فقهاء المدينة-: قال لي المهدي: يا ماجشون، ما قلت حين فارقت أحبابك؟ قال: قلت يا أمير المؤمنين:

للَّه باكٍ علىٰ أحبابه جزعًا قد كنت أحذر هذا قبل أن يقعَا

ما كان واللَّه شؤم الدهر يتركني حتىٰ يجرعني من بعدهم جرعَا

إن الزمان رأىٰ إلف السرور لنا فدب بالبين فيما بيننا وسعَىٰ

فليصنع الدهر بي ما شاء مجتهدًا فلا زيادة شيء فوق ما صنعَا

فقال: والله لأعيننك، فأعطاه عشرة آلاف دينار.

وقال عمر بن أحمد:

أتىٰ الرحيل فحين جدَّ ترحلت مهجُ النفوس له عن الأجسَادِ

مـن لـم يـبت والبـين يـصدع قلـبه ... لـم يـدر كـيف تفـتت الأكـبَادِ

وقال آخر:

ولمـا تـبدت للـرحيل جمالـنا ... وجـد بـنا سـيرٌ وفاضـت مدامـعُ
تـبدت لـنا مذعـورةً مـن خـبائها ... وناظـرها باللؤلـؤ الـرطب دامـعُ
أشـارت بأطـراف البـنان وودعـت ... وأومـت بعينـيها متـىٰ أنـت راجـعُ
فقلـت لهـا والله مـا مـن مـسافر ... يـسير ويـدري مـا بـه الله صـانعُ

وقال آخر:

ومـا فارقـتُ ليلـىٰ مـن مـراد ... ولكـن شـقوة بلغـت مـداهَا
بكـيت نعـم بكـيت وكـل إلـفٍ ... إذا ماتـت حبيبـته بكاهَـا

وكان بعض الأعراب يقطع الطريق، فأخذه والي اليمامة فحبسه، فحنَّ إلىٰ وطنه، فقال:

أقـول لبوابـيَّ والـسجن مغلـق ... وقـد لاح بـرق: مـا الـذي تـريانِ؟
فقـالا: نـرىٰ بـرقًا يلـوح ومـا الـذي ... يـشوقك مـن بـرق يلـوح يمَـانِ؟
فقلـت: افـتحا لي البـاب أنظر ساعة ... لعلِّـي أرىٰ البـرق الـذي تـريانِ
فقـالا: أمـرنا بالـوثاق ومـا لـنا ... بمعـصية الـسلطان فـيك يـدانِ
فـلا تحـسبا سـجن الـيمامة دائمًـا ... كمـا لـم يـدم عـيش لـنا بأبـانِ

* * *

في الشوق والحنين

قال علي بن الحسين: «فَقدُ الأحبة غربة».

وقال الرشيد يومًا للعباس بن الأحنف: أي بيت قالته العرب أرق؟ فقال: قول جميل في بثينة:

ألا ليتني أعمىٰ أصم تقودني بثينة لا يخفىٰ عليَّ كلامها

فقال له الرشيد: فقولك أرق من هذا، حيث قلت:

طاف الهوىٰ في عباد الله كلهمُ حتىٰ إذا مر بي من بينهم وقفَا

فقال العباس: فقولك يا أمير المؤمنين أرق من هذا كله، إذ تقول:

أما يكفيك أنك تملكيني وأن الناس كلهمُ عبيدي
وأنك لو قطعت يدي ورجلي لقلت من الهوىٰ أحسنت زيدي

فضحك الرشيد، وأعجبه ذلك.

وكان يزيد بن عبد الملك يحب حظية من حظاياه يقال لها: حبَابة، وكانت جميلة جدًّا، وكان قد اشتراها في زمن أخيه سليمان بن عبد الملك بأربعة آلاف دينار، فقال أخوه سليمان: لقد هممت أن أحجر علىٰ يزيد، فباعها يزيد، فلما أفضت إليه الخلافة قالت له امرأته سَعْدَةُ يومًا: يا أمير المؤمنين، هل بقي في نفسك من أمر الدنيا شيء؟ قال: نعم، حبابة، فبعثت امرأتُه، فاشترتها له ولبَّستها وصنعتها وأجلستها من وراء الستارة وقالت له أيضًا: يا أمير المؤمنين، هل بقي في نفسك من الدنيا شيء؟ قال: أوَما أخبرتك؟ فقالت: هذه حبابة وأبرزتها له، وأخلته بها، وتركته وإياها، فحظيت

الجاريةُ عنده وكذلك زوجته، فقال يومًا: أشتهي أن أخلو بحبابة في قصر مدة من الدهر لا يكون عندنا أحد، ففعل ذلك، وجمعها إليه في قصر، فبينما هو معها علىٰ أسرِّ حال وأنعمِ بال، إذ رماها بحبة رمانٍ في فمها وهي تضحك، فشرقت بها فماتت، فمكث أيامًا يقبلها ويرشفها وهي ميتة، حتىٰ أنتنت وجيفت، فأمر بدفنها، فلما دفنها أقام أيامًا عند قبرها هائمًا، ثم رجع إلىٰ المنزل، ثم عاد إلىٰ قبرها، فوقف عليه وهو يقول:

فإن تسلُ عنك النفسُ أو تدع الصبا ... فباليأس تسلو عنك لا بالتجلدِ

وكلُّ خليلٍ زارني فهو قائل ... منِ أجلك هذا هامةُ اليوم أو غدِ

ثم رجع، فما خرج من منزله حتىٰ خُرِج بنعشه، وكان مرضه بالسل.

وكتب مروان بن محمد إلىٰ جارية له تركها بالرملة عند انزعاجه إلىٰ مصر منهزمًا:

وما زال يدعوني إلىٰ الصبر ما أرىٰ ... فآبىٰ ويدنيني الذي لك في صدري

وكان عزيزًا أن تبيتي وبيننا ... حجاب فقد أمسيت مني علىٰ عشرِ

وأنكاهما واللهِ للقلب فاعلمي ... إذا زدت مثليها فصرت علىٰ شهرِ

وأعظم من هذين واللهِ أنني ... أخاف بألا نلتقي آخر الدهرِ

سأبكيك لا مستبقيًا فيض عبرة ... ولا طالبًا بالصبر عاقبة الصبرِ

وقال العباس بن الأحنف:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم ... حتىٰ إذا أيقظوني للهوىٰ رقدوا

واستنهضوني فلما قمت منتصبًا ... بثقل ما حمَّلوني منهمُ قعدوا

وكان عند الرشيد ثلاث جَوَارٍ كن عنده من الخواص، فقال:

ملك الثلاث الآنسات عناني ... وحللن من قلبي بكل مكانِ
ما لي تطاوعني البرية كلها؟ ... وأطيعهن، وهن في عصياني
ما ذاك إلا أن سلطان الهوىٰ ... وبه قوين أعز من سلطاني

وقال الرشيد:

تبدي صدودًا وتخفي تحته مقة ... فالنفس راضية والطرف غضبانُ
يا من بذلت له خدي فذلَّلَه ... وليس فوقي سوىٰ الرحمن سلطانُ

وكان جميل بن عبد الله يعشق بثينة وينظم فيها الشعر، واشتهرت قصة عشقه لها حتىٰ سُمِّي جميل بثينة، ومن لطيف شعره في بثينة قوله:

وما زلتِ بي يا بثْنُ حتىٰ لو انني ... من الشوق أستبكي الحمام بكىٰ ليَا
وما زادني الواشون إلا صبابة ... ولا كثرةُ الناهين إلا تماديَا
وما أحدث النأيُ المفرِّقُ بيننا ... سلوًّا ولا طول الليالي تقاليَا
ألم تعلمي يا عذبةَ الريق أنني ... أظل إذا لم ألق وجهك صاديَا
لقد خفت أن ألقىٰ المنية بغتة ... وفي النفس حاجات إليك كما هيَا

وقد لقي جميلُ بثينة كُثَيِّرَ عزة يومًا، فقال له: من أين أقبلت؟ قال: من عند هذه الحبيبة -يعني: عزة- فقال: أقسمت عليك لما رجعت إلىٰ بثينة فواعدتها لي، فإن لي من أول الصيف ما رأيتها، وكان آخر عهدي بها بوادي القرىٰ، وهي تغسل هي وأمها ثوبًا، فتحادثنا إلىٰ الغروب.

قال كثيِّر: فرجعت حتىٰ أنخت بهم، فقال أبو بثينة: ما ردَّك يا ابن أخي؟ فقلت: أبيات قلتها، فرجعت لأعرضها عليك، فقال: وما هي؟ فأنشدته، وبثينة تسمع من وراء الحجاب:

فقلت لها يا عز أرسل صاحبي إليك رسولًا والرسول موكلُ
بأن تجعلي بيني وبينك موعدًا وأن تأمريني ما الذي فيه أفعلُ
وآخر عهدي منك يوم لقيتِني بأسفل وادي الدوم والثوب يغسلُ

فضربت بثينة جانب خدرها، وقالت: اخسأ، اخسأ، فقال أبوها: مهيم؟ فقالت: كلب يأتينا إذا نام الناس، من وراء الرابية، ثم قالت لجاريتها: أبغينا من الدومات حطبًا ليُشوىٰ به لكثيِّر شاة، فقلت: أنا أعجل من ذلك، وانطلقت إلىٰ جميل، فقلت: موعدك الدومات.

قال: فلما كان الليل أقبلت بثينة إلىٰ المكان الذي واعدته إليه وجاء جميل وكنت معهم، فما رأيت ليلة أعجب منها، ولا أحسن منادمات، وانفض ذلك المجلس وما أدري أيهما أفهم لما في ضمير صاحبه منه.

وقال المبرد: دخلنا يومًا علىٰ المجانين نزورهم أنا وأصحاب معي بالرقة، فإذا فيهم شاب قريب العهد بالمكان، عليه ثياب ناعمة، فلما أبصر بنا قال: حياكم الله ممن أنتم؟ قلنا: من أهل العراق، فقال: بأبي العراق وأهلها، أنشدوني أو أنشدكم؟

قلت: بل أنشدنا أنت، فقال:

اللَّه يعلم أنني كمدُ لا أستطيع أبث ما أجدُ
روحان لي روح تضمنها بلد وأخرىٰ حازها بلدُ
وأرىٰ المقيمةَ ليس ينفعها صبر ولا يقوىٰ لها جلدُ
وأظن غائبتي كشاهدتي بمكانها تجد الذي أجدُ

فقلت: والله إن هذا لظريف، فزدنا منه، فأنشأ يقول:

لما أناخوا قبيل الصبح عِيرَهمُ ورحَّلوها فثارت بالهوىٰ الإبلُ
وأبرزت من خلال السجف ناظرها ترنو إلي ودمع العين ينهملُ

وودعــــت ببـــنان عقـــده عـــنم ... ناديـت لا حملـت رجـلاك يـا جمـلُ
ويلـي مـن البـين مـاذا حـل بـي وبهـم ... مـن نـازل البـين حـان البـين وارتحلـوا
يـا راحـل العيـس عجـل كـي أودعهـم ... يـا راحـل العيـس فـي تـرحالك الأجـلُ
إنـي علـىٰ العهـد لـم أنقـض مـودتهم ... فليت شعري لطـول العهـد مـا فعلـوا

فقال رجل من البُغَضاء الذين معي: ماتوا، فقال الشاب: إذن أموت، فقال: إن شئت، فتمطىٰ واستند إلىٰ سارية عنده ومات، وما برحنا حتىٰ دفناه.

وقال المعتضد في جارية له توفيت فوجد عليها وجدًا عظيمًا، فقال:

يـــا حبيـــبًا لـــم يكـــن يعـــ ... ـــدلـــــه عـــــندي حبـــــيبُ
أنـــت عـــن عينـــي بعـــيدٌ ... ومـــن القلــــب قـــــريبُ
لـــيس لـــي بعـــدك فـــي شـــي ... ءٍ مـــن اللهـــو نـــصيبُ
لـــك مـــن قلبـــي علـــىٰ قلـــ ... ـــبي وإن بـــنت رقـــيبُ
وحياتـــي مـــنك مـــذ غـــبـ ... ـــت خـــيال مـــا يغـــيبُ
لـــو ترانـــي كـــيف لـــي بَعـــ ... ـــدَك عـــولٌ ونحـــيبُ
وفـــؤادي حـــشوه مـــن ... حُـــرَق الحـــزن لهـــيبُ
لتيقـــــنتَ بأنـــــي ... بـــك محـــزون كئـــيبُ
مـــا أرىٰ نفـــسي وإن طـــيَّـ ... ـــبـــتها عـــنك تطـــيبُ
لـــيس دمـــعٌ لـــي يعـــصيـ ... ـــنـــي وصـــبري مـــا يجـــيبُ

وقال إمام الكوفيين في النحو واللغة ثعلب:

إذا كـنتَ قـوت الـنفس ثـم هجـرتَها ... فكـم تلـبث الـنفس التـي أنـت قـوتُها
سـتبقىٰ بقـاء الـضب فـي المـاء أو كمـا ... يعـيش ببـيداء المهامـه حُـوتُها

أغــرك منــي أن تــصبرت جاهــدًا ... وفـي الـنفس مني مـنك مـا سـيُميتُها
فلـو كـان مـا بـي بالـصخور لهـدها ... وبالـريح مـا هـبت وطـال خفـوتُها
فــصبرًا لعــل الله يجمــع بينــنا ... فأشـكو همـومًا مـنك فـيك لقيـتُها

وقال إبراهيم بن أحمد بن محمد:

لــك منــي علــىٰ الــبعاد نــصيبُ ... لــم يــنله علــىٰ الدنــو حبــيبُ
وعلـىٰ الطـرف مـن سـواك حجـابٌ ... وعلــىٰ القلــب مــن هــواك رقــيبُ
زيــن فــي ناظـري هــواك وقلبــي ... والهـــوىٰ فـــيه زائـــغ ومـــشوبُ
كـيف يغنـي قـرب الطبـيب علـيلًا ... أنـــت أســـقمته وأنـــت الطبـــيبُ

وقال بعضهم:

لا أرَّق الله عينَــي مــن أرقــتُ لــه ... ولا مــلا مــثل قلبــي قلــبه تَــرَحَا
يــسرني ســوءُ حالــي فــي مــسرَّته ... فكلمــا ازددت سُــقمًا زادنــي فَــرَحَا

وهَوِيَ محمد بن يسير مغنية من قيان أبي هاشم بالبصرة، فكتبت إليه أمُّه تعاتبه، فكتب إليها:

لا تذكـري لـوعةً إثـري ولا جـزعًا ... ولا تقاسـين بعـدي الهـمَّ والهلعَـا
بَـلِ ائتسي تجـدي إنِ ائتسيت أُسًـا ... بمـثل مـا قـد فُجِعـتِ اليوم قـد فُجعَـا
مـا تـصنَعين بعـين عنك قد طمَحت ... إلـىٰ سـواك وقلـبٍ عـنك قـد نـزعَا
إن قلتِ قد كنتُ في خفضٍ وتكرمةٍ ... فقـد صـدقتِ ولكـن ذاك قـد نُـزِعَا
وأيُّ شـيءٍ مـن الدنـيا سـمعتِ بـه ... إلا إذا صـار فـي غاياتــه انقطعَــا
ومَـن يطـيق خلـيعًا عـند صـبوته ... أم مَــن يقــوم لمــستورٍ إذا خلعَــا

وكان الشاعر عبد السلام ديك الجن قد اشتهر بمحبته لجارية نصرانية من أهل

حمص، وتمادىٰ به الأمر حتىٰ غلبت عليه، فلما اشتهر أمره دعاها إلىٰ الإسلام ليتزوج بها فأجابته لذلك فتزوجها، ثم إنه قد أعسر واختلت حاله فرحل قاصدًا أحمد ابن علي الهاشمي، فأقام عنده مدة طويلة، وكان له ابنُ عمٍّ يبغضه بسبب هجائه له، فحمله ذلك علىٰ أن أذاع علىٰ تلك المرأة التي تزوجها ديك الجن أنها تهوىٰ غلامًا له، وشاع ذلك الخبر حتىٰ أتىٰ ديكَ الجنِّ، فكتب قصيدة لأحمد الهاشمي يستأذنه فيها بالرجوع إلىٰ حمص، ويعلمه بما بلغه من خبر المرأة، فأذن له فعاد إلىٰ حمص، وقدَّر ابنُ عمه وقت قدومه فأرصد له قومًا يعلمونه بموافاته بابَ حمص.

فلما وافاه خرج إليه مستقبلًا ومعنفًا علىٰ تمسكه بهذه المرأة بعدما شاع من ذكرها بالفساد، وأشار عليه بطلاقها وأعلمه أنها قد أحدثت في مغيبه حادثة لا يجمل به معها المقام عليها، ودسَّ الرجل الذي رماها به وقال له: إذا قدم عبد السلام ودخل منزله فقف علىٰ بابه كأنك لم تعلم بقدومه وناد باسمِ ورد، فإذا قال: مَن أنت؟ فقل: أنا فلان.

فلما نزل عبد السلام منزله وألقىٰ ثيابه سألها عن الخبر وأغلظ عليها فأجابته جوابَ مَن لم يعرف من القصة شيئًا، فبينما هو في ذلك إذ قرع الرجل الباب فقال: مَن هذا؟ فقال: أنا فلان، فقال لها عبد السلام: يا زانية، زعمتِ أنك لا تعرفين من هذا الأمر شيئًا؟ ثم اخترط سيفه فضربها به حتىٰ قتلها، وقال في ذلك:

ليتَني لم أكن لعطفكِ نلتُ ... وإلىٰ ذلك الوصال وصلتُ

فالذي منِّيَ اشتملْتِ عليه ... ألعارٍ ما قد عليه اشتملتُ

قال ذو الجهل قد حلمتَ ولا أعلم ... أنِّي حلمتُ حتىٰ جهلتُ

لائم لي بجهله ولماذا ... أنا وحدي أحببتُ ثم قتلتُ

سوف آسَىٰ طولَ الحياة وأبكيكِ ... علىٰ ما فعلتِ لا ما فعلتُ

وقال فيها أيضًا:

لـــك نفـــسٌ مواتـــيهْ　　　والمـــنايا معاديـــهْ
أيهـــا القلـــب لا تعـــد　　　بهـــوَىٰ البِـــيضِ ثانـــيهْ
لـــيس بـــرقٌ يكـــون أخـــ　　　ـلـــبَ مـــن بـــرقِ غانـــيهْ
خـــنتِ سِـــرِّي ولـــم أَخُـــنكِ　　　فمُوتـــي علانـــيهْ

وبلغ السلطان الخبر فطلبه، فخرج إلىٰ دمشق فأقام بها أيامًا، وكتب أحمد بن علي إلىٰ أمير دمشق أن يؤمنه وأن يستوهب جنايته، فقدم حمص وبلغه الخبر علىٰ حقيقته وصحته، واستيقنه فندم ومكث شهرًا لا يستفيق من البكاء، ولا يَطعَم من الطعام إلا ما يقيم رمقه، وقال في ندمه علىٰ قتلها:

يـــا مهجـــةً طلـــع الحِمـــامُ علـــيها　　　وجنـــىٰ لهـــا ثمـــر الـــردىٰ بـــيديها
رَوَّيْـــتُ مـــن دمهـــا الثـــرىٰ ولطالمـــا　　　رَوَّىٰ الهـــوىٰ شـــفتيَّ مـــن شـــفتيها
حكَّمْـــت سيفي فـــي مجـــال خـــناقها　　　ومدامعـــي تجـــري علـــىٰ خـــديها
مـــا كـــان قتلـــيها لأنِّـــي لـــم أكـــن　　　أبكـــي إذا ســـقط الـــذُّباب علـــيها
لكـــن بخلـــت علىٰ العُيُون بلحظهـــا　　　وأنفـــتُ مـــن نظـــر العـــيون إلـــيها

وقال ديك الجن في هذه المقتولة:

قمـــرٌ أنـــا اســـتخرَجْتُه مـــن دجـــنةٍ　　　لمودتـــي وجلـــوته فـــي خـــدرهِ
فقتلـــته وبـــه علـــيَّ كـــرامة　　　فلـــي الحـــشا ولـــه الفـــؤاد بأســـرهِ
عهـــدي بـــه ميـــتًا كأحـــسن نـــائم　　　والطـــرف يـــسفح دمعتـــي فـــي نحـــرهِ
لـــو كـــان يـــدري الميـــتُ مـــاذا بعـــده　　　بالحـــي مـــنه بكـــىٰ لـــه فـــي قبـــرهِ
غـــصصٌ تكـــاد تفـــيض مـــنها نفـــسه　　　ويكـــاد يخـــرج قلـــبه مـــن صـــدرهِ

وقال الأحنف بن قيس: أسلم قيس بن عاصم وعنده امرأة من بني حنيفة، فأبىٰ أهلها وأبوها أن يسلموا وخافوا إسلامها، فاجتمعوا إليها وأقسموا إنها إن أسلمت لم يكونوا معها في شيء ما بقيت، فطالبت قيسًا بالفرقة ففارقها، فلما احتملت لتلحق بأهلها قال لها قيس: أما والله لقد صحبتِني سارَّة، ولقد فارقتِني غير عارَّة، لا صحبتُك مملولة، ولا أخلاقُك مذمومة، ولولا ما اخترت ما فرَّق بيننا إلا الموت، ولكن أمرُ الله ورسوله أحق أن يطاع.

فقالت له: أنبئت بحسبك وفضلك، وأنت والله إن كنت لَلدائمَ المحبة، الكثيرَ المودة، القليلَ اللائمة، المعجَبَ الخلوة، البعيدَ النبوة، ولتعلمن أني لا أسكن بعدك إلىٰ زوج، فقال قيس: ما فارقَت نفسي شيئًا قط فتبعتهُ كما تبعَتها.

وقال حماد عجرد في رجل لامه علىٰ العشق والهوىٰ:

أخي كفَّ عن لومي فإنك لا تدري ... بما فعل الحبُّ المبرحُ في صدري
أخي أنت تلحاني وقلبك فارغٌ ... وقلبيَ مشغولُ الجوانح بالفكرِ
أخي إن دائي ليس عندي دواؤه ... ولكن دوائي عند قلب أبي بشرِ
دوائي ودائي عند من لو رأيته ... يقلب عينيه لأقصرتَ عن زجري
فأقسم لو أصبحتَ في لوعة الهوىٰ ... لأقصرتَ عن لومي وأطنبتَ في عُذري
ولكن بلائي منك أنك ناصحٌ ... وأنك لا تدري بأنك لا تدري

وكان للرشيد جارية اسمها هيلانة، وهو الذي سماها هيلانة لكثرة قولها: هي لانة، وكان لها محبًّا، وكانت قبله ليحيىٰ بن خالد بن برمك، فدخل الرشيد يومًا منزله قبل الخلافة، فاعترضته في الطريق، فقالت: أما لنا منك نصيب؟ فقال لها؟ وكيف السبيل إلىٰ ذلك؟ فقالت: استوهبني من هذا الشيخ؛ فاستوهبها من يحيىٰ بن خالد، فوهبها له فحظيت عنده ومكثت عنده ثلاث سنين ثم توفيت، فحزن عليها حزنًا

شديدًا ورثاها واسترثاها، وكان من قوله فيها:

قد قلت لما ضمنوك الثرى ... وجالت الحسرة في صدري

اذهب فلا والله لا سرني ... بعدك شيء آخر الدهرِ

وقال العباس بن الأحنف في موتها:

يا من تباشرت القبور بموتها ... قصد الزمان مساءتي فرماكِ

أبغي الأنيسَ فما أرىٰ لي مؤنسًا ... إلا التردد حيث كنت أراكِ

ملِكٌ بكاك وطال بعدك حزنُه ... لو يستطيع بملكه لفداكِ

تحمي الفؤاد عن النساء حفيظة ... كي لا يحل حمىٰ الفؤاد سواكِ

قال: فأمر له الرشيد بأربعين ألفًا، لكل بيت عشرة آلاف.

* * *

المواعظ

الموعظة جند من جنود الله تعالىٰ، ومثلها مثل الطين يُضرب به علىٰ الحائط، إن استمسك نفع، وإن وقع أثَّر.

وينبغي للعاقل أن يدرِّب قلبه علىٰ تلقي الموعظة والتذكير، فقد ينفعه الله بكلمة تعود عليه بالبركة.

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تكونن ممن لا تنفعه الموعظة إلا إذا بالغت في إيلامه؛ فإن العاقل يتعظ بالأدب، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب».

ومن جميل ما ورد ذِكرُه من المواعظ: ما جاء عن هارون الرشيد أنه قال لمنصور ابن عمارة: عِظني وأوجز، فقال: يا أمير المؤمنين، هل أحدٌ أحب إليك من نفسك؟ قال: لا. قال: إن أردت ألا تُسيء إلىٰ من تحب فافعل.

ولما ضرب ابنُ ملجم -قَاتَلَه الله- عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، دخل منزله فاعترته غشية ثم أفاق، فدعا الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقال: أوصيكما بتقوىٰ الله تعالىٰ، والرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، ولا تأسَفَا علىٰ شيء فاتكما منها، فإنكما عنها راحلان، افعلا الخير، وكونا للظالم خصمًا، وللمظلوم عونًا.

ثم دعا محمدًا ولده وقال له: أما سمعت ما أوصيتُ به أخويك، قال: بلىٰ. قال: فإني أوصيك به، وعليك ببر أخويك وتوقيرهما، ومعرفة فضلهما، ولا تقطع أمرًا دونهما، ثم أَقبَل عليهما وقال: أوصيكما به خيرًا، فإنه أخوكما وابنُ أبيكما، وأنتما تعلمان أن أباه كان يحبه فأحباه.

ثم قال: يا بَنيَّ، أوصيكم بتقوىٰ الله في الغيب والشهادة، وكلمةِ الحق في الرضا

والغضب، والقصدِ في الغنىٰ والفقر، والعدلِ في الصديق والعدو، والعملِ في النشاط والكسل، والرضا عن الله في الشدة والرخاء.

يا بَنيَّ، ما شرٌّ بعده الجنة بشرٍّ، ولا خيرَ بعده النار بخير، وكلُّ نعيم دون الجنة حقير، وكلُّ بلاء دون النار عافية، ومن أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومن رضي بما قسم الله له لم يحزن علىٰ ما فاته.

وقال بعض الحكماء: مَن سل سيف البغي قُتِل به، ومَن حفر لأخيه بئرًا وقع فيها، ومن هتك حجاب أخيه هُتكت عورات بنيه، ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره، ومن أعجب برأيه ضل، ومن استغنىٰ بعقله زل، ومن تكبر علىٰ الناس ذل، ومن خالط الأنذال احتُقِر، ومن دخل مداخل السوء اتهم، ومن جالس العلماء وقر، ومن مزح استُخف به، ومَن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قل حياؤه، ومن قلَّ حياؤه قل ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار، والأدب ميزان الرجل، وحسن الخلق خير قرين، والعافية عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت إلا عن ذكر الله تعالىٰ وواحدة في ترك مجالسة السفهاء، وزينة الفقر الصبر، وزينة الغنىٰ الشكر، ولا شرف أعلىٰ من الإسلام، ولا كرم أعز من التقوىٰ، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية، والحرص مفتاح التعب ومطية النصب.

ولما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة نظر إلىٰ أهله يبكون حوله فقال: جاد لكم هشام بالدنيا، وجدتم له بالبكاء، وترك لكم جميع ما جمع، وتركتم عليه ما حُمِّل، ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر الله له.

وروىٰ زيد بن أسلم عن أبيه قال: قلت لجعفر بن أبي طالب رَحِمَهُ ٱللَّهُ- وكان والي المدينة-: احذر أن يأتي رجل غدًا ليس له في الإسلام نسب ولا أب ولا جد، فيكون أولىٰ برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منك، كما كانت امرأة فرعون أولىٰ بموسىٰ، وكما كانت امرأة نوح أولىٰ بقومها منه، فمن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ومن أسرع به عمله

لم يبطئ به نسبه.

وقال بعض العلماء: دخلت علىٰ الأفضل بن أمير الجيوش، وهو أمير علىٰ مصر، فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد السلام علىٰ نحوِ ما سلمتُ ردًّا جميلًا، وأكرمني إكرامًا جزيلًا، وأمرني بدخول مجلسه، وأمرني بالجلوس فيه، فقلت: أيها الملك، إن الله تعالىٰ قد أحلك محلًّا عليًّا شامخًا، وأنزلك منزلًا شريفًا باذخًا، وملَّكك طائفة من ملكه، وأشركك في حكمه، ولم يرضَ أن يكون أمرُ أحدٍ فوق أمرك، فلا ترض أن يكون أحدٌ أولىٰ بالشكر منك، وليس الشكر باللسان، وإنما هو بالفعال والإحسان، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣].

واعلم أن هذا الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك، فاتق الله فيما خوَّلك من هذه الأمة، فإن الله تعالىٰ سائلك عنه، قال الله تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧].

واعلم أيها الملك أن الله تعالىٰ قد آتىٰ مُلك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، فسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم، وسخَّر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:٣٩]، فوالله ما عدَّها نعمة كما عددتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن تكون استدراجًا من الله تعالىٰ، ومكرًا به، فقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠]، فافتح الباب، وسهِّل الحجاب، وانصر المظلوم، وأغث الملهوف، أعانك الله علىٰ نصر المظلوم، وجعلك كهفًا للملهوف وأمانًا للخائف.

ثم أتممت المجلس بأن قلت: قد جبتُ البلاد شرقًا وغربًا، فما اخترت مملكة

وارتحت إليها، ولذَّت لي الإقامةُ فيها، غير هذه المملكة، ثم أنشدته:

والناس أكيسُ من أن يحمدوا رجلًا حتىٰ يروا عنده آثار إحسانِ

وقال الفضل بن الربيع: حج هارون الرشيد سنة من السنين، فبينما أنا نائم ذات ليلة إذ سمعت قرع الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: أجب أمير المؤمنين، فخرجت مسرعًا، فقلت: يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إليَّ أتيتُك، فقال: ويحك قد حاك في نفسي شيءٌ لا يخرجه إلا عالِم، فانظر لي رجلًا أسأله عنه، فقلت: هاهنا فلان بن فلان، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه، فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعًا، فقال: يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إليَّ أتيتك، فقال: خذ لما جئنا له، فحادثه ساعة، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم. فقال: يا أبا العباس، اقض دينه.

ثم انصرفنا، فقال: ما أغنىٰ عني صاحبك شيئًا، فانظر لي رجلًا أسأله، فقلت: هاهنا فلان، فقال: امضِ بنا إليه، فأتيناه، فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعًا، فقال: يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إليَّ أتيتك، فقال: خذ لما جئنا به، فحادثه ساعة، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم. فقال: يا أبا العباس، اقض دينه، ثم انصرفنا، فقال: ما أغنىٰ عني صاحبك شيئًا، فانظر لي رجلًا أسأله، فقلت هاهنا الفضيل بن عياض، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه، فإذا هو قائم يصلي في غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالىٰ وهو يرددها، فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: ما لي ولأمير المؤمنين، فقلت: سبحان الله! أما تجب عليك طاعته؟

ففتح الباب ثم ارتقىٰ إلىٰ أعلىٰ الغرفة، فأطفأ السراج، ثم التجأ إلىٰ زاوية من زوايا الغرفة، فجعلنا نجول عليه بأيدينا، فسبقت كفُّ الرشيد كفِّي إليه، فقال: أواه من كفٍّ ما ألينَها إن نجت غدًا من عذاب الله تعالىٰ.

فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي، فقال: خذ لما جئنا له

رحمك الله تعالىٰ، فقال: إن عمر بن عبد العزيز لمَّا وَلي الخلافة دعا سالمَ بن عبد الله ومحمدَ بن كعب القرظي، ورجاءَ بن حيوة، فقال لهم: إني قد ابتُليت بهذا البلاء، فأشيروا عليَّ؛ فعدَّ الخلافة بلاءً، وعددتَها أنت وأصحابك نعمة، فقال سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله، فصم عن الدنيا وليكن إفطارك فيها علىٰ الموت.

وقال محمد بن كعب: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله تعالىٰ، فليكن كبير المسلمين عندك أبًا، وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم عندك ولدًا، فبرَّ أباك، وارحم أخاك، وتحنن علىٰ ولدك.

وقال رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله تعالىٰ، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مُت إذا شئت.

وإني لأقول هذا، وإني لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام، فهل معك - رحمك الله- مثل هؤلاء القوم ممن يأمرك بمثل هذا.

فبكىٰ هارون الرشيد بكاء شديدًا حتىٰ غشي عليه، فقلت له: ارفق بأمير المؤمنين، فقال: يا ابن الربيع، قتلته أنت وأصحابك، وأرفق به أنا؟

ثم أفاق هارون الرشيد، فقال: زدني، فقال: يا أمير المؤمنين، بلغني أن عاملًا لعمر بن عبد العزيز شكا إليه سهرًا، فكتب له عمر يقول: يا أخي، اذكر سهر أهل النار في النار وخلود الأبد، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السببل، فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك، فلما قرأ كتابه طوىٰ البلاد حتىٰ قدم عليه، فقال له عمر: ما أقدمَك؟ فقال له: لقد خلعت قلبي بكتابك، فلا واللهِ لا وَليت ولاية أبدًا حتىٰ ألقىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

فبكىٰ هارون الرشيد بكاء شديدًا، ثم قال: زدني رحمك الله، فقال: يا حسنَ الوجه، أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقيَ هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك، فإن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من أصبح لهم غاشًا لم يرح رائحة الجنة**»، فبكىٰ هارون الرشيد بكاء

شديدًا، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم. دَين لربي يحاسبني عليه، فالويل لي إن ناقشني، والويل لي إن سألني، والويل لي إن لم يلهمني حجتي، قال هارون: إنما أعني دين العباد، قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، وإنما أمرني أن أُصَدِّق وعده وأطيع أمره، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

فقال له هارون: هذه ألف دينار، فخذها وأنفقها علىٰ عيالك وتقوَّ بها علىٰ عبادة ربك، فقال: سبحان الله! أنا دللتك علىٰ سبيل الرشاد، وتكافئني أنت بمثل هذا؟!، سَلَّمك الله ووفقك.

ثم صَمَت، فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فقال لي هارون: إذا دللتني علىٰ رجلٍ فدلَّني علىٰ مثل هذا، فإن هذا سيد المسلمين اليوم.

وقيل: إنه كان في غابر الأزمان ثلاثة أشخاص سائرين فوجدوا كنزًا يتلألأ أمام أعينهم، فمكثوا بجانبه وقالوا: قد جعنا واشتدَّ ظمؤنا وسئمنا من التعب، فليمض امرؤٌ منا ليبتاع لنا ما نأكله، فمضىٰ أحدهم، وبينما هو ذاهب أضمر في نفسه أن يدس لهما السمَّ في الدسم ليأكلوه فيموتا وينفرد بالكنز دونهما، ثم إنه فعل ذلك، وكان الرجلان الآخران قد اتفقا علىٰ أنه إذا رجع بالطعام قتلاه وانفردا بالكنز دونه، فلما وصل إليهما وثبا عليه وقتلاه، وأكلا من الطعام المسموم فوقعا في سوء عملهما، فلما اجتاز بذلك المكان أحدُ الحكماء مع أصدقائه قال لهم مشيرًا إلىٰ الكنز: هذه الدنيا، فانظروا كيف قتلت هؤلاء الثلاثة وبقيت بعدهم؟!

ومن الوعظ ما يكون عامًّا لجميع الناس، ومنه ما يكون خاصًّا لفرد من أفرادهم، وهذا لابد أن يُراعَىٰ فيه أدب الوعظ حتىٰ يؤتي ثماره، وأهم ذلك أن يكون الوعظ سرًّا لا علىٰ رؤوس الأشهاد، فمن وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة، ومن وعظه علىٰ رؤوس الأشهاد فإنما هو تقريع وفضيحة.

قالت أم الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «من وعظ أخاه سرًّا فقد سرَّه وزانه، ومن وعظه علانية فقد ساءه وشانه».

وقالت الحكماء: من وعظ أخاه سرًّا فقد نصحه وسرَّه، ومن وعظه جهرًا فقد فضحه وضرَّه.

وعن عبد العزيز بن أبي رَوَّاد قال: «كان الرجل إذا رأىٰ من أخيه شيئًا أمره في ستر، ونهاه في ستر، فيؤجر في ستره، ويؤجر في أمره، ويؤجر في نهيه».

وعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا رأيتم أخاكم ذا زلة فقوِّموه وسددوه، وادعوا الله أن يرجع به إلىٰ التوبة فيتوب عليه، ولا تكونوا أعوانًا للشيطان علىٰ أخيكم».

ووعظ الخطاب بن المعلىٰ المخزومي ابنه فقال: يا بني، عليك بتقوىٰ الله وطاعته، وتجنب محارِمَه باتباع سنته ومعالمه، حتىٰ تصح عيوبك وتقر عينك، فإنها لا تخفىٰ علىٰ الله خافية.

وإني قد وَسمت لك وسمًا، ووضعت لك رسمًا، إن أنت حفظته ووعيته وعملت به ملأت أعين الملوك، وانقاد لك به الصعلوك، ولم تزل مرتجىٰ مشرَّفًا يُحتاج إليك، ويرُغب إلىٰ ما في يديك، فأطع أباك، واقتصر علىٰ وصية أبيك، وفَرِّغ لذلك ذهنك واشغَل به قلبك ولبَّك.

إياك وهَذر الكلام وكثرة الضحك والمزاح، ومهازلة الإخوان؛ فإن ذلك يذهب البهاء ويوقع الشحناء، وعليك بالرزانة والتوقر، من غير كبر يوصف منك، ولا خُيلاء تحكىٰ عنك، والقَ صديقك وعدوَّك بوجه الرضا وكف الأذىٰ، من غير ذِلة لهم ولا هيبة منهم، وكن في جميع أمورك في أوسطها؛ فإن خير الأمور أوساطها، وقلل الكلام، وأفش السلام وامش متمكنًا قَصدًا، ولا تخط برجلك، ولا تسحب ذيلك، ولا تَلوِ عُنقك ولا رداءك، ولا تنظر في عطفك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف علىٰ الجماعات، ولا تتخذ

السوق مجلسًا، ولا الحوانيت متحدثًا، ولا تكثر المراء ولا تنازع السفهاء.

فإن تكلمت فاختصر وإن مزحت فاقتصر، وإذا جلست فتربع، وتحفظ من تشبيك أصابعك وتفقيعِها، والعَبَث بلحيتك وخاتمك وتخليل أسنانك، وإدخال يديك في أنفك، وكثرة طرد الذباب عنك، وكثرة التثاؤب والتمطِّي، وأشباه ذلك مما يستخفه الناس منك، ويغتمزون به فيك.

وليكن مجلسك هادئًا، وحديثك مقسومًا، واصغِ إلىٰ الكلام الحسن ممن حدثك بغير إظهار عجب منك ولا مسألة إعادة، وغُضَّ من الفكاهات من المضاحك والحكايات، ولا تحدَّث عن إعجابك بولدك ولا جاريتك ولا عن فرسك، وإياك وأحاديث الرؤيا، فإنك إن أظهرت عجبًا بشيء منها طمع فيها السفهاء، فولَّدوا لك الأحلام، واغتمزوا في عقلك، ولا تصَنَّع تصَنُّع المرأة، ولا تَبذَّل تبذُّل العبد، ولا تلحَّ في الحاجات، ولا تخشع في الطلبات، ولا تعلِّم أهلك وولدك -فضلًا عن غيرهم- عدَد مالك، فإنهم إن رأوه قليلًا هنتَ عليهم، وإن كان كثيرًا لم تبلغ به رضاهم، وأَخِفْهم في غير عنف، ولِنْ لهم في غير ضعف.

ولا تهازل أمَتك، وإذا خاصمت فتوقَّر، وتحفظ من جهلك، وتجنب العجلة، وتفكر في حُجَّتك، وَأَرِ الحاكم شيئًا من حلمك، ولا تكثر الإشارة بيدك، ولا تَحَفَّز علىٰ ركبتيك، وتوقَّ حمرة الوجه وعَرَق الجبين، وإن سُفه عليك فاحلم، وإذا هدأ غضبك فتكلم، وأكرم عرضك، وألقِ الفضول عنك، وإن قرَّبك سلطان فكن منه علىٰ حدِّ السنان، وإن استرسل إليك فلا تأمن من انقلابه عليك، وارفق به رفقك بالصبي، وكلمه بما يشتهي، ولا يحملنك ما ترىٰ من إلطافه إياك وخاصته بك أن تدخل بينه وبين أحد من ولده وأهله وحشمه، وإن كان لذلك منك مستمعًا، وللقول منك مطيعًا، فإن سقطة الداخل بين الملك وأهله صَرعةٌ لا تنهض، وزلَّة لا تُقَال.

وإذا وعدت فحقق، وإذا حدثت فاصدق، ولا تجهر بمنطقك كمنازع الأصم، ولا تخافت به كتخافت الأخرس، وتخير محاسن القول بالحديث المقبول، وإذا حدثت بسماع فانسبه إلىٰ أهله، وإياك الأحاديث العابرة المشنِّعة التي تنكرها القلوب، وتقفُّ لها الجلود، وإياك ومضعَّف الكلام مثل: نعم، نعم، ولا، لا، وعجل، وعجل، وما أشبه ذلك.

ولا تَعَضَّ نصف اللقمة ثم تعيد ما بقي منها فإن ذلك مكروه، ولا تعب شيئًا مما يُقرَّب إليك علىٰ مائدة بقلة خلٍّ أو تابلٍ أو عسل؛ فإن السحابة قد صيرت لنفسها مهابة.

ولا تمسك إمساك المثبور، ولا تُبذر تبذير السفيه المغرور، واعرف في مالك واجبَ الحقوق، وحرمة الصديق، واستغن عن الناس يحتاجوا إليك، واعلم أن الجشَع يدعو إلىٰ الطمع، والرغبةُ تدق الرقبة، وربَّ أكلة تمنع أكلات، والتعفف مال جسيم، وخلق كريم، ومعرفة الرجل قدره تشرف ذكره، ومن تعدىٰ القَدْر، هوىٰ في بعيد القعر.

والصدق زين، والكذب شين، ولَصِدقٌ يُسرع عطبَ صاحبه، أحسنُ عاقبة من كذب يسلم عليه قائله.

ومعاداة الحليم خير من مصادقة الأحمق، ولزوم الكريم علىٰ الهوان خير من صحبة اللئيم علىٰ الإحسان، ولَقرب ملك جواد، خير من مجاورة بحر طراد.

وزوجة السوء الداء العُضال، ونكاح العجوز يذهب بماء الوجه، وطاعة النساء تزري بالعقلاء.

تشبه بأهل العقل تكن منهم، وتصنَّع للشرف تدركه، واعلم أن كل امرئ حيث وضع نفسه، وإنما ينسب الصانع إلىٰ صناعته، والمرء يعرف بقرينه، وإياك وإخوان السوء فإنهم يخونون مَن رافقهم، ويُحزِنون من صادقهم، وقربُهم أعدىٰ من الجَرب، ورفضهم من استكمال الأدب، والعجلة شؤم، وسوء التدبير وهن.

والإخوان اثنان: فمحافظ عليك عند البلاء، وصديق لك في الرخاء، فاحفظ صديق البلاء، وتجنب صديق العافية فإنه أعدىٰ الأعداء.

ومن اتبع الهوىٰ مال به الردىٰ، ولا يعجبك الجهم من الرجال، ولا تحقر ضئيل الخلال فإنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، ولا ينتفع به بأكثر من أصغريه.

وتوقَّ الفساد وإن كنت في بلاد الأعادي، ولا تفرش عرضك لمن دونك، ولا تجعل مالك أكرم عليك من عرضك، ولا تكثر الكلام فتثقل علىٰ الأقوام، وامنح البِشر جليسك والقبول ممن لاقاك.

وكن متقربًا، متعززًا، منتهزًا في فرصتك، رفيقًا في حاجتك، متثبتًا في حملتك، والبس لكل دهر ثيابه، ومع كل قوم شكلهم.

واحذر ما يلزمك اللائمة في آخرتك، ولا تعجل في أمر حتىٰ تنظر في عاقبته، ولا ترد حتىٰ ترىٰ وجه المصدر.

وإياك وكثرة التبريق؛ فإن ظاهر ذلك ينسب إلىٰ التأنيث، وإياك والتصنع لمغازلة النساء، وليكن السواك من طبيعتك، وإذا استكتَ فعَرضًا.

وعليك بالعَمارة؛ فإنها أنفع التجارة، وعلاج الزرع خير من اقتناء الضرع.

ومنازعتك اللئيم تطمعه فيك، ومن أكرم عرضه أكرمه الناس، وذم الجاهل إياك أفضل من ثنائه عليك، ومعرفة الحق من أخلاق الصدق، والرفيق الصالح ابن عم، ومن أيسر أُكبر، ومن افتقر احتقر.

وطول السفر ملالة، وكثرة المنىٰ ضلالة، وليس للغائب صديق، ولا علىٰ الميت شفيق، وأدب الشيخ عناء، وتأديب الغلام شقاء، والفاحش أمير، والوَقاح وزير، والحلم مطية الأحمق، والحمق داء لا شفاء له، والحلم خير وزير، والدين أزين الأمور، والسماجة سفاهة، والسكران شيطان وكلامه هذيان، والشح شقاء، والشجاعة بقاء، والهدية من الأخلاق السَّرية، وهي تورث المحبة، ومن ابتدأ المعروف صار دَينًا، ومن

المعروف ابتداء من غير مسألة، وصاحب الرياء يرجع إلىٰ السخاء، ولَرياء بخير خير من معالنةٍ بشرٍّ.

والعادة طبيعة لازمة: إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، ومن حل عَقدًا احتمل حقدًا، ومراجعة السلطان حمق بالإنسان، والفرار عار، والتقدم مخاطرة، وأعجل منفعة إيسارٌ في دعة، وكثرة العلل من البُخل، وشر الرجال الكثير الاعتلال، وحسن اللقاء يذهب بالشحناء، ولين الكلام من أخلاق الكرام.

يا بني، إن زوجة الرجل سَكَنه، ولا عيش له مع خلافها، فإذا هممت بنكاح امرأة فسل عن أهلها، فإن العرق نزَّاع، والعروق الطيبة تنبت الثمار الحلوة.

واعلم أن النساء أشد اختلافًا من أصابع الكف، فتوقَّ منهن كل ذات بَذا، مجبولة علىٰ الأذىٰ.

فمنهن: المعجبة بنفسها المزرية ببعلها، إن أكرمها رأته لفضلها عليه، لا تشكر علىٰ جميل، ولا ترضىٰ منه بقليل، لسانها عليه سيف صقيل، قد كشفت الوقاحةُ ستر الحياء عن وجهها، فلا تستحي من إعوارها، ولا تستحي من جارها، كلبة هرَّارة، مُهارشة عَقارة، فوجه زوجها مكلوم، وعرضه مشتوم، لا ترعىٰ عليه لدين ولا لدنيا، ولا تحفظه لصحبةٍ ولا لكثرة بنين، حجابه مهتوك، وستره منشور، وخيره مدفون، يصبح كئيبًا، ويمسي عاتبًا، شرابه مرٌّ، وطعامه غيظ، وولده ضِياع، وبيته مستهلَك، وثوبه وسخ، ورأسه شعث، إن ضحك فواهِن، وإن تكلم فمتكاره، نهاره ليل، وليله ويل، تلدغه مثل الحيةِ العقارةِ، وتلسَعُه مثل العقرب الجرارة.

ومنهن: سلفع، ذات سم منقع، تهب مع الرياح، وتطير مع كل ذي جناح، إن قال: لا، قالت: نعم، وإن قال: نعم، قالت: لا، مُولِّدة لمخازيه، محتقرة لما في يديه، تضرب له الأمثال، وتقصر به دون الرجال، وتنقله من حال إلىٰ حال، حتىٰ أبغض بيتَه، ومَلَّ ولده، وغثَّ عيشه، وهانت عليه نفسه، وحتىٰ أنكره إخوانه ورحمه وجيرانه.

ومنهن: الورهاء الحمقاء، ذات الدَّلِّ في غير موضعه، الماضغة للسانها، الآخذة في غير شأنها، قد قنعت بحبه، ورضيت بكسبه، تأكل كالحمار الراتع، تنتشر الشمس فلا يُسمع لها صوت، ولا يكنس لها بيت، طعامها بائت، وإناؤها وضِر، وعجينها حامض، وماؤها فاتر، ومتاعها مزروع، وماعونها ممنوع، وخادمها مضروب، وجارها محروب.

ومنهن: العطوف الودود، المباركة الولود، المأمونة علىٰ غيبها، المحبوبة في جيرانها، المحمودة في سرِّها وإعلانها، الكريمة التبعل، الكثيرة التفضل، الخافضة صوتًا، النظيفة بيتًا، خادمُها مسمَّن، وابنها مزيَّن، وخيرها دائم، وزوجها ناعم، مومومقة مألوفة، وبالعفاف والخيرات موصوفة.

جعلك الله يا بني ممن يقتدي بالهدىٰ، ويأتمّ بالتقىٰ، ويجتنب السخط، ويحب الرضا.

ووقعت القرحة في يمين بشر بن مروان، فقيل له: نقطعها من المفصل، فجزع، فما أمسىٰ حتىٰ خالطت الكتف ثم أصبح وقد خالطت الجوف ثم مات، ولما احتضر جعل يبكي، ويقول: والله لوددت أني كنت عبدًا أرعىٰ الغنم في البادية لبعض الأعراب ولم آل ما ولِيت.

فذُكر قوله لأبي حازم فقال: الحمد لله الذي جعلهم عند الموت يفرون إلينا، ولم يجعلنا نفر إليهم، إنا لنرىٰ فيهم عبرًا.

ولما دخل عبد الملك بن مروان قصر الكوفة أمر بطعام كثير فعُمل لأهلها، فأكلوا من سماطه، ومعه يومئذٍ علىٰ السرير عمرو بن حريث، فقال له عبد الملك: ما ألذَّ عيشنَا لو أنَّ شيئًا يدوم، ولكن نحن كما قال الأول:

وكلُّ جديد يا أميمُ إلىٰ بلىٰ ... وكلُّ امرئٍ يومًا يصير إلىٰ كانَ

فلما فرغ الناس من الطعام نهض فدار في القصر، وجعل يسأل عمرَو بن حريث

عن أحوال القصر ومَن بنىٰ أماكنَه وبيوته، فيخبره، ثم جاء إلىٰ مجلسه فاستلقىٰ وهو يقول:

اعمل علىٰ مهل فإنك ميتٌ — واكدح لنفسك أيها الإنسانْ

فكأن ما قد كان لم يك إذ مضىٰ — وكأنَّ ما هو كائن قد كانْ

وقال الفضل بن الربيع: حججت مع الرشيد فمررنا بالكوفة، فإذا بهلول المجنون يهذي، فقلت: اسكت، فقد أقبل أمير المؤمنين، فسكت، فلما حاذاه الهودج قال: يا أمير المؤمنين، إنَّ قدامة بن عبد الله العامري قال: «رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنىٰ علىٰ جمل وتحته رحل رث، ولم يكن ثَمَّ طرد ولا ضرب ولا إليك إليك»[(١)].

فقلت: يا أمير المؤمنين، إنه بهلول المجنون، فقال: قد عرفته، قل يا بهلول، فقال:

فهب أن قد ملكت الأرض طرًّا — ودان لك العباد فكان ماذا

أليس غدًا مصيرك جوف قبر — ويحثو الترب هذا ثم هذا

قال: أجدت يا بهلول، أفغيره؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين، من رزقه الله جمالًا ومالًا، فعفَّ في جماله، وواسىٰ في ماله، كُتب في ديوان الأبرار.

فظن أنه يريد شيئًا، فقال: إنا قد أمرنا بقضاء دينك، قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، لا تقض دينًا بدين، اردد الحق إلىٰ أهله، واقض دين نفسك من نفسك.

قال: إنا أمرنا أن يجري عليك رزق، قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإنه لا يعطيك وينساني، ولا حاجة لي في جرايتك.

ولما تولَّىٰ إياسٌ القضاء بالبصرة فرح به العلماء، حتىٰ قال أيوب: لقد رموها بحجرها، وجاءه الحسن وابن سيرين فسلما عليه، فبكىٰ إياس وذكر حديث: «**القضاة**

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٦٢٣).

ثلاثة: قاضيان في النار، وواحد في الجنة ...»[1]، فقال الحسن: فقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩]، ثم جلس للناس في المسجد، واجتمع عليه الناس للخصومات، فما قام حتىٰ فصل سبعين قضية، حتىٰ كان يشبَّه بشريح القاضي، وكان إذا أشكل عليه شيء بعث إلىٰ محمد بن سيرين فسأله عنه.

وقال عقال بن شبة: كان هشام بن عبد الملك محشوًّا عقلًا، دخلت عليه وعليه رداء أخضر، فوجهني إلىٰ خراسان، ثم جعل يوصيني وأنا أنظر إلىٰ الرداء، ففطن، فقال: ما لك؟ قلت: رأيت عليك رداءً عجبًا أخضر قبل أن تلي الخلافة، فجعلت أتأمل هذا، أهو ذاك أم غيره؟ قال: هو والله الذي لا إله غيره ذاك، ما لي رداءٌ غيره، وأما ما ترون من جمعي لهذا المال وصونه فإنه لكم.

ودخل بعض الزهاد علىٰ المنصور، فقال: إنَّ الله أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك ببعضها، واذكر ليلة تبيت في القبر لم تبت قبلها ليلة، واذكر ليلة تمَخَّض عن يومٍ لا ليلة بعده.

فرقَّ المنصور لقوله وأمر له بمال، فقال: لو احتجت إلىٰ مالك لما وعظتك.

ودخل رجل علىٰ المنصور، فأكرمه وعظَّمه وأدناه وسأله عن أهله وعياله، ثم قال له: عظني، فقرأ عليه أول سورة «الفجر» إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر:١٤]، قال: فبكىٰ المنصور بكاءً شديدًا حتىٰ كأنه لم يسمع بهذه الآيات قبل تلك الساعة، ثم قال: زدني، فقال: إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسَك ببعضها، وإنَّ هذا الأمر كان لمن قبلك ثم صار إليك، ثم هو صائر لمن بعدك، واذكر ليلة تسفر عن يوم القيامة، فبكىٰ المنصور أشدَّ من بكائه الأول حتىٰ اختلف جفناه.

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٢٦١٤).

فقال له سليمان بن مجالد: رفقًا بأمير المؤمنين، فقال الرجل: وماذا علىٰ أمير المؤمنين أن يبكي من خشية الله عَزَّوَجَلَّ؟

ثم أمر له المنصور بعشرة آلاف درهم، فقال: لا حاجةَ لي فيها. فقال المنصور: واللهِ لتأخذنَّها. فقال: واللهِ لا آخذها.

فقال له المهدي وهو جالس في سواده وسيفه إلىٰ جنب أبيه: أيحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت؟!

فالتفت إلىٰ المنصور، فقال: ومَن هذا؟ فقال: هذا ابني محمد المهدي وليُّ العهد من بعدي.

فقال: أسميتَه اسمًا لم يستحقه بعمله هذا، وألبسْته لبوسًا ما هو لبوس الأبرار، ولقد مهدتَ له أمرًا أمتعَ ما يكون به أشغلَ ما تكون عنه.

ثم التفت إلىٰ المهدي، فقال: يا ابن أخي، إذا حلف أبوك حلف عمُّك؛ لأنَّ أباك أقدر علىٰ الكفارة من عمك.

ثم قال المنصور للرجل: هل من حاجة؟ قال: نعم. قال: وما هي؟ قال: لا تبعث إليَّ حتىٰ آتيك. فقال: إذن واللهِ لا نلتقي. فقال: عن حاجتي سألتني، فودَّعَه وانصرف.

وقال بعضهم:

لِما تُوعد الدنيا به من شرورها ... يكون بكاء الطفل ساعة يوضعُ

وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأَرْوَح مما كان فيه وأوسعُ

إذا أبصر الدنيا استهل كأنما ... يرىٰ ما سيلقىٰ من أذاها ويسمعُ

وهاجت ريحٌ شديدة في زمن المهدي، فدخل المهديُّ بيتًا في داره، فألزق خده بالتراب، وقال: اللهم إن كنتُ أنا المطلوب بهذه الجناية دون الناس فهأنذا بين يديك، اللهم لا تشمت بي الأعداء من أهل الأديان، فلم يزل كذلك حتىٰ انجلت.

ودخل رجلٌ ومعه نعل علىٰ المهديِّ، فقال: هذه نعل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أهديتها لك، فقال: هاتها، فناوله إياها، فقبَّلها ووضعها علىٰ عينيه، وأمر له بعشرة الآف درهم.

فلما انصرف الرجل قال المهدي: والله إني لأعلمُ أنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَرَ هذه النعل فضلًا عن أن يلبسها، ولكن لو رددتُه لذهب يقول للناس: أعطيته نعل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فردَّها عليَّ فيصدقه أكثر الناس؛ لأنَّ العامة تميل إلىٰ أمثالها، ومن شأنهم نصرُ الضعيف علىٰ القوي وإن كان ظالمًا، فاشترينا لسانه بعشرة آلاف درهم، ورأينا هذا أرجح وأنجح.

ووعظ عبد الله بن عبد العزيز العمري الرشيد يومًا، فأطنب وأطيب، فقال له وهو واقف علىٰ الصفا: انظر كم حولها من الناس؟ فقال: بشرٌ كثير، فقال: كلٌّ منهم يسأل يوم القيامة عن خاصة نفسه، وأنت تسأل عنهم كلهم.

فبكىٰ الرشيد بكاءً كثيرًا، وجعلوا يأتونه بمنديل بعد منديل يمسح بها دموعه، ثم قال له: يا هارون، إن الرجل ليسرع في ماله فيستحق الحجر عليه، فكيف بمن يسرع في أموال المسلمين كلهم؟! ثم تركه وانصرف والرشيد يبكي.

وكان محمد بن يوسف بن معدان لا يشتري زاده من خباز واحد، ولا من بقال واحد، ولا يشتري إلا ممن لا يعرفه، يقول: أخشىٰ أن يحابوني فأكون ممن يعيش بدينه.

ولما سجن هارون الرشيد موسىٰ بن جعفر وأطال سجنه، كتب إليه موسىٰ رسالة يقول فيها: أما بعد، يا أمير المؤمنين، إنه لن ينقضي عني يوم من البلاء، إلا انقضىٰ عنك يوم من الرخاء، حتىٰ يفضي بنا ذلك إلىٰ يوم يخسر فيه المبطلون.

وكان أحمد ابن أمير المؤمنين الرشيد زاهدًا عابدًا، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه، يعمل في الطين، وكانت أجرته في كل يوم يعمل فيه من الجمعة إلىٰ الجمعة درهمًا، وكان لا يعمل إلا في يوم السبت فقط، ثم يقبل علىٰ العبادة بقية أيام الجمعة،

وكان من امرأة كان الرشيد قد أحبها فتزوجها سرًّا، فحملت منه بهذا الغلام فأرسلها إلىٰ البصرة وأعطاها خاتمًا من ياقوت أحمر وأشياء نفيسة، وأمرها إذا أفضت إليه الخلافة أن تأتيه.

فلما صارت الخلافة إليه لم تأته ولا ولدها وبلغه أنهما ماتا، ولم يكن كذلك، فكان هذا الشاب يعمل بيده ويأكل من كدها، فاتفق مرضُه في دارِ مَن كان يستعمله في الطين فمرَّضه عنده، فلما احتضر أخرج الخاتم وقال لصاحب المنزل: اذهب بهذا إلىٰ الرشيد، وقل له: صاحب هذا الخاتم يقول لك: إياك أن تموت في سكرتك هذه فتندم، فلما مات ودفنه طلب الحضور بين يدي الخليفة، فقال: ما حاجتك؟ قال: هذا الخاتم دفعه إليَّ رجل وأوصاني أن أقول لك كلامًا، فلما نظر عرفه، فقال: ويحك، وأين صاحب الخاتم؟ قال: مات يا أمير المؤمنين، وهو يقول لك: احذر أن تموت في سكرتك فتندم.

فقام الرشيد فضرب بنفسه البساط، وجعل يتقلب ظهرًا لبطن، ويقول: والله لقد نصحتني يا بني، ثم قال: أتعرف قبره؟ قال: نعم، قال: إذا كان العشي فأتني، فأتاه، فذهب إلىٰ قبره، فلم يزل يبكي عنده حتىٰ أصبح، ثم أمر لذلك الرجل بعشرة آلاف درهم، وكتب له ولعياله رزقًا.

وعن شعيب بن درهم قال: كان في هذا المكان -وأومأ إلىٰ مجرىٰ الدموع من خديه- من خدَّي ابن عباس مثل الشراك البالي من البكاء.

ولما احتضر الأسود بن يزيد النخعي بكىٰ، فقيل له: ما هذا الجزع؟ فقال: ما لي لا أجزع؟ ومن أحق بذلك مني؟ والله لو أنبئت بالمغفرة من الله لأهمني الحياء منه مما قد صنعت، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه، فلا يزال مستحييًا منه.

وكان صلة بن أشيم العدوي يمر عليه شباب يلهون ويلعبون، فيقول: أخبروني عن

قوم أرادوا سفرًا، فحادوا في النهار عن الطريق، وناموا الليل، فمتىٰ يقطعون سفرهم؟

فقال لهم يومًا هذه المقالة، فقال شاب منهم: والله يا قوم إنه ما يعني بهذا غيرنا، نحن بالنهار نلهو وبالليل ننام، ثم تبع صلة، فلم يزل يتعبد معه حتىٰ مات.

وقال رجل لصلة بنِ أشيم: ادع الله لي، فقال: رغَّبك الله فيما يبقىٰ، وزهدك فيما يفنىٰ، ورزقك اليقين الذي لا تركن إلا إليه، ولا تعوِّل في الدين إلا عليه.

وقال الأوزاعي: «لقد أدركت أقوامًا يضحك بعضهم إلىٰ بعض، فإذا جنَّهم الليل كانوا رهبانًا».

وقال الأوزاعي: «لا تنظر إلىٰ صغر الذنب، وانظر من عصيت».

وقال الوليد بن مسلم: ما رأيت أحدًا أشد اجتهادًا من الأوزاعي في العبادة، وكان الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثير العبادة، حسن الصلاة، وكان يقول: من أطال القيام في صلاة الليل هوَّن الله عليه طول القيام يوم القيامة، وكأنه أخذ ذلك من القرآن، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ [الإنسان:٢٦-٢٧]، وكان من شدة الخشوع كأنه أعمىٰ.

وقال أمير المؤمنين هارون الرشيد يومًا للفضيل بن عياض: ما أزهدك! فقال: أنت أزهد مني؛ لأني زهدت في الدنيا الفانية، وأنت زهدت في الآخرة الباقية.

ودخلت امرأةٌ علىٰ امرأةِ الأوزاعي، فرأت الحصير الذي يصلي عليه مبلولًا، فقالت لها: لعل الصبي بال هاهنا، فقالت: لا، هذا من أثر دموع الشيخ في سجوده، وهكذا يصبح كل يوم.

وجاء رجلٌ إلىٰ ابن عباس فقال له: أوصني؛ فقال: «أوصيك بتوحيد الله، والعمل له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ فإنَّ كل خير أنت آتيه بعد ذلك مقبول، وإلىٰ الله مرفوع، إنك لن تزداد من يومك إلا قربًا، فصلِّ صلاة مودع، وأصبح في الدنيا كأنك غريب مسافر، فإنك من أهل القبور، وابك علىٰ ذنبك، وتب من خطيئتك، ولتكن

الدنيا عليك أهونَ من شسع نعلك، فكأنك قد فارقتها وصرت إلىٰ عدل الله، ولن تنتفع بما خلفت، ولن ينفعك إلا عملك».

وقال بعضهم: أوصىٰ ابن عباس بكلمات خير من الخيل الدهم، قال: لا تكلمَنَّ فيما لا يعنيك حتىٰ ترىٰ له موضعًا، ولا تمارِيَنَّ سفيهًا ولا حليمًا، فإنَّ الحليمَ يغلبك والسفيهَ يزدريك، ولا تذكرنَّ أخاك إذا توارىٰ عنك إلا بمثل الذي تحب أن يتكلم فيك إذا تواريت عنه، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجزي بالإحسان مأخوذ بالإجرام.

وخطب عبد الملك يومًا خطبة بليغة، ثم قطعها وبكىٰ بكاءً شديدًا، ثم قال: «يا رب إن ذنوبي عظيمة، وإن قليل عفوك أعظم منها، اللهم فامح بقليل عفوك عظيمَ ذنوبي»، فبلغ ذلك الحسن فبكىٰ، وقال: لو كان كلام يكتب بالذهب لكتب هذا الكلام.

ولما احتضر عبد الملك بن مروان سمع غسالًا يغسل الثياب، فقال: ما هذا؟ فقالوا: غسال، فقال: يا ليتني كنت غسالًا، أكسب ما أعيش به يومًا بيوم، ولم آل الخلافة، ثم تمثل فقال:

لعمري لقد عمرت في الملك برهةً ... ودانت لي الدنيا بوقع البواترِ
وأعطيت جمَّ المال والحكمَ والنهىٰ ... ودان قماقيم الملوك الجبابرِ
فأضحىٰ الذي قد كان مما يسرني ... كحلم مضىٰ في المزمنات الغوابرِ
فيا ليتني لم أُعنَ بالملك ليلة ... ولم أسع في لذاتِ عيشٍ نواضرِ
وكنت كذي طمرين عاش ببلغة ... من العيش حتىٰ زار ضيقَ المقابرِ

قال مطرف بن عبد الله: «إذا استوت سريرة العبد وعلانيته، قال الله: هذا عبدي حقًّا».

وقال: «إنَّ أقبح ما طلبت به الدنيا عمل الآخرة».

وقال طلق بن حبيب: «إنَّ حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد، وإن نِعمَه أكثر من أن تُحصىٰ، ولكن أصبِحوا تائبين، وأمسوا تائبين».

وقال يزيد بن حازم: «كان سليمان بن عبد الملك يخطبنا كل جمعة لا يدع أن يقول في خطبته: وإنما أهل الدنيا علىٰ رحيل، لم تمض بهم نية، ولم تطمئن لهم دارٌ حتىٰ يأتي وعد الله وهم علىٰ ذلك، كذلك لا يدوم نعيمها، ولا تؤمَن فجائعها، ولا يُتَّقىٰ مِن شرِّ أهلها، ثم يتلو: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧]».

وحج سليمان بن عبد الملك، فلما رأىٰ الناس بالموسم، قال لعمر بن عبد العزيز: ألا ترىٰ هذا الخلق الذي لا يحصي عددهم إلا الله، ولا يسع رزقهم غيره.

فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء رعيتك اليوم وهم غدًا خصماؤك، فبكىٰ سليمان بكاء شديدًا، ثم قال: بالله أستعين.

كان عمر بن عبد العزيز في سفر مع سليمان بن عبد الملك، فأصابتهم السماء برعد وبرق وظلمة وريح شديدة حتىٰ فزعوا لذلك، وجعل عمر بن عبد العزيز يضحك، فقال له سليمان: ما أضحكك يا عمر، أما ترىٰ ما نحن فيه؟ فقال له: يا أمير المؤمنين، هذه آثار رحمته فيها شدائد ما ترىٰ، فكيف بآثار سخطه وغضبه؟!

وقيل لعمر بن عبد العزيز: ما كان بدء إنابتك؟ قال: أردت ضرب غلام لي فقال: اذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة.

ولما انتهىٰ عمر بن عبد العزيز من جنازة سليمان بن عبد الملك وقد بايعه الناس بالخلافة واستقرت له، رجع وهو مغتم مهموم، فقال له مولاه: ما لك هكذا مغتمًّا مهمومًا، وليس هذا بوقت هذا؟ فقال: ويحك، وما لي لا أغتم، وليس أحد من أهل المشارق والمغارب من هذه الأمة إلا وهو يطالبني بحقه أن أؤديه إليه، كتب إليَّ في ذلك أو لم يكتب، طلبه مني أو لم يطلب.

ثم إنه خيَّر امرأته فاطمة بين أن تقيم معه علىٰ أنه لا فراغ له إليها، وبين أن تلحق بأهلها، فبكت وبكىٰ جواريها لبكائها، فسُمِعت ضجة في داره، ثم اختارت رَحِمَهَاٱللَّهُ مقامها معه علىٰ كل حال.

وقد قيل: إنَّ رجلًا قال له: تفرَّغ لنا يا أمير المؤمنين، فأنشأ يقول:

قد جاء شغل شاغل ... وعدلت عن طرق السلامهْ

ذهب الفراغ فلا فراغَ ... لنا إلىٰ يوم القيامهْ

ثم إنه صعد المنبر، فكان أول خطبة خطبها أن حمد الله، وأثنىٰ عليه، ثم قال: أيها الناس، من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فليفارقنا، يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا علىٰ الخير بجهده، ويدلنا من الخير علىٰ ما لا نهتدي إليه، ولا يغتابنَّ عندنا الرعية، ولا يعرضنَّ فيما لا يعنيه.

فانقشع عنه الشعراء والخطباء، وثبت معه الفقهاء والزهاد، وقالوا: ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتىٰ يخالف فعله قوله.

ولما ولي عمر بن عبد العزيز بعث إلىٰ محمد بن كعب، ورجاء بن حيوة، وسالم بن عبد الله، فقال لهم: قد ترون ما ابتليت به وما قد نزل بي، فما عندكم؟

فقال محمد بن كعب: اجعل الشيخ أبًا، والشاب أخًا، والصغير ولدًا، فبر أباك، وصل أخاك، وتعطَّف علىٰ ولدك.

وقال رجاء: ارضَ للناس ما ترضىٰ لنفسك، وما كرهت أن يؤتىٰ إليك فلا تأته إليهم، واعلم أنك لست أول خليفة تموت.

وقال سالم: اجعل الأمر يومًا واحدًا، صم فيه عن شهوات الدنيا، واجعل آخر فطرك فيه الموت، فكأن قدِ.

فقال عمر: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وخطب عمر بن عبد العزيز يومًا الناس فقال -وقد خنقته العَبرة-: «أيها الناس،

أصلحوا آخرتكم تصلح لكم دنياكم، وأصلحوا سرائركم تصلح لكم علانيتكم، واللهِ إنَّ عبدًا ليس بينه وبين آدم أب إلا قد مات، إنه لمعرق له في الموت، كم من عامر عما قليل يخرب، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن، فأحسنوا -رحمكم الله- من الدنيا الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة، بينما ابن آدم في الدنيا ينافس فيها قرير العين قانعًا، إذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حتفه، فسلبه آثاره ودنياه، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه، إن الدنيا لا تسر بقَدر ما تضر، تسر قليلًا، وتُحزِن طويلًا».

وقال عمرو بن مهاجر: لما استخلف عمر بن عبد العزيز قام في الناس، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: «أيها الناس، ألا إني لست بخيرٍ من أحد منكم ولكني أثقلكم حملًا، إنه لا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وإني لست بقاض ولكني منفِّذ، وإني لست بمبتدع ولكني متبع، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم، ألا إن الإمام الظالم هو العاصي، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق عَزَّوَجَلَّ».

وخطب عمر بن عبد العزيز الناس فقال: «أما بعد، فإنكم لم تخلقوا عبثًا، ولن تتركوا سدىٰ، وإنَّ لكم معادًا ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله، وحُرم جنة عرضها السموات والأرض.

ألم تعلموا أنه لا يأمن غدًا إلا من حذر اليومَ الآخر وخافه، وباع نافدًا بباقٍ، وقليلًا بكثير، وخوفًا بأمان؟

ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيكون مَن بعدكم للباقين، كذلك حتىٰ نرد إلىٰ خير الوارثين؟

ثم إنكم في كل يوم تشيِّعون غاديًا ورائحًا إلىٰ الله، حتىٰ تغيِّبوه في صدعٍ من الأرض غير موسد ولا ممهد، قد فارق الأحباب، وباشر التراب، وواجه الحساب، فهو مرتهن بعمله، غنيٌّ عما ترك، فقير إلىٰ ما قدَّم، فاتقوا الله قبل انقضاء مراقبته ونزول الموت بكم.

أما إني أقول هذا، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي،

ولكنها سنن من الله عادلة، أمر فيها بطاعته، ونهىٰ فيها عن معصيته، وأستغفر الله.

ثم وضع كمه علىٰ وجهه فبكىٰ وأبكىٰ من حوله، وما عاد لمجلسه حتىٰ مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ».

قال أبو نواس:

نمــوت ونبلـــىٰ غيــر أن ذنوبــنا ... إذا نحـن متـنا لا تمـوت ولا تبلَـىٰ
ألا رُبَّ ذي عينـــين لا تـــنفعانِه ... وهـل تـنفع العيـنان مَـن قلـبه أعمَـىٰ

وذكروا أن أبا نواس لما أراد الإحرام بالحج قال:

إلهــــنا مـــا أعـــدلكْ ... مليك كـلِّ مــن ملــكْ
لبــيك قــد لبــيت لــكْ ... لبــيك إن الحمـــد لـــكْ
والملـــك لا شــريك لـــكْ ... مـــا خـــاب عـــبد ســـألكْ
لبــيك إن الحمـــد لـــكْ ... والملـــك لا شـــريك لـــكْ
أنـــت لـــه حـــيث ســلكْ ... لـــولاك يـــا ربـــي هلـــكْ
لبــيك إن الحمـــد لـــكْ ... والملـــك لا شـــريك لـــكْ
واللـــيل لمـــا أن حلـــكْ ... والـــسابحات فـــي الفلـــكْ
علـــىٰ مجـــاري المنـــسلكْ ... كـــل نبـــيٍّ وملـــكْ
وكـــل مـــن أهـــلَّ لـــكْ ... ســـبح أو صـــلىٰ فلـــكْ
لبــيك إن الحمـــد لـــكْ ... والملـــك لا شـــريك لـــكْ
يـــا مخطـــئًا مـــا أغفلـــكْ ... عجـــل وبـــادر أملـــكْ
واخـــتم بخيـــر عملـــكْ ... لبـــيك إنَّ الحمـــد لـــكْ
والـمـلـك لا شــريـك لــكْ

وقال الشافعي: دخلنا علىٰ أبي نواس في اليوم الذي مات فيه وهو يجود بنفسه، فقلنا: ما أعددت لهذا اليوم؟ فأنشأ يقول:

تعاظمني ذنبي فلما قرنتُهُ بعفوك ربي كان عفوك أعظمَا
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرمَا
ولولاك لم يصمد لإبليس عابدٌ فكيف وقد أغوىٰ صفيك آدمَا

وقيل: إنه لما مات أبو نواس وجدوا عند رأسه رقعة مكتوبًا فيها بخطه:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظمُ
إن كان لا يرجوك إلا محسن فمن الذي يدعو ويرجو المجرمُ
أدعوك رب كما أمرت تضرعًا فإذا رددت يدي فمن ذا يرحمُ
ما لي إليك وسيلة إلا الرجا وجميل عفوك ثم أني مسلمُ

قال أبو العتاهية: قلت في الزهد عشرين ألف بيت، ووددت أن لي مكانها الأبيات الثلاثة التي قالها أبو نواس وكانت مكتوبة علىٰ قبره:

يا نواسيَّ توقرْ وتعزَّ وتصبرْ
إن يكن ساءك دهرٌ فلَما سرك أكثرْ
يا كبير الذنب عفو اللَّه من ذنبك أكبرْ

وكان آخر ما تكلم به الرشيد حين احتضر: «اللهم انفعنا بالإحسان، واغفر لنا الإساءة، يا من لا يموت، ارحم من يموت».

وقال بعضهم:

إني بطوس مقيمُ ما لي بطوس حميمُ
أرجو إلهي لما بي فإنه بي رحيمُ

لقـــد أتانـــي بطـــوس قـــضاؤه المحـــتومُ
ولـــيس إلا رضـــائي والـــصبر والتـــسليمُ

قال الأصمعي: «استدعاني الرشيد يومًا، وقد زخرف منازله، وأكثر الطعام والشراب واللذات فيها، ثم استدعىٰ أبا العتاهية، فقال له: صف لنا ما نحن فيه من العيش والنعيم، فأنشأ يقول:

عــش مــا بــدا لــك سـالمًا فـــي ظـــل شـــاهقة القـــصورْ
يـــسعىٰ علـــيك بمـــا اشـــتهيت لـــدىٰ الـــرواح وفـــي الـــبكورْ
فـــإذا الـــنفوس تقعقعـــت عـــن ضـــيق حـــشرجة الـــصدورْ
فهـــناك تعلـــم موقـــنًا مـــا كـــنت إلا فـــي غـــرورْ

قال: فبكىٰ الرشيد بكاءً شديدًا، فقال الفضل بن يحيىٰ: دعاك أمير المؤمنين لتسره فأحزنتَه؟ فقال له الرشيد: دعه، فإنه رآنا في عمىٰ فكره أن يزيدنا عمىٰ.

وقال الرشيد لأبي العتاهية: عظني بأبيات من الشعر وأوجز، فأنشأ يقول:

لا تـأمن الموت في طرف ولا نفسٍ ولـو تمـنعت بالحجـاب والحـرسِ
واعلـم بـأن سـهام المـوت قاصـدة لكـــل مـــدَّرعٍ مـــنها ومتـــرسِ
تـرجو الـنجاة ولـم تـسلك مـسالكها إن الـسفينة لا تجـري علـىٰ اليـبسِ

فخر الرشيد مغشيًّا عليه».

وحبس الرشيد مرة أبا العتاهية، وأرصد عليه من يأتيه بما يقول، فكتب مرة علىٰ جدار الحبس:

أمـــا واللَّـــه إن الظلـــم لـــؤم ومـــا زال المـــسيء هـــو الظلـــومُ
إلـــىٰ ديـــان يـــوم الـــدين نمـــضي وعـــند الله تجـــتمع الخـــصومُ

قال: فاستدعاه واستجعله في حل، ووهبه ألف دينار، وأطلقه.

وقال الأصمعي: «كنت مع الرشيد في الحج، فمررنا بوادٍ، فإذا علىٰ شفيره امرأة صبية حسناء بين يديها قصعة، وهي تسأل فيها، وتقول:

طحطَحَتنا طحاطحُ الأعوامِ ورمتنا حوادث الأيامِ

فأتيناكمُ نمد أكفًّا لفضالات زادكم والطعامِ

فاطلبوا الأجر والمثوبة فينا أيها الزائرون بيت الحرامِ

من رآني فقد رآني ورحلي فارحموا غربتي وذل مقامي

قال الأصمعي: فذهبتُ إلىٰ الرشيد فأخبرته بأمرها، فجاء بنفسه حتىٰ وقف عليها، فسمعها فرحمها وبكىٰ، وأمر مسرورًا الخادم أن يملأ قصعتها ذهبًا، فملأها حتىٰ جعلت تفيض يمينًا وشمالًا».

وقال ابن السماك يومًا لهارون الرشيد: «يا أمير المؤمنين، إنك تموت وحدك، وتقبر وحدك، فاحذر المقام بين يدي الجبار، والوقوف بين الجنة والنار، حين تزل القدم، ويقع الندم، فلا توبة تنال، ولا عثرة تقال، ولا يقبل فداء بمال. فجعل الرشيد يبكي حتىٰ علا صوته، فقال يحيىٰ بن خالد له: يا ابن السماك، لقد شققت علىٰ أمير المؤمنين الليلة، فقام فخرج من عنده، وهو يبكي».

وقال ابن السماك يومًا لهارون الرشيد: «يا أمير المؤمنين، إن الله لم يجعل أحدًا من هؤلاء فوقك، فاجتهد ألا يكون فيهم أحد أطوع إلىٰ الله منك، فقال: لئن كنت أقصرت في الكلام لقد أبلغت في الموعظة».

ودخل ابن السماك يومًا علىٰ هارون الرشيد فاستسقىٰ الرشيد فأُتي بقُلةٍ فيها ماء مبرد، فقال لابن السماك: عظني، فقال: يا أمير المؤمنين، بكم كنت مشتريًا هذه الشربة لو مُنعتها؟ فقال: بنصف ملكي، فقال: اشرب هنيئًا، فلما شرب قال: أرأيت لو منعت خروجها من بدنك، بكم كنت تشتري ذلك؟ قال: بملكي كله، فقال: يا أمير

المؤمنين، إنَّ مُلكًا قيمته شربة ماء لخليق ألا يتنافس فيه، فبكىٰ هارون.

وقال إبراهيم بن المهدي: «كنت يومًا عند الرشيد فدعا طباخه، فقال: أعندك في الطعام لحم جزور؟ قال: نعم، ألوان منه، فقال: أحضره مع الطعام، فلما وُضِع بين يديه أخذ لقمة منه فوضعها في فيه، فضحك جعفر البرمكي، فترك الرشيد مضغ اللقمة وأقبل عليه، فقال: مم تضحك؟ قال: لا شيء يا أمير المؤمنين، ذكرت كلامًا دار بيني وبين جاريتي البارحة، فقال: أخبرني به، قال: حتىٰ تأكل هذه اللقمة، فألقاها من فيه، وقال: والله لتخبرنّي، فقال: يا أمير المؤمنين، بكم تقول إنَّ هذا الطعام من لحم الجزور يقوَّم عليك؟ قال: بأربعة دراهم، قال: لا واللهِ يا أمير المؤمنين، بل بأربعمائة ألف درهم.

قال: وكيف ذلك؟! قال: إنك طلبت من طباخك هذا لحم جزور قبل هذا اليوم بمدة طويلة فلم يوجد عنده، فقلت: لا يخلونَّ المطبخ من لحم جزور، فنحن ننحر كل يوم جزورًا، لأنا لا نشتري لحم الجزور من السوق، فصرف في لحم الجزور من ذلك اليوم إلىٰ هذا اليوم أربعمائة ألف درهم، ولم يطلب أمير المؤمنين لحم الجزور إلا هذا اليوم، قال جعفر: فضحكت؛ لأن أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك هذه اللقمة، فهي علىٰ أمير المؤمنين بأربعمائة ألف.

فبكىٰ الرشيد بكاءً شديدًا، وأقبل علىٰ نفسه يوبّخها، ويقول: هلكتَ والله يا هارون، وأمر برفع السماط من بين يديه، ولم يزل يبكي حتىٰ آذنه المؤذنون بصلاة الظهر، فخرج فصلىٰ بالناس ثم رجع يبكي، وقد أمر بألفي ألف تصرف إلىٰ فقراء الحرمين، في كل حرم ألف ألف صدقة، وأمر بألفي ألف يتصدق بها في جانبي بغداد الغربي والشرقي، وبألف ألف يتصدق بها علىٰ فقراء الكوفة والبصرة، ثم خرج لصلاة العصر، ثم رجع يبكي حتىٰ صلىٰ المغرب ثم رجع، فدخل عليه أبو يوسف القاضي، فقال: ما شأنك يا أمير المؤمنين باكيًا في هذا اليوم؟ فذكر أمره، وما صرف من المال

الجزيل لأجل شهوته، وإنما ناله منها لقمة، فقال أبو يوسف لجعفر: هل كان ما يذبحونه من الجزور يفسد، أو يأكله الناس؟ قال: بل يأكله الناس، فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من المال الذي أكله المسلمون في الأيام الماضية، وبما يسره الله عليك من الصدقة في هذا اليوم علىٰ الفقراء، وبما رزقك الله من خشيته وخوفه في هذا اليوم، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦].

ولما أدرك عمر بن عبد العزيز الموت، قيل له: هؤلاء بنوك وكانوا اثني عشر ألا توصي لهم بشيء، فإنهم فقراء؟ فقال: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦]، والله لا أعطيهم حق أحد، وهم بين رجلين: إما صالح فالله يتولىٰ الصالحين، وإما غير صالح فما كنت لأعينه علىٰ فسقه، ولا أبالي في أي وادٍ هلك، أفأدع له ما يستعين به علىٰ معصية الله فأكون شريكه فيما يعمل بعد الموت؟ ما كنت لأفعل.

ثم استدعىٰ بأولاده فودَّعهم وعزاهم بهذا، وأوصاهم بهذا الكلام، ثم قال: انصرفوا عصمكم الله، وأحسن الخلافة عليكم.

قال بعضهم: فلقد رأينا بعض أولاد عمر بن عبد العزيز يحمل علىٰ ثمانين فرسًا في سبيل الله، وكان بعض أولاد سليمان بن عبد الملك مع كثرة ما ترك لهم من الأموال يتعاطىٰ ويسأل من أولاد عمر بن عبد العزيز، لأن عمر وكل ولده إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وسليمان وغيره إنما يكلون أولادهم إلىٰ ما يدعون لهم من الأموال الفانية، فيضيعون وتذهب أموالهم في شهوات أولادهم.

ولما احتضر عمر بن عبد العزيز قال: أجلسوني، فأجلسوه، فقال: إلهي، أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا الله، ثم قال لأهله: اخرجوا عني، فخرجوا وجلس علىٰ الباب مسلمة بن عبد الملك وأخته فاطمة، فسمعوه يقول: مرحبًا بهذه الوجوه التي ليست بوجوه إنس ولا جان، ثم قرأ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ

﴿ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]، ثم هدأ الصوت، فدخلوا عليه فوجدوه قد قُبض.

قال محارب بن دثار يرثي عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لو أعظم الموت خلقًا أن يواقعه ... لعدله لم يصبك الموت يا عمرُ
كم من شريعة عدل قد نعشت لهم ... كادت تموت وأخرىٰ منك تنتظرُ
يا لهف نفسي ولهف الواجدين معي ... علىٰ العدول التي تغتالها الحفرُ
ثلاثة ما رأت عيني لهم شَبهًا ... تضم أعظمهم في المسجد الحفرُ
وأنت تتبعهم لم تأل مجتهدًا ... سُقيًا لها سنن بالحق تفتقرُ
لو كنت أملك والأقدار غالبة ... تأتي رواحًا وتبيانًا وتبتكرُ
صرفت عن عمر الخيرات مصرعه ... بدير سمعان لكن يغلب القدرُ

وكان عمر بن عبد العزيز يكتب الموعظة إلىٰ العامل من عماله فينخلع بها قلبه، وربما عزل بعضهم نفسه عن العمالة من شدة ما تقع موعظته منه، وذلك أن الموعظة إذا خرجت من قلب الواعظ دخلت قلب الموعوظ.

كتب مرة إلىٰ بعض عماله: إني أذكرك ليلة تمخَّض بالساعة فصباحها القيامة، فيا لها من ليلة ويا له من صباح، وكان يومًا علىٰ الكافرين عسيرًا.

وكتب إلىٰ آخر: أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد بك، وانقطاع الرجاء منك.

فخلع هذا العامل نفسه من العمالة، وقدم علىٰ عمر، فقال له: ما لك؟ فقال: خلعت قلبي بكتابك يا أمير المؤمنين، والله لا أعود إلىٰ ولاية أبدًا.

وقال له رجل: جزاك الله عن الإسلام خيرًا، فقال: بل جزىٰ الله الإسلام عني خيرًا.

وكان يكثر أن يقول: «اللهم سلِّم سلِّم»، **وكان يقول:** «اللهم أصلح من كان في صلاحه صلاح لأمة محمد ﷺ، وأهلك من كان في هلاكه صلاح أمة محمد ﷺ».

وقال: «أفضل العبادة: أداء الفرائض واجتناب المحارم».

وقال: «لو أن المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهىٰ عن المنكر حتىٰ يحكِّم أمر نفسه، لذهب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولقلَّ الواعظون والساعون لله بالنصيحة».

وقال: «الدنيا عدوة أولياء الله وأعداء الله، أما الأولياء فغَمَّتهم، وأما الأعداء فغرتهم».

ونظر عمر بن عبد العزيز وهو في جنازة إلىٰ قوم قد تلثموا من الغبار والشمس، وانحازوا إلىٰ الظل، فبكىٰ وأنشد:

من كان حين تصيب الشمس جبهته ... أو الغبار يخاف الشين والشعثَا
ويألف الظل كي تبقىٰ بشاشته ... فسوف يسكن يومًا راغمًا جدثَا
في قعر مظلمة غبراء موحشة ... يطيل في قعرها تحت الثرىٰ لبثَا
تجهزي بجهاز تبلغين به ... يا نفس قبل الردىٰ لم تخلقي عبثَا

وقال المفضل بن غسان: كان عمر بن عبد العزيز لا يجف فوه من قول القائل:

ولا خير في عيش امرئ لم يكن له ... من الله في دار القرار نصيبُ
فإنْ تُعجِب الدنيا أناسًا فإنها ... متاعٌ قليل والزوال قريبُ

وقال عبد الله بن المبارك: كان عمر بن عبد العزيز يقول:

تُسرُّ بما يبلىٰ وتفرح بالمنىٰ ... كما اغتر باللذات في النوم حالمُ
نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردىٰ لك لازمُ

وسعيك فيما سوف تكره غبه كذلك في الدنيا تعيش البهائمُ

وقال مقاتل بن حيان: «صليت وراء عمر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات:٢٤]، فجعل يكررها وما يستطيع أن يجاوزها».

وقالت امرأته فاطمة: «ما رأيت أحدًا أكثر صلاة وصيامًا منه، ولا أحدًا أشد خوفًا من ربه منه، كان يصلي العشاء ثم يجلس يبكي حتىٰ تغلبه عينه، ثم ينتبه فلا يزال يبكي حتىٰ تغلبه عينه، ولقد كان يكون معي في الفراش فيذكر الشيء من أمر الآخرة، فينتفض كما ينتفض العصفور في الماء ويجلس يبكي، فأطرح عليه اللحاف رحمة له، وأنا أقول: يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين، فوالله ما رأينا سرورًا منذ دخلنا فيها».

وبلغ عمر بن عبد العزيز أن رجلًا من أصحابه توفي، فجاء إلىٰ أهله ليعزيهم فيه، فصرخوا في وجهه بالبكاء عليه، فقال: مه، إن صاحبكم لم يكن يرزقكم، وإنَّ الذي يرزقكم حي لا يموت، وإنَّ صاحبكم هذا لم يسد شيئًا من حفركم، وإنما سد حفرة نفسه، وإنَّ لكل امرئٍ منكم حفرة لا بدَّ واللهِ أن يسدها، إن الله عَزَّوَجَلَّ لما خلق الدنيا حكم عليها بالخراب، وعلىٰ أهلها بالفناء، وما امتلأت دار فرحًا إلا امتلأت عبرة، ولا اجتمعوا إلا تفرقوا، حتىٰ يكون الله هو الذي يرث الأرض ومَن عليها، فمن كان منكم باكيًا فليبك علىٰ نفسه، فإن الذي صار إليه صاحبكم، كلكم يصير إليه غدًا».

وقال مالك بن دينار: «يقولون: مالِكٌ زاهد، أي زهد عندي؟! إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز، أتته الدنيا فاغرةً فاها فتركها».

وقال عمر بن عبد العزيز: «من علم أن كلامه من عمله أقل منه إلا فيما ينفعه، ومن أكثر ذكر الموت اجتزأ من الدنيا باليسير».

وكتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ بعض عمَّاله، فقال: «عليك بتقوىٰ الله؛ فإنها هي التي لا يُقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثاب إلا عليها، وإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل».

وكتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ بعض عماله: «إذا دعتك قدرتك علىٰ الناس إلىٰ ظلمهم، فاذكر قدرة الله عليك، ونفاد ما تأتي إليهم، وبقاء ما يأتون إليك».

وقيل لعبد الملك: أي الرجال أفضل؟ قال: من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وترك النصرة عن قوة.

وبلغ عمر بن عبد العزيز أن الجراح بن عبد الله الحكمي كان يأخذ الجزية ممن أسلم من الكفار، ويقول: أنتم إنما تسلمون فرارًا منها، فامتنعوا من الإسلام وثبتوا علىٰ دينهم وأدَّوا الجزية.

فكتب إليه عمر: إن الله إنما بعث محمدًا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داعيًا ولم يبعثه جابيًا، وعزله وولىٰ بدله عبد الرحمن بن نعيم القشيري، وكتب إليه:

أما بعد، فكن عبدًا لله ناصحًا لله في عباده، ولا تأخذك في الله لومة لائم، فإنَّ الله أولىٰ بك من الناس وحقه عليك أعظم، ولا تولين شيئًا من أمور المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم، والتوفير عليهم، وأداء الأمانة فيما استرعي، وإياك أن يكون ميلك ميلًا إلىٰ غير الحق؛ فإنَّ الله لا تخفىٰ عليه خافية، ولا تذهبن عن الله مذهبًا؛ فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

قيل لسعيد بن المسيب: إن أحد الولاة يقول: قد صرت لا أفرح بالحسنة أعملها، ولا أحزن علىٰ السيئة أرتكبها، فقال سعيد: الآن تكامل موت قلبه.

وقال أبو إدريس الخولاني: «قلب نقي في ثياب دنسة، خير من قلب دنس في ثياب نقية».

ولما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة قال: «واللهِ لوددت أني لم أكن شيئًا مذكورًا، ولوددت أن أكون هذا الماء الجاري، أو نباتة بأرض الحجاز».

وقال: «ائتوني بكفني الذي تكفنوني فيه، فجعل يقول: أفٍّ لكِ ما أقصر طويلَك، وأقل كثيرَك».

ولما بويع عمر بن عبد العزيز بالخلافة يوم مات سليمان بن عبد الملك عن عهد منه إليه من غير علم من عمر، ظهرت عليه مخايل الورع والدين والتقشف والصيانة والنزاهة من أول حركة بدت منه، حيث أعرض عن ركوب مراكب الخلافة، وهي الخيول الحسان الجياد المعدة لها، والاجتزاء بمركوبه الذي كان يركبه، وسكنىٰ منزله رغبة عن منزل الخلافة، وقد خطب الناس فقال: أيها الناس، إن لي نفسًا تواقة لا تُعطىٰ شيئًا إلا تاقت إلىٰ ما هو أعلىٰ منه، وإني لما أُعطيت الخلافة تاقت نفسي إلىٰ ما هو أعلىٰ منها وهي الجنة، فأعينوني عليها يرحمكم الله.

وقال عليُّ بن موسىٰ بن جعفر:

كلنا يأمل مدًّا في الأجل ... والمنايا هنَّ آفات الأملْ
لا تغرنْك أباطيل المنىٰ ... والزم القصد ودع عنك العللْ
إنما الدنيا كظلٍّ زائلٍ ... حلَّ فيه راكبٌ ثم ارتحلْ

قال أبو سليمان الداراني: «أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ، ومفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع».

وقال أبو سليمان الداراني: «قال زاهد لزاهد: أوصني، فقال: لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك، قال: زدني، قال: ما عندي زيادة».

وقال أبو سليمان الداراني: «من أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه، والله أكرم من أن يعذب قلبًا بشهوة تُرِكت له».

وقال: «إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزحمها، وإذا كانت الدنيا في القلب لم تزحمها الآخرة، إن الآخرة كريمة والدنيا لئيمة».

وقال: «إن اللص لا يجيء إلىٰ خربة ينقب حيطانها وهو قادر علىٰ الدخول إليها من أيِّ مكان شاء، وإنما يجيء إلىٰ بيت معمور، كذلك إبليس لا يجيء إلا إلىٰ كل

قلبٍ عامر ليستنزله عن شيء».

وقال: «إن قومًا طلبوا الغنىٰ فحسبوا أنه في جمع المال؛ ألا وإنما الغنىٰ في القناعة، وطلبوا الراحة في الكثرة؛ وإنما الراحة في القلة، وطلبوا الكرامة من الخلق؛ ألا وهي في التقوىٰ، وطلبوا النعمة في اللباس الرقيق الليِّن، وفي طعام طيب؛ والنعمة في الإسلام والستر والعافية».

وقال: «أهل الطاعة في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، وربما استقبلني الفرح في جوف الليل، وربما رأيت القلب يضحك ضحكًا».

وقال إبراهيم بن المهدي:

ذهبت من الدنيا وقد ذهبَت مني ... لوىٰ الدهر بي عنها وولىٰ بها عني
فإن أبك نفسي أبك نفسًا عزيزة ... وإن أحتقرْها أحتقرها علىٰ ضنِّ
وإني وإن كنت المسيءُ بعينه ... بربي تعالىٰ جدُّه حسن الظنِّ
عدوت علىٰ نفسي فعاد بعفوه ... عليَّ فعاد العفوُ منًّا علىٰ منِّ

وقال أبو جعفر الكاتب:

قد يُرزَق المرء لا من حسن حيلته ... ويصرَف الرزق عن ذي الحيلة الداهي
ما مسني من غنىٰ يومًا ولا عدمٍ ... إلا وقولي عليه الحمد للَّهِ

وقال المأمون: ألجأني الزحام يومًا وأنا في الموكب حتىٰ خالطت السوقة، فرأيت رجلًا في دكان عليه أثواب خلقة، فنظر إليَّ نظر من يرحمني أو يتعجب من أمري، فقال:

أرىٰ كل مغرور تمنيه نفسه ... إذا ما مضىٰ عام سلامة قابلِ

ودخلت أم الخليفة المنتصر عليه، وهو في مرضه الذي مات فيه، فقالت له: كيف حالك؟ فقال: ذهبَت مني الدنيا والآخرة، ولما أحيط به وأيس من الحياة، أنشد قائلًا:

فما فرحت نفسي بدنيا أصبتها ... ولكن إلىٰ الرب الكريم أصيرُ

وقال الأمير العباسي أبو أحمد بن المتوكل:

لِأمر المنايا علينا طريقْ ... وللدهر فينا اتساع وضيقْ
فأيامنا عبر للأنام ... فمنها البكور ومنها الطروقْ
ومنها هنات تشيب الوليد ... ويخذل فيها الصديق الصديقْ
وسور عريض له ذروة ... تفوت العيون وبحر عميقْ
قتال مبيد وسيف عتيد ... وخوف شديد وحصن وثيقْ
وطول صياح لداعي الصباح ... السلاحَ السلاحَ فما يستفيقْ
فهذا طريح وهذا جريح ... وهذا حريق وهذا غريقْ
وهذا قتيل وهذا تليل ... وآخر يشدخه المنجنيقْ
هناك اغتصاب وثَمَّ انتهاب ... ودور خراب وكانت تروقْ
إذا ما سمونا إلىٰ مسلك ... وجدناه قد سد عنا الطريقْ
فبالله نبلغ ما نرتجيه ... وبالله ندفع ما لا نطيقْ

وقال بعضهم:

كم مريض قد عاش من بعد يأس ... بعد موت الطبيب والعوادِ
قد يصاد القطا فينجو سليمًا ... ويحل القضاء بالصيادِ

وفي سنة أربع وثمانين ومائتين ظهرت بمصر ظلمة شديدة وحمرة في الأفق، حتىٰ كان الرجل ينظر إلىٰ وجه صاحبه فيراه أحمر اللون جدًّا، وكذلك الجدران، فمكثوا كذلك من العصر إلىٰ الليل ثم خرجوا إلىٰ الصحراء يدعون الله ويتضرعون حتىٰ كشف عنهم.

ولمَّا حضرت الخليفة المعتضد الوفاة أنشد لنفسه:

تمتع من الدنيا فإنك لا تبقىٰ وخذ صفوها ما إن صفت ودع الرنقَا
ولا تأمنن الدهر إني أمنته فلم يُبقِ لي حالًا ولم يرعَ لي حقًّا
قتلتُ صناديدَ الرجال فلم أدع عدوًّا ولم أُمهل علىٰ خلق خلقَا
وأخليت دار الملك من كل نازع فشردتهم غربًا ومزقتهم شنقَا
فلما بلغت النجم عزًّا ورفعة وصارت رقاب الخلق أجمع لي رقًّا
رماني الردىٰ سهمًا فأخمد جمرتي فهأنذا في حفرتي عاجلًا ألقَىٰ
ولم يغن عني ما جمعتُ ولم أجد لذي ملك الأحياء في حينها رفقَا
وأفسدت دنياي وديني سفاهة فمن ذا الذي مني بمصرعه أشقَىٰ
فيا ليت شعري بعد موتي ما ألقىٰ إلىٰ نعمة لله أم ناره ألقَىٰ

وقال بعض السلف: «ما رُئِي الأوزاعي ضاحكًا مقهقهًا قط، ولقد كان يعظ الناس فلا يبقىٰ أحد في مجلسه إلا بكىٰ بعينه أو بقلبه، وما رأيناه يبكي في مجلسه قط».

* * *

حسن الخاتمة

إن من توفيق الله عَزَّوَجَلَّ للعبد: أن يهديه إلىٰ الحق ويثبته عليه، ويعينه علىٰ العمل بطاعته حتىٰ يأتيه أجله وهو علىٰ ذلك، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]؛ أي: الموت.

ومن أعظم السعادة: أن يوفق اللهُ سبحانه العبدَ للتوبة النصوح قبل موته، ثم يحسن خاتمته، فيقبضه علىٰ عمل صالح يكون له شفيعًا بين يدي الله تعالىٰ.

قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لا تعجبوا بعمل أحد حتىٰ تنظروا بما يُختم له، فإن العامل يعمل زمانًا من دهره -أو: برهة من دهره- بعملٍ صالحٍ لو مات عليه دخل الجنة، ثم يتحول فيعمل عملًا سيئًا، وإن العبد ليعمل زمانًا من دهره بعمل سيءٍ لو مات عليه دخل النار، ثم يتحول فيعمل عملًا صالحًا، وإذا أراد اللهُ بعبد خيرًا استعمله قبل موته فوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه**»(١).

ولذا فالواجب علىٰ المسلم: أن يسأل الله دائمًا أن يحسن خاتمته، ويستعيذ بالله من سوء الخاتمة؛ فإنه ما أضجَّ مضاجع الصالحين مثل الخوف من سوء الخاتمة، وليحذر العاقل من الأمن من مكر الله عَزَّوَجَلَّ -حين يكون مقيمًا علىٰ الذنوب- أن يسلبه الله سبحانه دينه وإيمانه في وقت يكون أحوج ما يكون إليه.

قال أبو الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «والله ما من أحد يأمن أن يُسلب إيمانه إلا سُلبه».

وقال بعض السلف: خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة، وهم الذين وصفهم الله تعالىٰ إذ قال: ﴿وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون:٦٠].

---

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٣٤).

ولما احتُضر سفيان جعل يبكي ويجزع، فقيل له: يا أبا عبد الله، عليك بالرجاء فإنَّ عفوَ الله أعظم من ذنوبك، فقال: أَوَعلىٰ ذنوبي أبكي؟ لو علمت أني أموت علىٰ التوحيد لم أبالِ بأن ألقىٰ الله بأمثال الجبال من الخطايا.

فإن كان هذا خوف الصالحين الأتقياء البررة من سوء الخاتمة، مع رسوخ دينهم وقوة إيمانهم، فكيف لا يخاف ذلك الضعفاء المقصرون؟!.

فعلىٰ المسلم الصادق أن يؤدي ما عليه من حقوق الله سبحانه، ومع ذلك لا يغتر بعمله، وعليه أن يلازم الخوف من سوء الخاتمة، فيسأل الله أن يحسن خاتمته، وأن يتجنب الذنوب والمعاصي التي تردي بصاحبها أحوج ما يكون أحوج إلىٰ ربه واستحضار قلبه.

كما ينبغي للعاقل أن يلازم الدعاء بأن يثبت اللهُ قلبَه علىٰ دينه، وأن يصرِّفَ قلبَه علىٰ طاعته، فإن المرء إن لم يُعِنه الله علىٰ طاعته لم يُوَفَّق إلىٰ الظفر بها، ولذا فقد صح عن معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: أخذ بيدي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: «**إني لأحبك يا معاذ، فلا تدع أن تقول في دُبر كل صلاة: ربِّ أعنِّي علىٰ ذكرك وشكرك وحسنِ عبادتك**»[1].

وعلىٰ المرء أن يجتهد في الدعاء أن يحسن إليه خاتمته؛ فقد كان بعض السلف يدعو بحسن الخاتمة، فقيل له: وما حسن الخاتمة؟ قال: أن يقبضني وأنا ساجد.

ومع ما يرىٰ المسلم من الفتن التي تموج كموج البحر، عليه أن يلزم الدعاء مع استشعار الخوف من تغيُّر الحال، بسبب ذنبٍ خفيٍّ أو فتنة جامحة، فقد كان دعاء بعض السلف -مع صلاح قلوبهم وأعمالهم-: اللهم سلِّم سلِّم.

وعليه أن يتفقَّد قلبَه بين الفينة والأخرىٰ، ويدعو الله بصلاحه واستقامته؛ فإنَّ استقامة الأعمال نتيجة لاستقامة القلوب، وليحذر أن يهمل معالجة قلبِه حتىٰ يحول الله بينه وبينه.

---

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «المشكاة» (٩٤٩).

قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٢٤].

قال ابن عباس: «يحول بين المؤمن وبين الكفر، ويحول بين الكافر وبين الإيمان».

وقال غيره: «يحول بين المؤمن وبين سوء الخاتمة، وبين الكافر وبين حسن الخاتمة».

نسأل الله أن يحسن خاتمتنا وأن يرحمنا برحمته.

* * *

هذا آخر كتاب:

«نُزهَة الخَاطِر»

الحَمدُ لله الذي منَّ عليَّ بإتمامه، وأسأله سبحانه أن يجعله مباركًا، وأن يتقَبَّلَه منِّي قبولًا حسنًا، وأن ينفع به عباده المسلمين، وأن يثيبني عليه يوم الدِّين.

وقد كان الفراغ منه في يوم الثالث من شهر صفر عام (١٤٣٢هـ)، ثمَّ أعدت النظر فيه، وزدت عليه في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر جمادىٰ الآخرة عام (١٤٣٦هـ).

وصَلَّىٰ الله وسَلَّم علىٰ نبيِّنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

* * *

فهرس الموضوعات

مقدمة ٥
فضل الأدب ٩
حسن الخُلق ١٥
فضل العلم وأدب أهله ٢٨
مدح الذكاء وذم الحمق ٣٨
التوكل علىٰ الله تعالىٰ ٤٥
فضل القناعة والرضا بما قسم الله تعالىٰ ٥٢
الاستشارة ٥٤
النصيحة ٦١
البيان والفصاحة ٦٧
في الصمت وصون اللسان ٨٧
في تحريم الغيبة ٩٤
تحريم السعي بالنميمة ٩٧
لزوم الصدق ومجانبة الكذب ١٠١
أدب الأخوَّة والمجالسة والمؤانسة ١٠٧
في صنائع المعروف ١١٥

الجود والسخاء والكرم والإيثار ١٢٠
التلطف في السؤال ١٥٣
في ذكر الغنىٰ والافتخار بجمع المال ١٥٨
ذم البخل ١٦٣
آداب الطعام والضيافة ١٦٧
في العفو والصفح ١٧٣
لزوم الحلم وترك الغضب ١٨٢
العتاب ١٩٢
الحياء ١٩٦
التواضع ١٩٧
ذم الكبر والخيلاء ٢٠٠
الفخر والتفاضل في الشرف والسؤدد ٢٠٢
الوفاء ٢١٥
التحذير من الغدر والخيانة ٢٣١
كتمان السرِّ وذم إفشائه ٢٣٨
العداوة والبغضاء وشماتة الأعداء ٢٤٢
الحسد ٢٤٦
الشجاعة ٢٥٠
ذكر أخبار الشجعان ٢٧١

ذم الجبن وذكر أخبار الجبناء ٢٨٨
في المدح والثناء ٢٩٠
شكر النعمة ٢٩٥
المكافأة علىٰ المعروف ٢٩٧
بر الوالدين ٣٠٦
في الأولاد وحقوقهم ٣٠٨
في ذكر الأنساب والعشيرة ٣١٤
العيادة وفضلها ٣١٧
في ذكر الشر والوقاحة والسفاهة ٣١٨
في السرقة والسراق ٣٢١
في الذكاء الموصل إلىٰ بلوغ المقاصد ٣٢٣
فضل العفاف والافتخار به ٣٣٢
الترغيب في النكاح وصفات النساء المحمودة ٣٤٠
في صفة المرأة السوء ٣٥١
في مكر النساء وغدرهن ٣٥٤
في الطلاق وما جاء فيه ٣٥٧
ذم الخمر وتحريمها ٣٦٠
في المزاح ٣٦٤
في السلطان وما يجب علىٰ من صحبه والتحذير من صحبته ٣٦٩

في ذكر الوزراء وصفاتهم ٣٧٩
حجاب الوالي عن الرعية وما فيه من الضرر ٣٨٤
خطر الولاية ٣٨٦
ذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم ٣٩١
في سياسة الرعية وسيرة العمال ٣٩٤
في العدل والإحسان ٤٠٦
الظلم وشؤمه وسوء عواقبه ٤١٥
في الرشوة والدَّيْن ٤٢٢
في العمل والكسب ٤٢٤
حسن الظن ٤٢٦
حسن الجوار ٤٣٢
ذم الحرص والطمع وطول الأمل ٤٣٩
مدح العزلة ٤٤٢
ذهاب الشباب ٤٤٣
في الصبر وتسلية أهل المصائب ٤٤٦
في التأسي عند الشدة ٤٥٤
في التعازي عند المصائب ٤٥٩
التعزية والمواساة ٤٦١
في الشكوىٰ وتقلبات الأيام ٤٦٣

ما جاء في الوداع وحب الوطن والحنين إليه ٤٧٥
في الشوق والحنين.. ٤٧٩
المواعظ ٤٨٩
حسن الخاتمة... ٥٢٥
الفهرس.. ٥٢٩

* * *

عنوان المؤلف

www.salemalajmi.com
Email:alajmi250@hotmail.com
@dr_salem_alajmi